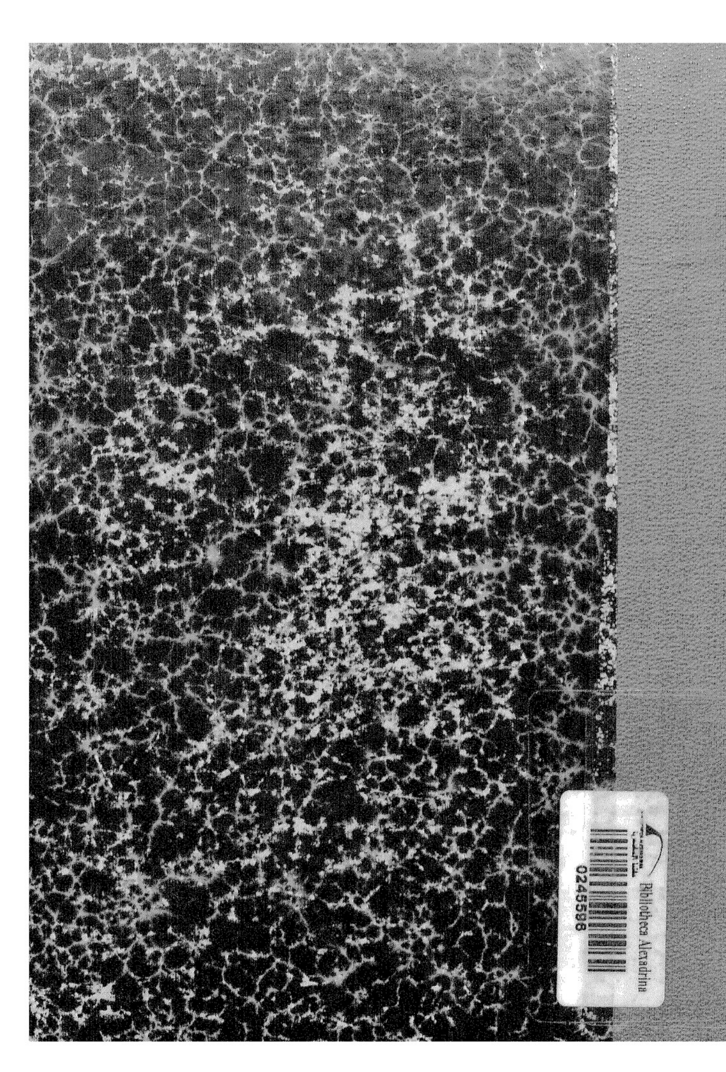

Bibliotheca Alexandrina
0245598


حياة محمد

تعريف بالكتاب

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وُجد الانسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرّف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص. وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل، وظهر له ضعفه وتضاءل غروره. ونبىُّ الاسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود. فقد جدّ العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمّسون نواحى العظمة الانسانيّة فيه، ويتلمّسون مظاهر أسماء الله جلّت قدرته فى عقله وخُلقه وعلمه. ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة؛ وأمامهم جهاد طويل وبُعد شاسع وطريق لا نهاية له.

والنبوّة هبة الله لا تُنال بالكسب؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعدّ لها، والقادر على حملها. الله أعلم حيث يجعل رسالته. ومحمد صلّى الله عليه وسلّم أُعِدّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده، إنسه وجنّه؛ وأُعِدّ لأن يحمل أكمل رسالة وأكمل دين؛ ولأن يختم به الأنبياء والرسل؛ وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتُبَدّل الارض غير الارض والسموات.

عصمة الأنبياء فى التّبليغ وأداء أمانة الوحى قضيّة فرغ العلماء منها: فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوّة واختيارهم لها. وهذا التبليغ نتيجة حتميّة للنبوة لا مردّ لها. غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم؛ فهم عرضة

للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحياناً .

أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلّغ عن ربه ، ولم تبيّن له الطرق التي يتبعها في التبليغ وفي حماية الدعوة ، وتُرك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحي مفصلا قاطعاً في كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي ؛ فقد صار مبلّغاً عن ربه داعياً إليه ، حامياً لتلك الدعوة ولحرية الداعين ، مدافعاً عنهم ؛ وأصبح حاكمَ الأمة الإسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيها ومنظّم جميع الصلات والروابط فيها ، وبينها وبين غيرها من الأمم . وقد أقام العدلَ في ذلك كله ، وألّف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها ؛ وظهرت الحكمة والرصانة وبُعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم في كل ما صدر عنه من قول أو فعل ، وتفجّرت منه ينابيع العلم والمعرفة ، وينابيع البلاغة التي يطأطئ البلغاء رؤوسهم أمامها إجلالا وهيبة ؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله مرضيٌّ عنه من الله ومن المسلمين .

كل هذه النواحي تستحق الدرس والتخصص ، وليس في مقدور شخص واحد أن يفيها حقها ، بل ليس في مكنة شخص واحد أن يوفي على الغاية في ناحية من هذه النواحي .

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله كسائر سير العظماء أضيف إليها ما ليس منها ، إما عن حب وهوًى وحسن قصد ، وإما عن سوء قصد وحقد . غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئاً كثيراً ضمّنه الوحي الإلهي

وضمن حفظه القرآن المطهر ، وشيئاً كثيراً روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدّثين . وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة وأن يستنبط العلماء منها حكَمها وأسرارها ودقائقها ، وأن تحلل التحليل العلمى النزيه ملاحظاً فى ذلك ظروف الوسط وحال البِيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونُظُم وعاد .

وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه (حياة محمد) فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسّر لى أن أطلع على جزء منه قبل إتمام طبعه . والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية غنى بآثاره فيها عن التعريف . وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة ، ومكّنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منهما على حظ عظيم ، وناظرَ وجادَل وهجم ودافع فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفى السياسة وغيرها ، فنضج عقله وكمل علمه واتسع اطلاعه وامتد أفقه ، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوىّ وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته اليه . بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور كتابه وقال فى مقدمته : «لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد ؛ بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة . وقد تأخذ القارىء الدهشة إذا ذكرت مابين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوىّ . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فاذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية مالم يثبت البحث العلمى تسرّب الخطأ إلى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ماوصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وهاهى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته » .

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ؛ فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذمّ المقلدين ، وأنّب من يتبع الظن وقال : « إنَّ الظنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا » ، وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بما تعيا العقول به　　　حرصاً علينا فلم نرتَبْ ولم نَهِمِ

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقد ساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا . ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . انظر كتب الكلام ترهم يقرّرون أن أوّل واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون : لا . إن أوّل واجب هو الشك . ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعيّة حسّيّة ، أو منتهية إلى الحسّ ، أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التّجربة الكاملة أو الاستقراء التّام ، على ما هو معروف فى المنطق . وكل خطأ يتسرّب إلى إحدى المقدّمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان .

وقد جرى الامام الغزالى على الطريقة نفسها . وقد قرّر فى أحد كتبه أنه جرّد نفسه من جميع الآراء ثم فكّر ، وقدّر ، ورتّب ، ووازن ، وقرّب ، وباعد ، وعرض الأدلة وهذّبها وحللها ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الاسلام حق وإلى ما اهتدى اليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجافى التقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستفيق المعتمد على الدليل والبرهان ؛ ذلك الايمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحّته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس

عما ألفته من العقائد ثم البحث والنظر . فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق ، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

هذا القانون العلمى فى البحث معروف قديماً وحديثاً . والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير . ولا يتفاوت الناس كثيراً فى معرفة القانون ولكنهم يتفاوتون جدّ التفاوت فى تطبيق القانون .

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة ؛ لكن الانسان الرازح تحت أحمال الوراثة فى دمه وعقله ، وأحمال البيئة فى البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة ، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات ، كيف يسهل عليه تطبيق القانون ! . هذا موضع الداء قديماً وحديثاً ؛ وهو سبب تعدد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقلها من قطر إلى قطر ومن أمة إلى أمة . والفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدل النساء أزياءها ، وقل أن تجد فيها شيئاً يصونه حرز أو يقيه حصن ؛ بل سرى التبدل إلى قواعد العلم التى لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعاً للشك . ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ماقام من يهدمها. والآراء فى الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفى التغذية لاتزال مطيعة للتبدل والتحول . وهكذا إذا أنعمنا النظر لانجد أماناً لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافراً فيه . ولكن مانسبة هذه الأشياء التى يتوافر فيها البرهان إلى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأوهام ، وتمجه الأذهان المريضة ، وتفرضه السياسة ، ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة فى مخالفة

غيرهم وإحداث هـذه المذاهب والآراء . ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحـده وتلويهم يوماً من الأيام إلى الدخـول فى حمى الحق وحصن اليقين ، وهو الوحى الصـادق ، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة .

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه :

يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الانسان يدلّ أوضح الدلالة على شمول العلم الالهى لدقائق الوجود . وأنا أقرر أيضاً أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبـه سيكون نصير الدين، وسيقرب إلى العقل الانسانى طريق فهم ما كان غامضاً مبهماً ، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل ، مصداقاً لقوله تعالى: « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » . والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة . وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طى الأبعاد . وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الاسراء فأتى بشىء طريف.

ويطول بى القول إذا أنا عرضت لما فى كتاب الدكتور هيكل من حسنات . وحسبى أن أنبه إلى تلك الحسنات إجمالا ، وسيدرك النـاس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتـاج الفكر تهديه الأسانيـد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق تسعده الفطرة الصادقة . وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً الاخلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما فى الوحى المحمدى من هدى ونور ، وبما فى سـيرة النبى صلى الله عليـه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعـبرة ، مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن هـذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من

الحيرة ، وينشلهم من ظلمة المادة ، ويبصرهم بنور الايمان ، ويوجههم إلى النور الالهى ، فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شىء ، وعظمة مجده الذى تسبح به السموات والأرض وكل شىء فيهما ، وعزته التى تتضاءل أمامها الموجودات. ألا تراه يقول : « وأذهب أبعد مما تقدم فأقول إن هذا البحث جدير بأن يهدى الانسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الاسلام ورسوله وتلتمس هذا النور فى « ثيوزوفية الهند » وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى فان رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بان يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق . فالتفكير الاسلامى على أنه تفكير علمى على الطريقة الحديثة فى صلة الانسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعى بحت ، ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بصلات الانسان بالكون وخالق الكون ». ويقول: « لكن طلائع القضاء على الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم كأثر من آثاره ».

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع ؛ فان ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ومن عناية علمائه بدراسة الاسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأممه قديماً وحديثاً ، ومن إنصاف بعضهم للنبى صلى الله عليه وسلم، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الاسلام سينشر لواءه على العالم وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعاً عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله .

وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التى نشأ فيها ، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه . وقد بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وليس للعالم بعده هادٍ ومرشد ، وكان دينه أكمل دين بنص الوحى القاطع ، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب .

وقد وفق الدكتور فى تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض فجاء كتابه عقداً منضداً وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض والحكم بياناً قويًا واضحاً يجعل القارىء مطمئن النفس رضيّ القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث .

وفى الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ولكنها اتصلت بها بسبب الاسهاب فى بيان أغراضها .

وأختم كلمتى هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل علىّ غضبك أو تحلّ علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

١٥ فبراير سنة ١٩٣٥ — محمد مصطفى المراغى

للمؤلف

	سنة
ثورة الأدب	١٩٣٣
ولدى	١٩٣١
تراجم	١٩٢٩
عشرة أيام فى السودان	١٩٢٧
فى أوقات الفراغ	١٩٢٥
جان جاك روسو	١٩٢٣ ١٩٢١
زينب	١٩١٤
دين مصر العام — بالفرنسية	١٩١٢



بقلم

محمد حسين هيكل

القاهرة
مطبعة مصر ٤٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الدواوين)
١٣٥٤

الإهداء

إلى الذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده

محمد حسين هيكل

سجل المراجع

المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب الحديث

تفسير الطبرى جامع البيان فى تفسير القرآن ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى — (مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٢٩ هـ)

أسباب النزول، لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى، وبهامشه الناسخ والمنسوخ ، لأبى القاسم هبة الله بن سلامة أبى النصر (مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ)

زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لشمس الدين أبى عبد الله الدمشقى المعروف بابن القيم الجوزى (المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٢٤ هـ)

سيرة سيدنا محمد رسول الله ، المعروفة بسيرة ابن هشام ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام (طبعة جتنجن سنة ١٢٧٤ هـ بعناية المستشرق وستنفلد)

الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد كاتب الواقدى (بمطبعة برل بليدن سنة ١٣٢٢ — عنى بطبعه وتصحيحه إدوَرْدْ سخَوْ Imp. Brill. Leiden)

المغازى ، لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى (طبعة البعثة المعمدانية المسيحية بكلكتا ١٨٥٥ م)

تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (مطبعة برل بليدن عنى به بارت ونلدكى)

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، لأحمد بن محمد بن أبى بكر الخطيب القسطلانى (مطبعة شاهين)

الشفاء للقاضى عياض (نسخة خطية بمكتبة جعفر باشا ولى)
الأصنام للكلبى (مطبعة دار الكتب المصرية)
الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، لقطب الدين النهروالى (مطبعة بروكهاوس بليبزج)
أخبار مكة ، لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن احمد الأزرقى (مطبعة بروكهاوس بليبزج Brockhaus, Leipzig)
فجر الاسلام ، للأستاذ أحمد أمين
فى الأدب الجاهلى ، للدكتور طه حسين
قصص الأنبياء ، للأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار
الوحى المحمدى ، للسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار
تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن عن الشيخ محمد عبده
الرحلة الحجازية ، لمحمد بك لبيب البتانونى
اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور اسرائيل ولفنسون
محمد المثل الكامل ، للأستاذ محمد أحمد جاد المولى
دائرة معارف القرن العشرين ، للسيد محمد فريد وجدى

المراجع الأجنبية

The Spirit of Islam by SAYED AMEER ALY.
Life of Mahomet by WASHINGTON IRVING.
Life of Mohammad by Sir WILLIAM MUIR.
Heroes and Hero Worship by THOMAS CARLYLE.
La Vie de Mahomet par EMILE DERMENGHEM.
Essai sur l'histoire des Arabes par CAUSSIN DE PERCEVAL.
L'Islam par LAMMENS.
Les Grands Initiés par EDOUARD SCHURÉ.
Dictionnaire Larousse Art. Mahomet.
Encyclopædia Britannica Art. Mahomet.
Historian's History of the World.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝

تقديم الكتاب

محمد عليه الصلاة والسلام :

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرّات . وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتز منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين . وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين . فاذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهاب المؤذن بالناس إن الصلاة خير من النوم ، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله ، فاستجاب له الألوف والملايين فى مختلف أنحاء المعمورة يحيّون بالصلاة رحمة الله وفضله متجلّيَيْن فى مطلع كل نهار . وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر ، ثم لصلوات العصر فالمغرب فالعشاء . وفى كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبد الله ونبيّه ورسوله فى ضراعة وخشية وإنابة . وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تَجِف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه . كذلك كانوا وكذلك سيكونون ، حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين .

الأمبراطورية الاسلامية الأولى

ولم يك محمد بحاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه ولينتشر فى الخافقين لواؤه ، فقد أكمل الله للسلمين دينهم قبيل وفاته ، ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين ؛ فبعث إلى كِسْرى وإلى هِرَقْل كى يُسْلما . ولم تمض خمسون

ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علَم الاسلام خفّاقا ما بين الأندلس فى غرب أوربا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين فى شرق آسيا ، وحتى كانت الشام والعراق وفارس وأفغانستان قد أسلمت كلها واصلة ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء ، وكانت مصر وبرقة وتونس والجزائر ومرّاكُش قد وصلت ما بين أوربا وإفريقية ومبعث محمد عليه السلام . ومن يومئذ إلى يومنا هذا بقيت راية الاسلام عالية فى هذه الربوع جميعاً خلا الأندلس التى أغارت النصرانية عليها فعذّبت أهلها وأذاقتهم من ألوان الشدة والبأس ، حتى لم يطيقوا صبراً على الحياة فعادوا إلى إفريقية وارتد من ارتد منهم هولاً وفزعا عن دينه ودين أبيه إلى دين العُتاة المعذّبين .

على أن ما خسره الاسلام فى الأندلس من غرب أوربا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكّنوا لدين محمد فيها ، فاستشرى فى البلقان كلها وانبلج نوره فى روسيا وفى بولونيا وخفقت أعلامه فى أضعاف ما كانت تخفق من أرض أسبانيا . ومن يوم انتشر الاسلام فى صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلّب عليه من الأديان متغلّب ،وإن تغلبت على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله ايماناً ، ولحكمه إسلاماً ، وفى رحمته وفى غفرانه أملا ورجاء .

الاسلام والمسيحية

هذه القوة التى انتشر الاسلام بها سرعان ما جعلته يقف وجهاً لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت . لقد تغلب محمد على الوثنية ومحا من بلاد العرب كما محا خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها . ولقد تغلّب خلفاء محمد على المسيحية فى الحيرة واليمن والشام ومصر الى مهد المسيحية فى رومية وفى مدينة قسطنطين . أفقُدِّر للمسيحية ما قدِّر للوثنية وهى دين كتاب من الأديان التى أشاد بها محمد ووضع صاحبها فى مصافّ الانبياء ؟ وهل قُدِّر لهؤلاء العرب ، عرب البادية الزاحفين من

شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة، أن يضعوا يدهم على حدائق الأندلس ورومية وسائر بلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا ! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قروناً وقروناً متتالية . ولم يقف القتال عند حرب الأسنة والمدافع ، بل انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامى ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى ، وجعل كل فريق من انتقاص رسول الفريق الآخر وسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصبها .

المسلمون وعيسى

على أن الاسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى . إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا ، وبرًّا بوالدته ولم يكن جباراً شقيا ، فسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيا . أمّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم التعريض بمحمد ونعته بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال ، شفاء لما فى نفوسهم من غلّ ، واستفزازاً وحفزاً لشهوات الناس الدنيا . وبرغم ماوضعت الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين فقد ظل تعصب الكنيسة المسيحية ضد محمد على أشدّه إلى عصور قريبة . ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشد ، وإن يك خفيًّا يعمل فى ظلمات التبشير بالدون من الوسائل . ولم يقف الأمر عند الكنيسة بل تعداها إلى كتّاب وفلاسفة فى أوربا وفى أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسة صلة تذكر .

ولقد يعجب الانسان أن يظل تعصب المسيحية على الاسلام بهذه الشدة فى عصر زُعِم أنه عصر النور والعلم ، وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق . ويزداد الانسان عجبا حين يذكر المسلمين الأولين وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحية على المجوسية عظيما حين اقتحمت جيوش هِرَقل أرض فارس وكسرت عسكر كسرى . فقد كانت فارس صاحبة النفوذ فى جنوب شبه جزيرة العرب منذ طرد كسرى الأحباش من اليمن . ثم إن كسرى

وجه جيوشه — فى سنة ٦١٤ ميلادية — تحت إمرة قائد من قواده يدعى شَهْرَبَراز لغزو الروم ، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذْرِعات وبُصْرَى ، أدنى الشام إلى أرض العرب ، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان العرب وكان أهل مكة يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف ، أن كانت القوتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ ، وأن كانت فى جوار بلاد العرب التى تخضع بعض أجزائها لفارس وتتاخم الروم بعض أجزائها الأخرى . وشمت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم ، لأنهم أهل كتاب كالمسلمين ، وحاولوا أن يلصقوا بدينهم عار اندحارهم . أما المسلمون فشق عليهم أمر الروم وهم أهل كتاب مثلهم ، فكان محمد وأصحابه يكرهون أن يظهر المجوس عليهم . وأدّى هذا الخلاف بين مسلمى مكة وكفارها إلى تنادر الفريقين وإلى تهكم الكفار بالمسلمين ، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبى بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول : لا تعجّل بالمسّرة ، فسيأخذ الروم بثأرهم . وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس . فلما سمع الكافر قوله أجابه متهكما : كذبت . فغضب أبو بكر وقال : كذبت أنت يا عدوّ الله ، وهذا رهان عشر جمال أن ستغلب الروم المجوس قبل عام . وعرف محمد أمر هذا الرهان فنصح إلى أبى بكر أن يزيد فى الرهان وأن يطيل المدة . وزاد أبو بكر فى الرهان إلى مائة بعير إن هُزمت الفرس قبل تسع سنين . وانتصر هرقل سنة ٦٢٥ م وهزم فارسَ واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأكبر وكسب أبو بكر رهانه . وفى النبوءة بهذا النصر نزل قوله تعالى فى صدر سورة الروم : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ ، لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » .

المبادىء الأولية فى الدينين

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل والنصارى عظيما ، وظلت صلة الاخاء بين الذين اتبعوا محمداً والذين آمنوا بعيسى عظيمة طوال حياة النبى برغم ما وقع فى غير ظرف بين الفريقين من مجادلة ، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أول الأمر ثم عداوة استحرّت وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما أجلى اليهود عن شبه جزيرة العرب جميعاً . ومصداق ذلك قوله تعالى : « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ » . ثم إنك لترى الدينين يصوّران الحياة والخلق صورة تكاد تكون واحدة . وهما فى تصوير الانسانية ومبدأ خلقها سواء . خلق الله آدم وحواء وأسكنهما الجنة وأوحى إليهما ألاّ يسمعا إلى نزغ الشيطان فيأكلا من الشجرة فيخرجهما من الجنة . والشيطان عدوهما الذى أبى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمد ، والذى أبى أن يقدّس كلمة الله على رواية كتب النصارى المقدسة . ووسوس الشيطان لحواء وزيّن لها ، فزينت لآدم فأكلا من شجرة الخلد فبدت لهما سوءاتهما ، فاستغفرا ربهما فبعثهما على الأرض بعضُ ذريتهم لبعض عدوّ ، يغريهم الشيطان فيضل قوم ويقاوم الهلاك آخرون . ولتقوى الانسانية على حرب هذه الغواية بعث الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، وبعث مع كل رسول كتاباً مصدّقاً لما بين يديه . وكما يقوم فى صف الشيطان أنصاره من أرواح الشر ، تقوم الملائكة تسبّح بحمد ربها وتقدّس له . وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياة والكون جميعاً حتى يوم البعث ، يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت ولا يسأل حميم حميما .

الخلاف بينهما

وإنك لتجد فى القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إياهما ما تشعر معه حق الشعور بهذا الاخاء وما يجعلك تتساءل : ما بال

المسلمين والنصارى اذاً ظلوا على القرون خصوماً متقاتلين ؟ والجواب على سؤالك أن بين الاسلام والنصرانية خلافاً على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد فى عهد النبي لم يتعد حدود الجدل إلى العداوة والبغضاء. فالنصرانية تقول بالتثليث، والاسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد إنكار. والنصارى يؤلهون عيسى ويلتمسون الدليل على ألوهيته فى أنه ليس بشراً كالناس، بل تكلم فى المهد وأوتى من المعجزات ما لم يؤته غيره مما هو من عمل الخالق جل شأنه. وهم كانوا أيام الاسلام الأولى يحاجون المسلمين فى ذلك بالقرآن ويقولون: أو ليس يقر القرآن الذى نزل على محمد رأينا حين يقول: « إذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا والآخرة ومن المُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فى المهدِ وكَهْلًا ومن الصَّالحين. قالتْ ربِّ أنى يكونُ لى ولدٌ ولم يَمْسَسْنى بشر، قال كذلكِ اللهُ يَخلقُ ما يشاء، إذا قضى أمراً فانمَّا يقولُ له كنْ فيكون. ويعلِّمُهُ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والانجيلَ، ورسولاً إلى بنى اسرائيلَ، أنِّى قد جئتُكم بآية من ربكم أنِّى أخلقُ لكمْ من الطِّين كهيئة الطير فأنفخُ فيهِ فيكونُ طيراً باذن الله، وأبرِئ الأكمهَ والأبرَصَ وأحيي الموتَى باذنِ الله، وأُنبِّئُكمْ بما تأكلون وما تدَّخرِونَ فى بيوتِكم إنّ فى ذلك لآية لكمْ إنْ كنتمْ مؤمنين » . فالقرآن قد ذكر إذاً أنه يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً ويخبر بالغيب. وكل هذه خصائص إلٰهية، هذا رأى نصارى عهد النبي الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إلٰه مع الله. ولقد ذهبت طائفة منهم الى تأليه مريم أن ألقى الله اليها بكلمته. وكان أصحاب هذا الرأى من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. ولم يكن أصحاب هذا القول بتأليه عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرقة يومئذ شيعاً وأحزاباً.

مجادلة النصارى للنبى

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمداً على اختلاف نحلهم على أساس مذاهبهم . فكانوا يقولون إن المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة . وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه . ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يُعلم ، وأنه تكلم فى المهد صبيًّا مما لم يقع لأحد من بنى آدم . ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أمرنا وخلقنا وقضينا ، ولو كان واحداً لقال أمرت وخلقت وقضيت . وكان محمد يستمع لهم جميعاً ويجادلهم بالتى هى أحسن . وهو لم يكن فى جدالهم يشتد شدته فى جدال المشركين وعبّاد الأصنام ، بل كان يحاجهم بالوحى من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها . فالله تعالى يقول فى سورة المائدة : « لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ ، قلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إنْ أرَادَ أنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ بنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ ومَنْ فى الأرْضِ جَمِيعًا ، ولِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ واللهُ على كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ . وقالَت اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أبْنَاءُ اللهِ وأحِبَّاؤُهُ قلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بذنوبِكُمْ ، بَلْ أنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يشَاءُ » . وقال تعالى : « لَقَدْ كفَرَ الَّذِينَ قالوا إنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ . وقالَ المَسِيحُ يا بَنِى إسْرَائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إنَّهُ من يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمأْوَاهُ النَّارُ وَما للظالمينَ مِنْ أنْصار . لقَدْ كفَرَ الذين قالوا إنَّ اللهَ ثالِثُ ثلاثَة ، وما مِنْ إله إلاّ إلهٌ واحدٌ وإنْ لم يَنْتَهُوا عمّا يَقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفَروا مِنهُمْ عذابٌ أليمٌ » ، وقال جل شأنه : « وإذْ قالَ اللهُ ياعيسى بنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قلْتَ للنّاس اتَّخِذونى وأمِّىَ إلٰهَيْنِ من دون الله ، قال سُبْحَانَكَ ما يكونُ لى أنْ أقولَ ما لَيْسَ لى بحَقٍّ . إنْ كُنْتُ قلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . تَعْلَمُ ما فى نَفْسِى ولا أعْلَمُ ما فِى نَفْسِكَ ، إنَّكَ أنْتَ عَلاّمُ الغيُوب . ما قلْتُ لهم إلاّ ما أمَرْتَنِى به ، أنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى ورَبَّكم ، وكنْتُ عَلَيْهِمْ

شَهِيداً ما دُمْتُ فيهم ، فلمّا توَفيْتَني كنْتَ أنتَ الرّقيبَ علَيْهِمْ وأنتَ على كلِّ شئٍ شَهِيدٌ . إن تُعَذِّبْهُمْ فانّهُمْ عِبَادُكَ ، وإن تغفِرْ لهمْ فانّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكيم » .

تقول المسيحية بالتثليث وبأن عيسى ابن الله ، والاسلام ينكر إنكاراً صريحاً باتا أن يكون لله ولد : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . وما كان لله أن يتخذ ولداً سبحانه . و « إنَّ مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كمثَلِ آدمَ خلَقَهُ من ترابٍ ثم قالَ له كنْ فيكون » . والاسلام دين توحيد فى أشد معانى التوحيد صفاء وقوة ، وفى أشد معانى التوحيد بساطة ووضوحاً . كل ما يمكن أن يلقى ظلا على فكرة التوحيد أو صورته ينكره الاسلام ويراه كفراً . « إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يشرَكَ بهِ ويَغفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءِ » . فمهما يكن للصورة المسيحية فى التثليث من جمال فهى ليست من الحق عند محمد فى شيء . إنما الحق هو الله وحده ، وحده لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فلا عجب اذاً أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتى هى أحسن ، وأن يؤيد الوحى محمداً بما تلوت من الآيات .

مسألة صلب المسيح .

ومسألة أخرى يختلف فيها الاسلام والنصرانية ، وكانت مثار جدل فى عهد النبى ، هى مسألة صلب عيسى ليشترى بدمه خطايا الخلق . فالقرآن صريح فى نفى أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه ، إذ يقول فى سورة النساء « وقَوْلِهِمْ إنّا قتَلْنا المسيحَ بنَ مريمَ رسولَ اللهِ وما قتَلوه وما صلبوه ولَكنْ شُبِّهَ لهم . وإنّ الذين اختلَفُوا فيه لفِى شكّ منه ، ما لهم به منْ عِلْم إلا اتّباعَ الظنّ ، وما قتلوه يقينًا . بل رفَعَهُ اللهُ إليه وكان اللهُ عزيزاً حكيما » .

ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته بنى الانسان جميلة لاريب ويستحق ما كتب فيها دراسة من نواحيه الشعرية والخلقية والنفسية ،

فان المبدأ الذى قرره الاسلام من أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن كل امرىء يوم القيامة مجزىّ بأعماله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر ، يجعل التقريب المنطقىّ بين العقيدتين غير ممكن ، ويجعل منطق الاسلام من الدقة بحيث لا تجدى معه محاولات التوفيق مع التناقض الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتى « لا يَجزى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلود هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » .

الروم والمسلمون

هل فكر أحد من نصارى يومئذ فى هذا الدين الجديد وفى إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى ؟ ! نعم ، وآمن به منهم كثيرون . لكن الروم الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابية ، لم يكلّف سادتهم أنفسهم مؤونة البحث فى الدين الجديد ، ولم يلبثوا أن نظروا للأمر من ناحيته السياسية وأن فكروا فيما يصيب ملكهم إذا تم للدين الجديد الغلب . لذلك بدءوا يأتمرون به وبأهله حتى أرسلوا جيشاً عرمرماً عِدّته مائة ألف فى رواية ومائتا ألف فى رواية أخرى ، مما أدى إلى غزوة تبوك ، إنسحب الروم فيها أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوّغه .

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتالية امتدت أمبراطوريتهم أثناءها إلى الأندلس غربا وإلى الهند والصين شرقا ، وآمنت أكثر أجزاء هذه الأمبراطورية بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربية . فلما آن لدورة التاريخ أن تدور ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس وحاربوهم الحروب الصليبية وأخذوا أنفسهم بالطعن أقبح الطعن على دينهم ونبيهم ، طعن كله الفحش والكذب والافتراء . ولقد بلغوا من الطعن على محمد عليه السلام ما بلَغ هو فى أحاديثه وما بلغ القرآن فى الوحى الذى نزل عليه من الارتفاع بعيسى عليه السلام إلى المكان الذى اختاره الله له .

كتاب المسيحية ومحمد

جاء فى موسوعة لاروس الفرنسية خلال العرض لآراء كتاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر النيل ما يأتى: « بقى محمد مع ذلك ساحراً ممعناً فى فساد الخلق، لصَّ نيّاق، كردينالا لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية ، فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه، واستولى القصص الخيالى والماجن على سيرته. وسيرة باهوميه (محمد) تكاد تقيم أدباً من هذا النوع. وقصة محمد التى نشر رينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصوِّر لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه. وفى القرن السابع عشر نظر بيل فى تاريخ أبى القرآن نظرة تاريخية، مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه. على أنه يعترف بالرغم من ذلك بأن النظام الخلقى الذى أقام لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات ».

وإن واحداً من المستشرقين الذين عرضوا لحياة محمد بشىء من الانصاف — ذلك هو الكاتب الفرنسى إميل درْمِنْجِمْ — ليذكر من هذا الذى كتب إخوانه فى الدين حين قال: « لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوّة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة. ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أشد الخلاف. فمن البيزنطيين من أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكلِّفوا أنفسهم — فيما خلا جان داماسين — مؤونة دراسته. ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف المثالب. فقد زعموا محمداً لص نياق، وزعموه متهالكا على اللهو، وزعموه ساحراً، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق، بل زعموه قسًّا زومانياً مغيظاً مُحنَقاً أن لم ينتخب لكرسى البابوية.. وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرّب له عباده الضحايا البشرية. وإن جيبر دِنُوجن نفسه، وهو رجل جد، ليذكر أن محمداً مات فى نوبة سكر بيِّن، وأن جسده وجد ملقى على كوم من

الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ... وذهبت الأغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنما من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية برابى ملأى بالتماثيل والصور !! وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حـديث من رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما أغنية رولان التى تصوّر فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبـدون ثالوثا مكوناً من ترفاجان وماهوم وأبولون . وتحسب « قصة محمد » أن الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج !

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة. فمنذ رودلف دُلوهَيْم إلى وقتنا الحاضر أقام نيكولا دكيز ، وفيفس ، ومراتشى ، وهُو تّنْجر وبِبْليائدر وبريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجّال ، والاسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيجٌ من السخافات . وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجـد فى أمرِ هذا مبلغ سخافته . مع ذلك فان بِيْير المحترم (فنرابل) مؤلف أول رسالة غربية ضد الاسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية . وفى القرن الرابع عشر كان بيْيرباسكال من الذين توسعوا فى الدراسات الاسلامية . وقد وصف إنّوسان الثامن محمداً يوماً بأنه عدو المسيح . أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمداً إلا هرطيقاً . وكان لريمون ليون فى القرن الرابع عشر، ولغليوم بَسْتِل فى القرن السادس عشر ، ولرولان وجانبيه فى القرن الثامن عشر، وللقسيس دِبرُجلى ولرينان فى القرن التاسع عشرأحكام وآراء مختلفة... على أن الكونت بُولنفلييـه وشوُل وكوسّان دِبرْسـفال ودوزى وسبرنجر وبَارْتلمى سـانتلبير ودكاسترى وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الاجمـال إنصافا للاسلام ونبيه ويُشيدون فى بعض الأحيان بهما. مع ذلك فان درُوتى

يتحدث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد قائلا : « هذا الأعرابى المنافق القذر » كما طعن عليه فوستر من قبل ذلك فى سنة ١٨٢٢ . وما يزال للاسلام حتى اليوم محاربون متحمسون » .

أرأيت هذا الحضيض الذى هوت إليه هذه الطائفة من كتّاب الغرب؟ أرأيت إصرارهم ، رغم مر القرون ، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الانسانية ؟ ! ومن هؤلاء من جاءوا فى العصور التى نسميها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقدير الاخاء بين الانسان والانسان . وبرغم أولئك المنصفين إلى حدّ ، ممن أشار إليهم درمنجم ، وهو منهم ، ومنهم من أقر بصدق إيمان محمد بالرسالة التى ألقى الله إليه تبليغها من طريق الوحى ، ومنهم من أشاد بعظمة محمد الروحية وبسمو خلقه ورفعة نفسه وجم فضائله ، ومن صوّر ذلك فى أقوى أسلوب وأروعه — برغم ذلك ما يزال الغرب يوجّه للاسلام ونبيه أشد المطاعن ، وتبلغ منه الجرأة حتى يبث المبشرين فى أنحاء البلاد الاسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية .

سبب الخصومة بين الاسلام والمسيحية

يجب لذلك أن نبحث عن السبب الذى ترجع إليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العنيفة التى تثيرها المسيحية على الاسلام . وعندنا أن جهل الغرب بحقيقة الاسلام وبسيرة النبى فى مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة .

الجهل والتعصب

والجهل لا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدها استعصاء . ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الاسلام أول ظهوره . على أنا نحسب أن ثمة سبباً غير الجهل قد دفع أهل الغرب إلى هذا التعصب وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء التى أثاروها ويثيرونها الوقت بعد الوقت على الاسلام وعلى المسلمين . وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من

أقدار السياسة وحب الظَّفَر بالشعوب لاستغلالها . فتلك فى اعتقادنا نتيجة وليست سبباً لهذا التعصب المستعصى حتى على العلم وعلى بحوثه . أما السبب فى رأينا فيرجع الى أن المسيحية وما تدعو اليه من الزهد فى الحياة واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعانى النفسانية السامية ليست مما يلائم طبيعة الغرب الذى عاش ألوف السنين على دين تعدد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال . فاذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يعتنق المسيحية فلا مفر له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح ، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة ، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحى الذى يجعل منها حلقة فى سلسلة الوحدة التى أتم الاسلام ، والتى تؤاخى بين الروح والجسد وتزاوج بين العاطفة والعقل ، وتَسْلُك الفرد والانسانية جميعاً فى نظام الكون على أنهم بعض منه متسق وإياه فى لا نهاية الزمان والمكان . هذا فى رأينا هو مرجع السبب فى تعصب الغرب ومرجع السبب فى موقفه من الاسلام ، هذا الموقف الذى تجافت الحبشة عنه حين احتمى المسلمون بها أول ظهور النبى .

المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب

والى هذا السبب فى رأيى يرجع إغراق الغربيين وغلوهم فى التدين وفى الالحاد جميعاً إغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح. واذا كان التاريخ قد عرف منهم قِدِّيسين احتذوا فى حياتهم مثال السيد المسيح والحواريين ، فان التاريخ أيضاً قد عرف أن حياة أمم الغرب كانت أبداً حياة نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين ، وعرف أن بابوات الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية كانوا فى نزاع دائم يغالب بعضهم بعضاً ، فيتغلب هذا يوماً ويتغلب ذاك يوماً آخر . ولما كان الكفاح فى القرن التاسع عشر قد تغلبت فيه السلطة الزمنية ، حاولت هذه السلطة أن تقضى على الحياة الروحية باسم العلم قضاء مبرماً عرفت اليوم بعد جهاد طويل أن لا سبيل اليه

وأنه مستحيل. والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة يريد أهله حياة روحية أضاعوها فهم يلتمسونها فى التيوزوفيّة وغيرالتيوزوفية . ولو أن المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التى تنشأ بحكم الطبيعة بجزء من حياة أهل الغرب لرأيتهم، وقد شعروا بعجز الفكرة المادية عن أن تلهمهم المدد الروحى، يعودون إلى الدين المسيحى الجميل دين عيسى بن مريم . إن لم يهدهم الله إلى الاسلام ، ولما كانوا بحاجة إلى هذه الهجرة إلى الهند وإلى غيرها يستوردون منها حياة روحية يشعر الانسان بالحاجة اليها حاجته إلى التنفس لأنها بعض طبعه ، بل لأنها بعض نفسه وكيانه .

الاستعمار والدعوة ضد الاسلام

وقد عاون الاستعمار الغربى أهله على الاستمرار فى الحملة التى أثاروا على الاسلام وعلى محمد، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكة حين أرادوا أن يحمّلوا النصرانية عار هزيمة هرقل والروم أمام فارس. فقد قالوا وما يزال الكثيرون منهم يقولون إن الاسلام هو السبب فى انحطاط الشعوب الآخذة به وفى خضوعهم لغيرهم . وهذه فرية يكفى لدحضها أن يذكر قائلها أن الشعوب الاسلامية ظلت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبة السيادة على العالم المعروف كله قروناً طويلة متوالية ، وأنها كانت محط رحال العلم والعلماء وموئل الحرية التى لم يعرف الغرب إلا من أمد قريب . فاذا أمكن أن ينسب انحطاط طائفة من الشعوب للدين الذى يؤمن به أهلها فلا يكون هذا الدين هو الاسلام وهو الذى حفز بدو شبه جزيرة العرب وأثارهم ومكّن لهم من حكم العالم .

الاسلام وما صارت اليه الشعوب الاسلامية

على أن لهؤلاء الذين يُحمّلون الاسلام وزر انحطاط الشعوب الاسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شىء كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورُمى من ينكره بالزندقة ، وندع الدين جانباً ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام . فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبى ما لا يصدقه العقل ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه

المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الاسلام ونبيه وعلى الأمم الاسلامية واتخذوه تُكَأَتهم فى مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف . اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتبونه على الطريقة العلمية الحديثة ، هذه الطريقة التى تستعرض الحوادث والناس والأبطال فتصدر بعد ذلك حكمها عادلا إن هى رأت لاصدار حكم محلا . فاذا أنت وقفت عند ما كتبه هؤلاء رأيته تمليه شهوة الجدل والتجريح مصوغاً فى عبارة لا تخلو من براعة تستهوى اخوانهم فى العقيدة إلى الظن بأن البحث العلمى المجرد النزّاع إلى الحقيقة وحدها يريد أن يستشفها من وراء كل الحجب، هو الذى وجّه هؤلاء المتعصبين من الكتاب والمؤرخين . على أن السكينة التى ينزلها الله على نفوس الراضين من الناس ، كتّاباً وعلماء، قد أدت بآخرين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى إلى العدل وأحرص على النصفة .

الجمود والاجتهاد عند المسلمين

ولقد قام بعض علماء المسلمين فى ظروف مختلفة بمحاولة دحض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب . واسم الشيخ محمد عبده هو أنصع الأسماء فى هذا الصدد . لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتاب والمؤرخون الأوربيون أنهم يسلكون ، لتكون لحجتهم قوتها فى وجه خصومهم . ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين . والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم ، قد اتهموا بالالحاد والكفر والزندقة فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الاسلام . ولقد كان اتهامهم هذا بعيد الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلم . شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل ، فى نظر جماعة من علماء المسلمين، حكم العقل ونظام المنطق ، وأن الالحاد قرين الاجتهاد كما أن الايمان قرين الجمود ؛

أثر الجمود فى الشباب

فجزعت نفوسهم وانصرفوا يقرءون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة ، اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين . وهم لم يفكروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال ؛ إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة

يلتمسون فى أسلوبها العلمى رِيّا ما فى نفوسهم من ظمأ محرق للحق ، وفى منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة فى النفس الانسانية ووسيلة إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا . وهم واجدون فى كتب الفلسفة وفى كتب الأدب الفلسفى وفى كتب الأدب نفسه الشىء الكثير مما يأخذ الانسان عن نفسه ، لروعة أسلوبها ودقة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق . لذلك انصرفت نفوسهم عن هذا التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة وصاحبها ، لأنهم لم يريدوا أن تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الانسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الانسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية .

إنصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الاسلامية وصاحبها . وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعى والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقررانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيِّز التفكير العلمى ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى (الميتافيزيقى) ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية فى شىء . ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحاً صريحاً فى البلاد الغربية ، ورأوا البلاد التى تقرر دساتيرها أن ملكها هو حامى البروتستانتية أو الكثلكة ، أو تقرر أن دين الدولة الرسمى المسيحية ، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها ؛ فازدادوا انخراطاً فى هذا التفكير العلمى وحرصاً على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب . فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية اشتغلوا بها وازدادوا انصرافاً عما انصرفوا من قبل عنه ، وظل اتجاههم الفكرى فى تياره الأول ينظر إلى الجمود العقلى مشفقاً مزدرياً ، وينهل من ورد التفكير الغربى والفلسفة الغربية ، فيجد فيهما لذّة

علم الغرب وأدبه

للناهلين ، فيزداد بهما إعجاباً وعلى ما نَهَل صَدْرَ الشباب منهما حرصاً .

وليس ريب فى أن الشرق اليوم بحاجة أشد الحاجة الى النهل من ورد الغرب فى التفكير وفى الأدب والفن . فقد قطع ما بين حاضر الشرق الاسلامى وماضيه قرون من الجمود والتعصب غشّتْ على تفكيره السليم القديم بطبقة سميكة من الجهل وسوء الظن بكل جديد . فلا مفرّ لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير فى العالم ، ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحى وثروة الماضى وتراثه العظيم .

جهود التجديد الاسلامى

ومن الحق علينا للغرب أن نقول : إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة فى تاريخ الدراسات الاسلامية والدراسات الشرقية قد مهدلأبناء الاسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث فى تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاء فى الاهتداء الى الحق ، فهم أقرب بطبعهم الى حسن ادراك الروح الاسلامى والروح الشرقى . ومادام التوجيه الجديد قد بدأ فى الغرب ، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يبثوا فيه الروح الصحيح الذى يعيده الى الحياة ويصله بالحاضر ، لا كمجرد دراسة وبحث بل كميراث روحى وعقلى يجب أن يتمثله الوارثون ، وأن يضيفوا اليه وأن يزيدوا سنا ضيائه بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونوراً .

وقد توفر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقة العلمية الحديثة ، والمستشرقون أنفسهم يقدرون لهم ذلك ويُشيدون بفضلهم فيه .

وبينا يقوم هذا التعاون العلمى الجدير بأن يؤتى خير الثمرات ، إذا بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفترُ فى الطعن على الاسلام وعلى محمد طعنا لا يقل عما تلوت منه فيما سبقت الاشارة اليه ، وإذا الاستعمار الغربى يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأى ، مع أن أصحاب هذه المطاعن

المبشرون والجامدون

قد أُجلوا عن بلادهم وحيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الايمان فى نفوس إخوانهم فى الدين ، واذا هذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين. وكذلك تضافر العمل على تأييد ما دُسّ على الاسلام مما يبرأ الاسلام منه ، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسيغ العقل ولا يقبل الذوق ، وعلى تأييد الطاعنين على الاسلام وعلى محمد بما دُسّ على الاسلام وعلى سيرة الرسول.

أتاحت لى ظروف حياتى العملية أن أرى ذلك كله فى مختلف بلاد الشرق الاسلامى ، بل فى البلاد الاسلامية كلها ، وأن أتبين ما يقصَد اليه من القضاء على الروح المعنوية فى هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ، ابتغاء الحقيقة ، وشعرت بأن علىّ واجباً أقوم به فى هذا الموضوع لافساد الغاية التى ترمى هذه الخطة اليها ، والتى تضر الانسانية كلها ولا يقف ضررها عند الاسلام والشرق . وأى أذى يصيب الانسانية أكبر من العقم والجمود يُصيب نصفها الأكبر والأعرق فى الحضارة على حقب التاريخ . ولذلك فكرت فى هذا وفكرت طويلا ، وهدانى التفكير آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية ، وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده.

كيف فكرت في وضع هذا الكتاب

بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازى الواقدى ، وعدت الى كتاب سيد أمير على (روح الاسلام). ثم حرَصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين ، فتلوت كتاب دِرْمِنْجِم وكتاب واشنطن إرفنْج ، ثم انتهزت فرصة وجودى فى الأقصر فى شتاء سنة ١٩٣٢ وبدأت أكتب . ولقد ترددت يومئذ فى أن أجعل البحث الذى أطالع قرائى به من وضعى أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد علىّ ما أريد . لكن ما لقيت من إقبال وتشجيع

من طائفة شيوخ المعاهد ، وما أبدى لى بعضهم من ملاحظات تدل على العناية بالبحث الذى أقوم به ، جعلنى أفكر تفكيراً جدِّيا فى تنفيذ ما اعتزمت من كتابة حياة محمد على الطريقة العلمية الحديثة كتابة مفصلة ، ودعانى للتفكير فى أمثل الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصاً علمياً جهد ما أستطيع .

القرآن أصدق مرجع

ولقد تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم . فيه إشارة الى كل حادث من حياة النبى العربى يتخذها الباحث مناراً يهتدى به فى بحثه ويمحص على ضيائه ما ورد فى كتب السنة وما جاء فى كتب السير المختلفة . وأمعنت أريد أن أقف على كل ما ورد فى القرآن متصلا بحياة النبى ، فاذا معونة صادقة فى هذا الباب يقدّمها الىّ الأستاذ أحمد لطفى السيد الموظف بدار الكتب المصرية ، هى مجموعة وافية مبوبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أوحى الكتاب الكريم إليه . ورحت أدقق فى هذه الآيات ، فرأيت أن لا بدّ من الوقوف على أسباب نزولها وأوقات هذا النزول ومناسباته . وأعترف بأنى ، برغم ما بذلت فى ذلك من جهد ، لم أوفق إلى كل ما أردت منه . فكتب التفسير تشير أحياناً اليه وتهمل هذه الاشارة فى اكثر الأحايين . ثم إن كتاب « أسباب النزول » للواحدى ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ » لأبى النصر ، إنما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكل تدقيق واستيفاء تناولاً موجزاً . على أننى وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدّة استطعت أن أمحص بها ما ورد فى كتب السيرة ، وأن وجدت فيهما وفى كتب التفسير نفسها أشياء جديرة بمراجعة العلماء المتبحرين فى علوم الكتاب والسنّة وتحقيقهم من جديد .

المشورة الصادقة

ولما تقدم بى البحث بعض الشىء ألفيت المشورة الصادقة تصل إلىّ من كل صوب ، ومن ناحية الشيوخ أكثر من كل ناحية أخرى بطبيعة الحال . وكانت المعونة الكبرى معونة دار الكتب المصرية ورجالها الذين أمدّونى

من ألوان المعونة بما لا يفي الشكر بحسن تقديره . ويكفى أن أذكر أن الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بدار الكتب كان يكفينى مؤونة الذهاب إلى الدار فى كثير من الأحيان ويستعير لى ما أريد استعارته من الكتب مشمولا بعطف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها ، وأن أذكر أنى فى كل مرة ذهبت الى الدار كنت أجد أجمل العون فى البحث عما أريد البحث فيه من موظفى الدار كباراً وصغاراً ، مَنْ عرفت منهم ومن لم أعرف . ثم إنى كانت تستغلق علىّ بعض المسائل أحيانا فأفضى إلى من آنس فيه المعرفة من أصدقائى بما استغلق علىّ فأجد فى كثير من الأحيان خير العون . وجدت ذلك غير مرة عند الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ووجدته عند صديقى الضليع جعفر باشا ولى الذى أعارنى عدّة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكة ، ودلنى على غير مسألة من المسائل وهدانى الى موضعها . وقد أعارنى صديقى الأستاذ مكرم عبيد كتاب المستشرق السير وليم مُوير « حياة محمد » وكتاب الأب لامَنْس « الاسلام » . هذا الى ما وجدت من عون فى مؤلفات المعاصرين القيمة ككتاب « فجر الاسلام » للأستاذ أحمد أمين و « قصص الأنبياء » للأستاذ عبد الوهاب النجار و « الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين و « اليهود فى بلاد العرب » لاسرائيل ولِفِنسُن ، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته فى بيان المراجع القديمة والحديثة التى استعنت بها على وضع هذا الكتاب .

ولقد كنت كلما ازددت توسعاً فى البحث أرى مسائل تنجُم أمامى وتستدعى التفكير ومزيداً من البحث لحلها . وكما عاونتنى كتب السيرة وكتب التفسير فى الاهتداء إلى غاية من تفكيرى أطمئن لها ، كذلك عاونتنى كتب المستشرقين فى الاهتداء إلى غاية أطمئن لها . على أنى رأيتنى مضطراً فى كل المواقف لأقصر بحثى فى حدود حياة محمد نفسه ما لم أضطر إلى تناول مسائل

أخرى متصلة بهذا البحث اضطراراً . ولو أننى أردت ان أبحث كل ما اتصل بهذه الحياة الفياضة العظيمة لاحتاج الأمر الى وضع مجلدات عدّة فى حجم هذا الكتاب . ويحسن أن أذكر أن كُوسّانْ دِبِرسْفَال وضع ثلاثة مجلدات بعنوان « رسالة فى تاريخ العرب » جعل المجلدين الأولين منها فى تاريخ قبائل العرب وحياتها ، وجعل الثالث عن محمد وخليفتيه الأولين أبى بكر وعمر . وطبقات ابن سعد تقع فى مجلدات كثيرة يتناول جزؤها الأوّل حياة محمد ، وسائر أجزائها حياة أصحابه . ولم يكن غرضى أوّل ما بدأت البحث ليتجاوز حياة محمد ، فلم أُرد أثناءه أن أتركه يتشعب فيحول ذلك بينى وبين الغاية التى إليها قصدت .

في حدود السيرة لا أتعداها

وشىء آخر كان يمسكنى فى حدود هذه الحياة ، ذلك روعة جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياء يتوارى دونهما كل ما سواهما . فما كان أعظم أبا بكر ! وما كان أعظم عمر ! إذ كان كل منهما فى خلافته علماً يحجُب من سواه ! وكم كان للسابقين الأولين إلى صحبة محمد من عظمة ثبتت على الأجيال وهى بعدُ مما تفاخر به الأجيال ! لكن هؤلاء جميعاً كانوا يستظلون أثناء حياة النبى بجلال عظمته ويستضيئون بباهر لألائه . فليس يسيراً على من يبحث فى سيرة الرسول أن يدعها لشىء سواها . وهو أشد بذلك شعوراً إذا تناول البحث على الطريقة العلمية الحديثة على نحو ما حاولتُ أن أفعل ، هذه الطريقة التى تجلو عظمة محمد على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة الفؤاد جميعاً ويغرس فيها من الاجلال للعظمة والايمان بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم .

وأنت إذا طرحت جانباً أولئك المتعصبين الحمق الذين جعلوا النيل من محمد دأبَهم كالمبشرين وأشباههم ، فانك واجد هذا الاجلال للعظمة والايمان بقوتها فى كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين . عقد كارْلَيْل فى كتابه « الأبطال » فصلا عن محمد صوّر فيه الجذوة الالهية المقدسة التى أوحت إلى محمد ما أوحته

إليه ، فصوّر العظمة فى جلال قوتها . وَموير ، وإرفنج ، وسبرنجر ، وفيل ، وغيرهم من المستشرقين العلماء قد صوّر كل واحد منهم عظمة محمد تصويراً قويّاً ، وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة بالاسلام ، لغير شيء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحصها التمحيص العلمى الدقيق ، ولأنه اعتمد فيها على ما ورد فى كتاب أو فى آخر من كتب السيرة أو من كتب التفسير ، متناسياً أن أول كتب السيرة إنما كتب بعد قرنين من عصر محمد دُسّت أثناءهما على حياته وعلى تعاليمه اسرائيليات كثيرة ، ووُضعت أثناءهما ألوف الأحاديث المكذوبة . ومع أن هؤلاء المستشرقين يقررون هذه الحقيقة ، فانهم لا يأبون مع ذلك تناسيها ليقرروا أموراً ، ينفيها شيء من التمحيص ، على أنها صحيحة ، كمسألة الغرانيق وكمسألة زيد وزينب ، وكمسألة أزواج النبى ، مما أتيح لى امتحانه وتمحيصه فى هذا الكتاب .

لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد ، بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلميـة الحديثة ، وأن ما بذلت فى هذه السبيل من مجهود لا يخرج هذا الكتاب عن أنه بداية البحث من ناحية علمية إسلامية فى هذا الموضوع الجليل . وإذا كان جماعة من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا لبحث عصر من العصور ، كما انقطع أولارْ فى فرنسا لبحث عصر الثورة الفرنسية ، وكما انقطع غيره من العلماء لبحث عصر أو عصور معينة من التاريخ فى مختلف الأمم ، فحياة محمد جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها . وليس يساورنى شك فى أن الانقطاع والبحث العلمى فى هذه الفترة القصيرة من حياة بلاد العرب واتصالها بحياة الأمم المختلفة فى ذلك العصر ، تفيض نتائجها على العالم كله ، لا على الاسلام والمسلمين وحدهم ، أغزر الثمرات ، وتجلو أمام العلم كثيراً من المسائل النفسية

الكتاب بداية البحث

والروحية ، فضلا عما تفيض عليه من ضياء فى نواحى الحياة الاجتماعية والخلقية والتشريعية ما يزال العلم يتردد أمامها متأثراً بهذا النزاع الدينى بين الاسلام والنصرانية ، وبهذه المحاولات العقيمة التى يُقْصَد منها إلى «تغريب» الشرق أو تنصير المسلمين مما ثبت على الأجيال فشله واستحالته وسوء أثره فى علاقات أجزاء الانسانية المختلفة .

وأذهبُ الى أبعد مما تقدم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدى الانسانية طريقها الى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . واذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الاسلام ورسوله وتلتمس هذا النور فى ثيوزوفية الهند وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى ، فان رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى جميعاً خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق . فالتفكير الاسلامى — على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الانسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعى بحت — ينقلب تفكيراً ذاتيًّا حين يتصل الأمر بعلاقة الانسان بالكون وخالق الكون ، ويبدع لذلك فى النواحى النفسية والنواحى الروحية آثاراً قد يقف العلم بوسائله حائراً أمامها ، لا يستطيع أن يثبتها أو ينفيها ، وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية ، ثم هى تظل مع ذلك قوام سعادة الانسان فى الحياة ومقوِّمة سلوكه فيها . فما الحياة ؟! وما الكون ؟! وما صلة الانسان بهذا الكون ؟ وما حرصه على الحياة ؟! وما هى العقائد المشتركة التى تبعث فى الجماعات القوة المعنوية التى تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة ؟! وما الوجود ؟! وما وحدة الوجود ؟! وما مكان الانسان من الوجود ووحدته ؟! هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدى ووجدت منه أدباً مترامى الأطراف . لكنك تجد حلّها فى حياة محمد وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق

فائدة البحث الانسانية عامة

التجريدى الذى أفنى فيه المسلمون قروناً منذ العهد العباسى ، وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، مما انتهى بالغرب الى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى ، ثم وقف العلم فى الماضى كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الانسانية . ولا سبيل لدرك هذه السعادة إلا العود لحسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغير سننها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبى لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هى لاريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد ، ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال فى مراتب أوليّة لبعد ما بينها وبين الصلة الالهيّة التى أفاء الله على رسوله . وأكبر ظنى أن كلتا هاتين الدراستين خليقتان يوم يتاح لهما التوفيق أن تنقذا عالَمنا الحاضر من وثنية تورّط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنية جعلت المال وحده معبوداً ، وسخرت كل ما فى الوجود من علم وفن وخُلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده .

قد يكون هذا التوفيق مايزال بعيداً . لكن طلائع القضاء على هذه الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر ، وتوجه الحضارة الحاكمة فيه ، تبدو واضحة لكل من تتبع سيرة العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد النبى وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم كأثر من آثاره .. وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الانسانية الكمينة مزيداً من اتصال بنى الأنسان بحقيقة الكون العليا ، كان ذلك الحجر الأول فى أساس الحضارة الجديدة .

وهذا الكتاب ليس إلا محاولة بَدَائية فى هذه السبيل كما قدمت . وبحسبى أن يُقنع هذا الكتاب الناس بما فيه ، وأن يقنع العلماء والباحثين

بضرورة الانقطاع والتخصص لبلوغ الغاية من بحث موضوعه . ولو أنه أثمر أيا من هذين الأثرين أو كليهما لكان ذلك أكبر جزاء أرجو عن المجهود الذى بذلت فيه . والله يجزى المحسنين .

محمد حسين هيكل

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الاسلام

مهد الحضارة الأولى – اليهودية والمسيحية — الفرق المسيحية وتناحرها
مجوسية فارس — شبه جزيرة العرب — طريقا القوافل فيها
اليمن وحضارتها — بقاء شبه الجزيرة على الوثنية

مهد الحضارة الانسانية

ما يزال البحث فى تاريخ الحضارة الانسانية وأيان كان منشؤها متصلا إلى عصرنا الحاضر . وكان هذا البحث قد استقر زماناً طويلا عند القول بأن مصر كانت مهد هذه الحضارة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مضت ، وأن ما قبل هذا الزمن يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ مما يتعذر الكشف عنه بطريقة علمية صحيحة . أمّا اليوم فقد عاد علماء الآثار ينقّبون فى العراق وفى سوريا يريدون الوقوف على أصل الحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية وتحقيق العصر الذى ترجع هذه الحضارات إليه ، أهو سابق عصر الحضارة المصرية الفرعونية مؤثر فيها ، أم هو لاحق عصر هذه الحضارة متأثر بها ؟ ومهما يسفر تنقيب علماء الآثار عنه فى هذه الناحية من نواحى التاريخ فهو لا يغير شيئاً من حقيقة لمـّا يكشف التنقيب فى آثار الصين والشرق الأقصى عما يخالفها . هذه الحقيقة هى أن مهد حضارة الانسان الأولى ، سواء أكان فى مصر أم فى فينيقيا أم فى آشور ،كان متصلا بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن مصر كانت أقوى المراكز التى أصدرت الحضارة الأولى إلى اليونان وإلى رومية ، وأن حضارة عالمنا فى هذا العصر الذى نعيش فيه ما تزال وثيقة الصلة

بتلك الحضارة الأولى ، وأن ما قد يكشف البحث عنه فى الشرق الأقصى من تاريخ الحضارة فى تلك الأقطار لم يكن له فى عصر ما أثر يذكر فى الحضارات الفرعونية والآشورية والاغريقية ، ولم يغير من اتجاه تلك الحضارات وتطوُّرها إلى أن اتصلت بها حضارة الاسلام فأثرت فيها وتأثرت بها وتفاعلت وإياها تفاعلا كانت الحضارة العالمية التى تخضع الانسانية اليوم لسلطانها بعض أثره .

حوضا الروم والقلزم

وقد ازدهرت تلك الحضارات التى انتشرت على شواطىء البحر الأبيض أو على مقربة منه فى مصر وآشور واليونان منذ ألوف السنين ازدهاراً ما يزال حتى اليوم موضع دهشة العالم وإعجابه : إزدهرت فى العلم والصناعة والزراعة والتجارة وفى الحرب وفى كل نواحى النشاط الانسانى . على أن الأصل الذى كانت تصدر تلك الحضارات عنه وكانت تستمد قوّتها منه كان أصلا دينياً دائماً . حقا أن هذا الأصل اختلف ما بين التثليث المصرى القديم مصوّراً فى أوزوريس وإيزيس وهورَسَ مشيراً إلى وحدة الحياة فى انهيارها وتجددها ، وما بين الوثنية اليونانية فى تصويرها للحق والخير والجمال تصويراً مستمداً من مظاهر الكون الخاضعة للحس ، كما اختلف من بعد ذلك اختلافا هوى بهذا التصوير فى عصور الانحلال المختلفة إلى دنيا المراتب . لكنه بقى دائماً أصل هذه الحضارات التى شَكلت مصير العالم ، كما أنه قوِى الأثر فى حضارة هذا العصر الحاضر ، وإن حاولت هذه الحضارة أن تتخلص منه وتقف فى وجهه وقوفاً ما يزال الحين بعد الحين يستدرجها اليه . ومن يدرى لعله سيدمجها فيه فى مستقبل قريب أو بعيد مرة أخرى .

حضارات دينية

فى هذه البيئة التى استندت حضاراتها منذ ألوف السنين الى أصل دينى ، نشأ أصحاب الرسالة بالأديان المعروفة حتى اليوم . فى مصر نشأ موسى وفى حِجر فرعون تُرُبِّى وتهذّب ، وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته

عرف الوحدة الالهية وعرف أسرار الكون. فلما أذن الله له فى أداء الرسالة ببلد كان فرعون يقول لأهله « أنا ربكم الأعلى» وقف يجادل فرعون وسحرته حتى اضطره فرعون فهاجر ومعه بنو إسرائيل الى فَلَسْطِين . وفى فلسطين نشأ عيسى روح الله وكلمته التى ألقاها الى مريم . فلما رفع الله عيسى بن مريم اليه ، قام الحواريون من بعده يدعون الى المسيحية التى دعا إليها . ولقى الحواريّون ومن اتبعهم أشد العنت ، حتى إذا أذن الله للمسيحية أن تنتشر حمل علمها عاهلُ رومية صاحبة السيادة على العالم يومئذ ، فدانت الأمبراطورية الرومانية لدين عيسى ، وانتشرت المسيحية فى مصر والشام واليونان ، وامتدت من مصر الى الحبشة ، وظلت ستة قرون متتابعة يزداد سلطانها اتساعاً ويستظل بلوائها كل من استظل بلواء رومية ، وكل من طمع فى مودّتها وفى حسن العلاقة بها .

المسيحية والمجوسية

تجاهَ هذه المسيحية التى انتشرت فى ظل لواء رومية ونفوذها وقفت مجوسية الفرس تؤازرها قوى الشرق الأقصى وقوى الهند المعنوية . وقد ظلت آشور وظلت مدنية مصر الممتدة فى فنيقيا عصوراً طويلة حائلة دون انتطاح الغرب والشرق وحضارتيهما . على أن دخول مصر وفنيقيا فى المسيحية أذاب هذا الحائل ووقف الغرب والشرق وجهاً لوجه . وقد ظلا عصوراً متصلة وفى نفس كل من هيبة الآخر ما أقام مكان ذلك الحائل الطبيعى الأوّل حائلا معنوياً اقتضى قوتيه أن توجه كلتاهما جهودها وغزواتها فى ناحيتها دون مبادأة الأخرى بالعدوان . وبذلك ظلت غزوات الغرب فى الغرب ، وغزوات الشرق فى الشرق ، وبذلك كان الحائل المعنوى فى مثل مَنعة الحائل الطبيعى ، وكفل تكافؤ القوتين عدم تصادمهما .

وكذلك ظل الحال إلى القرن السادس المسيحى . وفى هذه الأثناء بدأت المنافسة بين رومية وبيزنطة ، وبدأت أعلام رومية ، التى أظلت من قبل

بيزنطة وارثة رومية

يوليوس قيصر وفى أثناء حكمه ربوع أوربا الى الغال وإلى السلت فى انكلترا ، تنطوى وتنكمش رويداً رويداً ، حتى أغار الفندال الهمج على رومية واستولوا عليها وعلى سلطانها ، وانفردت بيزنطة بالسلطان وأصبحت وارثة الأمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف . وكان لانكماش رومية وقيام بيزنطة مكانها أثره الطبيعى فى المسيحية التى نشأت فى أحضان رومية وتأثرت بحضارتها وتعاليمها . بدأت المذاهب تتعدد وينقسم كل مذهب على توالى الزمن فرقاً وأحزاباً ، ولكل شيعة فى طقوس الدين وأسسه رأى يخالف رأى الشيعة الأخرى . وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها فى الرأى تنكراً أنتج العداوة الشخصية التى تلمسها حيثما دبّ الضعف الخلقى والذهنى الى النفوس فجعلها سريعة الى الخوف سريعة لذلك الى التعصّب الأعمى والجمود العقيم . كان من بين طوائف المسيحية فى تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى جسداً يزيد على طيف كان يتبدّى به للناس ! وكان من بينها من يزاوجون بين شخصه ونفسه زواجاً روحياً يحتاج الى كثير من كدّ الخيال والذهن لتصوّره . وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعد وضع المسيح . وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدلَ أيام الانحلال فى كل أمة وعصر . كان يقف عند الألفاظ والأعداد يُسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعانى ويُضفى عليه من الأسرار ويحيطه من ألوان الخيال بما يعجز عنه وهم المنطق ولا تسيغه إلا سفسطة الجدل العقيم .

الفرق المسيحية

قال أحد رهبان الكنيسة : « كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل سواء فى الأسواق وعند باعة الملابس وصرافى النقود وباعة الأطعمة . فأنت تريد أن تبدّل قطعة من ذهب ، فاذا بك فى جدل عما خلق وما لم يخلق . وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله: الأب أعظم من الابن والابن خاضع له .

وأنت تسأل عن حمامك وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم » .

على أن هذا الانحلال الذى طرأ على المسيحية فجعلها أحزابا وشيعاً لم يكن ذا أثر قوى فى كيان الأمبراطورية الرومانية السياسى . بل ظلت هذه الأمبراطورية قوية متماسكة وظلّت هذه الفرق تعيش فى كنفها فى نوع من النضال لم يتعدّ الجدل الكلامى ولم يتعد المؤتمرات اللاهوتية تعقد لتُبتّ فى مسألة من المسائل ، فلا يكون لقرار طائفة ما من السلطان ما يلزم الطوائف أو الفرق الأخرى . وأظلت الأمبراطورية هذه الفرق جميعاً بحمايتها ، ومدّت لها جميعاً فى حرية الجدل بما زاد فى سلطان الأمبراطور المدنى من غير أن يضعف من هيبته الدينية ، أن كانت كل فرقة تعتمد على عطفه عليها ، بل تذهب إلى الزعم بأنها تعتمد على تأييده إياها . وهذا التماسك فى كيان الأمبراطورية هو الذى طوّع للمسيحية أن يظل انتشارها فى مسيره وأن يصل من مصر الرومانية إلى الحبشة المستقلة المخالفة لرومية فيجعل لحوض البحر الأحمر من المكانة ما لحوض البحر الأبيض ، وأن ينتقل من الشام وفلسطين حيث اعتنقه أهلها واعتنقه العرب الغساسنة الذين هاجروا اليها ، إلى شواطىء الفرات ليدين به أهل الحِيرة ويؤمن به للخميّون والمَنَاذرَة الذين ارتحلوا من جدب الصحراء وباديتها ليستقرّوا فى هذه المدائن الخِصبة العامرة ، وليكونوا مستقلين زمناً لتحكمهم الفرس المجوسية من بعده .

انحلال المجوسية

فى هذه الأثناء كذلك أصاب المجوسية فى الفرس من أسباب الانحلال ما أصاب المسيحية فى الأمبراطورية الرومانية . وإذا كانت عبادة النار قد ظلّت الظاهرة المجوسية البادية للعيان ، فان آلهة الخير والشر وأتباعها قد انقسمت هى أيضاً عند المجوس فرقاً وطوائف ، ليس هاهنا مكان عرضها . مع ذلك ظل كيان الفرس السياسى قويًّا لم يؤثر فيه هذا الجدل الدينى حول

صور الآلهة والأفكار المطلقة التى ترتسم وراء هذه الصور ، واحتمت الفرق الدينية المختلفة بعاهل الفرس الذى أظلها جميعاً بلوائه والذى ازداد باختلافها قوة على قوة ، أن جعل من اختلافها وسيلة لضرب بعضها ببعض كلما خيف أن تقوى شوكة إحداها على حساب الملك أو على حساب الفرق الأخرى .

بلاد العرب بين القوتين

هاتان القوتان المتقابلتان ، قوة المسيحية وقوة المجوسية ، قوة الغرب وقوة الشرق ، ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما ، كانتا فى أوائل القرن السادس الميلادى تحيطان بشبه جزيرة العرب . ومع ما كان لكل واحدة منهما من مطامع فى الاستعمار والتوسع ، ومع ما كان يبذل رجال الدين فى كلتيهما من الجهود لنشر الدعوة الى العقيدة التى بها يؤمنون ، فقد ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلا فى بعض أطرافها ، آمنة من انتشار الدعوة الدينية ، مسيحيّة أو مجوسية ، إلا فى قليل من قبائلها . وهذه ظاهرة قد تبدو فى التاريخ عجيبة ، لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها وما للموقع والطبيعة من أثر فى حياة أهلها وفى أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم .

صناعة شبه الجزيرة الجغرافية

فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازى الأضلاع ، شماله فلسطين وبادية الشام ، وغربه الحيرة ودجلة والفُرات وخليج فارس ، وجنوبه المحيط الهندى وخليج عَدَن ، وشرقه بحر القلزُم (البحر الأحمر) . فهو إذاً حصين بالبحر من غربه وجنوبه ، حصين بالصحراء من شماله ، وبالصحراء وخليج فارس من غربه . وليست هذه المناعة هى وحدها التى أعفته من الغزو الاستعمارى أو الغزو الدينى ، بل أعفاه كذلك ترامى أطرافه ، إذ يبلغ طول شبه الجزيرة أكثر من ألف كيلو متر ويبلغ عرضها نحو الألف من الكيلومترات . وأعفاه أكثر من هذا جَدْبه جدباً صرف عين كل مستعمر عنه . فليس فى هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد ، وليست لأمطارها فصول معروفة

يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعة إياها . وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بخصب أرضها وكثرة نزول المطر فيها ، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعة جرداء لا تيسّر الاستقرار ولا تجلب الحضارة ولا تشجّع على حياة غير الحياة الباديّة ، حياة الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينة للصحراء وانتجاع المرعى لهذه الابل والاستقرار حيثما يكون هذا المرعى حتى تجيء الابل عليه ، ثم الارتحال من جديد انتجاعا لمرعى جديد . وهذه المراعى التى ينتجعها بدو شبه الجزيرة إنما تنمو حول عين من العيون تتفجر عن ماء المطر الذى يتسلل خلال أرض البلاد الحجرية حتى يتفجر فى ناحية أو فى أخرى، فينبت انفجاره الخضرة المنتثرة ها هنا وهناك فى واحات تحيط بهذه العيون .

طبيعى فى بلادٍ هذه حالها أن تكون كصحراء إفريقية الكبرى لا يقيم بها مقيم ولا تعرف الحياة الانسانية اليها سبيلا . وطبيعى ألاّ يكون لمن يحلّ بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاة بنفسه منها ، إلا فى هذه النواحى القليلة التى تنبت الكلأ والمرعى . وطبيعى أن تظل هذه النواحى مجهولة من الناس ، لقلة من يغامر بحياته لارتيادها . وقد كانت بلاد العرب فيماسوى اليمن مجهولة بالفعل من أهل تلك العصور القديمة .

مجهولة خلا اليمن

لكن موقعها أنجاها من الاقفار حتى لا يقيم بها مقيم . ففى تلك العصور القديمة لم يكن الناس قد أمنوا البحر ليتخذوه مركباً لتجارتهم أو لأسفارهم . وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تنبئنا بما كان من خوف الناس للبحر كخوفهم من الموت . فلم يكن بدٌّ إذًا للاتجار من أن تجد التجارة لها وسيلة انتقال غير هذا المركب الخطر المخوف . وكان أهم انتقال التجارة يومئذ بين الشرق والغرب ، بين رومية وما وراءها والهند وما وراءها . وكانت بلاد العرب هى طريق انتقال هذه التجارة التى كانت تجتاز اليها عن طريق مصر أو



خريطة
بلاد العرب
تركستان
البحر الاسود
بلاد فارس
البحر الابيض المتوسط
بادية الشام
الربع الخالي
حضرموت
مهرة
الاحقاف
الخليج الفارسي
بحر عمان
السودان
الحبشة
سكة حديد بغداد
سكة حديد التركستان
القوقاز
تفليس
باكو
بخارى
اشقباد
مرو
هرات
طهران
تبريزه
اوصروم
قونيه
الموصل
بغداد
كربلاء
البصرة
الكويت
الاهواز
شيراز
كرمان
بندرعباس
دمشق
بيروت
حيفا
عمان
معان
الجوف
تبوك
تيماء
خيبر
المدينة
مكة
الطائف
صنعاء
عدن
زبيد
مسقط
صور
راس الحد
اسوان
اسيوط
الخرطوم
ام درمان
سواكن
مصوع
كسلا
الابيض
مدار السرطان

عن طريق الخليج الفارسىّ متخطية البوغاز الواقع على مدخل خليج فارس .

فكان طبيعيًّا إذاً أن يكون بدو شبه جزيرة العرب هم أمراء الصحراء ، كما أصبح رجال السفن فى العصور التى تلت والتى طغى الماء فيها على اليابسة هم أمراء البحر . وكان طبيعيًّا إذاً أن يرسم أمراء الصحراء هؤلاء طرق القوافل من أنحائها فيما لا يخاف خطره ، كما يرسم رجال البحر خطوط سير السفن بعيدة عن شعاب البحر ومخاطره . يقول هيرن : « لم يكن طريق القافلة شيئاً متروكا للاختيار بل كان مقرراً بالعادة . ففى هذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرملية مما كان رجال القوافل يجتازون ، حبت الطبيعة المسافر بضعة أماكن مبعثرة فى جدب البادية يتخذها موئلا لراحته . وهناك ، فى ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التى تجرى من حولها ، يستطيع التاجر ودابّة حمله أن ينهلا من طيبها ما أحوجهما اليه العنت الذى لقيا . وأصبحت منازل الراحة هذه مستودعات للتجارة ، وصار بعضها مقاماً للهياكل والمحاريب ، يتابع التاجر فى حمايتها تجارته ويلجأ الحاج اليها لالتماس العون منها . » [1]

أمراء الصحراء

طريقا القوافل

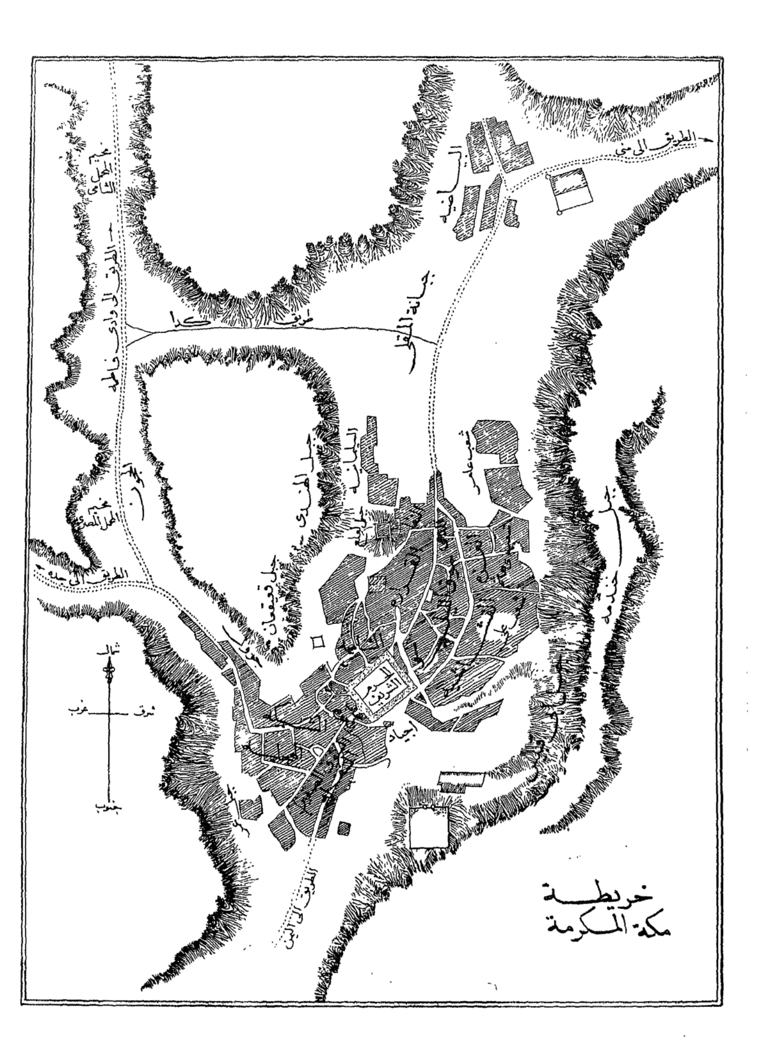
وكانت شبه الجزيرة تموج بطرق القوافل . على أن طريقين منها كانا رئيسيين ؛ فأمّا أحدهما فيتاخم الخليج الفارسى ويتاخم دِجلة ويقتحم بادية الشام إلى فلسطين ؛ ويصح لمجاورته لحدود البلاد الشرقية أن يسمى طريق الشرق . وأمّا الآخر فيتاخم البحر الأحمر ؛ ويصح لذلك أن يسمى طريق الغرب . وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغرب إلى الشرق ومتاجر الشرق إلى الغرب ، وكانت تجبى إلى البادية أسباب الرخاء والرفاهية . على أن ذلك لم يزد أهل الغرب معرفة بهذه البلاد التى تجتاز تجارتهم ؛ فقد كان الذين يعبرونها من أهل الشرق والغرب قليلون : لما فى عبورها من مشقة لا يحتملها إلا الذين اعتادوها منذ نعومة أظفارهم ، والمجازفون الذين يستهينون

(١) نقله موير فى كتابه (حياة محمد)

بالحياة والذين كانوا كثيراً ما يضيعونها فى هـذه المهامه والفدافد عبثاً . وما احتمال رجل اعتاد بُلَهْنِية الحضر لوعث هذه الجبال الجرداء التى تفصل تهامة بينها وبين شاطىء البحر الأحمر بفاصل ضيّق ؛ فاذا بلغها المسافر فى تلك الأيام التى لم تعرف غير الجمل مطية للسفر ظل يصعد بين قممها حتى تقذفه إلى هضاب نجد الصحراوية القليلة الغناء ! . وما احتمال رجل اعتاد النظام السياسى الذى يكفل للناس جميعاً طمأنينتهم لعنت هـذه البادية التى لا يعرف أهلها نظاماً سياسيًّا ، بل تعيش كل قبيلة بل كل أسرة بل كل فرد وليس ما ينظّم علاقاته بغيره إلا روابط عصبية الأسرة والقبيلة ، أو قوة الحلف ، أو حِمَى الجوار يلتمس الضعيف به رعاية قوى إياه . فقد كانت حياة البـادية فى كل العصور حياة خارجة على كل نظام عرف الحضر ؛ مطمئنة إلى العيش فى حمى مبادىء القصاص ، ودفع العدوان بالعدوان ، واغتيال الضعيف ما لم يجد من يجيره . وليست هـذه بالحياة التى تشجع التطلّع إلى استكناه أخبارها والتحقق من تفاصيل نُظُمها . لذلك ظلت شبه الجزيرة مجهولة من سائر العالم يومئذ ، إلى أن أتاحت لها الأقدار ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، أن يقص أخبارها من نزح عنها من أهلها وأن يقفوا العـالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك فى أتم الجهل به .

حضارة اليمن

لم يَنِدّ من بلاد العرب عن جهالة العالم به سوى اليمن وما جاورها من البلاد المتاخمة للخليج الفـارسى . وليس يرجع ذلك إلى متاخمتها الخليج الفارسى أو المحيط الهندى أو البحر الأحمر وكفى ، ولـكنه يـرجع قبل ذلك وأكثر منه إلى أنها لم تـكن كسائر شبه الجزيرة صحراوية جرداء لا تلفت العالم ولا تجعل لدولة من صداقتها فائدة ولا لمستعمر فيها مطمعاً ، بل كانت على العكس من ذلك موطن خِصْبٍ فى الأرض ومطر منتظم الفصول فى تهتانه ، ومن ثم موطن حضارة مستقرة ذات مدائن عامرة ومعابد قوية على نضال



خريطة
مكة المكرمة
الطريق الى منى
طريق كدا
مخيم المحمل الشامى
مخيم المحمل المصرى
الطريق الى جده
جبل قيقعان
الحرم الشريف
اجياد
شعب عامر
جبانة المعلى
الطريق الى اليمن
شمال
جنوب
شرق
غرب

الزمان . وكان سكانها من بنى حِمْيَر ذوى فطنة وذكاء وعلم هداهم إلى حسن الاستفادة من الأمطار حتى لا تتسرب إلى البحر فوق الأرض المنحدرة إلى ناحيته ؛ ولذلك أقاموا سدّ مأرب ، فحوّروا اتجاهها الطبيعى تحويراً تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار . وكانت الأمطار إلى أن أقيم هذا السدّ تنزل بجبال اليمن المرتفعة ثم تنحدر فى وديان واقعة إلى شرق مدينة مأرب . وكانت فى انحدارها الأوّل تنزل بين جبلين يقومان عن جانب هذه الوديان يفصل بينهما أربعمائة متر تقريباً ؛ فاذا بلغت مأرب انفرج الوادى انفراجاً تضيع المياه فيه كما تضيع فى منطقة السدود بأعالى النيل . وكان سدّ مأرب قد شُيِّد بالحجر عند مضيق الوادى ، وجعلت له فتحات يمكن تصريف المياه منها وتوزيعها إلى حيث يشاء الناس لتروى الأرض وتزيدها خصباً وإثماراً .

وإن ما كشف وما لا يزال يكشف عنه حتى اليوم من آثار هذه الحضارة الحميرية فى اليمن ليدل على أنها بلغت فى بعض العصور مكاناً محموداً ، وأنها صَمَدَت لقسوة الزمان فى عصور قسا باليمن فيها الزمان .

اليهودية والنصرانية فى بلاد اليمن

على أن هذه الحضارة وليدة الخصب والاستقرار جلبت على اليمن من الأذى ما منح الجدب منه أواسط شبه الجزيرة . فقد ظل ملك اليمن فى بنى حمير يتوارثونه حيناً ويثب عليه حميرىٌّ من الشعب حيناً آخر حتى ملكهم ذو نُوَاس الحميرىّ . وكان ذو نواس هذا ميّالا إلى دين موسى راغباً عن الوثنية التى تورّط فيها قومه ، أن كان من اليهود من هاجر إلى اليمن وأقام بها . والى جانب هؤلاء اليهود قام بعض النصارى بنَجْرَان ، اتبعوا رجلا صالحاً من أتباع عيسى يدعى فيميون . وذونوَاس الحميرىّ هذا هو ، فيما يذكر المؤرخون، صاحب قصة أصحاب الأخدود التى نزل فيها قوله تعالى : « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ

الحميدِ ». وخلاصة هـذه القصة أن ذا نواس ، وكان ذا ميل لليهودية ، نمى اليه استفحال النصرانية فى نجران ، فسار اليها ودعا أهلها إلى دين بنى إسرائيل أو يقتلوا . فلما أبوا شق لهم أخدوداً أوقد فيه النار ثم ألقى بهم فيها وقتل بالسيف من لم يمت بالنار ، ومثَّل بهم ، حتى هلك منهم ، على رواية كتب السيرة ، عشرون ألفاً . وقد فر أحد هؤلاء النصارى من القتل ومن يد ذى نواس حتى أتى قيصر الروم جوستنيان فاستنصره على ذى نواس . ولما كانت الروم بعيدة عن اليمن كتب القيصر الى النجاشى ليأخذ بالثأر من ملك اليمن . ويومئذ (فى القرن الخامس الميلادى) كانت الحبشة والنجاشى على رأسها فى ذروة مجدها ، تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة ، ويمخر لها العُبابَ أسطولٌ قوىٌ يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذاها من البلاد ؛ وكانت حليفة الامبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بيزنطة رافعة علمها على البحر الأبيض . فلما بلغت النجاشى رسالة القيصر بعث مع اليمنى الذى كان قد فرّ وجاء بالرسالة جيشاً ، جعل على رأسه أرياط ومعه فى جنده أبْرَهة الأشْرَم ، فغزا اليمن وملكها باسم عاهل الحبشة ، وظل على حكمها حتى قتله أبرهة واستولى على الحكم مكانه . وأبرهة هذا هو صاحب الفيل ، وهو الذى غزا مكة ليهدم الكعبة ففشِل ، على نحو ما سيرى القارىء فى الفصل الآتى .

وملك أبناء أبرهة اليمن من بعده وفشا فيها استبدادهم ، حتى إذا طال على الناس البلاء خرج سَيْف بن ذى يَزَن الحميرىّ حتى قدِم على ملك الروم فشكا اليه ما هم فيه وسأله أن يبعث اليهم من الروم من يكون له ملك اليمن . لكن حِلْف القيصر والنجاشى حال دون سماعه شكاية ابن ذى يَزَن؛ فخرج من عند القيصر حتى أتى النُّعْمان بن المُنْذِر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق .

حكم فارس اليمن

فلما دخل النعمان على كسرى أبرويز دخل سيف بن ذى يزَن معه. وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دَارا، وكانت موشّاة بصور نجوم المجرّة من أعلام فلك البروج؛ فاذا كان فى مشتاه وضعت هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفس الفِرَاء تتدلّى أثناءه ثُريّات من فضة وأخرى من ذهب ملئت بالماء الفاتر ونصب فوقها تاجه العظيم يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة مشدوداً إلى السقف بسلسلة من ذهب، وكان يلبس نسيج الذهب ويتّشح بحلىّ الذهب؛ فما يلبث أن يراه من يدخل إلى مجلسه حتى تأخذه هيبته. وكذلك كان شأن سيف بن ذى يزَن. فلما تطامن وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قصّ له أمر الحبشة وظلمها اليمن. وتردد كسرى بادىء الرأى، ثم بعث معه جيشاً على رأسه وَهْرِز من خير بيوت فارس وأكثرها فروسية وشجاعة. وتغلب الفرس وأجلوا الأحابش عن اليمن بعد أن ملكوها اثنتين وسبعين سنة. وظلت اليمن فى حكم فارس حتى كان الاسلام ودخلت مع سائر البلاد العربية فى دين الله وفى الامبراطورية الاسلامية.

حكم شيرويه فى فارس

على أن الأعاجم الذين تولوا أمر اليمن لم يكونوا تابعين تبعية مباشرة الى ملك فارس. وكان الأمر كذلك بنوع خاص بعد أن قتل شِيرَوَيْهِ أباه كسرى أبرويز وقام فى الملك مقامه، وخُيّل اليه فى غرارة سذاجته أن العوالم تسير على هواه، وأن ممالك الأرض تعمل لملء خزائنه ولتزيد فيما أغرق فيه نفسه من نعيم. فلقد انصرف هذا الملك الشاب عن كثير من شؤون الملك الى مُتَعه وملذّاته؛ فكان يخرج للصيد فى ترَف لم تسمع به أذن؛ كان يخرج يحيط به الشبان الأمراء فى ثياب حمر وصفر وبنَفْسَجية ومن حولهم حملة البُزَاة والخدم يمسكون الفهود الأليفة بالكمامات، والعبيد حملة الطيب ومطاردو الذباب والموسيقيون. وليشعِرَ نفسه فى قرّ الشتاء ببهاء الربيع كان

يجلس وحاشيته على بساط فسيح صوّرت عليه طرق المملكة ومزارعها وفيها الأزهار المختلفة الألوان من ورائها الأحراش والغابات الخضر والأنهار ذات اللون الفضىّ. على أن فارس، رغم انصراف شيرويه إلى مسرّاته، كانت ما تزال فى قمة مجدها، وكانت المنافس القوى لسلطان بيزنطة ولانتشار المسيحية، وإن كان اعتلاء شيرويه عرشها قد آذن بأفول هذا المجد ومهّد لغزو المسلمين من بعدُ إياها ولانتشار الاسلام فيها.

انهيار سد مأرب

هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى كان عميق الأثر فى تاريخ شبه جزيرة العرب من حيث توزيع سكانها. فقد قيل: إن سدّ مأرب الذى حوّر الحميريون الطبيعة به لفائدة بلادهم، قد طغى عليه سيل العَرِم لحطمه، أن كانت هذه المنازعات المستمرة قد صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهّده والاستمرار فى تقويته، فضعف فلم يقو على صد هذا السيل. وقيل: إن ملك الروم لما رأى اليمن موطن نزاع بينه وبين فارس وأن تجارته مهددة من جراء هذا النزاع، جهّز أسطولا يشق البحر الأحمر ما بين مصر وبلاد الشرق البعيدة ويجلب التجارة التى تحتاج إليها بيزنطة، ويستغنى بذلك عن طريق القوافل. ويذكر المؤرخون واقعة يتفقون عليها ويختلفون فى السبب الذى أدى إليها. هذه الواقعة هى هجرة أزْد اليمن إلى الشمال. فكلهم يقول بهذه الهجرة وإن نسبها بعضهم إلى إقفار كثير من مدائن اليمن بسبب اضمحلال التجارة التى كانت تمر بها، وعزاها آخرون الى انقطاع سد مأرب واضطرار كثير من القبائل إلى الهجرة مخافة الهلاك. وأينما كانت الحقيقة فهذه الهجرة هى السبب فى اتصال اليمن بسائر بلاد العرب اتصال نسب واختلاط ما يزال الباحثون يحاولون حتى اليوم تحديده.

إذا كان النظام السياسى قد اضطرب فى اليمن على نحو ما رأيت بسبب الظروف التى مرت بلاد الحميريين بها؛ والغزوات التى كانت تلك البلاد ميدانا

نظام شبه الجزيرة الاجتماعي

لها ، فقد كان هذا النظام السياسي غير معروف في سائر بلاد شبه الجزيرة . وكل نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسي على المعنى الذى نفهمه نحن اليوم أو الذى كانت الأمم المتحضرة تفهمه فى تلك الأيام ، كان مجهولا وأكثر من مجهول فى ربوع تهامة والحجاز ونجد وتلك المساحات الشاسعة التى منها كانت تتكوّن بلاد العرب ؛ فقد كان هؤلاء الناس ، كما لا يزال أكثرهم حتى اليوم ، أهل بادية لا يألفون الحضر ، ولا يطيب لهم المقام ولا الاستقرار بأرض معينة ، ولا يعرفون غير دوام الارتحال والنقلة طلباً للمرعى وإرضاء لهوى نفوسهم التى لم تعرف غير حياة البادية ولا تطيق حياة غيرها . وأساس حياة البادية ، حيث وجدت من بقاع الأرض ، إنما هى القبيلة . والقبائل الدائمة التجوال والترحال لا تعرف قانوناً كالذى نعرف ، ولا تخضع لنظام كالذى نخضع له ، ولا تصبر على مادون الحرية كاملة للفرد وللأسرة وللقبيلة كلها . وإذا كان أهل الحضر يرضون النزول باسم النظام عن جانب من حريتهم للمجموع أو للحاكم الفرد مقابل ما ينعمون به من طمأنينة ورخاء ، فرجل البادية الزاهد فى الرخاء التبرم بطمأنينة الاستقرار ، لا يخدعه عن شىء من حريته الكاملة رجاء فيما يفرح به أهل المدن من جاه أو مال ، ولا يرضى بما دون المساواة الكاملة بينه وبين أفراد قبيلته جميعاً وبين قبيلته وغيرها من القبائل . وإنما ينتظم حياته ما ينتظم سائر الخلق من حب البقاء والحرص عليه والدفاع عنه ، على أن يكون ذلك كله متفقاً مع قواعد الشرف التى تمليها حياة البادية الحرة ، لذلك لم يكن أهل هذه البادية يقيمون على ضيم يُراد بهم . بل كانوا يدفعونه بقوتهم ، فان لم يستطيعوا دفعه تخلّوا عن مواطنهم وارتحلوا عن شبه الجزيرة كلها إذا لم يكن من هذا الارتحال بدّ . لذلك لم يكن شىء أيسر عند هذه القبائل من القتال إذا نبت خلاف لم يتيسر فى ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف تسويته .

الخلال البدوية

ولذلك نجمت فى هذه القبائل خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند القدرة وما إلى ذلك من خلال تقوى فى النفس كلما قاربت حياة البادية ، وتضعف وتضمحل فيها كلما أوغلت فى أسباب الحضارة . ولذلك ولما قدمنا من أسباب اقتصادية ، لم تطمع بيزنطة ولا طمعت فارس فيما سوى اليمن من بلاد شبه الجزيرة التى لا يمكن أن تخضع ؛ لأنها تؤثر على الخضوع هجرة الوطن ، ولأن أفرادها وقبائلها لا يدينون بالطاعة لنظام قائم ولا لهيئة حاكمة يكون إخضاعها إخضاعا لهم والسلطان عليها سلطانا عليهم .

وقد أثرت هـذه الطبائع البدوية ، إلى حد كبير ، فى البلاد القليلة التى نشأت فى أنحاء شبه الجزيرة بسبب تجارة القوافل على نحو ما قدمنا . هـذه البلاد الصغيرة التى يأوى إليهـا التجار يقطعون عندها متاعب رحلاتهم المضنية ويجدون بها هياكل عبادة يشكرون فيها الآلهة أن منّت عليهم بالنجاة من أخطار الفلوات ، وأن جلبت تجارتهم سالمة إلى حيث وصلوا . من هذه البلاد مكة والطائف ويثْرِب وأشباهها من الواحات المنثورة بين الجبال أو خلال رمال الصحراء . تأثرت هذه البلاد بطبائع البادية ، فكانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة فى نظام قبائلها وطوائفها وفى أخلاق أهلها وعاداتهم وفى شدة نفورهم من كل حدٍّ لحريتهم ، وإن اضطرتهم حياة الاستقرار إلى نوع من الحياة غير ما اعتاد أهل البادية . وسنرى شيئاً من تفصيل ذلك عند الكلام فى الفصول الآتية عن مكة وعن يثرب .

وثنية العرب وأسبابها

هذه البيئة الطبيعية وما ترتّب عليها من هذه الأحوال الخلقية والسياسية والاجتماعية كان لهـا أثر مشابه فى الحال الدينية . فهل تأثرت اليمن ، بطبيعة اتصالها بمسيحية رومية ومجوسية الفرس ، بهذين الدينين وأثرت بهما فى سائر بلاد شبه الجزيرة ؟ هـذا ما يتبادر إلى الذهن ، وهو كذلك بنوع خاص فى أمر المسيحية . فالمبشرون بدين عيسى كان لهم فى ذلك العصر ما لهم اليوم من

نشاط فى الدعوة إلى دينهم والتبشير به . وفى طبيعة حياة البادية من تحريك المعانى الدينية فى النفس ما ليس فى طبيعة حياة الحضر . فى حياة البادية يتصل الانسان بالكون فى كثير من صور لا نهاية الوجود وألوانها، ويشعر بضرورة تنظيم ما بينه وبين الوجود فى لا نهايته أكثر من شعور المقيم بالحضر، المحجوب عن لا نهاية الوجود بمشاغله وبحماية الجماعة إياه ونزوله عن جانب من حريته مقابل هذه الحماية ، وبضعف روح النضال ضد العناصر المحيطة به ضعفاً يهوّن عليه الاذعان لسلطان الحاكم ويقصر به عن الاتصال بما وراء الحاكم من القوى الطبيعية القوية الأثر فى الحياة . تُرى هل أفادت هذه الظروف كلها المسيحية الجمة النشاط منذ عصورها الأولى فى سبيل ذيوعها وانتشارها؟! ربما انتهى الأمر إلى ذلك لولا ظروف أخرى حالت دونه وأبقت بلاد العرب كلها واليمن معها على الوثنية دين آبائها وأجدادها ، إلا قليلا كان من القبائل التى لانت للدعوة المسيحية .

نشاط المسيحية

فقد كانت أقوى مظاهر الحضارة العالمية فى ذلك العصر تحيط ، كما رأيت ، بحوضى البحر الأبيض (بحر الروم) والبحر الأحمر (بحر القُلْزُم) ، وكانت المسيحية واليهودية تتجاوران فى ذلك المحيط جواراً إلا يكن فيه عداء ظاهر فليست فيه مودة ظاهرة . وكان اليهود ما يزالون إلى يومئذ يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجه على دينهم ، فكانوا يعملون فى الخفية ما استطاعوا لصد تيّار المسيحية الذى أخرجهم من أرض الميعاد ، والذى استظل بلواء رومية فى امبراطوريتها الفسيحة المترامية الأطراف ، وكان لليهود فى بلاد العرب جاليات كبيرة يقيم أكثرها فى اليمن وفى يثرب . ثم كانت مجوسية الفرس تقف فى وجه القوّات المسيحية حتى لا تعبُرَ الفرات إلى فارس ، وتؤيد بقوتها المعنوية طقوس الوثنية حيثما وُجدت الوثنية . وكان سقوط رومية فى يد الفندال الهمج وانتقال عاصمة حضارة العالم إلى بيزنطة وما تلا ذلك من

المسيحية واليهودية

بوادر التحلل، قد أكثر الشيع فى المسيحية كثرة جعلتها — كما قدمنا — تتناحر وتقتتل وتهوى من عليا مراتب الايمان الى الجدل فى الصور والألفاظ وفى مبلغ قداسة مريم وتقدمها على ابنها المسيح أو تقدمه عليها، جدلاً هو النذير أنى وُجد بتدهور ما يجرى بشأنه وما يحتدم من أجله؛ ذلك بأنه يذر اللب ويأخذ بالقشور، ويظل يكدس من هذه القشور فوق اللب ما يخفيه وما يجعل من المحال على الناس إدراكه أو اختراق حجب القشور اليه.

تناحر الفرق المسيحية

وقد كان ما يحتدم جدل نصارى الشام حوله غير ما يحتدم جدل أهل الحيرة أو أهل الحبشة حوله. ولم يكن اليهود بطبيعة صلتهم بالنصارى ليعملوا على تهدئة هذا الجدل أو التسكين من حدته. لذلك كان طبيعيًّا أن يظل العرب الذين يتصلون فى رحلتى الشتاء والصيف بنصارى الشام وبنصارى اليمن ومن يفدون عليهم من نصارى الحبشة بعيدين عن أن ينتصروا لفريق على فريق، مطمئنين إلى وثنيتهم التى وُلدوا فيها وتابعوا آباءهم عليها. ولذلك ظلت عبادة الأصنام مزدهرة عندهم، حتى امتد شىء من أثرها إلى جيرانهم نصارى نجران ويهود يثرب الذين تسامحوا فى أمرها ثم احتملوها ثم اطمأنوا إليها، أن كانت من صلات التجارة الحسنة بينهم وبين هؤلاء العرب الذين يعبدونها لتقربهم إلى الله زُلفى.

انتشار الوثنية

ولعل تناحر الفرق المسيحية لم يكن وحده السبب فى إصرار العرب على وثنيتهم؛ فقد كانت الوثنيات المختلفة ما تزال لها بقايا فى الأمم التى انتشرت المسيحية فيها. كانت الوثنية المصرية والوثنية الاغريقية ما تزالان تتبديان من خلال المذاهب المختلفة، ومن خلال بعض المذاهب المسيحية نفسها. وكانت مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ما تزال ذات أثر، إن يكن أقل بكثير مما كان فى عهد البطالسة وفى أول العهد المسيحى، فقد كان على كل حال ما يزال متغلغلا فى النفوس، وما يزال منطقه البراق المظهر، وإن يكن سفسطائى الجوهر،

يغرى بهذه الوثنية المتعددة الآلهة القريبة بآلهتها إلى سلطان الانسان المحببة لذلك إليه . وأكبر ظنى أن هذا هو ما يشتد بالنفوس الضعيفة إلى الحرص على الوثنية فى كل الأزمان وفى زماننا هذا . النفوس الضعيفة أعجز من أن تسمو للاتصال بالوجود كله ولادراك وحدته ممثلة فيما هو أسمى من كل ما فى الوجود : ممثلةً فى الله ذى الجلال . وهى لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو كالقمر أو كالنار ، ثم تضعف عن الارتفاع بنفسها الى تمثل هذا المظهر فيما يدل عليه هو أيضاً من وحدة الوجود .

هذه النفوس الضعيفة تكتفى بوثن يتمثل لها فيه معنى مبهم وضيع من الوجود ووحدته ، فتتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور العبادة ما لا تزال تراه فى بلاد العالم جميعاً ، برغم ما يزعم هذا العالم من تقدُّم فى العلم وسمو فى الحضارة . وإن الذين زاروا كنيسة القدِّيس بطرس فى رومية ورأوا قدَم تمثال القدِّيس تبريها قبلات عبادة المؤمنين ، حتى لتضطر الكنيسة الى تغييرها كلما انبرت ، ليعذرون أولئك الذين لما لم يكن الله قد هداهم الى الايمان ، إذ يرون تناحر جيرانهم النصارى وبقاء طقوس الوثنية بينهم بقاء لم ينقطع حتى اليوم وما أحسبه ينقطع أبداً ، وبقاء يفسر هذه الوثنية التى يرتضيها المسلمون اليوم فى دينهم ، وهو الذى جاء حرباً على الوثنية ، وهو الذى قضى على كل عبادة غير عبادة الله ذى الجلال .

عبادة الأصنام

ولقد كانت للعرب فى عبادة الأوثان أفانين شتى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها ؛ فقد حطم النبى الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما ثقفوها ، وتناهى المسلمون عن التحدث عنها بعد أن عفَوا على آثارها وأزالوا من الوجود فى التاريخ وفى الأدب كل ما يتصل بها . على أن ماورد من ذكرها فى القرآن وما تناقلته الروايات فى القرن الثانى للهجرة عنها بعد إذ أمن المسلمون الفتنة منها ، ينبىء عما كان لها قبل الاسلام من جليل المكانة وما كانت

عليه من مختلف الصور ، ويدل على أنهـا كانت درجات فى القداسة ، وأن كل قبيلة كان لها صنم تدين له . وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثن والنُّصُب . فالصنم ما كان على شكل الانسـان من معدن أو خشب . والوثن ما كان على شكله من حجر . أمّا النُّصُب فصخرة غـير ذات صورة معينة تجرى عليها قبيلة من القبائل طقوس القداسة لما تزعمه من أصلها السماوى أن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه . ولعل أدق الأصنـام صنعاً ما كان لأهل اليمن . ولا عجب ، لحظهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكندة . على أن كتب الأصنام لا تشير بالدقة إلى شىء من صور هذه الأصنـام إلا ما قيل عن هُبَل من أنه كان من العقيق على صورة الانسان ، وأن ذراعه كسر فأبدله القرشيون منه ذراعاً من ذهب . وهُبَل كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة ، يحج اليه الناس من كل فج عميق . ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنـام الكبرى يقدّمون اليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان أكثرهم يتخذ له صنما أو نُصُباً فى بيته ، يطوف به حين خروجه وسـاعة أوبته ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر . وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تعتبر الوسيط بين عبّادها وبين الاله الأكبر . وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تتقرب بهـا إلى الله ، وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام .

مكانة مكة

وعلى الرغم من أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارة بسبب خصبها وحسن تنظيم انحدار الميـاه إلى أرضها ، فانها مع ذلك لم تكن مطمح بصر أهل هـذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ولم يكن إلى معابدها حجيجهم ؛ وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مَثَابة الحج . إليها كانت تُشَدّ الرحال والأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها كانت تُرعى الأشهر

الحرم . لذلك ولمركزها الممتاز فى شؤون تجارة بلاد العرب كلها ، كانت تعتبر عاصمة شبه الجزيرة . ثم أراد القدر من بعدُ أن تكون مسقط رأس محمد النبى العربى ، فتكون بذلك مُتَّجَهَ نظر العالم على توالى القرون ، وتظل لبيتها العتيق قَداسته ، وتبقى لقريش فيها المكانة السامية ، وإن ظلت وظلوا جميعاً أدنى إلى خشونة البداوة التى كانوا عليها منذ عشرات القرون .

الفصل الثاني

مكة . والكعبة . وقريش

موقع مكة — ابراهيم واسماعيل — قصة الفداء والذبح — زمزم
زواج إسماعيل من جرهم — بناء الكعبة — ولاية جرهم أمر مكة
قصي وأولاده — اجتماع أمر مكة لقصى القرشي — هاشم وعبد المطلب
وظائف مكة الزمنية والدينية — الحاج الى الكعبة — قصة أبرهة
والفيل — عبد الله بن عبد المطلب — قصة فدائه

موقع مكة

في وسط طريق القوافل المحاذى للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين، تقوم عدة سلاسل من الجبال تبعد نحو الثمانين كيلومترا من الشاطىء، تحيط بواد غير فسيح وتكاد تحصره لولا منافذ ثلاثة يتصل أحدها بطريق اليمن، ويتصل الثانى بطريق قريب إلى البحر الأحمر (بحر القلزُم) عند مرفأ جُدَّة، ويتصل الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين. فى هذا الوادى المحصور بين الجبال تقوم مكة. ومن العسير معرفة تاريخ إقامتها. وأغلب الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين مضت. والثابت أن واديها اتخذ من قبل أن تبنى موئلا لراحة رجال القوافل، بسبب ما كان به من بعض العيون، وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا يجعلون منها مضارب لخيامهم سواء منهم القادمون من ناحية اليمن قاصدين فلسطين، والقادمون من فلسطين متجهين إلى اليمن. والراجح أن اسماعيل ابن ابراهيم أول من اتخذها مقاماً وسكناً، بعد أن كانت مجرد محلة للقوافل

وسوق للتجارة يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب شبه الجزيرة والمنحدرين من شمالها .

وإذ كان إسماعيل أوّل من اتخذ مكة مقاماً وسكناً فان تاريخها فيما قبل ذلك غامض كل الغموض ، وإن يكن من الممكن القول بأنها اتخذت مقاماً للعبادة قبل أن يجيء إليها ويقيم بها . وقصة مجيئه إليها تحملنا على أن نلخص قصة أبيه إبراهيم عليهما السلام : فقد ولد إبراهيم بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعها من قومه يعبدونها . فلما شبّ إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ثم رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها وكيف يخلعون على هذه القطع من الخشب التي مرّت بين يديه ويدي أبيه كل تلك القداسة ، ساوره الشك في أمرها ، وسأل أباه : كيف يعبدها وهي من صنع يده ؟ ! وتحدّث إبراهيم بذلك إلى الناس ؛ فاهتم أبوه لأمره مخافة ما يجره من بوار تجارته . لكن إبراهيم كان ممن يحترمون عقولهم ويريدون أن يحملوا الناس بالحجة على الاقتناع بآرائهم ؛ فانتهز غفلة من الناس فذهب إلى هذه الآلهة فكسرها إلا كبيرها . فلما جيء به على أعين الناس قيل له : « أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؛ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ » . وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر في ضلال عبادة الأصنام وفيمن تجب له العبادة . « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

ولم ينجح إبراهيم في هداية قومه بل كان جزاؤه منهم أن ألقوه في النار .

ابراهيم عليه السلام

ابراهيم وسارة بمصر

وأنجاه الله منها ففر إلى فلسطين مستصحباً معه زوجه سارّة ، ومن فلسطين ارتحل إلى مصر ، وبها يومئذ ملوك العماليق (الهكسوس) . وكانت سارّة جميلة ، وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات ؛ فأظهر ابراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتخذها له زوجا . وأراد الملك اتخاذها زوجا ، فرأى فى المنام أنها ذات بعل فردّها إلى إبراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر . ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال مع ابراهيم ولم تلد فقد دفعته ليدخل بهاجر ، فدخل بها فلم تبطىء أن ولدت له اسماعيل . ولما شبّ اسماعيل وترعرع دبت الغيرة فى نفس سارة فحملت ثم ولدت إسحاق .

من الذبيح ؟

يختلف الرواة ها هنا على مسألة إقدام ابراهيم على ذبح اسماعيل والفداء وهل كانت قبل ميلاد اسحاق أو بعده ، وهل كانت بفلسطين أو بالحجاز . وإن مؤرخى اليهود ليذهبون إلى أن الذبيح إنما كان إسحاق ولم يكن اسماعيل . وليس ها هنا مقام تمحيص هذا الخلاف . وفى رأى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتاب قصص الأنبياء أن الذبيح هو اسماعيل . ودليله من التوراة نفسها أن الذبيح وصف فيها بأنه ابن ابراهيم الوحيد . وإلى أن ولد إسحاق كان اسماعيل هو الابن الوحيد . فلما ولدت سارة لم يبق لابراهيم ابن وحيد أن كان له اسماعيل وإسحاق . والتسليم بهذه الرواية يقتضى أن تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين . وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق . فقد ظل إسحاق مع أمه سارة بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز . فأما الرواية التى تذهب إلى أن الذبح والفداء إنما كانا فوق مِنًى فتجعل الذبيح اسماعيل . ولم يرد فى القرآن ذكر لاسم الذبيح مما جعل المؤرخين المسلمين يختلفون فيه .

قصة الفداء فى القرآن

وقصة الذبح والفداء أن ابراهيم رأى فى منامه أن الله يأمره بأن يقدم ابنه قُرْباناً له فيذبحه ويُحرقه ؛ فسار وابنه فى الصباح . « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَاأَبَتِ

افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » .

القصة فى رواية التاريخ

وتسبغ بعض الروايات على هذه القصة خيالا شعريًّا تدعونا روعته أن نقصه هنا وإن لم يقتض الحديث عن مكة قصصه : ذلك أن إبراهيم لما رأى فى المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أن ذلك أمر ربه قال لابنه : يا بنىّ خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنحتطب لأهلنا . وفعل الغلام وتبع والده . فتمثّل الشيطان رجلا لجاء أم الغلام فقال لها : أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب به يحتطب لنا من هذا الشِّعْب . قال الشيطان : والله ماذهب به إلا ليذبحه . قالت الأم : كلا ! هو أشفق به وأشد حبًّا له . قال الشيطان : إنه يزعم أن الله أمره بذلك . فأجابت الأم : إن كان الله قد أمره بذلك فليطع أمر ربه . فانصرف الشيطان خاسئا ، ثم لحق بالابن وهو يتبع أباه وألقى إبليس عليه ما ألقى على أمه ، وأجاب الابن بما أجابت هى به . فأقبل الشيطان على إبراهيم يذكر له أن المنام الذى رأى خدعة من الشيطان ليذبح ابنه ثم يندم ولات ساعة مَنْدَم . فصَرفه إبراهيم ولعنه ، فنكص إبليس على عقبيه خزيان محنقا أن لم ينل من إبراهيم ولا من زوجه ولا ابنه ما أراد أن يبلغ منهم . ثم إن ابراهيم أفضى إلى ابنه برؤياه وسأله رأيه فى الأمر . قال : يا أبت افعل ما تؤمر . ثم قال فى رواية القصة الشعرية : يا أبتاه إذا أردت ذبحى فاشدد وثاقى لئلا يصيبك شىء من دمى فينقص أجرى . وإن الموت لشديد ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه ، فاشحذ شَفْرَتك حتى تجهز علىّ ، فاذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكببنى على وجهى ولا تضجعنى لجنبى ، فانى أخشى إن أنت نظرت إلى وجهى أن تدركك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك فىّ . وإن رأيت أن ترد قميصى إلى أمى فقد عسى أن يكون أسلى لها فافعل . قال إبراهيم :

نعم العون يا بنى أنت على أمر الله . ثم إنه همّ بالتنفيـذ فأوثق كتاف الغـلام وتلّه للجبين وأراد أن يقتله ، فنودى أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا . وافتدى الغلام بكبش عظيم وجده إبراهيم على مقربة منه فذبحه وحرّقه .

هذه قصة الذبح والفداء . وهى قصة الاسلام لأمر الله غاية الاسلام والتسليم لقضائه كل التسليم .

وشبّ إسحاق إلى جانب اسماعيل ، وتساوى عطف الأب على الاثنين فأغضب ذلك سارّة أن رأت هـذه التسوية بين ابنهـا وابن هاجر أمتها غير لائقة بها ، وأقسمت لا تساكن هاجر ولا ابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه . وأحس إبراهيم بأن العيش لن يطيب وهاتان المرأتان فى مكان واحد .

ابراهيم يذهب باسماعيل وأمه الى وادى مكة

عند ذاك ذهب بهاجر وبابنهـا ميمما الجنوب حتى وصل إلى الوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادى ، كما قدمنا ، مضرب خيام القوافل فى الأوقات التى تفصل فيها القوافل من الشام إلى اليمن أو من اليمن إلى الشام ، ولـكنه كان فيما خلا ذلك من أوقات السنة خلاء أو يكاد . وترك ابراهيم إسماعيل وأمه وترك لهما بعض ما يتبلّغان به . واتخذت هاجر عريشاً أوت إليه مع ابنها . وعاد إبراهيم أدراجه من حيث أتى . فلما نفد الماء والزاد جعلت هاجر تجيل طَرْفها فيما حولها فلا ترى شيئاً ، فجعلت تهرول حتى نزلت الوادى تلتمس ماء ، وهى — فيما يقولون — لا تنفك فى هرولتها بين الصفا والمروة ، حتى إذا

رواية زمزم

أتمت السعى سبعا عادت الى ولدها وقد ملـكها اليأس ، فألفته قد فحص الأرض بقدمه فنبع الماء من الأرض ، فارتوت وأروت إسماعيل معها وحبست المـاء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال .

وأقام الغلام وأمه ترد عليهم العرب أثناء رحلاتهم فينالان من الخير ما يكفيهم أسباب العيش إلى أن تمر بهم قوافل أخرى . على أن زمزم التى تفجّر ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقـام على مقربة منها . وجرهم أولى

القبائل التى أقامت والتى يقول بعض الرواة : إنها كانت هنـاك قبل أن تجىء هاجر وابنها على حين تذهب روايات أخرى إلى أنها لم تقم إلا بعد أن تفجّرت زمزم وجعلت العيش فى هذا الوادى الأجرد مستطاعا . وشب اسماعيل وتزوج فتاة من جُرْهم ، وأقام وإياها مع الجُرْهُميين فى هذا المكان الذى شيّد به البيت الحرام وقامت مكة بعد ذلك من حوله . ويذكرون أن ابراهيم استأذن سارّة يوما فى زيارة اسماعيل وأمه فأذنت له فذهب ؛ فلما سأل عن بيت اسماعيل وعرفه قال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد مانعيش به . فسألها أعندها ضيافة من طعام أو شراب ؟ فأجابت بأن ليس عندها شىء . فانصرف ابراهيم بعد إذ قال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له غيِّرْ عَتَبَة بيتك . فلما أخبرت اسماعيل بما ذكر أبوه سرّحها وتزوّج جُرْهمية أخرى بنت مُضَاضِ بن عَمْرو . وقد أكرمت هذه وفادة ابراهيم لما جاء بعد ذلك بزمن . فلما انصرف طلب اليها أن تقرىء زوجها السلام وتقول له : الآن استقامت عتبة بيتك . وولد لاسماعيل من هـذا الزواج اثنا عشر ولداً هم آباء العرب المستعربة . هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم فى جُرْهم إلى العرب العاربة أبناء يَعْرُب بن قَحْطان ، ومن ناحية أُبوّتهم لاسماعيل ابن ابراهيم الذى يمتّ من ناحية أُمومته إلى مصر بأوثق نسب ، ومن ناحية أبوته إلى العراق وإلى فلسطين وإلى حيث نزل ابراهيم من أرض الله .

زواج اسماعيل

هذه القصة من قصص التاريخ يكاد ينعقد الاجماع على جملتها من ذهاب ابراهيم واسماعيل إلى مكة وإن وقع خلاف على التفاصيل . والذين يعرضون لتفاصيل حوادثها بالنقد يروونها على أن هاجَر ذهبت باسماعيل إلى الوادى الذى به مكة اليوم ، وكانت به عيون أقامت جُرْهم عندها ، فنزلت هاجر منهم أهلا وسهلا لما جاء ابراهيم بها وبابنها . فلما شب اسماعيل تزوج جُرْهمية ولدت له أولاده . وكان لهذا التلاقح بين اسماعيل العبرى المصرى وبين هؤلاء العرب

مناقشة القصة

ما جعل ذريته على جانب من العزم وقوة البأس والجمع بين فضائل العرب والعبريين والمصريين . واذاً فما ورد عن حَيْرة هاجر لما نَضَبَ الماء منها ، وعن سعيها سبعاً بين الصفا والمروة ، وعن زمزم وكيف نبع الماء منها ، موضع شك عندهم . لكن سير وليم موير يرتاب فى ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وينفى القصة من أساسها ويذكر أنها بعض الاسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الاسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك فى أبوّة إبراهيم لهم أجمعين أن كان إسحاق أباً لليهود . فاذا كان أخوه إسماعيل أبا العرب فهم اذاً أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود وتيسّر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة . ويستند المؤرخ الانكليزى فى رأيه هذا إلى أن طقوس العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم لأنها وثنية مغرقة فى الوثنية ، وكان إبراهيم حنيفاً مسلماً . ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافياً لنفى واقعة تاريخية . فوثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بما يزيد عن تسعمائة سنة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء ابراهيم إلى الحجاز وحين اشترك إسماعيل فى بناء الكعبة . ولو أنها كانت وثنية يومئذ لما أيد ذلك رأى سير موير . فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم فلم ينجح . فاذا دعا العرب إلى مثل ما دعا اليه قومه فلم ينجح وبقى العرب على عبادة الأوثان لم يطعن ذلك فى ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة . بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ . فابراهيم الذى خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين وإلى مصر ، رجل ألف الارتحال ، وألف اجتياز الصحارى . والطريق ما بين فلسطين ومكة كان من أقدم العصور مطروقا من القوافل . فلا محل إذاً للريبة فى واقعة تاريخية انعقد الاجماع على جملتها .

والسير وليم موير والذين ارتأوا فى هذه المسألة رأيه يقولون بامكان انتقال جماعة من أبناء ابراهيم واسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب

واتصالهم وإياهم بصلة النسب. وما ندرى وهذا الامكان جائز عندهم فى شأن أبناء ابراهيم واسماعيل كيف لايكون جائزاً فى شأن الرجلين بالذات! وكيف لا يكون ثابتا قطعا ورواية التاريخ تؤكده! وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب وقد ذكره القرآن وتحدثت به بعض الكتب المقدسة الأخرى!

بناء ابراهيم واسماعيل الكعبة

ورفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت الحرام. و« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا». ويقول تعالى فى سورة البقرة: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

كيف رفع ابراهيم البيت مثابة للناس وأمناً، ليتوجه الناس فيه إلى الله مؤمنين به وحده، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام وعبادتها؟ وكيف كانت طقوس العبادة تؤدى فيه بعد ابراهيم واسماعيل وعلى أى صورة كانت تؤدى؟ ومتى تغيرت هذه الطقوس وتغلبت عليها الوثنية؟ هذا ما لا يحدثنا التاريخ المعروف عنه؛ وكل ما هنالك فروض يحسبها أصحابها تصف ما كان واقعاً. فالصابئون من عبّاد النجوم كان لهم سلطان كبير فى بلاد العرب. وقد كان هؤلاء — فيما يقولون — لا يعبدون النجوم لذاتها وإنما كانوا، فى بداية أمرهم، يعبدون الله وحده ويعظمون النجوم على أنها مظاهر خلقه وقدرته. ولما كانت كثرة الناس الكبرى أقصر من أن يحيط ذهنها بمعنى

الألوهيـة السامى فقد اتخذوا من النجوم آلهة . ولما كانت بعض الأحجار البركانية يخال النـاس أنها ساقطة من السماء منحدرة لذلك من بعض النجوم فقـد اتخذت أوّلَ أمرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيعة وقدّست بهذه الصفة ، ثم قدّست لذاتها ، ثم كانت عبادة الأحجار ، حتى كان العربىّ لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة ، بل كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار الكعبة يصلى إليـه ويستأذنه فى الاقامة والسفر ويؤدى إليـه كل ما يؤدى للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة ؛ ومن ثم استقرت الوثنيـة وقدّست التماثيل وقُرّبت لها القرابين .

التطور الدينى في بلاد العرب

هذه صورة يصوّرها بعض المؤرخين لتطور الأمر فى بلاد العرب من بنـاء إبراهيم البيت لعبادة الله وما آل إليـه أمره بعـد ذلك ليكون مستقر الأصنام . وقد ذكر هيرودوت أبو التاريخ المكتوب ، عبادة اللاّت فى بلاد العرب ، وذكر ديودور الصِّقِلىّ بيت مكة الذى تعظمه العرب ؛ فدلّ ذلك على قدم الوثنية فى بلاد العرب وعلى أن دين إبراهيم لم يستقر فيها طويلا .

ولقد قام فى هذه القرون أنبياء دعوا قبائلهم فى بلاد العرب إلى عبادة الله وحده فرفضوا وأصرّوا على وثنيتهم : قام هود فدعا عاداً التى كانت تقيم فى شمال حضرموت إلى عبادة الله وحده فما آمن به إلا قليل . فأما كثرة قومه فاستكبروا وقالوا له : يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » . وأقام هود يدعوهم السنين فلا تزيدهم دعوته إلا عتوّاً فى الأرض واستكباراً . وقام صالح يدعو للايمان ثمود ، وكانت مساكنهم بالحِجْر بين الحجاز والشـام إلى وادى القرى فى الجنوب الشرقى من أرض مَدْيَن القريبة من خليج العقبـة ؛ ولم تثمر دعوة صالح ثمود أكثر مما أثمرت دعوة هود عاداً . وقام شعيب فى شعب مَدْيَن وكانوا بالحجاز ، يدعوهم إلى الله فلم يسمعوا له فهلكوا ونزل بهم ما نزل بعاد وثمود . وغير هؤلاء من الأنبياء

قص القرآن قصصهم ودعوتهم قومهم لعبادة الله وحده واستكبار قومهم وإقامتهم على عبادة الأوثان وعلى التوجه بقلوبهم لأصنام الكعبة وحجهم إليها كل عام من كل صوب فى بلاد العرب وحدَب . وفى ذلك نزل قوله تعالى : « وَمَا كُنّا مُعَذِّبِينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .

مناصب الكعبة

أفكانت تحيط بالكعبة منذ إنشائها مناصب كالتى تولاّها قُصَىّ بن كلاب فى منتصف القرن الخامس الميلادى حين اجتمع له مُلك مكة على ما سنذكر من بعد ؟ فقد اجتمعت لقُصَىّ الحِجَابة والسقاية والرِّفادة والنَّدْوة واللواء والقيادة . والحجابة سدانة البيت أى تولى مفاتيحه . والسقاية إسقاء الحجيج الماء العذب الذى كان عزيزاً بمكة وإسقاؤهم كذلك نبيذ التمر . والرفادة إطعام الحاج جميعاً . والندوة رياسة الاجتماع كل أيام العام . واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى عدو . والقيادة إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب . وكانت هذه المناصب كلها معتبرة فى مكة وكأنها تحيط بالكعبة مُتَّجَه أنظار العرب جميعاً فى عباداتهم . وأحسبها لم تنبت كلها دفعة واحدة منذ أقيم البيت ، بل نشأت واحدة تلو أخرى ، مستقلا بعضها عن الكعبة ومكانتها الدينية ، متصلا بعضها بالكعبة من طبعه . فمكة لم تكن حين بناء الكعبة ، على خير ما يمكن أن يصوِّره خيالنا ، لتزيد على قبائل من العماليق ومن جُرْهم . فلما استقر بها إسماعيل ورفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم اقتضى تطور مكة لتصير حضراً أو ما يشبه الحضر زماناً طويلا . ونقول : ما يشبه الحضر، أن ظلت مكة وما تزال وفى طباع أهلها بقايا متخلفة من معانى البداوة الأولى . ويريد بعض المؤرخين أن يذكر أنها ظلت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصى فى منتصف القرن الخامس للميلاد . وعسيرٌ أن نتصور بقاء بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القَداسة فى حالة البادية مع ما يثبت التاريخ من أن أمر البيت بقى بعد إسماعيل فى يد جرهم أخوال

بنيه أجيالا متعاقبة أقاموها حوله ، ومع أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام وإلى نجد ، كما كانت تتصل من طريق البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم من غير أن تتعرض لغزو الغزاة من أية مملكة من ممالك العالم . فمن الحق لذلك أن نقدر أن مكة ، وقد دعاها إبراهيم بلداً ودعا الله له أن يكون آمناً مطمئناً ، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالا طويلة قبل قُصَىّ .

تغلب قريش

وظل أمر مكة لجُرْهم بعد أن غلبوا العماليق عليها الى عهد مُضَاض بن عمرو بن الحارث . ولقد راجت تجارة مكة خلال هذه الأجيال رواجا أمرّ مترفيها وجعلهم ينسون أنهم بواد غير ذى زرع وأنهم لذلك بحاجة الى الدأب المتصل واليقظة الدائمة . وبلغ من نسيانهم أن نَضَب ماء زمزم وأن قامت بنفس عرب خُزاعة الرغبة فى الوثوب الى مناصب الأمر فى البلد الحرام .

ولم يُجْدِ تحذير مضاض قومه عاقبة ما انغمسوا فيه من تَرَفهم، وأيقن أن الأمر زائل عنه وعنهم . فعمد الى زمزم فأعمق حفرها والى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفة من الأموال بالكعبة، أن كانت تهدى لها، فدفنها بقاع البئر وأهال الرمال عليها ، رجاء أن يعود له الأمر يوماً فيفيد من الكشف عنها . وخرج ومعه بنو إسماعيل من مكة . ووليت خُزاعة أمرها وظلت تتوارثه حتى آل إلى قُصَىّ بن كلاب الجدّ الخامس للنبى .

قصى بن كلاب
(س٤٠٠ م)

وكانت أم قصى فاطمة بنت سعد بن سَيَل قد تزوجت من كلاب فولدت له زهرة وقصيًّا . ثم هلك كلاب وقصىّ طفل فى المهد . وتزوجت فاطمة من ربيعة بن حرام فرحل بها إلى الشام وهناك ولدت له دراجا . وكبر قصىّ وهو لا يعرف لنفسه أباً غير ربيعة . ووقع بينه وبين آل ربيعة شر ، فعيّروه بأنه فى جوارهم وأنه ليس منهم . وشكا قصىّ الى أمه ما عُيِّر به . قالت: يابنى إنك والله لأكرم منهم أباً ،أنت ابن كِلاَب بن مُرَّةَ وقومك بمكة عند البيت

الحرام . وقدِم قصىّ مكة وأقام بها وعُرِف عنه فيها من الجد وحسن الرأى ما جعله موضع احترام أهلها وأهله فيها . وكانت سدانة البيت فى خزاعة لحُلَيْل بن حُبْشِيَّة ، وكان رجلا ثاقب النظر حسن التقدير ؛ فما لبث أن خطب قصىّ اليه ابنته حُبّى حتى رحب به وزوّجه منها . واستمر دأب قصىّ فى السعى والتجارة ، فكثرت أمواله كما كثر أولاده وعظم بين قومه شرفه . ومات حُلَيل بعد أن أوصى بمفتاح البيت الحرام لحُبّى زوج قصىّ . واعتذرت حبّى عن ذلك وجعلت المفتاح لأبى غُبْشَان الخزاعىّ . وكان أبو غبشان سكيراً ، فأعوزه الشراب يوماً فباع مفتاح البيت قصيًّا بزِقٍّ من خمر . وقدّرت خزاعة ما يصيب مكانتها بمكة اذا بقيت سدانة الكعبة لقصىّ بعد أن كثر ماله وبعد أن بدأت قريش تجتمع حوله، فأنكروا أن يكون لغيرهم منصب من المناصب المتصلة بالبيت الحرام . واستنفر قصىّ قريشاً ، ورأت بعض القبائل أنه أحكم المقيمين بمكة وأعظمهم قدراً ، فانضموا له وأجلوا خزاعة عن مكة ، واجتمعت مناصب البيت كلها لقصىّ وأقر القوم له بالملك عليهم .

بناء مكة

ويذهب البعض، كما قدمنا، إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة الى أن تولى قصىّ أمرها . ويعللون ذلك بأن خزاعة وجُرهما قبلها لم يريدوا أن يكون الى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون إلى الحِلّ . ويضيف هذا البعض أن قصيًّا لما تم له أمر مكة جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار النَّدوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم ، ولم يكن يتم أمر إلا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا فى هذه الدار . وبنت قريش بأمر قصىّ حول الكعبة دورها، وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه الى المطاف .

أبناء قصى

وكان عبد الدار أكبر أبناء قصى ، لكن أخاه عبد مناف كان قد تقدم

عليه أمام الناس وقد شرف فيهم. فلما كبر قصى وضعف بدنه ولم يبق قادراً على تولى أمور مكة جعل الحجابة لعبد الدار وسلّم إليه مفتاح البيت، كما أعطاه السقاية واللواء والرفادة، وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصيّ يصنع منه فى موسم الحج طعاما ينال منه من الحاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد. وكان قصى أول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتز بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة. فرضها عليهم وقال لهم: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حَرَمِهِ، وإن الحاجّ ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الأضياف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم».

بنو عبد مناف

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولاها أبناؤه من بعده. لكن أبناء عبد مناف كانوا أشرف فى قومهم وأعظم مكانة. لذلك أجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدى أبناء عمومتهم. وتفرّق رأى قريش: تنصر طائفة هؤلاء وأخرى أولئك. وعقد بنو عبد مناف حِلفَ المُطَيَّبِين لأنهم غمسوا أيديهم فى طيب جاءوا به إلى الكعبة وأقسموا لا ينقضون حلفهم. وعقد بنو عبدالدار حلف الأحلاف. وكان هؤلاء وأولئك يوشكون أن يقتتلوا فى حرب تذيب قريشا إذ تداعى الناس الى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تبقى الحجابةواللواء والندوة لبنى عبد الدار. ورضى الفريقان بذلك، وظل الأمر عليه الى أن جاء الاسلام.

هاشم (س ٤٦٤ م)

وكان هاشم كبير قومه، وكان ذا يسار، فولى السقاية والرفادة ودعا قومه الى مثل مادعاهم اليه قصيّ جده، دعاهم الى أن يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو فى إطعام الحاج أثناء الموسم. فزوّار الله وحجاج بيته هم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيف الله. وكذلك كان يطعم الحاج جميعاً حتى يصدروا

عن مكة . ولم يقف أمر هاشم عند هـذا ، بل اتصل برّه وكرمه بأهل مكة أنفسهم . أصابتهم سنة بجدب ، فجاء لهم من الطعام وثرد لهم الثريد بما جعلهم ينظرون من جديد إلى الحياة بوجه باسم . وهاشم هو كذلك الذى سنّ رحلتى الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام . وبهذه المظاهر كلها ازدهرت مكة وسمت مكانتها فى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واعتبرت العاصمة المعترف بها . وطوّع هذا الازدهار لأبناء عبد مناف أن يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام : عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع أمير غسّان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطور على الاذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن وطمأنينة . وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النّجاشى ، كما عقد نوفل والمطلب حِلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن . وكذلك ازدادت مكة مَنَعة جاه كما ازدادت يساراً ، وبلغ أهلها من المهارة فى التجارة حتى أصبحوا لا يدانيهم فيها مُدان من أهل عصرهم : كانت القوافل تجىء إليها من كل صوب وتصدر عنها فى رحلتى الشتاء والصيف ، وكانت الأسواق تنصبُ فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها أو لتصريفها عنها ؛ ولذلك مهر أهلها فى النسيئة والربا وفى كل ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات .

ازدهار الحياة بمكة

وظل هاشم تتقدم به السن وهو فى مكانته على رياسة مكة لا يفكر أحد فى منافسته ، حتى خيِّل لابن أخيه أمية بن عبد شمس أنه قد بلغ مكاناً يسوِّل له هذه المنافسة . لكنه لم يقدِر وغُلِب على أمره : وبقى الأمر لهاشم ، وترك أمية مكة إلى الشام عشر سنوات كاملة . وإن هاشمًا لفى رحلته يوماً عائداً من الشام مارًّا بيثرب إذ رأى امرأة ذات شرف وحسب تطل على قوم يتجرون لها . تلك سَلْمَى بنت عَمْرو الخَزْرَجيّة . وقد أُعجب هاشم بها وسأل أهى فى عصمة رجل ؟ فلما عرف أنها مطلقة وأنها لا ترضى زوجاً إلا أن

تكون عصمتها بيدها خطبها الى نفسها فرضيت لعلمها بمكانته من قومه ، وأقامت معه بمكة زمناً عادت بعده الى المدينة حيث ولدت له ولداً دعته شَيْبَة ظل معها بيَثْرِب .

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغَزَّة أثناء إحدى رحلات الصيف، فخلفه أخوه المطّلب فى مَنَاصبه . وكان المطلب أصغر من أخيه عبد شمس ولكنه كان ذا شرف فى القوم وفضل ، وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته وفضله . وطبيعىٌّ وذلك مكان المطلب من قومه أن تبقى الأمور تسير سيرتها معلمئنة هادئة .

المطلب

وفكر المطلب يوماً فى ابن أخيه هاشم . فذهب الى يثرب وطلب الى سَلْمى أن تدفع اليه الفتى وقد بلغ أشدّه . وأردف المطلب الفتى على بعيره ودخل به مكة ، فظنته قريش عبداً له جاء به فتصايحت : عبد المطلب . قال المطلب : ويحكم ! إنما هو ابن أخى هاشم قدِمت به من يثرب . على أن هذا اللقب غلب على الفتى فدعى به ونسى الناس اسم شيبة الذى دُعى به منذ وُلد .

وأراد المطلب أن يرد على ابن أخيه أموال هاشم . لكن نوفلا أبى ووضع يده عليها . فلما اشتد ساعد عبد المطلب استعدى أخواله بيثرب على عمه كى يردوا عليه حقه . وأقبل ثمانون فارساً من خَزْرج يثرب لنصرته ، فاضطر نوفل إلى رد ماله إليه . وقام عبد المطلب فى مناصب هاشم له السقاية والرفادة من بعد عمه المطلب . وقد لقى فى القيام بهذين المنصبين ، وبالسقاية بنوع خاص ، شيئاً غير قليل من المشقة . فقد كان إلى يومئذ وليس له من الأبناء إلا ولده الحارث . وكانت سقاية الحاجّ يؤتى بها ، منذ نضبت زمزم ، من آبار عدة مبعثرة حول مكة ، فتوضع فى أحواض الى جوار الكعبة . وقد كانت كثرة الولد عوناً على تيسير هذا العمل والاشراف عليه . فأما ولم يكن لعبد المطلب من ولد حين ولى السقاية والرفادة إلا الحارث فقد عنّاه الأمر وطال فيه تفكيره .

عبد المطلب
(س ٤٩٥ م)

وكانت العرب ما تفتأ تذكر زمزم منذ طمّها مضاض بن عمرو الجرهمى لثلاثمائة من السنين خلت و تتمنى لو أنها كانت باقية ما تزال . وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه أكثرهم تفكيراً فى هذا الأمر وأشدهم تمنياً أن يكون . ولقد ألح الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف أثناء نومه يحضه على أن يحفر البئر التى تفجرت تحت أقدام جده إسماعيل . وألح الهاتف يدلّه على مظانّ وجودها ، وألح هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى اليها بين الوثنين أسَاف ونَائِلة . وجعل يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مضاض الجرهمى . وأرادت قريش أن تشارك عبد المطلب فى البئر وفيما وجد فيها ، فقال لهم : لا ، ولكن هلُمّ إلى أمر نَصَف بينى و بينكم . نضرب عليها بالقِداح نجعل للكعبة قدحين ، ولى قدحين ، ولكم قدحين . فمن خرج قدحاه على شىء كان له . ومن تخلف قدحاه فلا شىء له . فارتضوا رأيه ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذى يضرب بها عند هبل فى جوف الكعبة . فتخلف قدحا قريش وخرجت الأسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة ، فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة وضرب فى الباب غزالتا الذهب حلية للبيت الحرام . وأقام عبد المطلب فى سقاية الحاج بعد أن يسّرتها زمزم له .

حفر زمزم

وأحس عبد المطلب قلة حوله فى قومه لقلة أولاده ، فنذر إن ولد له عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقى حين حفر زمزم لينحرنّ أحدهم لله عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة أنس فيهم المقدرة على أن يمنعوه ، فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا . وفى سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قدح ، وأخذها عبد المطلب وذهب به إلى صاحب القداح عند هبل فى جوف الكعبة . وكانت العرب كلما اشتدت بها الحيرة فى أمر لجأت إلى صاحب القداح كى يستفتى لها كبر الآلهة الأصنام عن طريق القداح . وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه . فلما ضرب

النذر والوفاء به

صاحب القداح القداح التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها من ينحره أبوه خرج القدح على عبد الله ؛ فأخذ عبد المطلب الفتى بيده وذهب به ينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين إساف ونائلة ، إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به ألاّ يفعل ، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذرا . وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة ؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومى : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه . وتشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرّافة بيثرب لها فى مثل هذه الأمور رأى . وجاءوا العرّافة فاستمهلتهم إلى الغد ثم قالت لهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الابل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم تقرّبوا وقرّبوا عشراً من الابل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم . وفعلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون فى الابل حتى بلغت مائة ؛ عند ذلك خرجت القداح على الابل . فقالت قريش لعبد المطلب وكان أثناء ذلك كله واقفاً يدعو ربه : قد رضى ربك ياعبد المطلب . قال عبد المطلب : لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرات . وفى المرات الثلاث خرجت القداح على الابل ؛ فاطمأن عبد المطلب الى رضى ربه ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع .

بذلك تجرى كتب السيرة فتصف طرفاً من عادات العرب وعقائدها وطقوس هذه العقائد، وتدل فى نفس الوقت على ما بلغت مكة فى بلاد العرب من مقام كريم ببيتها الحرام . على أن الطبرى يروى قصة الفداء وخروج القداح على عبد الله وافتدائه بالمائة من الابل، ثم يذكر أن مروان أمير المدينة لما عرف ذلك أنكره وقال : لا نذر فى معصية ، فلم تنحر الابل . واعتبرت مقالته هذه سنة متبعة عند العرب .

أدت مكانة مكة ومقام بيتها الحرام إلى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد

فيها، لعلها تصرف الناس عن مكة وعن بيتها. فأقام الغساسنة بيتاً بالحيرة، وأقام أبرهة الأشرم بيتاً باليمن، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عنها. وقد عُنى أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر الأثاث ما خُيِّل إليه معه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم اليه.

فلما رأى العرب لا تتجه إلا الى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن يدعون البيت الذى بنى ولا يعتبرون حجهم مقبولا إلا بمكة، لم يجد عامل النجاشى وسيلة إلا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل. وتهيأ للحرب فى جيش من الحبشة تقدّمه هو على فيل عظيم ركبه. فلما سمعت العرب بذلك خافت العاقبة وعظم عليها أن يُقدم رجل حبشى على هدم بيت حجهم ومقام أصنامهم. وهبَّ رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكها يدعى ذانَفَر فاستنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصدّه عما يريد من هدم بيت الله. لكنه لم يستطع أن يصمد لأبرهة بل هُزم وأُخذ أسيراً، وهُزم كذلك نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمى حين جمع قومه من قبيلتى شَهْران وناهس وأخذ هو أسيراً، فأقام نفسه دليلا لأبرهة وجيشه. فلما نزل أبرهة الطائف كلمه أهلها بأن بيتهم ليس هو البيت الذى يريد، إنما هو بيت اللات: وبعثوا معه بمن يدله على مكة. فلما اقترب أبرهة من مكة بعث رجلا من الجيش على فرسان له فساق اليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وبينها مائة بعير لعبد المطلب ابن هاشم. وهمّت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتاله، فرأوا أن لا طاقة لهم به. وبعث أبرهة رجلا من رجاله يدعى حُنَاطَة الحميرى سأل عن سيد مكة فذهبوا به الى عبد المطلب بن هاشم، فأبلغه رسالة أبرهة اليه أنه لم يأت لحرب وانما جاء لهدم البيت، فان لم تحاربه مكة فلا حاجة له بدماء أهلها. فلما ذكر له عبد المطلب أنهم لا يريدون حرباً سار به حناطة ومع عبد المطلب بعض أبنائه وبعض كبراء مكة حتى بلغوا معسكر الجيش. وأكرم أبرهة وفادة

عام الفيل
(س ٥٧٠م)

أبرهة والكعبة

عبد المطلب وأجابه الى رد إبله اليه . لكنه رفض رفضا باتًّا كل حديث فى أمر الكعبة ورجوعه عن هدمها، برغم ما عرض عليه وفد مكة من النزول له عن ثلث ثروة تهامة . وعاد عبد المطلب وقومه الى مكة، فنصح الى الناس بها أن يخرجوا منها الى شعاب الجبل من خيفة أبرهة وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق . وكانت ليلة ليلاء تلك التى فكر فيها القوم فى هجر بلدهم وما هو نازل بها وبهم . ذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش فأخذ حلقة باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدى على بيت الله . فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه الى اليمن ، كان وباء الجدرى قد تفشّى فى الجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكا ذريعاً لم يعهد من قبل قط . ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر . وأصابت العدوى أبرهة نفسه، فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن . وفر الذين كانوا يدلّون على الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض . فلم يقم إلا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه . وبذلك أرّخ أهل مكة بعام الفيل هذا وقدّسه القرآن بذكره : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ . »

مكانة مكة بعد الفيل

زاد هذا الحادث الفذ العجيب فى مكانة مكة الدينية ، وزاد تبعا لذلك فى مكانتها التجارية ، وزاد أهلها انصرافا عن التفكير فى شىء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ؛ ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

وزاد المكيين حرصا على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء

ترف أهل مكة

وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصوّرها للترف فى هذه الجهة الصحراوية البلقع الجرداء. فكان لأهلها غرام بالنبيذ أىّ غرام، وكانوا يجدون فى النشوة به نعيما أى نعيم؛ نعيما ييسّر لهم أن يطلقوا لشهواتهم أعنتها، وأن يجدوا فى الجوارى والعبيد الذين يتجرون فيهم والذين يشترون مُتَعًا تغريهم بالمزيد منها، وتغريهم كذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم، وباليقظة للذود عن هذه الحرية ودفع كل معتد أثيم تحدثه نفسه بالجناية عليها. ولم يكن شىء أشهى لهم من أن يجعلوا سمرهم وشرابهم فى سرّة المدينة حول بناء الكعبة. هناك إلى جانب ثلاثمائة صنم أو تزيد، لكل قبيلة من قبائل العرب بينها صنم أو أكثر، كان أكابر قريش والمقدّمون من أهل مكة يجلسون، يقص كل منهم أمر ما اتصل به من أخبار البادية واليمن وجماعة المناذرة فى الحيرة والغساسنة فى الشام، مما ترد به القوافل أو يتناقله سكان البادية، يصل إليهم على سبيل الرواية تتناقلها قبيلة عن قبيلة، وكأن كل قبيلة لها مذيع وملتقط لاسلكى يتلقى الأنباء ويذيعها. يقص كلٌّ ما اتصل به من أخبار البادية ويروى روايات جيرانه وأصحابه ويشرب نبيذه ويعدّ نفسه بعد سمر الكعبة لسمر أشبع لأهوائه وأمتع لشهواته. وتطل هذه الأصنام بعيونها الحجرية على مجالس السمر هذه، وللسامرين فيها من الحماية أن جعلت الكعبة بيتاً حراماً ومكة بلداً آمناً، وللأصنام على السامرين ألا يدخل مكة كتابىّ إلا أن يكون أجيراً لا يتحدث بشىء من أمر دينه ومن أمر كتابه. ولذلك لم تكن ثمة جاليات من اليهود كما كانت بيثرب، ولا من النصارى كما كانت بنجران. وإنما كانت كعبتها قدس أقداس الوثنية تحميها من كل مجدّف فى أمرها، وتحتمى بها من العدوان عليها، وتستقل بنفسها كما كانت تستقل كل قبيلة من قبائل العرب بنفسها، لا ترضى لغيرها عليها سلطاناً، ولا ترضى باستقلالها بديلا، ولا تُعْنَى من الحياة بغير هذا الاستقلال فى حمىً أوثانها؛ لا تضارُّ قبيلة قبيلة أخرى

ولا تفكر طائفة من القبائل فى الارتباط لتكون جماعة قوية ، لها ما للروم أو للفرس من مطامع فى السيادة والغزو ، أو لها كيان غير كيان البداوة تنتجع فى ظلاله المرعى وتعيش فى كنفه عيشاً خشناً يحببه إليها ما فيه من استقلال وحرية وأنفة وفروسية .

منازل أهل مكة

وكانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة ونخذ من جلالِ خَطَر وجليلِ مقام ؛ فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم وكل ألقاب التشريف الوثنية التى قامت فى سبيلها حروب ، وانعقدت من أجلها أحلاف ، ووُضعت من أجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تُحفَظ فى الكعبة تسجيلاً لها ، وإشهاداً للآلهة الأصنام على ما فيها حتى ينزل غضبهم بمن يُخلّ بتعهداتها . وفيما وراء منازل قريش كانت تجىء منازل القبائل التى تليها فى الخطر ، ثم تلى هذه منازل من دونهم ، حتى تكون منازل العبيد والخلعاء المستهترين . وكان النصارى واليهود بمكة عبيداً ، كما قدمنا ، فكان مقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء ؛ ولذلك كان ما يتحدثون به من قصص دينية عن النصرانية واليهودية بعيداً عن أن يتصل بسمع أمجاد قريش وأشراف أهل البلد الحرام . على أن بعده ، كما أتاح لهم أن يصمّوا دونه آذانهم ، قد جعله بحيث لا يشغل بالهم ، وهم قد كانوا يسمعون مثله أثناء رحلاتهم كلما مروا بدير من الأديرة أو صومعة من الصوامع ، وإن كان ما بدأ يتحدث به الناس عن نبىّ يظهر بين العرب قد أخذ يقلق بعض المضاجع ، حتى لقد عتب أبو سفْيان يوما على أُمَيّة بن أبى الصَّلْت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر . وربما كان من حق أبى سفيان يومئذ أن يقول لصاحبه : إن هؤلاء الرهبان إنما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون لأنهم فى جهل من أمر دينهم ، فهم بحاجة إلى نبىّ يدلهم عليه ؛ أمّا نحن الذين يتخذون

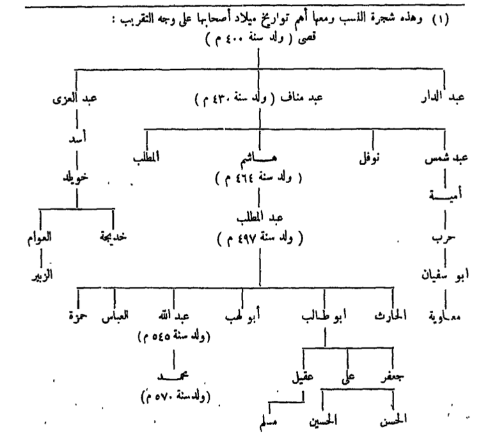
الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى فلا حاجة بنا الى شيء من هذا ، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله . كان من حقه أن يقول هذا؛ لأنه فى تعصبه لمكة ووثنيتها لم يكن يقدّر أن ساعة الهدى بالباب ، وأن نبوّة محمد عليه السلام اقتربت ، وأن من بلاد العرب الوثنية المتدابرة سيضيء العالم كله نور التوحيد وكلمة الحق .

عبد الله ابن عبد المطلب

وكان عبد الله بن عبد المطلب فتى وسيم جميل الطّلْعة . وكانت أوانس مكة ونساؤها مُعْجَبات لذلك به . وزادهن إعجاباً حديث الفداء والمائة من الابل التى لم يرض هُبَل بما دونها فداء له . لكن القدر كان قد أعدّ عبد الله لأكرم أبوة عرف التاريخ ، وقد أعد آمنة بنت وهب لتكون أمًّا لابن عبد الله ؛ لذلك تزوجها. ولم تك إلا أشهر بعد زواجه منها حتى مات، لم ينجه من الموت فداء أيًّا كان نوعه . وبقيت آمنة من بعده لتلد محمداً ولتموت ومحمد ما يزال طفلا . (١)

---

(١) وهذه شجرة النسب ومعها أهم تواريخ ميلاد أصحابها على وجه التقريب :



الفصل الثالث

محمـــد : من ميلاده الى زواجه

زواج عبد الله من آمنة — وفاة عبـد الله — مولد محمد — رضاعه فى بنى سعد — قصة الملـكين — مقـامه خمس سنوات بالبادية موت آمنة — كفالة عبد المطلب إياه — موت عبد المطلب — كفالة أبى طالب إياه — خروجه إلى الشام فى الثانية عشرة من عمره حرب الفجار — يرعى الغنم — خروجه فى تجارة خديجة الى الشام — زواجه من خديجة

زواج عبـد الله من آمنة

كان عبـد المطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق . وكان ابنه عبد الله فى الرابعـة والعشرين من سنه . فرأى أن يزوّجه ، فاختار له آمِنَة بنت وَهْب بن عبـد مَنَاف بن زُهْرَة سـيد بنى زهرة إذ ذاك سنًّا وشرفاً . وخرج به حتى أتى منـازل بنى زهرة ، ودخل وإياه عنـد وهب وخطب إليـه ابنته . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه إنما ذهب إلى أُهَيْب عم آمنة، لأن أباها كان هلك وكانت هى فى كَفَالة عمها . وفى اليوم الذى تزوّج عبد الله فيه من آمنة تزوج عبـد المطلب من ابنة عمها هَالَة فأولدها حَمْزَة عم النبى وضريبه فى سنّه .

وأقام عبد الله مع آمنة فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس . فلما انتقل وإياها إلى منازل بنى عبـد المطلب لم يقم معهـا طويلا، إذ خرج فى تجارة إلى الشام وتركها حاملا . وتختلف الروايات

فى أمر عبد الله وهل تزوّج غير آمنة ، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن . والوقوف لتقصّى أمثال هذه الروايات لا غَنَاء فيه . وكل ما يمكن الاطمئنان إليه أن عبد الله كان شابا وسيما قويًّا؛ فلم يكن عجيباً أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه . فلما بنى بها تقطّعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين . ومن يدرى ! لعلهن قد انتظرن أوبته من رحلته إلى الشام ليكن زوجات له مع آمنة . على أنه بعد أن مكث فى رحلته هذه الأشهر التى يقتضيها الذهاب إلى غَزّة والعود منها عرّج على أخواله بالمدينة يستريح عندهم من عناء السفر ليقوم بعد ذلك فى قافلة إلى مكة؛ لكنه مرض عند أخواله فتركه رفاقه؛ حتى إذا بلغوا مكة أخبروا أباه بمرضه . ولم يلبث عبد المطلب أن سمع منهم حتى أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة ليعود مع أخيه بعد إبلاله . وعلم الحارث حين بلغ المدينة أن عبد الله مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة، فرجع أدراجه يَنْعَى أخاه إلى أهله ويثير من قلب عبد المطلب ومن قلب آمنة همًّا وشجناً لفقد زوج كانت آمنة ترجو فى حياته هناء وسعادة ، وكان عبد المطلب عليه حريصاً حتى افتداه من آلهته فداء لم تسمع العرب من قبل بمثله .

موت عبدالله وتركته

وترك عبد الله من بعده خمسة من الابل وقطيعاً من الغنم وجارية هى أم أيمَن حاضنة النبىّ من بعدُ . وقد لا تكون هذه الثروة مظهر ثَراء وسعة ؛ لكنها كذلك لم تكن تدل على فقر ومَتْرَبة . وقد كان عبد الله وما يزال فى مقتبل عمره قديراً على الكسب والعمل والبلوغ الى السعة فى المال ، كما أن أباه كان ما يزال حيًّا فلم يؤل إليه شىء من ميراثه .

مولد محمد (س ٥٧٠م)

وتقدّمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى . فلما تم لها الوضع بعثت الى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه ولد له غلام . وفاض بالشيخ السرور حين بلغه الخبر، وذكر ابنه عبد الله وقلبه مفعم بالغبطة لخلفه ،

وأسرع إلى زوج ابنه وأخذ طفلها بين يديه، وسار حتى دخل به الكعبة وسمّاه محمداً. وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب ولكنه كان معروفاً. وردّ الجدّ الصبيّ الى أمه وجعل وإياها ينتظر المراضع من بنى سَعْد لتدفع الأم بوليدها الى إحداهن، على عادة أشراف العرب من أهل مكة.

وقد اختلف المؤرخون فى العام الذى وُلد محمد فيه؛ فأكثرهم على أنه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية)، ويقول ابن عباس: إنه وُلد يوم الفيل. ويقول آخرون: إنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة. ويذهب غير هؤلاء الى أنه وُلد بعد الفيل بأيام، وبأشهر، وبسنين يقدّرها قوم بثلاثين سنة ويقدّرها قوم بسبعين.

واختلف المؤرخون كذلك فى الشهر الذى وُلد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه ولد فى شهر ربيع الأول. وقيل: ولد فى المحرم. وقيل: ولد فى صفر. والبعض يرجح رجباً على حين يرجح آخرون شهر رمضان.

كذلك اختلف فى تاريخ اليوم من الشهر الذى وُلد فيه؛ فقيل: ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول. وقيل لثمان ليال، وقيل لتسع. والجمهور على أنه ولد فى ثانى عشر شهر ربيع الأول، وهو قول ابن اسحاق وغيره.

وكذلك اختلف فى الوقت الذى ولد فيه أكان نهاراً أم ليلا، كما اختلف فى مكان ولادته بمكة. ويرجّح كوسان دبرسفال فى كتابه عن العرب أن محمداً ولد فى ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ — أى عام الفيل، وأنه ولد بمكة بدار جده عبد المطلب.

وفى سابع يوم لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجالا من قريش فحضروا وطعموا. فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمداً سألوه لم رغب عن أسماء آبائه؟ فقال: أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلقه.

المراضع

انتظرت آمنة مجيء المراضع من بنى سعد لتدفع به إلى إحداهن كعادة أشراف العرب من أهل مكة . ولا تزال هذه العادة متّبعة عند أشراف مكة إذ يبعثون أبناءهم للبادية فى اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون الى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة . ومن قبائل البادية من لها فى المراضع شهرة ، ومن بينها قبيلة بنى سعد . على أن آمنة دفعت بالغلام الى ثُوَيْبَة جارية عمه أبى لهب فأرضعته زمناً كما أرضعت من بعدُ عمه حمزة ؛ فكانا أخوين فى الرضاع . ومع أن ثُوَيْبَة لم تُرضعه إلا أياماً فقد ظل يحفظ لها خير الودّ ويصلها ما عاشت ، ولما ماتت فى السنة السابعة من هجرته إلى المدينة سأل عن ابنها الذى كان أخا له فى الرضاع ليصله مكانها فعلم أنه مات قبلها .

وجاءت مراضع بنى سعد الى مكة يلتمسن الأطفال لارضاعهن . وكن يُعرضن عن اليتامى لأنهن كن يرتجين البرّ من الآباء . أمّا الأيامى فكان الرجاء فيهن قليلا ؛ لذلك لم تُقبل واحدة من أولئك المراضع على محمد ، وذهبت كلٌّ بمن ترجو من أهله وافر الخير .

حليمة بنت أبى ذؤيب

على أن حَليمة بنت أبى ذُؤيب السعدية التى أعرضت عن محمد أوّل الأمر ، هى أيضاً ، لم تجد من يدفع إليها طفلها ؛ ذلك أنها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمهات عنها . فلما أجمع القوم على الانطلاق عن مكة قالت حليمة لزوجها الحارث بن عبد العزّى : والله إنى لأكره أن أرجع مع صواحبى ولم آخذ رضيعاً . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ولآخذنه . وأجابها زوجها : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . وأخذت حليمة محمداً وانطلقت به مع قومها إلى البادية . وكانت تحدّث أنها وجدت فيه منذ أخذته أى بركة : سمنت غنمها وزاد لبنها وبارك الله لها فى كل ما عندها .

وأقام محمد فى الصحراء سنتين ترضعه حليمة وتحضنه ابنتها الشّيماء ، ويجد هو فى هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد فى

وسامة خَلْقه وحسن تكوينه . فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به حليمة الى أمه ثم عادت به إلى البادية ، رغبةمن أمه فى رواية ، ورغبةمن حليمة فى رواية أخرى . عادت به حتى يغلظ وخوفاً عليه من وباء مكة . وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين يمرح فى جو باديتها الصحو الطليق لا يعرف قيداً من قيود الروح ولا من قيود المادة .

أسطورة شق الصدر

فى هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة تقع الرواية التى يقصّونها من أنه كان مع أخيه الطفل من سنه فى بَهْمٍ لأهله خلف بيوتهم ، إذ عاد أخوه الطفل السعدىّ يعدو ويقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه . ويروى عن حليمة أنها قالت عن نفسها وزوجها : « فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقّا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو » . ورجعت حليمة ورجع أبوه الى خبائهما . وخشى الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن فاحتملاه الى أمه بمكة . ويروى ابن إسحاق فى هذه الواقعة حديثاً عن النبى بعد بعثه . لكن ابن إسحاق يحتاط بعد أن يقص هذه القصة ويذكر أن السبب فى رده الى أمه لم يكن حكاية الملكين وانما كان ، على ما روته حليمة لآمنة ، أن نفراً من نصارى الحبشة رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه ثم قالوا : لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ؛ فان هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره ، ولم تكد حليمة تنفلت به منهم . وكذلك يرويها الطبرى ، لكنه يحيطها بالريبة إذ يذكرها فى هذه السنة من حياة محمد ، ثم يعود فيذكر أنها وقعت قبيل البعث وسنه أربعون سنة .

لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند . فالذى رأى الرجلين فى رواية كتاب

السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ . والروايات تجمع على أن محمداً أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره . فلو كان هذا الحادث قد وقع وعمره سنتان ونصف سنة ، ورجعت حليمة وزوجها إذ ذاك به إلى أمه ، لكان فى الروايتين تناقض غير مقبول. ولذلك يرى بعض الكتّاب أنه عاد مع حليمة مرة ثالثة . ولا يرضى المستشرق سير وليم موير أن يشير إلى قصة الرجلين فى ثيابهما البيضاء ، ويذكر أنه إن كانت حليمة وزوجها قد نبها إلى شىء أصاب الطفل فلعلها نوبة عصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه . ولعل آخرين يقولون : إنه لم يكن بحاجة إلى من يشق بطنه أو صدره ما دام الله قد أعدّه من يوم خلقه لتلقّى رسالته . ويرى در منجم أن هذه القصة لا تستند إلى شىء غير المعنى الحرفى للآية القرآنية : « أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » ، وأن ما يشير القرآن إليه إنما هى عملية روحية بحتة ، الفكرة منها تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصاً ويؤديها مخلصاً تمام الاخلاص محتملاً عبء الرسالة المضنى .

وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق . وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها .

محمد فى البادية

وأقام محمد فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره ينهل من جو الصحراء الطليق روح الحرية والاستقلال النفسى، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب

مصفاة أحسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعدُ لأصحابه : أنا أعربكم ، أنا قرشيٌّ واسترضعت فى بنى سعد بن بكر . وتركت هـذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه ، كما بقيت حليمة وبقى أهلها موضع محبّته وإكرامه طوال حياته . أصابت النـاس سنة جدْب بعـد زواج محمد من خديجة ، فجاءته حليمة فعادت من عنده ومعها من مال خديجة بعير يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم . وكانت كلما أقبلت عليـه مدّ لها طرَف ردائه لتجلس عليـه سِيما الاحترام ، وكانت الشيماء ابنتها بين من أُسر مع بنى هوازن بعد حصار الطائف ، فلما جىء بها إلى محمد وعرفها أكرمها وردّها إلى أهلها كرغبتها .

وعاد إلى أمه بعد هذه السنوات الخمس . ويقال : إن حليمة التمسته وهى مقبلة به على أهله فلم تجده ؛ فأتت عبد المطلب فأخبرته أنه ضلّ منها بأعلى مكة . فبعث من يبحث عنه حتى رده عليـه ورقة بن نوفل فيما يروون . وكفل عبد المطلب حفيده وأغدق عليه كل حبه وأسبغ عليه جمّ رعايته . كان يوضع لهذا الشيخ، سيّد قريش وسيّد مكة كلها ، فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالا لأبيهم ؛ فاذا جاء محمد أدناه عبد المطلب منـه وأجلسه على الفراش معـه ومسح ظهره بيده ، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمام محمد من تأخيره إلى حيث يجلسون .

فى كفالة جده عبد المطلب

وزاد فى إعزاز الجدّ لحفيده أن آمنة خرجت بابنها الى المدينـة لتُرِىَ الغلام فيهـا أخوال أبيه من بنى النّجّار ، وأخذت معها أم أيمن الجارية التى خلّف عبد الله من بعده . فلما كانوا بها أرت الغلام البيت الذى مات أبوه فيه والمكان الذى دفن به ، فكان ذلك أوّل معنى لليتم انطبع فى نفس الصبىّ . ولعل أمه حدّثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة ليجيئه بين أخواله أجله . فقد كان النبى بعـد هجرته إلى المدينة يقص لأصحابه حديث تلك الرحلة الأولى الى المدينة مع أمه ، حديث محبّ

اليتيم

للمدينة ، محزون لمن تحوى القبور من أهله بها . ولما تم مكثهم بيثرب شهراً اعتزمت آمنة العودة فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة .

موت آمنة

فلما كانوا فى منتصف الطريق بين البلدين مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودُفنت بها ؛ وعادت أم أيمن بالطفل الى مكة منتحباً وحيداً ، يشعر بيتمه ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدةً وألما . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو جنين ما يزال ، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل همّ اليتم كاملاً .

زاد ذلك فى إعزاز عبد المطلب إياه . ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه ، حتى وردت فى القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . » ولعل عمق هذه الذكرى كان يهدأ بعض الشىء لو أن عبد المطلب عُمِّر أكثر مما عُمِّر ؛ لكنه مات فى الثمانين من عمره ومحمد فى الثامنة ما يزال . وحزن محمد لموت جده بما لا يقل عن حزنه لموت أمه . حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه الى مقرّه الأخير ، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له ، مع ما لقى بعد ذلك فى كفالة عمه أبى طالب من عناية ورعاية ، ومن حماية امتدّت الى ما بعد بعثه ورسالته ، ودامت بعد ذلك الى أن مات عمه . والحق أن موت عبد المطلب كان لبنى هاشم جميعاً ضربة قاسية . لم يكن من أبنائه من كان فى مثل مكانته عزماً وقوّة أيد وأصالة رأى وكرماً وأثراً فى العرب جميعاً . ألم يكن يُطعم الحاجّ ويسقيهم ويبر أهل مكة جميعاً إذا أصابهم شرٌ أو أذى ! وها هم أولاء أبناؤه لم يصل أحد منهم الى مكانته ، أن كان فقيرهم عاجزاً عن مثل عمله ، وكان غنيهم حريصاً على ماله . لذلك ما لبث بنو أمية أن تهيئوا ليأخذوا المكانة التى طمعوا فيها من قبل دون أن يخشوا من بنى هاشم مزاحمة تخيفهم .

موت عبد المطلب وأثره

فى كفالة عمه أبى طالب

وآلت كفالة محمد لأبى طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنًّا ؛ فقد كان

الحارث أسنّهم ، وإن لم يكن أكثرهم يساراً . وكان العباس أكثرهم مالاً ؛ لكنه كان على ماله حريصاً ؛ لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرفادة . فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم فى قريش مكانة واحتراماً ، ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده . وقد أحب أبو طالب ابن أخيه كحب عبد المطلب له . أحبه حتى كان يقدّمه على أبنائه ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ما يزيده به تعلقاً . ولقد أراد أن يخرج يوماً فى تجارة له الى الشام حين كان محمد فى الثانية عشرة من عمره ولم يفكر فى استصحابه خوفاً عليه من وعثاء السفر واجتياز الصحراء . لكن محمداً أبدى من صادق الرغبة فى مصاحبة عمه ما قضى على كل تردد فى نفس أبى طالب . وصحب الغلام القافلة حتى بلغ بُصْرَى فى جنوب الشام . وتروى كتب السيرة أنه التقى فى هذه الرحلة بالراهب بَحِيَرا وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوّة على ما تدلّه عليه أنباء كتب النصرانية . وتذهب بعض الروايات الى أن الراهب نصح الى أهله ألا يُوغلوا به فى بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود يعرفون منه هذه الأمارات فينالونه بالأذى .

الرحلة الأولى الى الشام

فى هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء وتعلّقت بالنجوم اللامعة فى سمائها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمَدْيَنَ ووادى القُرَى وديار ثَمُود ، وتستمع أذناه المرهفتان الى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نبئها . وفى هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغنّاء اليانعة التى أنسته حدائق الطائف وما يروى عنها ، والتى تعتبر جنات الى جانب جَدْب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة . وفى الشام كذلك رأى محمد أحبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عبّاد النار لهم وانتظارهم الوقيعة بهم . ولئن كان بعدُ فى الثانية عشرة من سنه فقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان

العقل ودقة الملاحظة وقوّة الذاكرة وما الى ذلك من صفات حباه القدر بها تمهيداً للرسالة العظيمة التى أعده لها — كان له من ذلك كله ما جعله ينظر الى ماحوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق، فلا يستريح الى كل مايسمع ويرى، فيرجع الى نفسه يسائلها : أين الحق من ذلك كله ؟.

والراجح أن أبا طالب لم يفد مالاً كثيراً من رحلته تلك، فلم يعد من بعدُ الى رحلة مثلها ، بل قنع بحظه وأقام بمكة يكفل فى حدود ماله القليل أولاده الكثيرين . وأقام محمد مع عمه قانعاً بنصيبه يقوم من الأمر بما يقوم به من هم فى مثل سنه ، فاذا جاءت الأشهر الحُرم ظل بمكة مع أهله أو خرج وإياهم الى الأسواق المجاورة لها بعُكَاظ ومَجَنَّة وذى المَجَاز يستمع لانشاد أصحاب المذهبات والمعلقات وتلتهم أذناه بلاغتهم فى غزلهم ونخرهم وذكرهم أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم، ثم يَعرض ذلك على بصيرته تلفظ منه ما لا تُسيغ وتُعْجَب بما تراه جديراً بالاعجاب ، ويستمع الى خطب الخطباء ، ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يأخذون على إخوانهم من العرب وثنيتهم ويحدثونهم عن كتب عيسى وموسى ويدعونهم الى ما يعتقدونه الحق ، ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التى غرق فيها أهله ، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينة اليه . وكذلك جعل القدر يوجّه نفسه منذ نعومة أظفاره الوجهة التى تهيئه لذلك اليوم العظيم ، يوم الوحى الأول ، حين دعاه ربه لتبليغ رسالته : رسالة الهدى والحق للناس كافة .

وكما عرف محمد طرق القوافل فى الصحراء مع عمه أبى طالب ، وكما استمع الى الشعراء والخطباء مع ذويه فى الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرم ، فقد عرف كذلك حمل السلاح إذ وقف الى جانب أعمامه فى حرب الفِجَار . وحرب الفجار تلك كانت بعض ما يثور ويتصل بين قبائل العرب من الحروب . وقد سمّيت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحُرم إذ تمتنع قبائل

حرب الفجار

العرب عن القتال ويعقدون أسواق تجارتهم بعُكاظ بين الطائف ونخلة وبمَجَنَّة وذى المجاز على مقربة من عرَفات لتبادل التجارة وللتفاخر والجدل وللحج بعد ذلك عند أصنامهم بالكعبة . وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة : فيها أنشد أصحاب المعلقات معلقاتهم ، وفيها خطب قسّ ، وفيها كان اليهود والنصارى وعبّاد الأصنام يحدّث كلٌّ عن رأيه وعقيدته آمناً ، لأنه فى الشهر الحرام .

على أن البَرّاض بن قيس الكنانىّ لم يحترم هذه الحُرمة حين غافل أثناءها عُرْوَةَ الرّحال بن عُتْبَة الهَوَازنىّ وقتله . وسبب ذلك أن النّعمان بن المُنذِر كان يبعث كل سنة قافلة من الحِيرة إلى عكاظ تحمل المسك وتجىء بديلا منه بالجلود والحبال وأقمشة اليمن المزركشة . فعرض البَرّاض الكنانىّ نفسه عليه ليقود القافلة فى حماية قبيلته كنانة ؛ وعرض عُرْوَةُ الهوازنىّ نفسه كذلك على أن يتخطّى إلى الحجاز طريق نَجْد . واختار النعمان عروة فأحفظ ذلك البرّاض فتبعه وغاله وأخذ قافلته ، ثم أخبر بشر القرشى أنّ هوازن ستأخذ بثأرها من قريش . ولحقت هوازن بقريش قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا وتراجعت قريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم ، فأنذرتهم هوازن الحرب بعكاظ للعام المقبل . وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات تباعا انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية ؛ ذلك بأن يدفع من كانوا أقل قتلى دِيَةَ العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر . ودفعت قريش دية عشرين رجلا من هوازن ، وذهب البرّاض مثلا للشقاوة .

لم يحقق التاريخ سن محمد أيام حرب الفجار ؛ فقيل : كان ابن خمس عشرة سنة ؛ وقيل : كان ابن عشرين . ولعل سبب الخلاف أن هذه الحرب استطالت أربع سنوات تجعل حاضر أولها وهو فى الخامسة عشرة يلحق آخرها فى جوار العشرين .

وقد اختلف فيما قام به محمد من عمل فى هذه الحرب ، فقال أُناس : إنه كان يجمع السهام التى تقع من هوازن ويدفعها الى أعمامه ليردوها فى صدور خصومهم ، وقال آخرون : بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . وما دامت الحرب المذكورة قد امتدت فتراتها فى سنوات أربع ، فليس ما يمنع صحة الروايتين ؛ فيكون قد جمع السهام لأعمامه أول الأمر ، ثم رمى من بعد ذلك . وقد ذكر رسول الله الفِجار بعد سنوات من رسالته فقال : قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أُحب أنى لم أكن فعلت .

وقد شعرت قريش بعد الفجار بأن ما أصابها وما أصاب مكة جميعاً بعد موت هاشم وموت عبد المطلب من تفرق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الأمر ، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمنع من أن يطمع فيها طامع . إذ ذاك دعا الزُّبَيْر بن عبد المطلب ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهرة ، وتيم ، فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله القاتل لنكونن مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه ما بَلّ بحرٌ صوفة . وقد حضر محمد هذا الحلف الذى سمته العرب حلف الفُضُول ؛ وكان يقول : « ما أُحبُّ أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النَّعَم ولو دُعيت به لأجبت » .

حلف الفضول

لم تكن حرب الفجار ، كما رأيت ، تستغرق إلا أياما من كل عام . أما سائر العام فكان العرب يرجعون فيه إلى أعمالهم المعروفة يزاولونها دون أن تترك الحرب فى نفوسهم من المرارة ما يحول بينهم وبين التجارة والربا والشراب والتسرِّى والأخذ من مختلف ألوان اللهو بأوفر نصيب . أفكان محمد يشاركهم فى هذا ؟ أم أن رقة حاله وضيق ذات يده وكفالة عمه إياه جعلته بمنأى عنها ينظر الى الترف نظرة المحروم المشتهى ؟ أمّا أنه نأى عنها فذلك ما يشهد به التاريخ . لكنه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها ؛ فقد كان الخلعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون من أسباب الرزق الا الضنك

والاملاق يجدون الوسيلة اليها ، بل كان بعضهم أشد من أمجاد مكة وأشراف قريش إمعاناً فيها وإدماناً لها . إنما كانت نفس محمد مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف . وكأن حرمانه من التعلم الذى يتعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقاً وبها تعلقا . كما أن النفس العظيمة التى تجلت من بعدُ آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها ، كانت فى توقها الى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو إليه أهل مكة ، الى نور الحياة المتجلّى فى كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها ، ولاستكناه ما تدلّ هذه المظاهر عليه وما تحدّث الموهوبين به . ولذلك ظهر منذ الصبا الأوّل فى مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس ، حتى لدعاه أهل مكة جميعا بالأمين .

رعيه الغنم

وممّا زاده انصرافاً إلى التفكير والتأمل اشتغاله برعى الغنم سنى صباه تلك . فقد كان يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكة ، وكان يذكر رعيه إياها مغتبطاً . وكان يقول: ما بعث الله نبيًّا إلا راعى الغنم ، ويقول : بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد . وراعى الغنم الذكى القلب والفؤاد يجد فى فسحة الجو الطليق أثناء النهار وفى تلألؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبّح منه فى هذه العوالم حتى يرى فيما وراءها ، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه . وهو يرى نفسه ، ما دام ذكى الفؤاد عليم القلب، بعض هذا الكون غير منفصل عنه . أليس هو يتنفس هواءه ولولم يتنفسه قضى ؟ أليست تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً ؟ هذه الأفلاك والعوالم التى يرى فى فسحة الكون أمامه ، متصلا بعضها ببعض فى نظام محكم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية ، فأى

انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل إحكامه ؟ وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الانسان الدنيا والسمو به عنها إذا تبدّى له كاذب زخرفها. لذلك ارتفع محمد فى أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وبقى له :« الأمين ».

يدل على ذلك كله ما حدّث هو عنه ، من أنه كان يرعى الغنم مع زميل له ، فحدثته نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الشباب ، فأفضى الى زميله هذا ذات مساء أنه يود أن يهبط الى مكة، يلهو بها ويعبث عبث الشباب فى جنح الليل، وطلب لذلك اليه أن يقوم على حراسة أغنامه . لكنه ما إن بلغ أعلى مكة حتى استرعى انتباهه عرس زواج وقف عنده ثم ما لبث أن نام . ونزل مكة ليلة أخرى للغاية ذاتها، فامتلأت آذانه بأصوات موسيقية بارعة كأنما هى موسيقى السماء ، فجلس يستمع ثم نام حتى أصبح . وماذا عسى أن تفعل مغريات مكة بقلب مهذّب ونفس كلها التفكير والتأمل ؟ ماذا عسى أن تكون هذه المغريات التى وصفنا والتى لا يستريح إليها من يكون دون محمد سموًّا بمراحل كثيرة ! لذلك أقام بعيداً عن النقص لا يجد لذة يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمل .

حياة التفكير والتأمل

وحياة التفكير والتأمل وما تستريح إليه من عمل بسيط كرعى الغنم ، ليست بالحياة التى تدرّ على صاحبها أخلاف الرزق أو تفتح أمامه أبواب اليسار . وما كان محمد يهتمّ لذلك أو يعنى به ، وقد ظل طول حياته أشد الناس زهداً فى المادة ورغبة عنها . وما إقباله عليها وكان الزهد بعض طبعه ، وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صلبه؟! . أليس هو القائل: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع؟ أليس هو الذى عُرف عنه كل حياته حرصُه على شَظَف العيش ، ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة ؟ والذين يتوقون إلى المال ويلهثون فى طلبه إنما يبتغونه لارضاء شهوات لم

يعرف محمد طوال حياته شيئاً منها . واللذة النفسية الكبرى ، لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال ومن دعوة إلى التأمل ، هذه اللذة العظيمة التى لا يعرفها إلا الأقلون ، والتى كانت لذة محمد منذ نشأته . ومنذ أرته الحياة فى نعومة أظفاره ذكريات بقيت مطبوعة فى نفسه داعية إلى الزهد فى الحياة ، وأولاها موت أبيه وما يزال هو جنيناً ، ثم موت أمه ثم موت جده ، هذه اللذة ليست بحاجة إلى ثروة من المال وإن تكن بحاجة إلى ثروة نفسية هائلة يعرف الانسان معها كيف يعكُف على نفسه ويعيش بها وفى دخيلتها . ولو أن محمداً ترك وشأنه يومئذ، لما نازعته نفسه إلى شىء من المال ولظل سعيداً بهذه الحال، حال الرعاة المفكرين الذين ينتظمون الكون فى أنفسهم، والذين يحتويهم الكون فى حبة قلبه .

لكن عمه أبا طالب كان ، كما قدمنا، حليف فقر كثير عيال . لذلك رأى أن يجد لابن أخيه يوماً سبباً للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم التى يرعى . فبلغه يوماً أن خديجة بنت خُوَيْلد تستأجر رجالا من قريش فى تجارتها . وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم . ولقد زاد فى ثروتها أنها ، وكانت من بنى أسد ، قد تزوجت مرتين من بنى مخزوم بما جعلها من أوفر أهل مكة غنى . وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خويلد وبعض ذوى ثقتها . وقد ردت يد الذين طلبوا يدها من كبار قريش ، لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها . وإذ علم أبو طالب بأنها تجهز لخروج تجارتها الى الشام مع القافلة نادى إليه ابن أخيه ، وكان يومئذ فى الخامسة والعشرين من سنه ، وقال له : ياابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وقد بلغنى أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته . فهل لك أن أكلمها ؟ قال محمد : ما أحببت .

خديجة

فخرج أبو طالب إليها فقال لها : هل لك يا خديجة أن تستاجرى محمداً ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة بكار . وكان جواب خديجة : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب ! وعاد العم الى ابن أخيه يذكر له الأمر ويقول له : هذا رزق ساقه الله اليك .

محمد في تجارة خديجة

خرج محمد مع مَيْسَرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به . وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء الى الشام مارّة بوادى القُرَى ومَدْيَن وديار ثمود وبتلك البقاع التى مر بها محمد مع عمه أبى طالب وهو فى الثانية عشرة من عمره . وأحيت هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى، كما زادته تأملا وتفكيراً فى كل مارأى وسمع ، من قبل سفره ، بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكة . فلما بلغ بُصْرَى اتصل بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأحبارها وتحدث إليه الراهب نسطور وسمع منه . ولعله أو لعل غيره من الرهبان قد جادل محمداً فى دين عيسى ، هذا الدين الذى كان قد انقسم يومئذ شيعاً وأحزاباً، كما بسطنا من قبل . واستطاع محمد بأمانته ومقدرته أن يتجر بأموال خديجة تجارة أوفر ربحاً مما فعل غيره من قبل . واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبة ميسرة وإجلاله . فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتيها به .

فلما بلغت القافلة مَرّ الظَّهْرَان فى طريق عودتها ، قال ميسرة : يا محمد ، أسرع الى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فانها تعرف ذلك لك . وانطلق محمد حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة . فرأته خديجة ، وكانت فى عِلِّيَّة لها ، وهو على بعيره . ونزلت حين دخل دارها واستقبلته . واستمعت إليه يقص بعبارته البليغة الساحرة خبر رحلته وربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام ، وخديجة تنصت مغتبطة مأخوذة . وأقبل ميسرة من بعدُ فروى لها عن محمد

ورقة شمائله وجمال نفسه ما زادها علما به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة . ولم يك إلا رد الطَّرْف حتى انقلبت غبطتها حبا جعلها وهى فى الأربعين من سنها ، وهى التى ردت من قبلُ أيدى أعظم قريش شرفا ونسبا ، تود أن تتزوج من هذا الشاب الذى نفذت نظراته ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها . وتحدثت فى ذلك إلى أختها على قول ، والى صديقتها نفيسة بنت مُنْيَةَ على قول آخر . وذهبت نفيسة دسيسا الى محمد فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج ؟ قال : ما بيدى ما أتزوج به . قالت : فان كُفِيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ . قال : فمن هى ؟ أجابت نفيسة بكلمة واحدة : خديجة . قال محمد : كيف لى بذلك !. وكان هو أيضاً قد أنس الى خديجة وإن لم تحدثه نفسه فى زواج منها، أن كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها . فلما قالت له نفيسة جواباً على سؤاله : علىَّ ذلك ، سارع الى إعلان قبوله . ولم تبطىء خديجة أن حددت الساعة التى يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج . وزوّجها عمها عمر بن أسد أن كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار ، مما يكذّب ما يروى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضياً هذا الزواج؛ فسقته خديجة خمراً حتى أخذت فيه ، وحتى زوّجها محمداً .

زواج محمد من خديجة

وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة محمد : تبدأ حياة الزوجية والأبوّة . الزوجية الموفقة الهنيئة من جانبه وجانب خديجة جميعا ، والأبوّة التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد فى طفولته لفقد الآباء ..

الفصل الرابع

من الزواج إلى البعث

صفة محمد — بناء المكيين الكعبة — حكم محمد بينهم فى الحجر الأسود
حكماء قريش والوثنية — أبناء محمد وبناته — موت أبنائه — زواج بناته
ميل محمد للعزلة — تحنثه فى حراء — الرؤيا الصادقة — أول الوحى

تزوج محمد من خديجة بعد أن أصدقها عشرين بكرة، وانتقل إلى بيتها ليبدأ وإياها صفحة جديدة من حياته؛ ليبدأ حياة الزوجية والأبوة، وليبادلها من جانبه حب شاب فى الخامسة والعشرين لم يعرف نزوات الشباب ولا طيشه، ولا هو عرف هذا الحب الأهوج يبدأ كأنه الشعلة المتوهجة لينطفىء من بعد ذلك سراجه، وليرزق منها البنين والبنات، فيحتسب أبناءه القاسم والطاهر والطيب بما يثير فى نفسه لاعج الحزن والألم، وتبقى له بناته وهو بهن البر والشفقة، وهن له الاكرام والاعزاز الخالص.

صفة محمد

وكان محمد وسيم الطَّلعة رَبْعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، ذا شعر رجل شديد سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين، واسع العينين أدعجهما، تشوب بياضهما فى الجوانب حمرة خفيفة، وتزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك، مستوى الأنف دقيقه، مفلَّج الأسنان، يرسل ذقناً كثة؛ عالى العنق جميله، عريض الصدر، رَحْب الساحتين، أزهر اللون، شَثْن الكفين والقدمين (أى غليظها)، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابته، على ملامحه سيما التفكير والتأمل، وفى نظرته سلطان الآمر الذى يخضع الناس لأمره.

فلا عجب وتلك صفته أن تجمع خديجة بين حبه والاذعان له . ولا عجب أن تعفيه من تدبير مالها لتقوم هي على هـذا التدبير كما كان دأبها من قبل ، وأن تدع له ما شاء من فسحة الوقت ليفكر وليتأمل .

وأقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة في ذروة من النسب وسعة من المال، وأهل مكة جميعاً ينظرون له نظرة غبطة وإكبار . وهو في شغل عن نظرتهم بما أسبغه الله عليه من فضله ، وبما يبشره به خصب خديجة من عقب صالح . لكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة على ما كان يفعل من قبل ، بل لقد زاده جاهاً بينهم ومكانة فيهم ، وزاده لذلك تواضعاً على جم تواضعه ؛ فلقد كان على عظيم ذكائه وظاهر تفوقه حسن الاصغاء الى محدثه ، لا يلوى عن أحد وجهه ولا يكتفي بالقـاء السمع الى من يحدثه ، بل يلتفت اليه بكل جسمه . وكان قليل الكلام، كثير الانصات، ميالا للجد من القول ، وإن كان لا يأبى أن يشارك في مفاكهة وأن يهزل ثم لا يقول إلا حقا . وكان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه . فاذا غضب لم يظهر لذلك من أثر الغضب الا نفرة عرق بين حاجبيه ، أن كان يكظم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه ، لما جُبل عليه من سعة الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس ، ومن البر والجود وكرم العشرة ، وما كان عليه الى جانب ذلك من ثبات العزيمـة وقوة الارادة وشـدة البأس ومضاء التصميم مضاء لا يعرف التردد . وهذه الصفات مجتمعة فيه كانت تجعل من رآه بديهة هابه . ومن خالطه أحبه . فما كان أعظم أثرها إذًا فيما اتسق بينه وبين خديجة الزوج الوفيـة من مودة صادقة ووفاء كامل .

إعادة بناء الكعبة

لم ينقطع محمد عن مخالطة أهل مكة والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة . وكانوا يومئذ في شغل بمـا أصاب الكعبة ، فقد طغى عليها سيل عظيم انحدر من الجبـال فصدع جدرانها بعد توهينها . وكانت قريش من قبل ذلك تفكر

فى أمرها ، أن كانت ، ولا سقف لها ، عرضة لانتهاب السارقين ما تحتوى من نفائس .
لكنها كانت تخشى ، إن هى شدت بنيانها ورفعت بابها وسقفتها ، أن يصيبها من
رب الكعبة المقدسة شر وأذى . فقد كانت تحيط بها فى مختلف عهود الجاهلية
أساطير تخيف الناس من الاقدام على تغيير شىء من أمرها ، وتجعلهم يعتبرون
ذلك بدعاً محرّما . فلما طغى عليها السيل لم يكن بدّ من الاقدام ولو فى شىء
من الخوف والتردد . وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر
مملوكة لتاجر رومى اسمه باقوم فحطمها . وكان باقوم هذا بنّاء على شىء من العلم
بالنجارة . فلما سمعت قريش بخبرها خرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش الى
جُدّة فابتاعوا السفينة من الرومى ، وكلموه فى أن يَقْدَم معهم الى مكة ليعاونهم
فى بناء الكعبة ، وقبل باقوم . وكان بمكة قبطى يعرف نجر الخشب وتسويته ،
فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه باقوم . ثم إن قريشاً اقتسمت جوانب
البيت أربعة ، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه . على أنهم ترددوا قبل هدمها
مخافة أن يصيبهم أذى . ثم إن الوليد بن المغيرة أقدم فى شىء من الخوف ، فدعا
آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليمانى . وأمسى القوم ينتظرون ما الله
فاعل بالوليد . فلما أصبح ولم يصبه شىء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة ،
ومحمد ينقل معهم ، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر ضربوا عليها بالمعول
فارتد عنها ، فاتخذوها أساساً للبناء فوقه . ونقلت قريش أحجار الجرانيت
الأزرق من الجبال المجاورة للبدء فى البناء وبدأت فيه . فلما ارتفع إلى قامة
الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدس فى مكانه فى الجانب الشرقى ،
اختلفت قريش أيهم يكون له فخار وضع الحجر فى هذا المكان . واستحرّ
الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه . تحالف بنو عبد الدار
وبنو عَدِىّ أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، وأقسموا على ذلك
جهد أيمانهم ، حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً وأدخلوا أيديهم فيه

حكم محمد في أمر الحجر الأسود

توكيداً لأيمانهم، ولذلك سموا: لَعَقَة الدم. فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومي ما صار إليه أمر القوم، وكان أسنَّهم وكان فيهم شريفاً مطاعاً، قال لهم: اجعلوا الحكم فيما بينكم أوّل من يدخل من باب الصفّا. فلما رأوا محمداً أوّل من دخل قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه، وقصوا عليه قصتهم. وسمع هو لهم، ورأى العداوة تبدو في عيونهم، ففكر قليلاً ثم قال: هَلُمَّ إليّ ثوباً، فأتي به. فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه، ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرَف من أطراف هذا الثوب؛ فحملوه جميعاً إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه. وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر. وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثماني عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين، وجعلوا في ركنها الشآمي من داخلها دَرَجاً يصعد به إلى سطحها، ووضع هُبَل داخل الكعبة، كما وضعت النفائس التي تعرّضت من قبل بنائها وسقفها لمطامع اللصوص.

أُختلف في سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش في أمر الحجر، فقيل: كان ابن خمس وعشرين، وقال ابن اسحاق: كان ابن خمس وثلاثين. وسواء أصحت الواحدة أم الأخرى من هاتين الروايتين فان إسراع قريش الى الرضا بحكمه أوّل مادخل من باب الصفا، وتصرفه هو في أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة، يدل على ما كان له من مكانة سامية في نفوس أهل مكة ومن احترام جمّ لما عرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد.

انحلال السلطة في مكة وأثره

وهذا الخلاف بين القبائل، وهذا التحالف بين لعقة الدم، وهذا الاحتكام لأول مقبل من باب الصفا، يدل على أن السلطة في مكة كانت انحلت فلم يبق لرجل منها ما كان لقصيّ ولا لهاشم ولا لعبد المطلب من سلطان. ولقد كان

لتنازع بنى هاشم وبنى أمية السلطان بعد وفاة عبد المطلب أثره فى ذلك لا ريب. وكان هـذا الانحلال فى السلطة جديراً بأن يجر على مكة الأذى، لولا ما كان لبيتها العتيق فى نفوس العرب جميعاً من قداسة. على أن انحلال السلطان قد أدى إلى نتيجته الطبيعية: أدى إلى مزيد من حرية الناس فى التفكير والجهر بالرأى، وإلى إقدام اليهود والنصارى، ممن كانوا يخافون صاحب السلطان، على تعيير العرب بعبادة الأوثان. وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زالت من نفوسهم قداسة الأصنام، وإن ظل أمجاد مكة وسادتها يظهرون لها التقديس والعبادة. ولهؤلاء من العذر ما للذين يرون فى الدين القائم وسيلة من وسائل ضبط النظام وعدم تبلبل الأفكار، وفى عبادة الأصنام بالكعبة ما يحفظ على مكة مكانتها الدينية والتجارية. ولقد ظلت مكة بالفعل تَنْعَم من وراء هذه المكانة بالرخاء واتصال التجارة. لكن ذلك لم يغير من انحلال قَدَاسة الأصنام فى نفوس المكيين أنفسهم.

بدء انحلال الوثنية

ذكروا أن قريشا اجتمعت يوما بنَخْلة تحيي عيد العزّى، فخلص منهم أربعة نجيا هم زيد بن عمرو وعثمان بن الحُويرث وعبيد الله بن جحش وورقة بن نوفل، فقال بعضهم لبعض: « تعلموا، والله ما قومكم على شيء وإنهم لفى ضلال. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجرى دم النحور. يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذى أنتم عليه ». أمّا ورقة فدخل النصرانية، وقيل: إنه نقل إلى العربية بعضاً مما فى الأناجيل. وأمّا عبيد الله بن جحش فظل فيما هو فيـه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، وهناك اعتنق النصرانيـة ومات عليها، وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان على الاسلام حتى صارت من أزواج النبى وأمهات المؤمنين. وأمّا زيد بن عمرو ففر من زوجه ومن عمه الخطاب، وطوّف فى الشام وفى العراق ثم عاد ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية. وفارق

دين قومه واعتزل الأوثان، وكان يقول وهو مستند إلى الكعبة: « اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك به ، ولكنى لا أعلمه » . وأما عثمان بن الحويرث ، وكان من ذوى قرابة خديجة ، فذهب إلى بيزنطة وتنصّر وحسُنت مكانته عند قيصر ملك الروم . ويقال : إنه أراد أن يخضع مكة إلى حماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها ، فطرده المكيون فاحتمى بالغساسنة فى الشام ، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة ، فوصلت الغساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً .

أبناء محمد

تعاقبت السنون ومحمد يشارك أهل مكة فى حياتها العامة ويجد فى خديجة خير النساء حقا : الودود الولود التى وهبت كل نفسها له ، والتى أنجبت له من الأبناء القاسم والطاهر والطيِّب ، ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . أما القاسم والطاهر والطيِّب فلم يعرف عنهم إلا أنهم ماتوا أطفالا فى الجاهلية لم يتركوا على الحياة أثراً يبقى أو يذكر . لكنهم من غير شك قد ترك موتهم فى نفس أبويهم ما يتركه موت الابن من أثر عميق ، وترك موتهم من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أمومتها ثلاث جراحات دامية . وهى لا ريب قد اتجهت عند موت كل واحد منهم فى الجاهلية الى آلهتها الأصنام تسألها ، ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها ، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يهوى به الثكل ليتحطم على قرارة الحزن مرّةً فمرة فمرة ! وقد شعر زوجها لا ريب معها بالألم لوفاة بنيه ، كما حزّ فى قلبه هذا الألم الحى ممثلة صورته فى زوجه يراه كلما عاد الى بيته وجلس اليها . وليس يتعذر علينا أن نقدر عمق هذا الحزن السحيق فى عصر كان البنات يُوأدْنَ فيه ، وكان الحرص على العقب الذكر يوازى الحرص على الحياة بل يزيد عليه . وبحسبك مظهراً لهذا الألم أن لم يطق محمد على الحرمان صبراً ، حتى اذا جيء بزيد بن حارثة يشترَى طلب الى خديجة أن تبتاعه ففعلت ، ثم أعتقه وتبنّاه ، فكان يدعى زيد بن

محمد ، واستبقاه ليكون من بعدُ من خيرة أتباعه وصحبه . ولقد حزن محمد من بعد حين مات ابنه ابراهيم أشد الحزن بعد أن حرّم الاسلام وَأد البنات ، وبعد أن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات . فلا ريب إذاً أن قد كان لما أصاب محمداً فى بنيه ما هو جدير بأن يترك فى حياته وتفكيره أثره . ولا ريب فى أنه استوقف تفكيره ولفت نظره فى كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تتقرب به الى أصنام الكعبة ، وما كانت تنحر لهُبَل وللاّت والعُزّى ولمنَاة الثالثة الأخرى تريد أن تفتدى ما ألمَّ بها من ألم الثُّكل ، فلا تفيد القربان ولا تجدى النحور .

وأما البنات فقد عُنِي محمد بتزويجهن من أكفاء لهن . فزوّج زينب كبراهن من أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس ، وكانت أمه أختاً لخديجة ، وكان فتى مقدّراً من قومه لاستقامته ونجاح تجارته . وكان هذا الزواج موفقاً برغم ما كان بعد الاسلام ، وحين أرادت زينب الهجرة من مكة الى المدينة ، من شوائب شابته سنرى من بعدُ تفصيلها . وزوّج رُقَيّة وأم كلثوم من عُتْبَة وعُتَيْبَة ابنى عمه أبى لهب . ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الاسلام أن أمر أبو لهب ابنيه بتسريحهما ، فتزوجهما عثمان واحدة بعد الأخرى . وكانت فاطمة طفلة ما تزال فلم تزوّج من على إلا بعد الاسلام .

بناته

حياة طمأنينة ودَعَة إذاً كانت حياة محمد فى هذه السنين من عمره . ولولا احتسابه بنيه لكانت حياة نعمة بمودة خديجة ووفائها ، وبهذه الأبوّة السعيدة الراضية . طبيعىٌّ مع ذلك أن يترك محمد نفسه لسجيتها ، سجية التفكير والتأمل ، وأن يستمع إلى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم ، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم ، وأن يفكر ويتدبر ، وأن يكون أشد من كل قومه تدبراً وتفكيراً . فهذا الروح القوى الملهم ، هذا الروح الذى أعدت الأقدار ليبلّغ الناسَ من بعدُ رسالاتِ ربه ، ويوجه حياة العالم الروحية

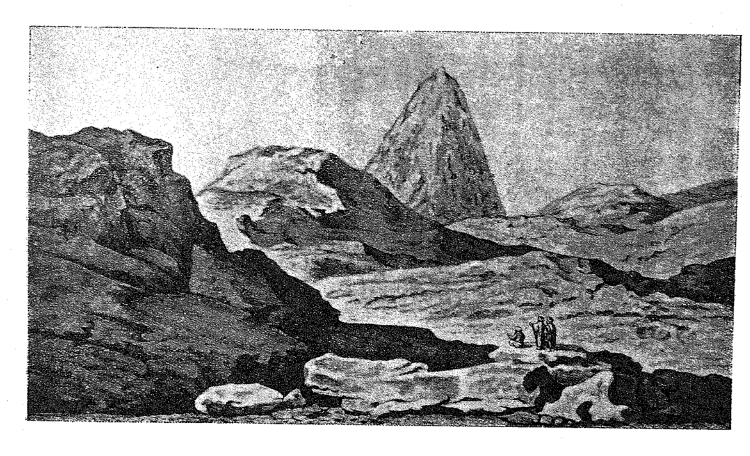
الاتجاه الحق ، لا يمكن أن يظل مطمئنا الى ما غرق الناس فيه الى الأذقان من ضلال ، ولا بد أن يلتمس فى الكون أسباب الهدى ، حتى يُعِدّه الله ليلقى عليه ماقدّر فى الغيب من رسالته . ومع عظيم توجهه لهذه الناحية الروحية وشديد تعلقه بها فانه لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهان ولا أراد أن ينصب نفسه حكما على نحو ما كان ورقة بن نوفل وأمثاله . هو إنما كان يريد الحق لنفسه . فكان لذلك كثير التفكير ، طويل التأمل ، قليل الافضاء لغيره بما يجيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله .

التحنث

وقد كان من عادة العرب — إذ ذاك — أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمنا فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة ، يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء ، ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمة . وكانوا يُسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنُّف أو التحنُّث . وقد وجد محمد فيه خير ما يُمَكِّنه من الامعان فيما شُغِلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يلتمس أثناءها الوسيلة الى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة ، واستلهام ما فى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل

فى غار حراء

حِرَاء — على فرسخين من شمال مكة — غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعنا فى التأمل والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق ، والحق وحده . ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى الحياة التى حوله ليس حقا . وهناك كان يقلّب فى صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا . وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأحبار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشد ، بل فى هذا الكون المحيط به : فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت



جبـــل حراء حيث بدء الوحي . ويعرف الآن بجبل النـــور

ضوء الشمس الباهرة اللألاء، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى، وفى البحر وموجه، وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود. فى هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا، وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سره. ولم يكن بحاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومه من شؤون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقا. فما هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه!. وهُبَل واللات والعزى، وكل هذه الأنصاب والأصنام القائمة فى جوف الكعبة أو حولها، لم تخلق يوماً ذُبابا ولا جادت مكة بخير!. ولكن! أين الحق إذاً؟. أين الحق فى هذا الكون الفسيح بأرضه وسمواته ونجومه؟ أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث إلى الناس النور والدفء، ومن عندها ينحدر ماء المطر، فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق، حياة بالماء والنور والدفء؟ كلا! فما هذه الكواكب إلا أفلاكا كالأرض سواء. أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثير لاحدّ ولا نهاية له؟ ولكن ما الأثير؟! وهذه الحياة التى نحيا اليوم فتنقضى غداً، ما أصلها وما مصدرها؟! أهى مصادفة تلك التى أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها؟ لكن للأرض وللحياة سننا ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها. وما يأتى الناس من خير أو شر، أفيأتونه طواعية واختياراً، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه؟ فى هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء. وكان يريد أن يرى الحق فيها وفى الحياة جميعاً. وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره وكل ما فى وجوده، ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصبحها ومسائها. فاذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها

التماس الحقيقة

تسائله تريد أن تطمئن إلى أنه بخير وعافيـة . وإذا استدار العـام وجاء شهر رمضان كرّةً أخرى ذهب إلى حِراء وعاد إلى تفكيره ، ينضجه شيئاً فشيئاً وتزداد به نفسه امتلاء . وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه، صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقـة التى ينشد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها . إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما إليهـا من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا . وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما ينقذ قومه من ضلالهم . ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حق . لـكن فيه كذلك ألواناً من الوهم ، وصوراً من الوثنية ، لا يمكن أن تتفق والحق المجرد البسيط الذى لا يعرف كل هذه المضاربات الجدلية العقيمة ، مما يمعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الـكتاب . وهذا الحق هو الله خالق الـكون لا إله إلا هو . وهذا الحق هو أن الله رب العالمين . هو الرحمن الرحيم . وهذا الحق هو أن الناس مجزيّون بأعمالهم . « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ » ، وأن الجنة حق والنار حق ، وأن الذين يعبدون من دون الله إلهاً آخر لهم جهنم ، وساءت مستقرًّا ومقاماً .

الرؤيا الصادقة

وشارف محمد الأربعين ، وذهب الى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه ايماناً بما رأى فى رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم، وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال . وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤاه . ولقـد طالت به الحـال ستة أشهر حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه الى خديجة وأظهرها على مايرى ، وأنه

يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفية وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه .

أول الوحى (سنة ٦١٠ م)

وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفى يده صحيفة فقال له : إقرأ . فأجاب مأخوذاً : ما أقرأ . فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له : إقرأ . قال محمد ما أقرأ. فأحس كأن الملك يخنقه كرة أخرى، ثم يرسله ويقول له: اقرأ . قال محمد — وقد خاف أن يخنق مرة أخرى — : ماذا أقرأ ؟ قال الملك: « إقرأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ ورَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الانْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نقشت فى قلبه. لكنه ما لبث أن استيقظ فزعاً يسأل نفسه: أى شىء رأى؟! أتراه أصابه ما كان يخشى من جِنَّة ؟ وتلفت يَمْنة ويَسْرَةً فلم ير شيئاً . ومكث برهة أصابته فيها رعدة الخوف وتولاه أشد الوجل ، وخاف ما قد يكون بالغار ففرّ منه وكله الحيرة لا يستطيع تفسير ما رأى ، وانطلق هائماً فى شعاب الجبل يسائل نفسه عمن دفعه ليقرأ . لقد كان إلى يومئذ يرى وهو فى تحنثه الرؤيا الصادقة تنبلج من خلال تأمله فتملأ صدره فتضىء أمامه وتدله على الحق أين هو ، وتنير له أكداس الظلمات التى زجت قريشاً فى وثنيتهم الى عبادة أصنامهم . وهذا النور الذى أضاء أمامه وهذا الحق الذى هداه سبيله هو الواحد الأحد . فمن هذا المذكر به وبأنه الذى خلق الانسان وبأنه الأكرم الذى علّم الانسان بالقلم ما لم يعلم ؟ وتوسط الجبل وهو فى هذه الحال من فزع وخشية وتساؤل ، فسمع صوتا يناديه ، فأخذه الروع ورفع رأسه إلى السماء ، فاذا الملك فى صورة رجل هو المنادى . وزاد به الفزع ووقفه الرعب مكانه ، وجعل يصرف وجهه عما يرى ، فاذا هو يراه فى آفاق السماء جميعاً ، ويتقدم ويتأخر فلا تنصرف صورة الملك الجميل من أمامه . وأقام على ذلك زمنا كانت خديجة قد بعثت أثناءه بمن يلتمسه فى الغار فلا يجده .

الفزع

فلما انصرفت صورة الملك رجع محمد ممتلئاً بما أوحى اليه ، وفؤاده يَجفُ وقلبه يضطرب خوفا وهلعا . ودخل على خديجة وهو يقول : زَمِّلونى . فزملته وهو يرتعد كأن به الحمّى . فلما ذهب عنه الرّوع نظر إلى زوجه نظرة العائذ المستنجد ، وقال : ياخديجة ! مالى ؟ وحدثها بالذى رأى . وأفضى اليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهنا . وكانت خديجة ، كما كانت أيام تحنثه فى الغار ومخاوفه أن تكون به جنة ، ملاك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوجل . لم تبد له أى خوف أو ريبة ، بل رنت إليه بنظرة الاكبار وقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة ، ووالله لا يخزيك الله أبدا ، وإنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتَقْرِى الضيف ، وتَعين على نوائب الحق .

خديجة وزير صدق

واطمأن روع محمد والتى الى خديجة بنظرة شكر ومودة ، ثم أحس بجسمه متعبا فى حاجة الى النوم فنام . نام ليستيقظ من بعدُ الى حياة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالأبصار والألباب ، ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية . تلك رسالة ربه يبلّغها ويدعو الناس إليها بالتى هى احسن ، حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

الفصل الخامس

من البعث الى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل — فتور الوحى — إسلام أبى بكر
المسلمون الأولون — دعوة محمد أهله للاسلام — إغراء قريش
شعراءها بمحمد — ذكر محمد آلهة قريش بالسوء — سفارة
قريش إلى أبى طالب — موقف محمد من عمه — تعذيب
قريش للمسلمين — هجرة المسلمين إلى الحبشة — إسلام عمر

نام محمد وحدقت به خديجة وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملا لهذا الذى سمعت منه. فلما رأته استغرق فى نوم مطمئن هادىء تركته وخرجت تقلب فى نفسها هذا الذى ملأ قلبها وأثار هواجسها، وتفكر فى الغد ترجوه خيراً، وترجو أن يكون زوجها فيه نبىّ هذه الأمة العربية التى أغرقت فى الضلال؛ يهديها دين الحق ويدلها على الصراط المستقيم. وتخشاه، مع ذلك، أشد الخشية على هذا الزوج البارّ الوفىّ الحميم. وطفقت تعرض أمام بصيرتها ما قصّ عليها، وتتخيل هذا الملك الجميل الذى تعرّضَ له فى السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربه، والذى ملأ عليه الوجود كله زمناً كان يراه أثناءه أينما صرف وجهه، وتستعيد الكلمات التى تلا محمد بعد أن نقشت فى صدره. جعلت تعرض ذلك كله أمام بصيرتها فتفترّ شفتاها طوراً عن ابتسامة الأمل، وتنكمش أساريرها طوراً آخر خيفة ماقد يكون أصاب الأمين. ولم تطق البقاء فى وحدتها طويلا، تنتقل من الأمل الحلو الباسم الى الريبة والاشفاق المخوف، ففكرت فى أن تفضى بما فى نفسها الى من تعرف فيه الحكمة وحسن النصيحة.

لذلك انطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان ، كما قدمنا ، قد تنصّر وعرف الانجيل ونقل بعضه الى العربية . فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع ، وقصّت عليه كل ماحدثها به ، وذكرت له إشفاقها وأملها ، أطرق مليًّا ثم قال : « قُدُّوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبىّ هذه الأمة ، فقولى له فليثبت » . وعادت خديجة فألفت محمداً نائماً ما يزال ، فحدقت به وكلها الحب والاخلاص وكلها الاشفاق والأمل . وفيما هو فى هدأة نومه إذا به اهتز وثقل تنفسه وبلل العرق جبينه يقوم ليستمع الى الملك يوحى إليه : « يأيها المُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » . ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقا وتقدّمت إليه فى رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح . فكان جوابه أو كما قال : انقضى ياخديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته . فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب إلى ؟ . فجهدت خديجة تهوّن عليه الأمر وتثبته ، وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به ، ثم أعلنت إليه فى شوق ولهف إسلامها له وإيمانها بنبوّته .

حديث ورقة لخديجة

وكان طبيعيًّا أن تسارع الى الايمان به ، وقد جرّبت عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة ، وقد رأته فى سنوات تحنثه كيف شُغلت نفسه بالحق دائما ، يطلبه مرتفعا بقلبه وبروحه وبعقله فوق أوهام هذا الناس ممن يعبدون الأصنام ويقرّبون لها النحور ، ويرون فيها آلهة يزعمونها تضر وتنفع ، ويتوهمونها خليقة بالعبادة والاجلال . رأته فى سنوات تحنثه ورأت كيف كان حاله أول عوده من حراء بعد البعث وهو فى أشد الحيرة من أمره ، ورأت إذ طلبت هى اليه متى جاءه الملك أن يخبرها ، فلما رآه أجلسته على فخذها اليسرى ثم على فخذها اليمنى ثم فى

حجرها وهو ما يزال يراه ، فتحسرت وألقت خمارها فاذا هو لا يراه ؛ فلم يبق ريب عندها فى أنه ملك وليس بشيطان .

ورقة ومحمد

وخرج محمد من بعد ذلك يوما للطواف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل . فلما قص عليه محمد أمره قال ورقة : «والذى نفسى بيده إنك لنبىّ هذه الامة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . ولتُكذَّبَنّ ، ولتؤذَيَنّ ، ولتخرجَنّ ولتقاتَلَن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » . ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه . وشعر محمد بصدق ورقة فى قوله وبثقل ما ألقى عليه ، وطفق يفكر كيف يدعو قريشا الى ما آمن هو به وهم أحرص ما يكونون على باطلهم ، وهم فى سبيله يقاتلون ويقتلون ، وهم أهله وعشيرته الأقربون .

إنهم فى ضلال وإن ما يدعوهم إليه هو الحق . أليس يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذى خلقهم وخلق من قبلُ آباءهم ليعبدوه مخلصين له الدين طاهرة نفوسهم . وليتقربوا إليه بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقه وابن السبيل ، بدل أن يعبدوا هذه الأحجار التى اتخذوا منها أصنامهم فتجعل عبادتها نفوسهم أشد منها تحجراً وقسوة ، ثم يزعمون أنها تغفر لهم ما يمعنون فيه من لهو وفسوق ، ومن أكل الربا ومال اليتيم ! . أليس يطلب إليهم أن ينظروا الى ما فى السموات والأرض من خلق الله ، وأن تتمثل نفوسهم ذلك كله وماله من خطر وجلال . ثم ترى ذلك كله من خلق الله الذى تعبده وحده لا شريك له فتكبر بما يخلق مما فى السموات والأرض ، وتكبر بعبادتها خالق الوجود كله ، وتسمو عن كل وضيع وتتعالى عن كل دون وتأخذها الرحمة بكل من لم يهده الله وتعمل لهدايته ، وتكون البر بكل يتيم وبكل بائس أو ضعيف . نعم إلى هذا أمره الله أن يدعوهم . لكن هذه القلوب القاسية وهذه الأرواح الغلاظ قد يبست على عبادة ما كان يعبد آباؤها ، ووجدت فيه تجارة تجعل مكة مركز حجيج عبدة الأصنام ! أفيتركون دين آبائهم ويُعَرّضون

مكانة مدينتهم الى ما قد تتعرّض له اذا لم يبق على عبادة الاصنام أحد؟! ثم كيف تَطْهر هذه القلوب وتخلص من أدران شهواتها والشهوة تهبط بها إلى ارضاء بهيميتها، فى حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم. واذا هم لم يؤمنوا به فماذا عساه يفعل؟ هذه هى المسألة الكبرى!!

فتور الوحى

وانتظر هداية الوحى إياه فى أمره وإنارة سبيله، فاذا الوحى يفتُر واذا جبريل لا ينزل عليه، وإذا ما حوله سكينة صامتة، واذا هو فى وحدة من الناس ومن نفسه، وحدة جعلته يعود الى مثل مخاوفه قبل نزول الوحى، وإذا خديجة تقول له: ما أرى ربك إلا قد قلاك، واذا الخوف والوجل يبتعثانه من جديد يطوى الجبال وينقطع فى حراء ويرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربه يسأله: لم قلاه بعد أن اصطفاه. ولم تكن خديجة أقل منه إشفاقاً ووجلا. ويتمنى الموت صادقاً لولا أنه كان يشعر بما أمر به فيرجع الى نفسه ثم الى ربه. وفكر فى أن يلقى بنفسه من أعلى حراء أو أبى قُبَيس. وأى خير فى الحياة وهذا أكبر أمله فيها يذوى وينقضى. وإنه لكذلك تساوره هذه المخاوف اذ جاءه الوحى بعد طول فتوره وإذ نزل عليه بقوله تعالى:

نزول سورة الضحى

«وَالضحَى وَالليلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى؛ فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ؛ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ».

يا لجلال الله! أية سكينة للنفس وغبطة للقلب وبهجة للفؤاد!! انجابت مخاوف محمد وزال كل روعه وطوّقت ثغره ابتسامة الرضا وافترّت شفتاه عن معانى الحمد وآى التقديس والعبادة. لم يبق لما كانت خديجة تقول له من أن الله قلاه ولم يبق لفزعه وهلعه موضع، بل تولاه الله وتولاها برحمته، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه. لا انتحار اذاً ولكن حياة ودعوة الى الله،

والى الله وحده . الى الله العلىّ الكبير تعنو له الجباه ويسجد له من فى السموات والأرض جميعاً . هو وحده الحق وكل مايدعون من دونه الباطل . اليه وحده يتوجّه القلب ، وبه وحده يجب أن تتعلق النفس ، وفيه وحده يجب أن تفنى الروح . وللآخرةُ خير لك من الأولى . الآخرة التى تحيط فيها النفس بكل الوجود فى كمال وحدته ، والتى يتلاشى فيها المكان والزمن وتنسى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى ؛ الآخرة التى يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهر ، والليل ودجاه الساجى ، والسموات والكواكب والأرض والجبال كلاً واحداً تتصل به الروح الراضية المرضية ؛ هذه هى الحياة التى يجب أن تكون اليها الغاية من سفر هذه الحياة ! هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه لا تغنى عنه ! هذا هو الحق الذى أضاء بنوره روح محمد والذى ابتعثه من جديد ليفكر فى الدعوة الى ربه . وللدعوة الى ربه يجب أن يطهّر ثيابه ، وأن يهجر المنكر ، وألا يمنّ على أحد بدعوة الى الحق ، وأن ينير للناس سبل العلم بما لم يكونوا يعلمون ، وألا ينهر من أجل ذلك سائلا ، وألا يقهر يتيما . حسبه نعمة اختيار الله إياه لكلمته فليتحدّث عنها . وحسبه أن الله وجده يتيما فآواه فى كفالة جده عبد المطلب وعمه أبى طالب ؛ وأنه وجده فقيراً فأغناه بأمانته ويسّر له خديجة شريكة صباه ، شريكة تحنثه ، شريكة بعثه ، شريكة المحبة الناصحة الرءوف ؛ وأنه وجده ضالا فهداه برسالته . حسبه هذا وليدع الناس من غير منٍّ عليهم . ذلك أمر الله الى نبيه الذى اصطفاه ، ما ودّعه وما قلاه .

الدعوة إلى الحق وحده

وعلّم الله نبيه الصلاة فصلّى وصلت خديجة معه . وكان يقيم معهما غير بناتهما على بن أبى طالب الذى كان صبيًّا لمّا يبلغ الحلم : ذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ؛ وكان أبو طالب كثير العيال . فقال محمد لعمه العباس وكان من أكثر بنى هاشم يساراً : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب

الصلاة

الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه » . وكفل العباس جعفراً وكفل محمد عليًّا، فلم يزل معه حتى بعثه الله . وفيما محمد وخديجة يصلّيان يوماً دخل عليهما على مفاجأة فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسّر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن . فوقف الشاب دهشاً حتى أتما صلاتهما ثم سأل : لمن تسجدان؟ فأجابه محمد أو كما قال : إنما نسجد لله الذى بعثنى نبيًّا وأمرنى أن أدعو الناس إليه . ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى دينه الذى بعث به نبيه ، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعُزَّى . وتلا محمد ما تيسر من القرآن ، فأخذ على عن نفسه وسحره جمال الآيات وإعجازها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه . ثم قضى ليله مضطرباً حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأى أبى طالب وقال : « لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله » . وكذلك كان على أول رجل أسلم . ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبى ، وبذلك بقى الاسلام محصوراً فى بيت محمد فيه وفى زوجه وابن عمه ومولاه . وظل هو يفكر كيف يدعو قريشاً إليه ، وهو يعلم ما هى عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادات آبائها وأصنامهم .

اسلام على بن أبى طالب

اسلام أبى بكر

وكان أبو بكر بن أبى قحافة التيمىّ صديقاً حميما لمحمد يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق . لذلك كان هو أول من دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان ، وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى إليه . ولم يتردد أبو بكر فى إجابة محمد إلى دعوته وفى الايمان بها . وأى نفس مفتوحة للحق تتردد فى ترك عبادة الأوثان لعبادة الله وحده ! . وأى نفس فيها شىء من السمو ترضى عن عبادة الله عبادة حجر أيًّا كانت صورته ! . وأى نفس تتردد فى طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبر باليتيم ! . وأذاع أبو بكر

بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله. وكان أبو بكر رجلا وسيما «مألفاً لقومه مُحَبَّباً سهلا ؛ وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر؛ وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ». وجعل أبو بكر يدعو إلى الاسلام مَنْ وثق به من قومه، فتابعه على الاسلام عثمان بن عفّان وعبدالرحمن ابن عَوْف وطَلْحة بن عُبَيد الله وسَعْد بن أبي وَقّاص والزُّبَيْر بن العَوّام. ثم أسلم من بعد ذلك عُبيدة بن الجرّاح وكثيرون غيره من أهل مكة . وكان أحدهم إذا أسلم ذهب إلى النبيّ فأعلن إليه إسلامه وتلقى عنه تعاليمه . وكان المسلمون الأولون يستَخفُون لعلمهم بما تُضمر قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها . فكانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شِعاب مكة وصلّوا فيها .

المسلمون الأولون

وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الاسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة ونزل على محمد فيها من الوحى ما زاد المسلمين إيماناً وتثبيتاً . وكان مثله هو خير ما يزيد الدعوة انتشاراً . كان بَرّاً رحيما جم التواضع كامل الرجولية عذب الحديث محبًّا للعدل يعطى كل ذى حق حقه، وينظر إلى الضعيف واليتيم وإلى البائس والمسكين نظرة كلها الأبوة والحنان والعطف والمودة . وكان فى تهجده وسهره الليل وترتيله ما أنزل عليه ودوام نظره فى السموات والأرض والتماس العبرة من الوجود كله وكل مافيه، وفى توجهه الدائم لله وحده والتماسه حياة الكون كله فى أطواء نفسه ودخيلة حياته، مثلا جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشدّ يقيناً بإيمانهم، على مافى ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرّضهم لأذى المشركين ممن لم يدخل الايمان إلى قلوبهم . آمن بمحمد من تجار مكة وأشرافها من عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والمغفرة والرحمة ، وآمن به كل ضعيف وكل بائس وكل محروم . وانتشر أمر محمد بمكة ، ودخل الناس فى الاسلام أرسالا رجالا ونساء .

قريش والمسلمون

وتحدث الناس عن محمد وعن دعوته . على أن أهل مكة من قساة الأكباد ومن على قلوبهم أقفالها لم يعبؤا به أول أمره ، وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قُس وأمية وورقة وغيرهم ، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم . وأن هُبَل واللاّت والعزى وإساف ونائلة اللذين كان ينحر عندهما ستكون آخر الأمر صاحبة الغلب ، ناسين أن الايمان الصادق لا يغلبه غالب ، وأن الحق قد كتب له الفوز أبداً .

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفى من أمره وأن يصدع بما جاءه منه ، ونزل الوحى « أَنْ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وقلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ، « فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمشركِينَ » . ودعا محمد عشيرته إلى طعام فى بيته وحاول أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الله ، فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا . ودعاهم محمد فى الغداة كرة أخرى؛ فلما طعموا قال لهم : ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه . فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر وأن يكون أخى ووصيِّ وخليفتى فيكم ؟ فأعرضوا عنه وهمّوا بتركه . لكن عليًّا نهض وما يزال صبيًّا دون الحلم وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت » . فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم . وجعل نظرهم ينتقل من أبى طالب إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين .

عشيرته الأقربون

انتقل محمد بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً . صعد يوماً على الصفا ونادى : يا معشر قريش . قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألون ما له . قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقونى ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط . قال : فأنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب ،

يابنى عبد مناف ، يابنى زُهرة ، يا بنى تَيْم، يا بنى مَخْزُوم ، يابنى أسَد، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله . أو كما قال .

« فنهض أبو لهب وكان رجلا بديناً سريع الغضب فصاح :

— تبًا لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا !

« وأُرتجَ على محمد فنظر الى عمه. ثم ما لبث أن جاءه الوحى بقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أغنَى عَنْهُ ما لُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ » .

الاسلام والحرية

لم يَحُلْ غضب أبى لهب ولا خصومة أبى سفيان دون انتشار الدعوة الى الاسلام بين أهل مكة . فلم يكن يوم الا أسلم فيه بعضهم لله وجهه . وكان الزاهدون فى الدنيا أشد على الاسلام إقبالا . أولئك لا تلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعى اليه . وهم قد رأوا محمداً فى غنى بمال خديجة وماله ، وهاهوذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال والمزيد عليه والاكثار منه ، ويدعو الى الحب والعطف والمودة والتسامح . بل ها هو ذا يجيئه الوحى بأن فى الاكثار من الثروة لعنة للروح . أليس يقول : « ألهاكُمُ التَّكاثُرُ ، حتَّى زُرْتمُ المقَابِرَ ، كلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كلاَّ لَوْ تَعلَمُونَ عِلْمَ اليَقِين . لَترَوُنَّ الجَحيمَ ، ثمَّ لَترَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقين ، ثم لَتُسْألُنَّ يَوْمَئذ عَنِ النَّعيم » .وأى شىء خير مما يدعو اليه محمد ! أليس هو يدعو الى الحرية ! الى الحرية المطلقة التى لا حدود لها !! الى الحرية العزيزة على نفس العربى إعزازه حياته ! نعم ! أليس يطلق الناس من التقيد بأية عبادة غير عبادة الله وحده ! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال : لا هبل ولا اللات ولا العزّى ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عباد النجوم ولا الحواريون ولا أحد من الانس أو من الملائكة أو من الجان يحجب بين الله

والانسان . وأمام الله ، أمامه وحده لا شريك له ، يسأل الانسان عما قدم من خير أو شر . وأعمال الانسان هي وحدها شفيعه . وضميره هو الذى يزن أعماله ، وهو وحده صاحب السلطان عليه ليتقدم يوم تُجزَى كلُّ نفس بما كسبت . أية حرية أوسع مدًى من هذه الحرية التى يدعو محمد اليها ؟! وهل يدعو أبو لهب أو أبو سفيان الى شىء من مثلها ؟! أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم فى رقٍّ وعبودية بما تكدّس عليها من خرافات حجبت عنها نور الحق وضياء الهدى !.

شعراء قريش

على أن أبا لهب و أبا سفيان وأشراف قريش وأمجادها ، أشراف المال وأمجاد اللهو ، بدءوا يشعرون بما فى دعوة محمد من خطر على مكانتهم، فرأوا بادىء الرأى أن يحاربوه بالحط من شأنه وبتكذيبه فيما يزعم من نبوّته . وكان أول ما صنعوا من هذا أن أغرَوْا به شعراءهم أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، يهجونه ويقارعونه . وتولّت طائفة من شعراء المسلمين الرد على هؤلاء من غير أن تكون بمحمد حاجة لمناقشتهم . هنالك تقدم غير الشعراء يسألون محمداً عن معجزاته التى يثبت بها رسالته ، معجزات كمعجزات موسى وعيسى . فما باله لا يحيل الصفا والمروة ذهباً ، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدث عنه مخطوطاً من السماء ! ولم لا يبدو لهم جبريل الذى يطول حديث محمد عنه ! ولم لا يحيي الموتى ولا يُسيِّر الجبال حتى لا تظل مكة

مطالبة محمد بالمعجزات

حبيسة بينها! ولم لا يَفْجُرَ ينبوعاً أعذب من زمزم ماء وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء ! ولم يقف أمر المشركين عند التهكم بالمسألة فى هذه المعجزات . بل كانوا يزدادون تهكما ويسألونه : لم لا يوحى اليه ربه أثمان السلع حتى يضاربون على المستقبل . وطال بهم اللجاج ، فرد الوحى لجاجهم بما أنزل على محمد من قوله تعالى : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ ».

نعم . ما محمد إلا نذير . وفيم يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلا ما يقبله العقل بل ما يمليه ويحتّمه ! . وفيم يطلبون إليه ما تأنف منه النفسُ الفاضلة وهو لا يطالبهم إلا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة ! . وفيم يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحى إليه ، والذى يهدى الى الحق، معجزة المعجزات! . ومالهم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليترددوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه ، وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست إلا حجارة أو خشباً مسندة أو أنصاباً قائمة فى عُرض الفلاة لا تملك لنفسها أو لهم نفعاً ولا ضرًّا ، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا إليها ما يثبت ألوهيتها ؟! ولو أنهم طلبوه لظلت خشباً أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها ، لا تستطيع لنفسها ضرًّا ولا نفعاً ، ولا تستطيع إذا حطمها محطم عن نفسها دفعاً . وبادأهم محمد بذكر آلهتهم وكان من قبلُ لا يذكرها ، وعابها وكان من قبل لا يعيبها ؛ فعظُم ذلك على قريش وحز فى صدورهم ؛ وبدءوا التفكير الجد فى أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه . لقد كانوا الى يومئذ يسخرون من قوله ، وكانوا إذا جلسوا فى دار الندوة أو حول الكعبة وأصنامها فجرى ذكره على لسانهم لم يثر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم . أما وقد حقر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم، ونال من هُبَل ومن اللات والعزّى ومن الأصنام جميعاً ، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية ، بل أصبح موضع جِدٍّ وتدبير . أولو أُتيح لهذا الرجل ان يؤلبِ عليهم أهل مكة وأن يصرِفهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجارة مكة ؟ وماذا يكون مقامها الدينى ؟ .

طعن محمد على الأصنام

ولم يكن عمه أبو طالب قد دخل فى دين الله ، لكنه ظل حامياً لابن أخيه قائماً دونه ، معلناً استعداده للدفاع عنه . لذلك مشى رجال من أشراف قريش عند أبى طالب وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا : « يا أبا طالب

إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فامّا أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه . » فردهم أبو طالب ردًّا جميلا . ومضى محمد يشتد فى الدعوة الى رسالته ، ويزداد لدعوته أعواناً . وائتمرت قريش بمحمد ومشوا الى أبى طالب مرة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان أنهد فتى فى قريش وأجمله ، وطلبوا اليه أن يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً فأبى . ومضى محمد فى دعوته ومضت قريش فى ائتمارها ، ثم ذهبوا الى أبى طالب مرةً ثالثة وقالوا له : « ياأبا طالب ، إن لك سنًّا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » . وعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً باسلام ابن أخيه ولا بخذلانه . ماذا تراه يصنع ؟ بعث إلى محمد فقص عليه رسالة قريش ثم قال له : « فأبقِ علىّ وعلى نفسك ولا تحمّلنى من الأمر مالا أُطيق » .

أيان يتجه التاريخ

وأطرق محمد إطراقةً وقف أزاءها تاريخ الوجود كله برهة باهتاً لا يدرى أيان يكون اتجاهه . فى الكلمة التى تفترّ عنها شفتا هذا الرجل حُكم على العالم أهو يظل فى الضلال يُمَدّ له فيه ، فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية وباطلها رأسها الخرف الآفن ؛ أم هو يضيء أمامه نور الحق وتعلن فيه كلمة التوحيد وتحرر فيه العقول من رق العبودية والقلوب من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الانسانية لتتصل بالملأ الأعلى . وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، فهو خاذله ومسلمه . وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدّة والعدد . إذاً لم يبق له دون الحق الذى ينادى الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدّة . ليكن ! ! إن الآخرة خير له

من الأولى . وليؤد رسالته وليدعُ إلى ما أمره ربه. ولَخيرٌ له أن يموت مؤمنا بالحق الذى أوحى إليه على أن يخذله أو يتردد فيه . لذلك التفت الى عمه ممتلىء النفس بقوة إرادته وقال له : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

يالعظمة الحق وجلال الايمان به ! اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف هو أيضا باهتاً أمام هذه القوة القدسية والارادة السامية فوق الحياة وكل ما فى الحياة . وقام محمد وقد خنقته العبرة مما فاجأه به عمه وإن لم تَدُرْ بنفسه خلجة ريب فى السبيل الذى يسلك . ولم تك إلا لحظة اهتز فيها وجود أبى طالب متحيراً بين غضبة قومه وموقف ابن أخيه حتى نادى محمداً: أن أقبل . فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

بنو هاشم يمنعون محمداً من قريش

وأفضى أبو طالب إلى بنى هاشم وبنى المطلب بقول ابن أخيه وبموقفه ، وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به ، وطلب إليهم أن يمنعوا محمداً من قريش؛ فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فانه صارحهم العداوة وانضم إلى خصومهم عليهم. وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بالعصبية القومية وبالخصومة القديمة بين بنى هاشم وبنى أمية . لكننا نعتقد أن العصبية لم تكن وحدها التى حفزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قريش كلها فى أمر له من جلال الخطر ما للدعوة إلى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التى وجدوا عليها آباءهم . واعتقادنا أن موقف محمد منهم وشدة إيمانه برأيه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد، وما كان شائعاً يومئذ بين قبائل العرب جميعاً من أن لله ديناً غير دينهم الذى هم عليه ، جعلهم يرون حقًّا لابن أخيهم محمد أن يعالن الناس برأيه كما كان يفعل أمية بن أبى الصلت وورقة بن نوفل وغيرهما . فان يكن محمد على الحق — وذلك ما لا ثقة لهم به — فسيظهر الحق من بعدُ وسيكون لهم من مجده نصيب ، وإلا يكن على الحق فسينصرف

الناس عنه كما انصرفوا من قبل عن غيره ،ثم لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يسلموه لخصومه كى يقتلوه .

اعتصم محمد بقومه من أذى قريش ،كما اعتصم فى داره بخديجة من هَمِّ نفسه . فقد كانت له ، بصدق إيمانها وعظيم حبها ، وزير صدق تسرّى عنه كل همه وتقوّى فيه كل عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم فى مناوأته وإيصال الأذى لأتباعه . والحق أن قريشاً لم تنم ولم تعد لما عرفت من قبل من دعة النعيم ، بل وثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ،حتى ألقى أحدهم عبده الحبشى بِلالاً على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت ،لغير شىء إلا أنه أصر على الاسلام . ولم يزد بلال وهو فى هذه الحال على أن يكرر كلمة : « أحَدٌ . أحَدٌ » محتملا هذا العذاب فى سبيل دينه . وقد رآه أبو بكر يوماً يعانى هذا العذاب فاشتراه وأعتقه . واشترى أبو بكر كثيراً من الموالى الذين كانوا يعذبون ،ومن بينهم جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه . وعذّبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الاسلام إلى دين آبائها . وكان المسلمون من غير الموالى يضربون وتوجه إليهم أشد صور المهانة . ولم يسلم محمد ، برغم منع بنى هاشم وبنى المطلب له ، من هذه الاساءات . كانت أم جميل زوج أبى لهب تلقى النجس أمام بيته فيكتفى محمد بأن يزيله . وكان أبو جهل يلقى عليه أثناء صلواته رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام ، فيتحمل الأذى ويذهب الى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته . هذا الى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهُجْر الكلام حيثما ذهبوا . واستمر الأمر على ذلك طويلا فلم يزدهم إلا حرصاً على دينهم وابتهاجاً بالأذى وبالتضحية فى سبيل عقيدتهم وإيمانهم . والحق أن هذه الفترة من فترات حياة محمد عليه السلام هى من أروع ماعرف التاريخ الانسانى فى العصور جميعاً . فما كان محمد والذين اتبعوه

ايذاء قريش المسلمين

طلاّب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان، إنما كانوا طلاّب حق وإيمان به.

صبر المسلمين على الأذى

وكان محمد طالب هدى للذين يصيبونه بالأذى وتحرير لهم من ربقة الوثنية الوضيعة التى تنحدر بالنفس الانسانية الى خزى المذلة والهوان. فى سبيل هذه الغاية الروحية السامية، لا فى سبيل شىء آخر، كان الأذى يصله وكان الشعراء يسبونه، وكانت قريش تأتمر به، حتى حاول رجل قتله عند الكعبة. وكان منزله يرجم، وكان أهله وأتباعه يهددون، فلا يزيده ذلك إلا صبراً وإمعاناً فى الدعوة. وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتبعوه بقوله: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». وهانت عليهم جميعاً التضحيات الجسام وهان عليهم الموت فى سبيل الحق وهداية قريش له. وقد تعجَب لهذا الايمان الآخذ بنفوس أولئك المكيين ولمّا يكن الدين قد كمل ولما يكن قد نزل من القرآن إلا القليل. وقد تحسب أن شخصية محمد ودماثة طبعه وجميل خلقه وما عرف من صدقه وما بدا من صلابة عوده وقوة عزمه وثبات إرادته، كان السبب فى كل هذا؛ ولا ريب قد كان لهذا كله حظه ونصيبه.

محمد ومن سبقه من الرسل

لكن عوامل أخرى جديرة بالتقدير والاعتبار كان لها هى أيضا فى ذلك نصيب غير قليل. فقد كان محمد فى بلاد حرة هى بالجمهورية أشبه. وكان فى الذروة والسنام منها حسباً ونسباً. وكان قد وصل من المال الى ما يشاء، وكان إلى ذلك من بنى هاشم. اجتمعت لهم سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وما شاءوا من مجد الألقاب الدينية. فلم يكن لذلك فى حاجة إلى المال أو الجاه أو المكانة السياسية أو الدينية. وكان فى ذلك على خلاف من سبقه من الرسل والأنبياء. فقد ولد موسى بمصر وفيها فرعون يدين له أهلها بالألوهية وينادى هو فيهم «أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى»، وتعاونه طائفة رجال الدين على سوم الناس ألوان الظلم والاستغلال والعسف؛ فكانت الثورة التى قام بها موسى بأمر

ربه ثورة على نظام سياسى ودينىّ معاً . أليس يريد أن يكون فرعون الرجل الذى يرفع الماء بالشادوف من النيل أمام الله سيين ؟ إذاً فما ألوهية فرعون وما هذا النظام القائم ؟ يجب أن يحطم ذلك كله ، ويجب أن تكون الثورة سياسية أولا . لهذا لقيت الدعوة الموسوية منذ بدايتها حرباً من فرعون شعواء . ولذلك آزرت المعجزات موسى ليؤمن الناس بدعوته . ألقى عصاه فاذا هى حية تسعى تلقف ما صنع سحرة فرعون . ولم يُجدِ ذلك موسى شيئاً فاضطر إلى مغادرة وطنه مصر ، وقد آزرته فى هجرته معجزة انفلاق الطريق فى البحر عَبْرَ الماء . وقد وُلد عيسى فى الناصرة من أعمال فلسطين، وهى يومئذ ولاية رومانية خاضعة لحكم القياصرة ولظلم المستعمرين بها ولآلهة رومية ، فدعا الناس إلى الصبر على الظلم وإلى المغفرة للتائب المنيب وإلى ألوان من الرحمة اعتبرها القائمون بالأمر ثورة على تجبُّرهم ؛ فآزرت عيسى معجزات إحياء الموتى وإبراء المرضى وسائر ما أيده به روح القدس من عنده . صحيح أن تعاليمهم تنتهى فى جوهرها إلى ما تنتهى إليه تعاليم محمد فى جوهرها ، مع خلاف فى التفاصيل ليس هنا موضع إيضاحه . لكن هذه العوامل المختلفة والعامل السياسى فى مقدمتها وجّهت دعوتهما اتجاهها . أمّا محمد، وكانت ما قدمنا ظروفه ، فكانت رسالته عقلية روحية أساسها الدعوة للحق والخير والجمال دعوة مجردة فى بدئها وفى غايتها . ولبعدها عن كل خصومة سياسية لم تزعج النظام الجمهورى الذى كان قائماً بمكة بأية صورة من صور الازعاج .

دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة

وقد تأخذ القارىء الدهشة اذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك اذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك فى هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث

والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر . وهاهى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته . فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها ؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدءوا يفكرون فيما أمامهم. لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم؛ فأى صنم هو الحق وأى صنم هو الباطل ؟ وكان فى العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار ، والذين يعبدون الشمس ؟ فأى هؤلاء على الحق ، وأيهم على الباطل ؟ لنذر هذا كله إذاً جانباً ولنمح أثره من نفوسنا ولنتجرد من كل رأى ومن كل عقيدة سابقة ، ولننظر . والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيان . مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالا . فالانسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأممه بعضها ببعض . والانسان يتصل بالحيوان والجماد . وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك . وذلك كله يتصل فى سنن مطردة لا تحويل لها ولا تبديل . فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . ولو أن إحدى موجودات الكون تحولت أو تبدلت لتبدل ما فى الكون . فلو أن الشمس لم تسعد الأرض بالنور والحرارة على السنة التى تجرى عليها منذ ملايين السنين لتبدلت الأرض غير الأرض والسماء . وما دام ذلك لم يحدث، فلا بد لهذا الكل من روح يمسكه ؛ منه نشأ وعنه تطوّر وإليه يعود . هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الانسان . أما سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالانسان سواء . والانسان والكون والزمان والمكان وحدةٌ ، هذا الروح جوهرها ومصدرها . إذاً فلتكن لهذا الروح وحده العبادة ، ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة . وفى الكون كله يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمل سننه الخالدة . وإذاً فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكا

جوهر الدعوة المحمدية

وفراعين وناراً وشمساً إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الانسانية ، ولا هو يتفق مع عقل الانسان وما كُرِّم به من القدرة على استنباط سنة الله من طريق النظر فى خلقه .

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأولون . وقد أبلغهم الوحى إياها على لسان محمد فى آى من البلاغة كانت وما تزال معجزة ، تجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره فى كمال جماله . هنالك ارتقت نفوسهم وارتفعت قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم : فهداهم محمد إلى أن الخير هو طريق الوصول ، وأنهم مجزيون عن هذا الخير يوم يتمون واجبهم فى الحياة بالتقوى ، ويوم تجزى كل نفس بما كسبت . « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

أى سمو بالعقل الانسانى أعظم من هذا السمو ؟ وأى تحطيم لقيوده أشد من هذا التحطيم ؟ ؟ حَسْبُ الانسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروة من مراتب الانسان . وفى سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها .

وقد كان من جلال موقف محمد ومن اتبعه أن ازداد بنو هاشم وبنو عبد المطلب منعاً له ودفعاً للأذى عنه ؛ حتى لقد مر أبو جهل بمحمد يوماً فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فأعرض محمد عنه وانصرف ولم يكلمه . وكان حمزة ، عمه وأخوه فى الرضاع ، ما يزال على دين قريش ، وكان رجلا قوياً مخوفاً ، وكان ذا ولع بالصيد ، فاذا رجع منه طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره . فلما جاء فى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبى جهل ملأه الغضب ؛ وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلماً على أحد ممن كان عندها كعادته ؛ ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد إليه ، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة . وأراد

إسلام حمزة

رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل فنعهم حسماً للشر ومخافة استفحاله معترفا أنه سب محمد سبًّا قبيحاً . ثم أعلن حمزة إسلامه وعاهد محمداً على نصرته والتضحية فى سبيل الله حتى النهاية .

ضاقت قريش ذرعاً بمحمد وأصحابه أن رأتهم يزدادون كل يوم قوة ثم لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به ، وعن صلواتهم وأداء فرضها ، فخُيِّل اليهم أن يتخلصوا من محمد بما توهموا من إرضاء مطامعه ، ناسين عظمة الدعوة الاسلامية ونزاهة جوهرها الروحى السامى عن الخصومة السياسية . فقد رغب عُتْبَة بن ربيعة ، وكان من سادات العرب ، الى قريش وهم فى ناديهم أن يكلم محمداً وأن يعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فيعطونه أيها شاء ويكف عنهم . وكلم عتبة محمداً فقال : « يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ؛ وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ؛ فاسمع منى أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفا سوّدناك علينا ، فلا نقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد ملكا ملّكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رأياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » . فلما فرغ من قوله تلا محمد عليه سورة السجدة وعُتبة منصت يستمع الى أحسن القول ويرى أمامه رجلا لا مطمع له فى مال ولا فى شرف ولا فى ملك ولا هو بالمريض ، وانما يدلى بالحق والدعوة الى الخير والدفع بالتى هى أحسن والاعجاز فى العبارة . فلما انتهى محمد انصرف عتبة الى قريش مأخوذا بجمال ما رأى وسمع ؛ مأخوذا بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه . ولم يرق قريشا أمر عتبة ولا راقها رأيه أن تترك للعرب محمدا ، فان تغلبت عليه استراحت قريش وإن اتبعته فلها فخاره ، وعادت تناوئه وتناوىء أصحابه وتصيبهم من البلاء بما كان هو فى منجاة منه

سفارة عتبة بن ربيعة

بمكانته من قومه ومنعته بأبى طالب وبنى هاشم وبنى المطلب . وزاد ما ينزل بالمسلمين من الأذى، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل . هنالك أشار عليهم محمد أن يتفرقوا فى الأرض . فلما سألوه أين نذهب ؟ نصح اليهم أن يذهبوا الى بلاد الحبشة المسيحية « فان بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . فخرج فريق من المسلمين عند ذلك الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً الى الله بدينهم. وخرجوا فى هجرتين. كانوا فى الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء تسللوا من مكة لواذاً ، ثم أقاموا فى خير جوار من النجاشى ، حتى ترامى اليهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فعادوا ، كما سنقصه من بعد . فلما لقوا عنت قريش وأذاهم أبلغ مما كان عادوا الى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم ، وأقاموا بها الى ما بعد هجرة النبى الى يثرب . وهذه الهجرة الى الحبشة كانت أوّل هجرة فى الاسلام .

الهجرة الى الحبشة

من حق من يؤرخ لمحمد أن يتساءل : أ كان كل القصد من هذه الهجرة التى قام بها المسلمون بأمره ورأيه ، الفرار من كفار مكة وما يلحقون بهم من الأذى ، أم أنها كان لها كذلك غرض سياسى إسلاميّ رمى محمد من ورائه الى غاية عليا ؟ . من حق مؤرخ محمد أن يتساءل عن هذا بعد الذى ثبت من تاريخ هذا النبى العربى فى أدوار حياته جميعا أنه كان سياسيا بعيد الغور كما كان صاحب رسالة وأدب نفس لا يدانيهما فى السمو والجلال والعظمة مدان . ويدعونا الى هذا التساؤل ما تجرى به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا الى خروج من خرج من المسلمين الى الحبشة ، بل بعثوا رجلين الى النجاشى ومعهما الهدايا القيمة ليقنعوه كى يرد المسلمين من مواطنهم اليهم . والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى ، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا محمداً . فهل تراهم عُنُوا بالأمر وبعثوا يستردون المسلمين الا لأنهم رأوا أن حماية النجاشى إياهم بعد سماعه أقوالهم قد تكون ذات أثر فى إقبال أهل جزيرة

سفيرا قريش الى النجاشى

العرب على دين محمد واتباعهم إياه ؟ أو أنهم خافوا ، إن بقى هؤلاء فى الحبشة ، أن تشتد شوكتهم، فاذا عادوا بعد ذلك لمعونة محمد عادوا أقوياء بالمال والرجال .

كان الرسولان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة . ولقد دفعا إلى النجاشى وإلى بطارقته بالهدايا كى يردوا المهاجرين من أهل مكة إليها ، ثم قالا :

« أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » . وكان السفيران قد اتفقا مع بطارقة النجاشى بعد أن أتحفاهم بهدايا أهل مكة أن يعاونوهما على رد المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشى كلامهم . فأبى النجاشى أن يفعل حتى يسمع ما يقولون وبعث فى طلبهم . فلما جاءوا سألهم :

— ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

رد المسلمين على السفيرين

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب قال :

— أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — وعدد عليه أمور الاسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً

وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك.

فقال النجاشى :

ــ هل معك مما جاء به عن الله من شىء تقرؤه علىّ ؟

قال جعفر: نعم، وتلا من سورة مريم الى قوله تعالى: « فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ، قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . »

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدقا لما فى الانجيل أخذوا وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح. وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، والله لا أسلمهم اليكما. فلما كان الغد عاد ابن العاص الى النجاشى فقال له : إن المسلمين ليقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه. فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ، يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشى عوداً وخط به على الأرض وقال وقد بلغت منه المسرة أكبر مبلغ : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط. وكذلك تبين للنجاشى بعد سماع الفريقين أن هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرون النصرانية ويعبدون الله. ووجد المسلمون فى جوار النجاشى أمناً ودعة حتى رجعوا الى مكة للمرة

جواب النجاشى والبطارقة

الأولى ومحمد ما يزال بها، وحين تراءى لهم أن خصومة قريش هدأت. فلما رأوا المكيين مايزالون يُنزلون به وبأعوانه الأذى عادوا الى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم. أفكانت هجرتاهم هاتان لمجرد الفرار من الأذى، أم كان لهما، ولو فى تدبير محمد وحده، غاية سياسية يجمل بالمؤرخ أن يجلوها؟

ومن حق مؤرخ محمد أن يتساءل: كيف أمن محمد على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا الى أرض الحبشة والنصرانية دين أهلها دين كتاب، ورسولها عيسى يقر محمد رسالته، ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش وإن تكن من نوع آخر؟ وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة فهى أشد من قريش فتنة؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد المسلمين الذين ذهبوا الى الحبشة، فدل تنصره على أن خوف هذه الفتنة كان جديراً بأن يساور محمداً وهو مايزال ضعيفا، ومايزال الذين اتبعوه فى أشد الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوهم! وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر محمد أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدلا لسمو روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته. ولقد كان من هذه الناحية مطمئنا تمام الطمأنينة. فقد كان الاسلام يومئذ، والى يوم مات صاحب الرسالة، فى صفاء جوهره لم تشب نقاءه ولا سموه شائبة. وكانت نصرانية الحبشة كنصرانية نَجْران والحيرة والشام قد اندس اليها من شوائب الخلاف بين مؤلهى مريم ومؤلهى عيسى والمخالفين لهؤلاء وأولئك بما لا يخشى معه على أولئك المسلمين الذين كانوا ينهلون من نبع الرسالة المصفَّى.

المسلمون ونصرانية الحبشة

والحق أن أكثر الأديان ما كانت تتخطى على الزمان أجيالا معدودة حتى يندس إليها نوع من الوثنية، إن لم يكن من هذا الطراز الوضيع الشائع يومئذ فى بلاد العرب فانه وثنية على كل حال. والاسلام نزل عدو الوثنية اللدود فى جميع صورها وأوضاعها. ثم إن النصرانية تعترف من ذلك التاريخ

لطائفة رجال الدين بمكانة خاصة لم يعرفها الاسلام قط ، وكان يومئذ أشد ما يكون عليها سموًّا ومنها براءة . ثم إنه كان يومئذ وبقى فى جوهره دين السمو بالنفس الانسانية الى غاية الذروة من السمو . حطم كل صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى، وأن يحب الانسان لأخيه ما يحب لنفسه . لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ولم يبق عرّافون ولم يبق شيء يحول دون أن ترتفع الروح الانسانية لتتصل بالوجود كله صلة خير ومعروف ، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافا مضاعفة . والروح ! الروح الذى هو من أمر الله ! الروح المتصل بأزل الزمن وأبده ! هذا الروح ما عمل صالحاً فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله عليه . يستطيع الأغنياء والأقوياء والشريرون أن يعذّبوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذّه وشهواته وأن يهلكوه ، لكنهم لن يصلوا الى الروح ما دام صاحبه يريد به سموًّا فوق سلطان المادة وفوق سلطان الزمن واتصالا بالوجود كله . إنما يجزى الانسان عن أعماله يوم تجزى كل نفس بما كسبت . يومئذ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ويومئذ لا ينفع الأغنياء مالهم ، ولا الأقوياء قوتهم ، ولا المتكلمين كلامهم . إنما هى الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه . ويومئذ يقف هذا الوجود جميعاً متسقة وحدته مجتمعا أزله وأبده ، لا يظلم ربك أحداً ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون .

كيف يخاف محمد الفتنة على من علّمهم هذه المعانى ومن بثها فى نفوسهم فحلّت منهم فى سويداء القلب ومكان العقيدة والايمان ! . ثم كيف يخاف عليهم الفتنة ومثله حاضر أمامهم بشخصه المحبوب ، حتى ليحبه أحدهم أكثر من حبه نفسه وبنيه وأهله . شخصه الذى يضع هذه العقيدة فوق ملك الأرض والسماء والشمس والقمر ويقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته . شخصه الذى يضىء بنور الايمان

والحكمة والعدل والخير والحق والجمال، الممتلىء الى جانب ذلك تواضعا وبرًّا ومودة ورحمة. لذلك كان مطمئنا الى هجرة أصحابه هؤلاء الى الحبشة كل الاطمئنان. وكان أمنهم عند النجاشي وسكينتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أواصر عطف أو قربى مما جعل قريشا تشعر بما فى إيذائها للسلمين، وهم منهم وهم أهلوهم وأنسابهم، من ظلم ومن عنت ومن إمعان فى الفجور، ومن تحميل كل ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى، فأصبح لا ينالهم سوء وأصبحوا يرون فى الصبر على البأساء قربى إلى الله ومغفرة منه.

اسلام عمر ابن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب يومئذ رجلا فى فتوّة الرجولية بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. وكان مفتول العضَل قويّ الشكيمة حادّ الطبع سريع الغضب محبًّا للهو والخمر، وفيه الى ذلك برٌّ بأهله ورقة لهم. وكان من أشد قريش أذى للمسلمين ووقيعة فيهم. فلما رآهم هاجروا الى الحبشة ورأى النجاشي حماهم شعر لفراقهم بوحشة وبما لفراقهم وطنهم من ألم يحزّ فى الكبد ويفرى المهجة. وكان محمد يوما مجتمعا مع أصحابه الذين لم يهاجروا فى بيت عند الصفا، ومن بينهم عمه حمزة وابن عمه على بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قحافة وغيرهم من سائر المسلمين. وعرف عمر اجتماعهم، فقصد اليهم يريد أن يقتل محمدا كى تستريح قريش وتعود اليها وحدتها بعد أن فرق أمرها وسفّه أحلامها وعاب آلهتها. ولقيه نعيم بن عبد الله فى الطريق وعرف أمره فقال له: «والله لقد غشتك نفسك من نفسك ياعمر. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع الى أهل بيتك وتقيم أمرهم». وكانت فاطمة أخت عُمر وزوجها سَعيد بن زَيد قد أسلما. فلما عرف عُمر من نَعيم أمرهما كرّ راجعاً اليهما ودخل البيت عليهما، فاذا عندهما من يقرأ عليهما القرآن. فلما أحسوا دنوّ داخل عليهم اختفى القارىء وأخفت فاطمة الصحيفة. وسأل عمر: ما هذه الهينمة التى سمعت؟. فلما أنكرا صاح بهما: لقد علمت أنكما تابعتما محمداً

على دينه ؛ وبطش بسعيد ؛ فقامت فاطمة تحمى زوجها فضربها فشجها ، فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به : نعم أسلمنا ، فاقض ما أنت قاض . واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم ، وغلبه برّه وعطفه فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون . فلما قرأها تغير وجهه وأحس بالندم لصنيعه، ثم اهتز لما قرأ فى الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التى تدعو اليها ، فزاد جانب البر غلبةً عليه . وخرج وقد لان قلبه واطمأنت نفسه ، فقصد الى مجلس محمد وأصحابه عند الصفا ، فاستأذن وأعلن إسلامه ، فوجد المسلمون فيه وفى حمزة للاسلام مَنَعَةً وللمسلمين حمى .

وفتّ إسلام عمر فى عضد قريش ، فأتمرت مرة أخرى ما تصنع ؟ . والحق أن هذا الحادث عزز المسلمين بعنصر جديد قوىٍّ غاية القوة جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان ؛ واستتبع بين الطرفين سياسة جديدة مليئة بأحداث وتضحيات وقوى جديدة أدت الى الهجرة والى ظهور محمد السياسى الى جانب محمد الرسول .

الفصل السادس

قصة الغرانيق

عود مهاجرى الحبشة — الغرانيق العلا — تمسك المستشرقين بقصتها
أسانيدهم فى ذلك — ضعف هذه الأسانيد — القصة ظاهرة
الكذب ينفيها التمحيص العلمى

عود مهاجرى الحبشة

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب ، فعاد كثير منهم فى رواية ، وعادوا كلهم فى رواية أخرى ، إلى مكة أن علموا برجوع قريش عن أذاها لمحمد ومن اتبعه . فلما بلغوها رأوا قريشا عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى إمعان فى عداوتهم أشد من كل ما عرف هؤلاء المهاجرون من قبلُ . فعاد منهم إلى الحبشة من عاد ، ودخل مكة من دخل مستخفيا أو بجوار . ويقال إن الذين عادوا استصحبوا وإياهم عدداً آخر من المسلمين أقام بالحبشة إلى ما بعد الهجرة وإلى حين استتباب الأمر للمسلمين بالمدينة .

أى داع حفز مسلمى الحبشة إلى العودة بعد ثلاثة أشهر من مقامهم ؟ هنا يرد حديث الغرانيق الذى أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك ، وأورده كثيرون من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة ، وأخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلا . وحديث الغَرَانيق أن محمداً لما رأى من تجنب قريش إياه وأذاهم أصحابه تمنى فقال : ليته لا ينزل علىّ شيء ينفرهم عنى . وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه . فجلس يوما فى ناد من

تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) ، فقرأ بعد ذلك : تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى . ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها وسجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحد . وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبى وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم . وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة ، فقال المسلمون بها : عشائرنا أحب إلينا ، وخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركباً من كنانة فسألوهم فقالوا : ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر . وأتمر المسلمون ما يصنعون فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبراً فدخلوا مكة .

الغرانيق العلا

وإنما ارتد محمد عن ذكر آلهة قريش بالخير فى مختلف الروايات التى أثبتت هذا الخبر لأنه كبُر عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك » ، وأنه جلس فى بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبى عليه سورة النجم فقال جبريل : أوجئتك بهاتين الكلمتين ؟!! مشيراً إلى تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى . قال محمد : قُلتُ على الله ما لم يقل . ثم أوحى الله إليه : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم وعادت قريش لمناوأته وإيذاء أصحابه .

تهافت حديث الغرانيق

هذا حديث الغرانيق ، رواه غير واحد من كتب السيرة ، وأشار إليه غير واحد من المفسرين ، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلا . وهو حديث

ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص . وهو بعدُ حديث ينقض ما لكل نبي من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين . ولذلك لم يتردد ابن اسحاق حين سئل عنه فى أن قال : إنه من وضع الزنادقة . لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا فاستندوا الى الآيات : (وإنْ كادوا ليفتنونك) والى قوله تعالى : (وَمَا أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نبيٍّ إلاَّ إذا تَمَنَّى ألقى الشَّيْطان فِي أُمْنِيَّتِه فَيَنسَخُ الله مَا يلقِي الشَّيْطان ثمّ يُحكِمُ اللهُ آيَاتهِ والله عليم حَكيم . ليجعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيطان فتنَةً للذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقَاسية قلوبُهُم وإنّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعيد) . ويفسر بعضهم كلمة (تمنى) فى الآية بمعنى قرأ ، ويفسرها آخرون بمعنى الأمنية المعروفة . ويذهب هؤلاء وأولئك ، ويتابعهم المستشرقون ، إلى أن النبي لما بلغ منه أذى المشركين حتى كانوا يقتلون بعض أصحابه ويلقون بعضهم فى الصحراء يلفحهم لظى الشمس المحرقة وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا ببلال ، وحتى اضطر النبي للاذن لأصحابه فى الهجرة الى الحبشة ، ولما رأى من جفاء قومه إياه وإعراضهم عنه ، ولأنه كان حريصاً على إسلامهم ونجاتهم من عبادة الأصنام ، تقرّب إليهم وتلا سورة النجم وأضاف إليها حكاية الغرانيق ، فلما سجد سجدوا وإياه وأظهروا له الميل لاتباعه ما دام قد جعل لآلهتهم نصيباً مع الله .

حجج مؤيديه

ويضيف سير وليم موير إلى هذه الرواية التي تروى كتب السيرة والمفسرون حجة يراها قاطعة فى نظره بصحة حديث الغرانيق . ذلك أن المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم اليها غير ثلاثة أشهر أجارهم النجاشي أثناءها وأحسن جوارهم . فلولم يكن قد ترامى اليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لما دفعهم دافع الى العود حرصا على الاتصال بأهلهم وعشائرهم . وأنّى يكون صلح بين محمد وقريش إذا لم يسعَ محمد اليه وقد كان

فى مكة أقل نفراً وأضعف قوة ، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعذيبهم إياهم .

دفع هذه الحجج

هذه هى الحجج التى يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيق . وهى حجج واهية لاتقوم أمام التمحيص . ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير . فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم إلى العود لمكة سببان : أولها أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل . وقد دخل عمر فى دين الله بالحمية التى كان يحاربه من قبل بها . لم يخفِ إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رءوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله ، ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسللهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب هو على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . هنالك أيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا من تدور عليه دائرتها . فقد أسلم من مختلف قبائل قريش وبيوتاتها رجال تثور لقتل أى واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه . فلا مفر إذاً من الالتجاء فى محاربة محمد إلى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر . وإلى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة هادنت المسلمين فلم تنل أحداً منهم بأذى . وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين إلى الحبشة ودعاهم إلى التفكير فى العود لمكة .

أسباب عود المهاجرين إلى الحبشة

١ - إسلام عمر

٢ - ثورة الحبشة

وربما ترددوا فى هذا العود لو لم يكن السبب الثانى الذى ثبت عزمهم . ذلك أن الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشى ، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجهت إليه . ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر الله النجاشى على خصومه . لكنهم لم يكونوا ليشاركوا فى هذه الثورة وهم أجانب ، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل . أما وقد ترامت إليهم أخبار الهدنة بين محمد وقريش هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى ، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء

ظهورهم وأن يلحقوا بأهليهم . وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم .

على أنهم مالبثوا أن بلغوا مكة حتى كانت قريش قد ائتمرت ماتصنع بمحمد وأصحابه ، واتفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامة ، فلا يُنكِحوا إليهم ولا يُنكِحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً . وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين ورجع الذين عادوا من الحبشة وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم . وقد وجدوا هذه المرة عنتاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة .

ليس الصلح الذى يشير إليه المستشرق موير هو إذاً الذى دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحبشة . إنما هى هذه الهدنة التى حدثت على إثر إسلام عمر وحماسته فى تأييد دين الله . فتأييد حديث الغرانيق بحجة الصلح تأييد إذاً غير ناهض .

الاحتجاج بالآيات مقلوب

أما احتجاج المحتجين من كتاب السير والمفسرين بالآيات . « إنْ كادُوا ليَفْتِنُونَكَ . . . » « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . . . » فهو احتجاج أشد تهافتاً من قصة السير موير . ويكفى أن نذكر فى الآيات الأولى قوله تعالى : « ولولا أن ثبَّتْناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا » لنرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى فى أُمنية الرسول حتى لقد كاد يركن إليهم شيئاً قليلا فقد ثبته الله فلم يفعل ، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات . وإذاً فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب . فقصة الغرانيق تجرى بأن محمداً ركن إلى قريش بالفعل وأن قريشاً فتنَته بالفعل فقال على الله مالم يقل . والآيات هنا أن الله ثبّته فلم يفعل . فاذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعاً غير مسألة الغرانيق رأيت أن الاحتجاج بها فى مسألة تتنافى مع عصمة الرسل فى تبليغ رسالاتهم ، وتتنافى مع تاريخ محمد كله ، احتجاج متهافت ، بل احتجاج سقيم .

أما آيات : « وما أرسلنا من قبلك من رسول » فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتة ؛ فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ويجعله فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، ويحكم الله آياته والله عليم حكيم .

تهافت القصة علمياً

وندع هذا الى تمحيص القصة التمحيص العلمى الذى يثبت عدم صحتها . وأول مايدل على ذلك تعدد الروايات فيها . فقد رُويت ، كما سبق القول ، على أنها : تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى . ورواها بعضهم : « الغرانقة العلا . ان شفاعتهن ترتجى » . وروى آخرون ان شفاعتهن ترتجى دون ذكر الغرانقة أو الغرانيق . وفى رواية رابعة : وانها لهى الغرانيق العلا . وفى رواية خامسة : « وانهن لهن الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لهى التى ترتجى » وهذا التعدد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن اسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد رسالات ربه .

تعددالروايات فيها

سياق سورة النجم يأباها

ودليل آخر أقوى وأقطع سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرانيق . فالسياق يجرى بقوله تعالى : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِهِ الْكُبْرَى ، أفرأيتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَالثَةَ الأخْرَى . ألكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنثى تلكَ إذنْ قِسْمَةٌ ضِيزَى. إنْ هِيَ إلاَّ أسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أنتُمْ وَآبَاؤكُمْ مَا أنزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ . ولقد جاءهُمْ مِنْ ربهم الهدى » . وهذا السياق صريح فى أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. فكيف يحتمل أن يجرى السياق بما يأتى : « أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلا. إن شفاعتهن لترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ». إن فى هذا السياق من الفساد ومن الاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللات والعزى

وذمها فى أربع آيات متعاقبة ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان، وما لا تبقى معه شبهة فى أن حديث الغرانيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم، وصدّقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل.

الحجة اللغوية

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حين كتب يفنّد قصة الغرانيق. تلك أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنها لطائر مائىّ أسود أو أبيض، والغرنيق الشاب الأبيض الجميل. ولا شىء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب.

صدق محمد يأبى صحة القصة

بقيت حجة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرانيق هذه من حياة محمد نفسه. فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرّب عليه الكذب قط حتى سمى الأمين ولمّا يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. وكان صدقه أمراً مسلماً به من الناس جميعاً، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعثه: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقوننى. فكان جوابهم: نعم، أنت عندنا غير متّهم وما جربنا عليك كذباً قط. فالرجل الذى عرف بالصدق فى صلاته بالناس منذ نعومة أظفاره الى كهولته كيف يصدّق إنسان أنه يقول على ربه ما لم يقل، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه! . هذا أمر مستحيل يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القوية الممتازة التى تعرف الصلابة فى الحق ولا تداجى فيه لأى اعتبار. وكيف ترى يقول محمد لو وضعت قريش الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل، ثم يقول على الله ما لم يوح إليه، ويقوله لينقض به أساس الدين الذى بعثه الله به هدى وبشرى للعالمين!

ومتى يرجع الى قريش ليمدح آلهتهم! بعد عشر سنوات أو نحوها من

بعثه ، وبعد أن احتمل هو وأصحابه فى سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل ، وبعد أن أعز الله الاسلام بحمزة وعمر ، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوة بمكة ، ويمتد خبرهم الى بلاد العرب كلها والى الحبشة والى مختلف نواحى العالم . إن القول بذلك حديث خرافة وأكذوبة ممجوجة . ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاحها فأرادوا سترها بقولهم : إن محمداً ما كاد يسمع كلام قريش إذ جعل لآلهتهم نصيباً فى الشفاعة حتى كبر ذلك عليه ، وحتى رجع الى الله تائباً أول ما أمسى ببيته وجاءه جبريل فيه . لكن هذا الستر أحرى بأن يفضحها . فما دام الأمر قد كان كبر على محمد منذ سمع مقالة قريش ، فما كان أحراه أن يراجع الوحى لساعته . وما كان أحراه أن يُجرى الوحى الصوابَ على لسانه ! . وإذاً فلا أصل لمسألة الغرانيق إلا الوضع والاختراع قامت بهما طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للاسلام ، بعد انقضاء الصدر الأول من الاسلام .

افتراء على التوحيد

وأعجب ما فى جرأة هؤلاء المفترين أنهم عرضوا للافتراء فى أم مسائل الإسلام جميعاً : فى التوحيد ؛ فى المسألة التى بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتى لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة ولا أماله عنها ما عرض عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكا عليهم . وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتبعه من أهل مكة إلا عدد يسير . وما كان أذى قريش لأصحابه ليجعله يرجع عن دعوة أمره ربه أن يبلغها للناس . فاختيار المفترين لهذه المسألة التى كانت صلابة محمد فيها غاية ما عرف عنه من الصلابة ، تدل على جرأة غير معقولة ، وتدل فى نفس الوقت على أن الذين مالوا الى تصديقهم قد خُدعوا فيما لا يجوز أن يُخدَع فيه أحد .

لا أصل إذاً لمسألة الغرانيق على الاطلاق ، ولا صلة البتة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة . إنما عادوا ، كما قدمنا ، بعد أن أسلم عمر ونصر

الاسلام بمثل الحمية التى كان يحاربه من قبل بها ، حتى اضطرت قريش لمهادنة المسلمين . وعادوا حين شبت الثورة فى بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبتها . فلما علمت قريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظم أمر محمد بهم ، فأتمرت ما تصنع . وقد انتهت بوضع الصحيفة التى قرروا فيها فيما قرروا ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ؛ كما أجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا محمداً إن استطاعوا .

الفصل السابع

مســـــــاءات قريش

إعلان عمر إسلامه وصلاة المسلمين عند الكعبة — صحيفة المقاطعة
جهود قريش فى محاربة محمد — سلاح الدعاية — سحر البيان
جبر النصرانى — تأثر قريش بالدعوة الجديدة — الطفيل الدوسى
وفد النصارى — ما منع قريش أن تتابع محمداً ! — المنافسة
الخوف على مكانة مكة — الفزع من البعث

فتّ إسلام عمر فى عضد قريش أن دخل ابن الخطاب فى دين الله بالحمية والحماسة التى كان يحاربه من قبل بها . لم يُخفِ إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رءوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله . ولم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب هو على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . وأيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم فأتمرت من جديد ماذا تصنع . واتفقوا فيما بينهم وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة تامة ، فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . وعلّقوا صحيفة هذا العقد فى جوف الكعبة توكيداً لها وتسجيلا . وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة السلبية ، سياسة التجويع والمقاطعة ، ستكون أفعل أثراً من سياسة الأذى

حمية عمر

الصحيفة

والاعنات ، وإن لم ينقطعوا عن الاعنات ولا عن الأذى . وأقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بنى هاشم وبنى عبد المطلب سنتين أو ثلاثاً ، كانت ترجو خلالها أن تصل من محمد إلى اعتزال قومه إياه ، فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر .

فأما محمد فلم يزده ذلك إلا اعتصاماً بحبل الله ، ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلا ذوداً عنه وعن دين الله . ولم يحل دون انتشار الدعوة إلى الاسلام انتشاراً خرج بها من حدود مكة . وذاع أمر الدعوة بين العرب وقبائلها بما جعل الدين الجديد يفشو ذكره فى شبه الجزيرة بعد أن كان حبيساً بين جبال مكة ، وما جعل قريشاً تزيد إمعاناً فى تفكيرها كيف تحارب هذا الخارج عليها والذى يسب آلهتها ، وكيف تقف دون انتشار دعوته بين قبائل العرب ، ولا غنى لمكة عن هذه القبائل ولا غنى للقبائل عن مكة فى التجارة المتصلة التى تصدر عن أم القُرَى وترد اليها .

أذى قريش

والحق أن ما بذلته قريش من مجهود فى محاربة هذا الخارج عليها وعلى دينها ودين آبائها وما ثابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء على هذه الدعوة الجديدة يعدو ما يتصوره العقل . هددت محمداً وهددت أهله وأعمامه ! تهكمت به وبدعوته وسخرت منه وممن اتبعه ! أرسلت شعراءها تهجوه وتفرى أديمه ! نالته بالأذى ونالت من اتبعه بالسوء والعذاب ! عرضت عليه الرشوة وعرضت عليه الملك وعرضت عليه كل مايطمع الناس فيه عادة ! شرّدت أنصاره عن أوطانهم وأصابتهم فى تجارتهم وفى أرزاقهم ! أنذرته وأنذرتهم الحرب وأهوالها وما تجنى وما تدمّر ! وها هى ذى تحاصرهم أخيراً لتميتهم جوعا إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . ومع ذلك ظل محمد يشتد فى دعوة الناس بالحسنى إلى الحق الذى بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً . أفآن لقريش أن تلقى سلاحها وأن تصدّق الأمين الذى عرفته منذ طفوليته وكل

صباه وشبابه أميناً ؟ ! أم أنها لجأت إلى سلاح غير ماقدمنا من أسلحة النضال وخُيِّل اليها أنها مستطيعة به أن تكسب الموقعة، وأن تستبق لأصنامها مكانة الألوهية التى تزعمها ، وأن تستبقى بمكة متحف هذه الأصنام ومكان قداستها وكل ماينالها بسبب هذه الأصنام من قداسة ؟ !

كلا ! لم يأن لقريش أن تذعن وأن تسلم . وهى الآن أشد ما تكون خوفا من انتشار دعوة محمد بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة ؛ وقد بقى لديها سلاح لجأت اليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها فى قوته وفى مضائه مطمع . ذلك سلاح الدِّعاية . الدعاية بكل ما تنطوى عليه من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج إشاعات وتضعيف لحجة الخصم واستعلاء بالدليل على دليله . الدعاية ضد الفكرة وضد صاحب الفكرة واتهامه فيها واتهامها لذاتها . الدعاية التى لاتقف عند حدود مكة والتى لم تكن مكة بحاجة اليها كحاجة البادية وقبائلها وشبه الجزيرة وسائر أهلها . كان التهديد والاغراء والارهاب والتعذيب بعض مايغنى عن الدعاية فى مكة . لكنها لم تكن لتغنى عنها شيئاً عند الألوف الذين يفدون إلى مكة كل عام فى التجارة والحج ، والذين يجتمعون فى أسواق عُكاظ ومَجَنَّة وذى المجاز ليحجوا الى الكعبة بعد ذلك مقرِّبين إلى أصنامهم ناحرين عندها ملتمسين منها البركة والمغفرة . لذلك فكرت قريش منذ استحرّت الخصومة بينها وبين محمد فى تنظيم الدعاية ضده . وكانت فى تفكيرها هذا أشد إمعانا منذ فكر هو فى مباداة الحاجّ بدعوتهم الى عبادة الله وحده لاشريك له . وهو قد فكر فى هذا بعد السنين الأولى من بعثه . فهو قد بدأ نبيًّا منذ بعثه إلى أن جاءه الوحى أن ينذر عشيرته الأقربين . فلما أنذر قريشاً وأسلم منها من أسلم وألح فى الكفر والعناد من ألح ، أُلقِى عليه أن يدعو قومه العرب جميعاً ، ليلقَى عليه من بعد ذلك أن يدعو الناس كافة .

سلاح الدعاية

لمّا فكر فى مباداة الحاج من مختلف قبائل العرب بالدعوة إلى الله

اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون ماذا عسى أن يقولوا فى شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج، حتى لا يختلف بعضهم مع بعض ويكذّب بعضهم بعضاً . واقترح بعضهم أن يقولوا : إن محمداً كاهن ؛ فردّ الوليد هذا الرأى أن ليس ما يقول محمد بزمزمة الكاهن ولا بسجعه . واقترح آخرون أن يزعموا أن محمداً مجنون : فرد الوليد هذا الرأى بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة . واقترح غيرهم أن يتهموا محمداً بالسحر ؛ فردّ الوليد بأن محمداً لا ينفث فى العُقَد ولا يأتى من عمل السحرة شيئاً . وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاجّ من العرب : إن هذا الرجل ساحر البيان ، وإن ما يقوله سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته . وكان لهم عند العرب من الحجة على قولهم هذا ما أصابهم فى مكة من فرقة وتخاذل وتناحر ، بعد أن كانت مكة مضرب المثل فى العصبية وفى قوة الرابطة . وانطلقت قريش فى الموسم تحذّر الحاجّ من الاستماع إلى هذا الرجل وسحر بيانه حتى لا يصيبها ما أصاب مكة ، فتكون فتنة تصلى حرّها جزيرة العرب جميعاً .

اتهام محمد بسحر البيان

لكن دعاية كهذه لا يمكن أن تقوم وحدها أو تقاوم سحر هذا البيان الذى يومئون إليه . فاذا جاء الحق فى هذا البيان الساحر فما يمنع الناس أن يؤمنوا به ؟ ! وهل كان الاعتراف بالعجز وبتفوق الخصم دعاية ناجعة فى يوم من الأيام ؟ ! فلتكن لقريش إلى جانب هذه الدعاية دعاية أخرى . ولتلتمس قريش هذه الدعاية عند النَّضْر بن الحارث . وقد كان هذا النضر من شياطين قريش ، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها فى الخير والشر وفى عناصر الكون. فأخذ نفسه، كلما جلس محمد مجلساً يدعو فيه قومه إلى الله ويحذّرهم عاقبة ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم التى أعرضت عن عبادة الله، بأن يخلف محمداً فى مجلسه وأن يقص على قريش

النضر بن الحارث

حديث فارس ودينها ثم يقول : بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني ؟ أليس محمد يتلو من أساطير الأولين ما أتلو ؟ وكانت قريش تذيع أحاديث النضر من طريق الرواية دعاية ضد ما ينذر محمد الناس به وما يدعوهم إليه .

جبر النصراني

وكان محمد يكثر من الجلوس عند المَرْوَة الى مَبْيَعَة غلام نصراني يقال له جبر، فكانت قريش تزعم أن جبراً النصراني هذا هو الذي يعلم محمداً أكثر ما يأتي به ، فاذا كان لأحد أن يخرج على دين آبائه فالنصرانية أولى . وروّجت قريش لزعمها هذا ، فنزل في ذلك قوله تعالى : « ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الذى يلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عرَبِىٌّ مُبِينٌ » .

بهذه الضروب وأمثالها من الدعاية جعلت قريش تحارب محمداً ترجو أن تبلغ بها منه أكثر مما يبلغ منه الأذى ومن اتبعه العذاب . على أن قوة الحق فى الصورة الواضحة البسيطة التى صوّر فيها على لسان محمد كانت تعلو على ما يقولون ، وما تفتأ لذلك تزداد كل يوم بين العرب انتشاراً . قدم الطُّفَيل بن عمرو الدَّوْسىّ

الطفيل الدوسى

مكة ، وكان رجلا شريفاً شاعراً لبيباً ، فمشت إليه قريش تحذّره من محمد وأن قوله كالسحر يفرق بين المرء وأهله ، بل بين المرء ونفسه ، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة ، وأن الخير فى ألا يكلمه ولا يستمع اليه . وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبة وكان محمد هناك ، فسمع بعض قوله فاذا هو كلام حسن ، فقال فى نفسه : « واثُكْلَ أُمِّى . والله إنى لرجل لبيب شاعر مايخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته » . واتبع محمداً إلى بيته وأظهره على أمره ومادار بنفسه ، فعرض محمد عليه الاسلام وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الاسلام ، فلبّاه بعضهم وأبطأ بعض ، وما زال الطُّفَيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم وانضموا إلى النبى بعد فتح مكة وبعد أن بدأ النظام السياسى يأخذ فى الاسلام صورة معينة .

وليس الطفيل الدوسيّ إلا مثلا من كثير . ولم يكن عبّاد الأصنام وحدهم هم الذين يستجيبون الى دعوة محمد . قدم عليه وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى حين بلغهم خبره ، فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا اله فاستجابوا وآمنوا به وصدّقوه ، مما غاظ قريشاً حتى سبوهم وقالوا لهم : « خيبكم الله من ركب . بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال » . ولم تثن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم ترده عن الاسلام ، بل زادتهم بالله إيماناً على إيمانهم إذ كانوا نصارى وإذ كانوا من قبل أن يستمعوا إلى محمد لله مسلمين .

وفد النصارى

بل لقد بلغ من أمر محمد ما هو أعظم من هذا . بدأ أشد قريش خصومة يسائلون أنفسهم : أحقًّا أنه يدعو إلى الدين القيم وأن ما يعدهم وما ينذرهم هو الصحيح . خرج أبو سُفيان بن حَرْب وأبو جَهْل بن هشام والأخْنَس بن شَرِيق ليلة ليستمعوا إلى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلساً يستمع فيه وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه . وكان محمد يقوم الليل إلا قليلا يرتل القرآن فى هدوء وسكينة ، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه وفؤاده . فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين إلى منازلهم ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمداً عليكم . فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم فى مثل الموعد الذى ذهب فيه أمس كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضى ليله حيث قضاه أمس ، وليستمع إلى محمد يتلو كتاب ربه . وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد ، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم وإن ترك ما سمعوا من محمد فى نفوسهم من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم ، وكلهم تضطرب نفسه ويخاف أن

أبو سفيان وأبو جهل والأخنس

يضعف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمداً معه .

ما منعهم من أن يتابعوا محمداً ؟ إنه لا يريد منهم مالاً ولا فيهم سيادة ولا عليهم ملكا أو سلطاناً . وهو بعدُ رجل جمّ التواضع شديد الحب لقومه والبر بهم والحرص على هداهم ، شديد حساب النفس ، حتى ليخشى إساءة المسكين والضعيف ، ويرى فى المغفرة عن أذى يحتمله طمأنينة لقلبه وراحة لضميره . ألم يقف مع الوليد بن المغيرة يوماً وقد طمع فى إسلامه ، والوليد سيد من سادات قريش ، فمر به ابن أم مكتوم الأعمى وجعل يستقرئه القرآن وألح فى ذلك حتى شقّ على محمد إلحاحه ، لما شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، فتولّى عنه وانصرف عابساً . فلما خلا الى نفسه جعل يحاسبها عن صنيعها ويسائلها أهو أخطأ ؟ حتى نزل عليه الوحى بهذه الآيات : « عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أنْ جَاءَهُ الأعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ ألاَّ يَزَّكَّى ، وأمَّا مَنْ جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلاَّ ! إنَّهَا تَذْكِرَة ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، فى صُحُفٍ مكَرَّمةٍ ، مَرفوعةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بأيْدِى سفَرَةٍ ، كِرامٍ بَرَرَةٍ » . فما دام ذلك أمره فما منع قريشاً أن يتابعوه ؛ وأن يعينوه على دعوته ؟ ! وبخاصة بعد إذ لانت قلوبهم ، وإذ أنستهم السنون ما تدفع اليه المحافظة على القديم البالى من جمود النفس ، وإذ رأوا فى دعوة محمد جلالاً وكمالا !

عبس وتولى

ولكن ! أحقاً تُنسى السنون النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالى ؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ومن فى قلوبهم نزوع دائم الى الكمال . هؤلاء مايزالون حياتهم كلها يقلّبون الحقائق التى آمنوا من قبلُ بها لينفوا ما يعلَق بها من زيف بالغة ما بلغت تفاهته . وهؤلاء قلوبهم وأفئدتهم وعقولهم كأنها بوتقة دائمة الاتقاد ؛ تتقبل كل جديد من الرأى يُلقى اليها فتصهَره وتطهره وتنفى خبثه وتستبقى ما فيه من خير وحق وجمال . وهؤلاء يلتمسون

النزوع الى الكمال

الحق فى كل شىء وفى كل مكان وعلى كل لسان. لكن هؤلاء فى كل أمة وعصر هم الصفوة المختارة وهم لذلك قلة أبداً . وهم يجدون الخصومة دائماً ناشبة على أشدها بينهم وبين ذوى المال والجاه والسلطان؛ لأن هؤلاء يخافون من كل جديد أن يجنى على مالهم أو جاههم أو سلطانهم ، وهم لا يعرفون غير هذه فى الحياة حقائق ملموسة . كل ما سوى هذه حق إذا هو أدى الى مزيد منها ، باطل إذا بعث إلى أصحابها أيسر ظل من الريبة إزاءها . رب المال عنده أن الفضيلة حقٌ إذا زادت فى ماله ، باطل إذا حرمته منه ، وأن الدين حق إذا عرف كيف يسخره لشهواته ، باطل إذا وقف فى وجه هذه الشهوات وحطمها . ورب الجاه ورب السلطان فى ذلك كرب المال سواء. وهؤلاء فى خصومتهم لكل جديد يخافون منه يَسْتعدُون السواد الذى يفيد منهم رزقه على المنادى بهذا الرأى الجديد. وهم يستعدُون السواد بتقديس الصروح القديمة التى نخر السوس فيها بعد أن فر الروح منها. وهم يقيمون هذه الصروح هياكل من الحجر ليزعموا للسواد البرىء أن الروح المقدس، الذى لفوه هم فى أكفانه، مايزال فى جلاله بين محبس هذه الهياكل. والسواد ينصرهم أكثر الأمر؛ لأنه ينظر قبل كل شىء إلى رزقه، ولا يسهل عليه أن يدرك أن أية حقيقة لا تطيق أن تبقى حبيسة بين جدران معبد من المعابد بالغاً ما بلغ جماله وجلاله ، وأن فى طبع الحقيقة أن تكون حرة طليقة تغزو النفوس وتغذوها لا تفرق فيها بين نفس سيد ونفس عبد ، ولا يقف نظام من النظم فى سبيلها بالغة ما بلغت قسوته وبَطْش أصحابه فى حمايته . فكيف تريد بهؤلاء الذين كانوا يتسللون لواذاً يستمعون الى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم فى كثير مما يرتكبون، وهو لا يفرق بين الأعمى ومن استغنى إلا بطهارة النفس لا بكثرة المال، وهو ينادى الناس جميعاً : « إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ » . فاذا ظل أبو سفيان ومن معه على دين آبائهم فليس ذلك إيماناً منهم به وبحق يحتويه ، بل هو حرص

ما منعهم أن يتابعوا محمداً

على نظام قديم أقامه ثم أفاء الحظ عليهم فى ظل هذا النظام من بسطة المال والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه .

الحسد والتنافس

وإلى جانب هذا الحرص كان يقوم الحسد والتنافس والتنازع مانعاً من إقبال قريش على متابعة النبى . كان أمية بن أبى الصّلْت ممن حدّثوا عن نبىّ يقوم فى العرب قبل ظهور محمد حتى طمع فى النبوّة ؛ وأكلت قلبه الغيرة حين لم ينزل الوحى عليه ، فلم يرض أن يتابع من ظنه منافسه مع غلبة الحكمة على شعره ، حتى قال عليه السلام يوما وهذا الشعر يروى أمامه : «أميّة آمن شعرُه وكفر قلبه» . وكان الوليد بن المغيرة يقول : «أينزل على محمد وأُترك أنا كبير قريش وسيّدها ويترك أبو مسعود عَمرو بن عُمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظما القريتين» . وإلى هذا أشار قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ، أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا » . ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة فى القصة التى روينا ذهب الأخنس إلى أبى جهل فى بيته فسأله : ياأبا الحكم ، مارأيك فيما سمعنا من محمد ؟ ! فكان جواب أبى جهل : « ماذا سمعت ؟ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحَملوا فحَملنا ، وأعطَوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رِهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك مثل هذه ؟ ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه » . وللحسد وللتنافس والتنازع فى هذه النفوس البدوية من عميق الأثر مايخطىء الانسان إذا هو حاول الاغضاء عنه أولم يقدره حق قدره . ويكفى أن تذكر مالهذه الشهوات على النفوس جميعاً من سلطان، لتقدر أن التخلص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب طويل يصقُل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ويسمو بالعاطفة وبالروح إلى مرقى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك بل عدوك هى

الحقيقة على لسان حميمك ووليّك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الاسكندر وملك قيصر . هذه مكانة قلّ من يصل اليها إلا من هدى الله قلبه للحق . أمّا سائر الناس فتعميهم العاجلة من مال ونشب ، ويعميهم الاستمتاع باللحظة التى يعيشون فيها ، عن الارتفاع إلى هذه المعانى . وهم فى سبيل هذه العاجلة واقتناص تلك اللحظة يحاربون ويقاتلون ، لا يحول شىء دون أن ينشب أحدهم أظفاره وأنيابه فى عنق الحق والخير والفضيلة ، وأن يدوس تحت أقدام دنسة أطهر معانى الكمال . ما بالك بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون محمداً يزداد أنصاره كل يوم عدداً ، ويخشون يوماً يكون للحق الذى يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة ، ويمتد من وراء ذلك إلى العرب فى مختلف أنحاء الجزيرة ! دون هذا قط الرقاب إذا استطاعوا قطها . ودون هذا الدعاية والمقاطعة والحصار والتعذيب والتنكيل يصبّونه على هام خصومهم صبّا .

الفزع من البعث والحساب

وسبب ثالث منع قريشا من متابعة محمد . ذلك فزعهم من البعث ومن عذاب جهنم يوم الحساب . فقد رأيتهم قوماً مكبين على اللهو مسرفين فيه يتخذون من التجارة ومن الربا إليه الوسيلة، ولا يرى الغنىّ منهم فى شىء من الأشياء رذيلة يتجافى عنها . ثم كان لهم من التقرب إلى أصنامهم مايزعمون أنه يكفر عن سيئاتهم وذنوبهم . بحسْب الرجل أن يضرب القداح عند هُبَل قبل أن يقدم على أمر ليكون ما تشير به عليه القداح أمر هبل . وبحَسْبه أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه ! . هو فى حلّ من أن يقتل وينهب ويرتكب الفحشاء ولا يعفّ عن الخنا ما دام قديراً على رشوة هذه الآلهة بالقرابين والنحور ! . وهذا محمد يعلن إليهم فى آيات مرعبة تنخلع من هولها القلوب وتضطرب الأفئدة أن ربهم لهم بالمرصاد ، وأنهم مبعوثون فى اليوم الآخر خلقاً جديداً ، وأن أعمالهم هى وحدها الشفيع لهم . « فاذا جاءت

الصّاخَّةُ ، يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخيه ؛ وَأُمِّهِ وأَبِيهِ ، وصَاحبَتِهِ وبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمئذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ ، وُجُوهٌ يَوْمئذٍ مُسفِرَةٌ ، ضاحكَةٌ مُستبشرةٌ : وَوُجُوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ تَرْهقَها قَتَرَةٌ ، أولئك هم الكَفَرَةُ الفَجَرة » .

تصوير يوم الحساب في القرآن

والصاخة تجيء « يَوْمَ تكونُ السّماء كالمُهْلِ ، وتكونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ، ولا يَسْألُ حَميمٌ حَمِيمًا ، يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ المجرِمُ لو يَفْتَدِي من عذابِ يَوْمئذٍ ببنيهِ ، وصاحبتهِ وأخيهِ ، وفصيلتهِ التي تؤويهِ ومَنْ في الأرضِ جميعاً ثمَّ يُنْجِيهِ ، كلا إنّها لَظَى نَزّاعَةً للشَّوَى ، تدعو مَنْ أدْبَرَ وتَوَلّى وجَمَعَ فأوْعَى » « يومئذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى منكم خافيةٌ ، فأمّا مَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بيَمينِهِ فيقولُ هاؤمُ اقْرَءوا كتابِيَهْ ، إني ظننتُ أني مُلاقٍ حِسابِيَهْ ، فهو في عيشةٍ راضيةٍ في جنّةٍ عاليةٍ ، قطوفها دانيةٌ ، كلوا واشرَبُوا هَنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخاليةِ ، وأمّا من أُوتِيَ كتابَهُ بشمالِهِ فيقولُ يالَيْتَنِي لم أُوتَ كتابِيَهْ ، ولم أدرِ ما حِسابِيَهْ ، ياليتَها كانتِ القاضيةَ ، ما أغنَى عَنّي ماليَهْ ، هلك عني سلطانيه ، خُذُوه فغُلُّوه ، ثم الجحيمَ صَلُّوه ثم في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً فاسلُكوه ، إنه كان لا يؤمنُ بالله العظيم ، ولا يحُضُّ على طعَامِ المسكين ، فليس له اليوم ها هُنا حميمٌ وَلا طَعَامٌ إلا من غِسلين ، لا يأكلُهُ إلا الخاطئون » . أتلوت هذا ؟ أسمعته ؟ ألم يأخذك الهول ويتولّك الفزع ؟ وليس هذا إلا قليلا مما كان ينذر محمد به قومه . وأنت تتلوه اليوم وقد تلوته وسمعته من قبل مرات . وأنت تعيد إلى ذهنك إذ تتلوه ما في القرآن من تصوير جهنم : « يَوْمَ نَقُولُ لجهَنَّمَ هَلِ امتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيد » ، « كلما نَضِجَتْ جلودهم بَدَّلْنَاهم جلوداً غيرَها ليَذُوقوا العَذَابَ » . يسيرٌ عليك إذ ترى روع نفسك أن تقدر ما كان يتولى قريشاً

روع قريش منـه

والمترفين منها خاصة ، إذ كانوا يستمعون إلى هذا القول بعد إذ كانوا من قبل ما ينذرهم به من العذاب بنجوة في حمى آلهتهم وأوثانهم . ويسيرٌ بعد ذلك أن تقدر مبالغ حماستهم في تكذيب محمد والدعاية ضده ومناوأته والتأليب عليه ،

فهم لم يكونوا يعرفون البعث ولم يكونوا يعترفون بما يسمعون عنه . لم يكن أحدهم ليتوهم أنه مجزىّ عن عمل هذه الحياة بعد مفارقته الحياة ، إنما كان خوفهم من المستقبل فى هذه الحياة . كان خوفهم من المرض ومن الاصابة فى الأموال والبنين وفى المكانة والجاه . كانت الحياة عندهم غاية الحياة ، فكان كل همهم منصرفاً لجمع كل أسباب الاستمتاع فيها ودفع كل مايخشونه منها . وإذ كان المستقبل غيباً محجوباً أمامهم وكانت نفوسهم تحس أن من أعمالهم شرّاً قد يصيبهم الغيب من أجله بأذى، فقد كانوا يتفاءلون ويتطيرون ، وكانوا يضربون القداح ، وكان عندهم السانح والبارح ، وكانوا ينحرون للأوثان ، كل ذلك يدّرعون به ضد ما يخافون من هذا المستقبل القريب فى الحياة . أمّا الجزاء بعد الموت ! أما البعث والنشور يوم ينفخ فى الصور ! أمّا الجنة التى أُعدت للمتقين وجهنم التى أعدت للظالمين ! أمّا ذلك كله فلم يكن يدور بخاطرهم ، وذلك كله قد سمعوا به فى دين اليهود وفى دين النصارى، ولكنهم لم يسمعوا عنه تصويراً قويًّا رهيباً كالذى يسمعهم الوحى على لسان محمد ، والذى يُنذرهم ، إن هم ظلوا فيما هم فيه من لهو الحياة أو الاستكثار من المال بظلم الضعيف وأكل مال اليتيم وإهمال المسكين والغلو فى الربا ، بعذاب خالد فى درك سقَر تصطك القلوب فزعاً من هوله لمجرد سماع صورته ، ما بالك به محققاً تراه البصيرة جاثماً وراء الخطوة الضيقة التى يتخطى الانسان من جانب الحياة إلى ناحية الموت ، بعده البعث والنشور فالرضا أو الثبور .

قريش والجنة

أمّا ما وعد الله المتقين جنة عرضها السموات والأرض لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، فكانت قريش فى ريب منها ، وكان يزيدها ريباً تعلقها بالعاجلة وحرصها على أن ترى هذا النعيم محققاً لها فى حياة هذا العالم ، وضيقها بالانتظار إلى يوم الجزاء على حين لم تكن هى تؤمن بيوم الجزاء .

معركة الخير والشر

ولقد يأخذ الانسان العجب كيف أقفلت قلوب العرب دون تصور الحياة الأخرى والجزاء فيها فى حين لا تزال معركة بين الخير والشر قائمة أمام هذا العالم الانسانى منذ الأزل لم تعرف يوماً هوادة ولا هى اطمأنت يوماً إلى سكينة. كان المصريون القدماء قبل ألوف السنين من بعث محمد يزوّدون الميت بزاد الدار الآخرة ويضعون معه فى أكفانه كتاب الموتى وأغنياته ونذره، ويصورون على معابدهم صور الميزان والحساب والتوبة والعقاب. وكان الهنود يصوّرون رضا النفس الراضية فى « النّرفانا » وتناسخ روح المسىء فى صور من الخلق تتعذب أثناءها ألوف السنين وملايينها حتى تُـلهَمَ الحق فتطهر وتعود كرة أخرى إلى الخير طمعاً فى بلوغ « النرفانا ». ولم يكن مجوس فارس لينكروا معركة الخير والشر وآلهة الظلمة والنور. والموسوية والعيسوية تصفان حياة الخلد ورضا الله وغضبه. أفلم يبلغ هؤلاء العرب شىء من ذلك كله وقد كانوا أهل تجارة يتصلون فى رحلاتهم وأسفارهم بأهل هذه النحل جميعاً ؟! وكيف لا يبلغهم وكيف لا تكون لهم صورة خاصة منه وهم أهل بادية أشد اتصالا باللانهاية وأقرب لتصور ما يشتمل عليه هذا الوجود من أرواح تتبدّى فى لهب الظهيرة وفى غسق الليل؟! أرواح خيّرة وأخرى شرّيرة! أرواح هى التى يحسبونها تسكن جوف الأصنام التى تقربهم إلى الله زلفى. لا ريب أنه كانت عندهم فكرة من هذا الغيب المحيط بهم. لكنهم كأهل تجارة، كانت نفوسهم أكثر للواقع المحسوس قدراً؛ وكأهل لهو وخمر أشد لجزاء الآخرة إنكاراً. فكانوا يحسبون ما يلقاه الانسان فى هذه الحياة من خير أو شر جزاء عمله ولا جزاء عنه بعد الحياة. ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحى نذيراً وبشيراً قد نزل بمكة فى أول الرسالة، حرصاً على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بعث محمد بينهم. ولقد كان جديراً بأن ينبههم إلى ما هم فيه من غىّ وضلالة؛ جديراً بأن يرتفع بهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار.

في سبيل الخلاص

وفى سبيل هذا الخلاص الروحى لأهله وللناس كافة احتمل محمد ومن آمن به من ألوان الأذى وصور التضحية ، ومن آلام النفس والجسد ، ومن الارتحال عن الوطن ، ومن عداوة الأهل والولد ، ما مربك شيء منه . وكأنما كان محمد يزداد لأهله حبًّا وعلى خلاصهم حرصاً كلما ازدادوا إيذاء ومساءة . ويوم البعث والحساب كان آية الآيات التي يجب أن يتنبهوا لها لتنقذهم من شر وثنيتهم ومن التورّط فى آثامهم . ولذلك لم يكن الوحى فى السنوات الأولى يفترُ عن إنذارهم بها وتفتيح عيونهم عليها ، برغم إمعانهم فى إنكارها وفى الازورار عنها ، بما دعاهم إلى إشعال هذه الحرب الضروس التى لم تهدأ بينهم وبين محمد ثائرتها ، حتى تم للاسلام النصر ، وحتى أظهر الله دينه على الدين كله .

الفصل الثامن

من نقض الصحيفة الى الاسراء

فرار المسلمين من مكة الى شعاب الجبل — عدم اختلاطهم بالناس إلا في الأشهر الحرم — قيام زهير وأصحابه في نقض الصحيفة — وفاة أبي طالب وخديجة — إيذاء قريش محمداً — ذهاب محمد الى الطائف ورد ثقيف إياه — الاسراء والمعراج

دعوة القبائل في الأشهر الحرم

ظلت الصحيفة التي تعاقدت قريش فيها على مقاطعة محمد وحصار المسلمين نافذة ثلاث سنوات متتابعة ، احتمى محمد وأهله وأصحابه خلالها في شعب من شعاب الجبل خارج مكة ، يعانون الحرمان ألواناً ، ولا يجدون في بعض الأحايين وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم . ولم يكن يتاح لمحمد ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدث اليهم إلا في الأشهر الحرم ، حين يفد العرب الى مكة حاجّين ، وحين تضع الخصومات أوزارها ، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام . في هذه الأشهر كان محمد ينزل الى العرب يدعوهم الى دين الله ويبشرهم بثوابه ويُنذرهم عذابه . وكان ما أصاب محمداً من الأذى في سبيل دعوته شفيعه عند كثيرين ؛ كانوا يسمعون من ذلك ما يزيدهم عليه عطفاً وعلى دعوته إقبالا . وهذا الحصار الذي أوقعته قريش واحتماله إياه صابراً في سبيل رسالته ، كسب له كثيراً من القلوب التي لم تبلغ منها القسوة ما بلغت من قلب أبي جهل وأبي لهب وأمثالها .

حصار المسلمين في الشعب

على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش ، وهُمْ منهم وإخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم ، جعل كثيرين يشعرون بفداحة

ما ارتكبوا من ظلم وقسوة؛ فلولا أن كان من أهل مكة رجال لهم على المسلمين عطف يحملون اليهم الطعام فى الشّعب الذى احتموا به لهلكوا جوعا. وكان هشام بن عمرو من أحسن قريش فى هذا الظرف عطفاً على المسلمين. كان يأتى بالبعير قد أوقره طعاماً أو بُرًّا فيسير به جوف الليل، حتى إذا استقبل فم الشّعب خلع خطامه ثم ضرب على جنبه فدخل البعير الشعب عليهم. ولما ضاق بما يحتمل محمد وأصحابه من الأذى صدراً، مشى الى زُهَير بن أبى أمية، وكانت أمه عاتِكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمنا، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم! أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحَكَم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبداً.

نقض الصحيفة

وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سرًّا. واتفق معهما المُطْعِم بن عَدِىّ وأبى البَخْتَرى بن هشام وزَمْعَة بن الأسوَد. وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها. وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعاً ثم نادى فى الناس: يأهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم. والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به: كذبت والله لا تنشق!. فتجاوبت أصوات زمعة وأبو البَخْتَرى والمطعم وهشام بن عمرو كلهم يكذّبون أبا جهل ويؤيدون زهيراً. وأدرك أبو جهل أن الأمر قُضِى بليل، وأن القوم اتفقوا عليه، وأن مخالفتهم قد تثير شرًّا، فأوجس خيفة وتراجع. وقام المطعم ليشق الصحيفة فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها «باسمك اللهم». وبذلك أتيح لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشّعب الى مكة وأن يبيعوا قريشاً ويبتاعوا منها، وإن بقيت صلات الفريقين كما كانت وبقى كل منهم متحفزاً ليوم يستعلى فيه على صاحبه.

عصمة محمد في التبليغ

ذهب بعض كتاب السيرة إلى أن الذين قاموا فى نقض الصحيفة ممن كانوا لا يزالون على عبادة الأوثان ، ذهبوا إلى محمد يسألونه ، منعاً للشر ، أن يتصالح وقريشاً على شىء ،كأن يسلم بآلهتهم ولو يطوف بأصابعه ؛ فمالت نفسه إلى شىء من هذا تقديراً لجميلهم ، وقال فيما بينه وبين نفسه : « وما علىّ لو فعلت والله يعلم أنى بار » ؛ أو إلى أن هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة وجماعة معهم خلوا بمحمد ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ويسوّدونه ويقاربونه ويقولون له: أنت سيدنا ، ياسيدنا ؛ وأنهم مازالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون . وهاتان الروايتان هما بعض ما حدّث به سعيد بن جُبَيْر فى الأولى وقَتَادة فى الثانية . ويذكرون أن الله عصم محمداً بعد ذلك وأنزل عليه قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَنْ لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذَنْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا » . وهذه الآيات قد نزلت فى رأى أصحاب قصة الغرانيق فى تلك القصة المكذوبة كما قد رأيت . وهذان المحدّثان يردّانها إلى قصة نقض الصحيفة . وقد نزلت هذه الآيات فى حديث عطاء عن ابن عباس فى وفد ثقيف إذ طلبوا إلى محمد أن يحرّم واديهم كما حُرّمت مكة ، شجرها وطيرها ووحشها ؛ فتردد النبى عليه السلام حتى نزلت . ومهما تكن الحقيقة الثابتة التى لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التى نزلت الآيات فيها ، فانها تصور ناحية من نواحى العظمة النفسية لمحمد، كما تصور صدق إخلاصه تصويراً قويًّا . وهذه الناحية تصورها كذلك الآيات التى نقلنا من سورة « عبس » ؛ ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك أنه كان يصارح الناس بأنه بشرٌ مثلهم يوحى ربه إليه لهدايتهم ، وأنه وهو بشر مثلهم معرّض للخطأ لولا عصمة الله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولى عنه ، وهو قد كاد يخطىء فيما نزلت آيات الاسراء بشأنه ،

وكاد يفتن عن الذى أوحى إليه ليفترى غيره . فاذا نزل عليه الوحى ينبهه إلى ما صنع فى أمر الأعمى، وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه اليها، صدق فى تبليغ هذا الوحى إلى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربه ، ولم يقف حائلٌ من أنفة أو كبرياء ولا وقف اعتبار إنسانى ، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه . فالحق إذاً ، والحق وحده كان رسالته . وإذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل ما نؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيرة ، فان إقرار العظيم بأنه كاد يُفتَنُ ليس مما ألف الناس حتى من العظماء؛ إنما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمر ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حساباً عسيراً . فهو شىء إذاً أكبر من العظمة وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يتيح للنفس هذا السمو فتكشف عن الحق كله . ذلك الشىء الأكبر من العظمة والأعظم من كل عظيم هو صدق الاخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جل شأنه .

موت أبى طالب وخديجة

عاد محمد ومن معه من الشِّعب بعد تمزيق الصحيفة ، وجعل من جديد يذيع دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجىء اليها فى الأشهر الحرم . ومع ما ذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعاً وما كان من كثرة الذين اتبعوه ، فانه ظل لا يسلَم أصحابُهُ من أذى قريش ، ولا يستطيع هو لهم منعا . ولم تمض إلا شهور على نقض الصحيفة حتى فجأت محمداً فى عام واحد فاجعتان اهتزت لهما نفسه ، هما موت أبى طالب وخديجة جميعاً . وكان أبو طالب يومئذ قد نيّف على الثمانين . فلما اشتكى وبلغ قريشاً أنه موف على ختام حياته خشيت ما يكون بينها وبين محمد وأصحابه من بعدُ ، وفيهم حمزة وعمر المعروفان بشدتهما وبطشهما ؛ فمشى أشرافها الى أبى طالب وقالوا له : يا أباطالب، أنت منا حيث ما قد علمت، وحضرك ما ترى وتخوّفنا عليك . وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ،فادعه فخُذْ له منا وخذ لنا منه ، ليكفّ عنا ونكفّ عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

وجاء محمد والقوم فى حضرة عمه . فلما عرف ما جاءوا فيه قال : نعم كلمة واحدة تُعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم !! قال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات . قال : تقولون : لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه . قال بعضهم : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ . ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون . وانطلقوا ، وتوفى أبو طالب والأمر بين محمد وقريش أشد مما كان .

ومن بعد أبى طالب توفيت خديجة . خديجة التى كانت سند محمد بما توليه من حبها وبرّها ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها . خديجة التى كانت تهوّن عليه كل شدة وتزيل من نفسه كل خشية ، والتى كانت ملَكَ رحمة يرى فى عينيها وعلى ثغرها من معانى الايمان به ما يزيده إيماناً بنفسه . وتوفى أبو طالب الذى كان لمحمد حمى وملاذاً من خصومه وأعدائه . أى أثر تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان فى نفس محمد عليه السلام !! إنهما لجديرتان بأن تتركا أقوى النفوس كليمة مضعضعة يدسّ اليها اليأس سموم الضعف ، ويدفع اليها الأسى والحزن من لواذع الهم المبرّح ما يجعلها تنهدّ أمامهما ولا تفكر فى شىء سواهما .

قريش يزداد أذاها

ما لبث محمد بعد أن فقد هذين النصيرين حتى رأى قريشا تزيد فى إيذائه ، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهاء قريش فرمى على رأسه تراباً . أفتدرى ما صنع محمد ؟ دخل الى بيته والتراب على رأسه ؛ فقامت اليه فاطمة ابنته وجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى . وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا ، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا . كل دمعة ألم تسيل من مآقى البنت قطرة حمم يهوى على قلبنا فينقبض انزعاجا ، حتى لنكاد من شدة انزعاجه نصيح ألماً ؛ وكل أنّة حزن تثير فى الحشا وفى الكبد أنات ما أقساها ، تختنق لها حلوقنا وتكاد تهمى بالدمع من وقعها عيوننا . وقد كان محمد أبر أب

بناته وأحناه عليهن . فماذا تراه صنع لبكاء هذه البنت التي فقدت منذ قريب أمها، ولبكائها هي من أجل ما أصاب أباها؟! لم يزده ذلك كله إلا توجهاً بقلبه لله وإيماناً بنصره إياه. قال لابنته وعينها تهمي بالدمع: لا تبكي يابنية فان الله مانعٌ أباك. ثم كان يردد: والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.

خروج محمد الى الطائف (س ٦٢٠م)

وكثرت مساءات قريش من بعد ذلك لمحمد حتى ضاق بهم ذرعاً، فخرج إلى الطائف وحيداً منفرداً لا يعرف بأمره أحد يلتمس من ثَقِيف النصرة والمَنَعَة بهم من قومه ويرجو إسلامهم. لكنه رجع منهم بشر جواب، فرجاهم ألا يذكروا من استنصاره بهم شيئاً حتى لا يشمت به قومه. أما هم فلم يسمعوا له بل أغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به، ففر منهم إلى حائط لعُتْبة وشَيْبة ابني رَبِيعة فاحتمى به، فرجع السفهاء عنه. وجلس إلى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ماهو فيه من شدة الكرب. فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسه إلى السماء ضارعاً في شكاية وألم وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدوٍّ ملكته أمري. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.»

عداس النصراني

وطال تحديق ابنا ربيعة به، فتحركت نفساهما شفقةً عليه وإشفاقاً من سوء مالقي، فبعثا غلامهما النصراني عَدّاساً إليه بقطف من عنب الحائط؛ فلما وضع محمد يده فيه قال: باسم الله، ثم أكل. ونظر عداس دَهِشاً وقال: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد! فسأله محمد عن بلده ودينه؛ فلما علم أنه نصرانيّ

نينوى" قال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى ؟. فسأله عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متّى ؟. قال محمد : ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبىّ . فأكبّ عدّاس على محمد يقبّل رأسه ويديه وقدميه . وعجب ابنا ربيعة لما رأيا وإن لم يصرِفهما ذلك عن دينهما ، ولم يمنعهما من التحدّث إلى عدّاس حين عاد إليهما يقولان : يا عدّاس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه .

وكأن ما رأيا خفّف من سخط ثَقِيف وإن لم يغيّر من جمودهم عن متابعة النبىّ. وعرفت قريش الأمر فازدادت لمحمد إيذاء، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة إلى دين الله . وجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ويخبرهم أنه نبىٌّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه . غير أن عمه عبد العزّى ابن عبد المطلب أبا لهب لم يكن يدعه ؛ بل كان يتبعه أيّان ذهب ويحرّض الناس على ألا يستمعوا له . ولم يكتف بعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحجّ بمكة ، بل أتى كِندة فى منازلها وأتى كلباً فى منازلهم وأتى بنى حَنِيفة وبنى عامر بن صَعْصَعَة فلم يسمع له منهم أحد ، وردّوه جميعاً ردًّا غير جميل ؛ بل رده بنو حنيفة ردا قبيحاً . أمّا بنو عامر فطمعوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده ؛ فلما قال لهم : إن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، لووا عنه وجوههم وردوه كما ردّه غيرهم .

محمد يعرض نفسه على القبائل

هل أصرّت هذه القبائل على عناد محمد لمثل الأسباب التى أصرّت قريش من أجلها على عناده ؟ لقد رأيت بنى عامر وكيف كانوا يطمعون فى الملك إذا هم انتصروا وإياه . أمّا ثقيف فكان لها رأى آخر ؛ فهى فضلا على أنها كانت مصيف أهل مكة لجمال طقسها وحلو أعنابها، قد كانت مستقر عبادة اللاّت وكان لها هناك صنم يعبد ويحج إليه . فلو أن ثقيفاً تابعت محمداً لفقدت اللاّت التى عندها مكانتها، ولقامت بينها وبين قريش خصومة تترك لا ريب أثرها الاقتصادى فى موسم الاصطياف . وكذلك كانت لكل قبيلة علة محلية اقتصادية كانت

رد القبائل دعوته

أقوى أثراً فى إعراضها عن الاسلام من تعلقها بدينها ودين آبائها وبعبادة أصنامها.

زاد عناد هذه القبائل محمداً عزلة، كما زاده إمعان قريش فى أذى أصحابه ألماً وهمّاً. وانقضى زمن الحداد على خديجة، ففكر فى أن يتزوج لعله يجد فى زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به جراحه. على أنه رأى أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الاسلام متانة وقربى، فخطب إلى أبى بكر ابنته عائشة. ولما كانت ما تزال طفلة فى السابعة من عمرها عقد عليها ولم يبن بها إلا بعد سنتين حين بلغت التاسعة. وفى هذه الأثناء تزوّج من سَوْدَة أرملة أحد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا إلى مكة وماتوا بها. وأحسب القارىء يلمح ما فى هاتين الصلتين من معنى يزداد وضوحاً من بعدُ فى صِلات زواج محمد ومصاهرته.

محمد يخطب عائشة

ويتزوج من سودة

فى هذه الفترة كان الاسراء والمعراج. وكان محمد ليلة الاسراء فى بيت ابنة عمه هند ابنة أبى طالب، وكنيتها أم هانىء. وقد كانت هند تقول: «إن رسول الله نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلّى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا رسول الله؛ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين. فقلت له يا نبيّ الله لا تحدِّث بها الناس فيكذّبوك ويؤذوك؛ قال: والله لأحدِّثنّهموه».

الاسراء (س ٦٢١م)

ويضيف أصحاب الرأى بأن الاسراء والمعراج إنما كانا بروح محمد عليه السلام الى حديث أم هانىء هذا ما كانت تقول عائشة: ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه، وأن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن مسرى الرسول قال: كانت رؤيا من الله صادقة. وهم يستشهدون الى جانب ذلك كله بقوله تعالى فى سورة الاسراء: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ». وفى رأى آخرين أن الاسراء من مكة الى

الاسراء بالروح أم بالجسد

بيت المقدس كان بالجسد، مستدلين على ذلك بما ذكر محمد أنه شاهده فى البادية أثناء مسراه مما سيأتى خبره، وأن المعراج الى السماء كان بالروح. ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الاسراء والمعراج كانا جميعاً بالجسد. وقد كثرت مناقشات الفقهاء والمتكلمين فى هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف. ولنا فى حكمة الاسراء رأى نُبديه، ولسنا ندرى لعله قد سبقنا إليه أحد. لكنا قبل أن نبدى هذا الرأى، بل لكى نبديه، يجب أن نروى قصة الاسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة.

تصوير الاسراء فى كتب السيرة

سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة فى عبارة طلية شيِّقة هذه ترجمتها: «فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله وصمتت فيها طيور الليل نفسها وسكنت الضوارى وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح استيقظ محمد على صوت يصيح به: أيها النائم قم. وقام فاذا أمامه الملك جبريل وضّاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج مرسلٌ شعره الأشقر، واقفاً فى ثيابه المزركشة بالدرّ والذهب ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش، وفى يده دابة عجيبة هى البُراق، لها أجنحة كأجنحة النسر، انحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة الى الشمال... وصحبهم الملك فى هذه الرحلة ثم وقف بهم عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى، ثم وقف بهم مرة أخرى فى بيت لَحْم حيث وُلد عيسى، وانطلقوا بعد ذلك فى الهواء فى حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبىّ الذى رأى فى إخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يستوقف حيث شاء دابته. وبلغوا بيت المقْدِس، فقيّد محمد دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى. ثم أُتِى بالمعراج فارتكز على صَخْرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعا الى السموات. وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علُقت اليها النجوم بسلاسل من ذهب، وقد قام على

كلٌ منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين الى علْوَ عليها أو يستمع الجن منها الى أسرار السماء. فى هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم ، وفيها كانت صور الخلق جميعا تسبِّح بحمد ربها . والتقى محمد فى السموات الست الأخرى بنوح وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى، ورأى ملك الموت عزرائيل ؛ بلغ من ضخامته أن كان مابين عينيه مسيرة سبعين الف يوم ، ومن سلطانه أن كان تحت إمرته مائة الف فرقة ، وكان يسجِّل فى كتاب ضخم أسماء من يولدون ومن يموتون . ورأى ملك الدمع يبكى خطايا الناس، وملك النقمة ذا الوجه النحاسى المتصرف فى عنصر النار والجالس على عرش من لهب . وقد رأى كذلك ملكا ضخما نصفه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتُر عن ذكر الله قائلة : اللهم قد جمعت الثلج والنار وجمعت كل عبادك فى طاعة سنّتك . وكان فى السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها له سبعون الف رأس ، فى كل رأس سبعون الف فم ، فى كل فم سبعون الف لسان ، يتكلم كل لسان سبعين الف لغة ، من كل لغة سبعين الف لهجة ، ، كلها تسبِّح بحمد الله وتقدِّس له .

« وفيما هو يتأمل هذا الخَلْق الغريب اذا به ارتفع الى قمة سِدْرة المنتهى، تقوم الى يمين العرش وتُظل ملايين الملايين من الأرواح الملائكية . وبعد أن تخطى فى أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يعشى وظلمة قاتمة وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام ، تخطى حجب الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة ، قامت وراءها سبعون الف فرقة من الملائكة سجداً لا يتحركون ولا يُؤذَن لهم فينطقون . ثم أحس بنفسه يرتفع إلى حيث المولى جل شأنه ، فأخذه الدهش . وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما، وكأنما ابتلعهما الفناء. فلم ير منهما إلا حجم سمسمة فى مزرعة

واسعة . وكذلك يجب أن يكون الانسان فى حضرة ملك العالم .

« ثم كان فى حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهم الانسان . ومدّ العلى العظيم يداً على صدر محمد والأخرى على كتفه ، فأحس النبىّ كأنه أثلج إلى فقاره ، ثم بسكينة راضية وفناء فى الله مستطاب .

« وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المدققة قداسته أمر الله عبده أن يصلى كل مسلم خمسين صلاة فى كل يوم . فلما عاد محمد يهبط السماء التقى بموسى ، فقال ابن عمران له :

« كيف ترجو أن يقوم أتباعك بخمسين صلاة فى كل يوم ؟ لقد جرّبت الناس قبلك وحاولت مع أبناء إسرائيل كل ما يدخل فى الطوق محاولته ، فصدّقنى وعُدْ إلى ربنا واطلب إليه أن ينقص الصلوات .

« وعاد محمد فنقص عدد الصلوات إلى أربعين وجدها موسى فوق الطاقة ، وجعل يرد خليفته فى النبوة إلى الله مرّات عدة حتى انتهت الصلوات إلى خمس .

« وذهب جبريل بالنبىّ فزار الجنة التى أعدّت للمتقين بعد البعث : ثم عاد محمد على المعراج إلى الأرض ، ففك البراق وامتطاه وعاد من بيت المقدس إلى مكة على الدابة المجنّحة » .

هذه رواية المستشرق درمنجم عن قصة الاسراء والمعراج . وأنت تقع على ما قصه منثوراً فى كثير من كتب السيرة جميعاً ، وإن كنت تجد فيها جميعاً خلافاً بزيادة ونقص فى بعض نواحيها . من ذلك مثلا ما روى ابن هشام على لسان النبى عليه السلام بعد أن لقى آدم فى السماء الأولى أنه قال : « ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الابل . فى أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة مال اليتامى ظلماً . ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون

رواية ابن هشام عن الاسراء

عليهم كالابل المَهيُومة حين يعرضون على النار يطئونهم لا يقـدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جانبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم... ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء، فسألتها لمن أنت؟ وقد أعجبتنى حين رأيتها؛ فقالت: لزيد بن حارثة، فبشر بها رسول الله (صلعم) زيد بن حارثة».

وأنت واجد فى غير ابن هشام من كتب السيرة وفى كتب التفسير أموراً أخرى غير هذه. ومن حق المؤرخ أن يتساءل عن مبلغ التدقيق والتمحيص فى أمر ذلك كله وما يمكن أن يسند منه الى النبى بسند صحيح وما يمكن أن يكون من خيال المتصوِّفة وغيرهم. ولئن لم يكن ها هنا مجال للحكم فى ذلك أو لاستقصائه، كما أنه ليس هاهنا مجال القول فى المعراج والاسراء بالجسم، أو المعراج بالروح والاسراء بالجسم، أو المعراج والاسراء جميعاً بالروح، فما لاشك فيه أن لكل رأى من هـذه الآراء سنداً عند الفقهاء والمتكلمين، وأنه لاجناح على من يقول بواحـد دون غيره من هذه الآراء. فمن شاء أن يرى أن الاسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدمنا وما تكرر فى القرآن وعلى لسان الرسول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ»، وأن كتاب الله هو وحده معجزة محمد، و «إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ». ولصاحب هذا الرأى أكثر من غيره أن يسأل عن حكمة الاسراء والمعراج ما هى. وهنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه ولا ندرى لعله قد سبقنا اليه أحد.

الاسراء ووحدة الوجود

ففى الاسراء والمعراج فى حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو. معنى أكبر من هذا الذى يصوّرون والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين المخلص حظٌ غير قليل. فهذا الروح القوىّ قد اجتمعت فيه فى ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها. لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المحِسّة والمدبّرة والعاقلة. تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده وصوّره فى تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مغالبتها وتغلّبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة. وليس يستطيع هذا السمو الا قوة فوق ما تعرف الطبائع الانسانية. فاذا جاء بعد ذلك ممن اتبعوا محمداً من عجز عن متابعته فى سمو فكرته وقوة إحاطته بوحدة الكون فى كماله وفى جهاده لبلوغ هذا الكمال، فلا عجب فى ذلك ولا عيب فيه. والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات. وبلوغنا الحقيقة معرّض دائماً لهذه الحدود التى تعجز قوانا عن تخطيها. واذا كان من القياس مع الفارق أن نذكر، لمناسبة ما نحن الآن بصدده، قصة أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرفوا الفيل ما هو؛ فقال أحدهم: إنه حبل طويل لأنه صادف ذنبه، وقال الآخر: إنه غليظ كالشجرة لأنه صادف رجله، وقال ثالث: إنه مدبب كالرمح لأنه صادف سنّه، وقال رابع: إنه مستدير ملتو كثير الحركة لأنه صادف خرطومه، فان هذا المثل مقرونا إلى الصورة التى تتكوّن لدى المبصر من الفيل لأول ما يراه، يسمح لنا بموازنة ما بين إدراك محمد كنه وحدة الكون والوجود وتصويره فى الاسراء والمعراج حيث يتصل بأول الزمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث، حيث تنعدم نهائية المكان، إذ يُطلّ بعين البصيرة من لدن سدرة المنتهى إلى هذا الكون يصبح أمامه سديماً،

وبين مايستطيع الكثيرون إدراكه من حكمة هذا الاسراء والمعراج ، إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحدة الكون وحياته الا كذرات الجسم بل كالذرات العالقة به من غير أن يتأثر بها نظامه . أين الواحدة من هذه الذرات من حياة هذا الجسم ومن نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلائه بالحياة التى لا تعرف حدًّا لأنها تتصل من الوجود بكل حياة الوجود .

والاسراء بالروح هو فى معناه كالاسراء والمعراج بالروح جميعاً سمواً وجمالا وجلالا . فهو تصوير قوىّ للوحدة الروحية من أزل الوجود الى أبده . فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ؛ وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم ، مظهر قوىّ لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون فى مَوْره الدائم الى الكمال .

الاسراء والعلم الحديث

والعلم فى عصرنا الحاضر يُقرّ هذا الاسراء بالروح ويقرّ المعراج بالروح؛ بحيث تتقابل القوى السليمة يشعّ ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معينة قد طوّع «لماركونى» إذ سلّط تياراً كهربائياً خاصًّا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية أن يضىء بقوة موجات الأثير مدينة سدنى فى أستراليا . وفى عصرنا هذا يقرّ العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه، كما يقرّ انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال. وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشف لعلمنا كل يوم عن جديد . فاذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته ، كان ذلك مما يقرّ العلم، وكانت حكمة ذلك هذه المعانى القوية السامية فى جمالها وجلالها ، والتى تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد تصويراً صريحاً ، يستطيع الانسان أن يصل الى

إدراكه إذ هو حاول السمو بنفسه عن أوهام العاجلة فى الحياة ، وحاول الوصول الى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها .

ريبة قريش وارتداد بعض من أسلم

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعانى . لذلك ما لبث محمد أن حدثهم بأمر إسرائه حتى وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الاسراء وإمكانه وعدم إمكانه ، وحتى ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله . وقال كثيرون : هذا والله الأمر البيّن . والله إن العير لتطرد شهراً من مكة الى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع الى مكة ! . وارتد كثير ممن أسلم . وذهب من أخذتهم الريبة فى الأمر الى أبى بكر وحدثوه حديث محمد ؛ فقال أبو بكر : إنكم تكذبون عليه. قالوا : بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث الناس . قال أبو بكر : والله لئن كان قد قاله لقد صدق ، إنه ليخبرنى إن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . وجاء أبو بكر الى النبي واستمع اليه يصف بيت المسجد، وكان أبو بكر قد جاءه . فلما أتم النبي صفة المسجد قال له أبو بكر : صدقت يا رسول الله . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصدّيق .

القول بالاسراء بالجسد

ويدلل الذين يقولون : إن الاسراء بالجسد على رأيهم بأن قريشاً لما سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله بعض الذين آمنوا به عن آية ذلك ، فانهم لم يسمعوا بشيء من مثله . فوصف لهم عيراً مرّ بها فى الطريق فضلّت دابة من العير فدلّهم عليها ، وأنه شرب من عير أخرى وغطى الاناء بعد أن شرب منه . فسألت قريش فى ذلك فصدّقت العيران ما روى محمد عنهما . وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالاسراء بالروح فى هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى التحدث عن أشياء واقعة فى جهات نائية . ما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية فى الكون كله ويستطيع بما وهبه الله من قوة أن يتصل بصورة الحياة من أزل الكون الى أبده .

الفصل التاسع

بيعتا العقبة

رد القبائل لمحمد ردًّا غير جميل — بشائر الفوز من ناحية يثرب
صلات اليهود بالأوس والخزرج — إسلام بعض اليثربيين
وقعة بعاث — بيعة العقبة الصغرى — مصعب بن عمير — عوده مع
الحاج إلى مكة بعد عام — المسلمون من يثرب — بيعة العقبة الكبرى
أنباؤها عند قريش — ائتمارها بمحمد كي تقتله
إذنه لمسلمي مكة بالهجرة إلى يثرب

تضعضع المسلمين بعد الاسراء

لم تدرك قريش معنى الاسراء، ولم يدرك كثير ممن أسلموا معناه الذى قدّمنا. لذلك انصرف جماعة من هؤلاء عن متابعة محمد بعد أن اتبعوه زمناً طويلا. ولذلك ازدادت مساءات قريش لمحمد وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعاً. ولم يبق لمحمد رجاء فى نصرة القبائل إياه بعد إذ ردته ثَقِيف من الطائف بشر جواب، وبعد إذ ردته كِنْدَة وكَلْبٌ وبنو عَامِرٍ وبنو حَنيفة لماعرض نفسه عليها فى موسم الحج. وشعر محمد بعد ذلك كله بأنه لم يبق له مطمع فى أن يهدى إلى الحق من قريش أحداً، كما أن غير قريش من القبائل التى تجاورها، والتى تجىء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجة اليها، قد رأت ما وصل محمد إليه من عزلة، وما أحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصير له عدوًّا لها وعوناً عليها. ومع اعتزاز محمد بحمزة وعمر، ومع طمأنينته إلى أن قريشاً لن تنال منه أكثر مما نالت لمنعته بقومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب،

فانه رأى رسالة ربه تقف فى دائرة من اتبعه إلى يومئذ ، ممن يوشكون لقلتهم ولضعفهم أن يبيدوا أو أن يفتنوا عن دينهم ، إذا لم يأتهم نصر الله والفتح . وتطاولت الأيام بمحمد وهو يزداد بين قومه عزلة وتزداد قريش عليه حقداً . فهل ضعضعت هذه العزلة من نفسه أو أوهنت له عزماً ؟ ! كلا ! بل زاده الايمان بالحق الذى جاءه من ربه سمواً على هذه الاعتبارات التى تفت فى عضد ذوى النفوس العادية ، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازة إلا سمواً وإيماناً .

ثبات محمد

وظل محمد وأصحابه من حوله وهو أشد ما يكون فى عزلته ثقة بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كله . لم تزعزع منه أعاصير الحقد ، بل جعل يقيم بمكة طوال عامه لا يعنيه أن ذهب مال خديجة وماله ، ولا يضعضع من نفسه ضيق ذات يده ، ولا يتطلع بروحه الى شىء غير هذا النصر الذى لا ريب عنده فى أن الله مؤتيه إياه . فاذا جاء موسم الحج واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة ، بادأ القبائل فدعاها الى الحق الذى جاء به ، غير آبه أن تبدى هذه القبائل الرغبة عن دعوته والاعراض عنه ، أو ترده رداً غير جميل . ويتحرش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالته وينالونه بالسوء ، فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه وطمأنينته الى غده . إن الله ذا الجلال قد بعثه بالحق ، فهو لا ريب ناصر هذا الحق ومؤيده . وهو قد أوحى اليه أن يجادل الناس بالتى هى أحسن « فاذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأَنَّه وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وأن يقول لهم قولا ليناً لعلهم يذكرون أو يخشون . فليصبر على أذاهم ، إن الله مع الصابرين .

تباشير الفوز من يثرب

ولم يطل بمحمد الانتظار أكثر من بضع سنين حتى بدت له فى الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من ناحية يثرب . ولمحمد بيثرب علاقة غير علاقة التجارة : له بها علاقة قربى ، وله فيها قبر كانت أمه تحج اليه قبل موتها فى كل عام مرة . أمّا ذوو قرباه بها فأولئك بنو النجّار أخوال جدّه عبد المطلب .

وأما ذلك القبر فقبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب . الى هـذا القبر كانت تحج آمنة الزوج الوفية ، وكان يحج عبد المطلب الأب الذى فقد ابنه وهو فى شرخ شبابه وريعان قوّته . وقد صحب محمد أمه الى يثرب فى السادسة من عمره فزار معها قبر أبيه ثم قفلا عائدين ، فمرضت آمنة فى الطريق وماتت ودفنت بالأبواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز لمحمد من ناحية بلد له به هذه الصلة ، والى ناحيته كان يتّجه حين يصلى جاعلاً قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس ، مقام سلفيه موسى وعيسى . ولا عجب أن تهيء المقادير ليثرب هذا الحظ ، ليتم لمحمد بها النصر ، وللاسلام بها الفوز والانتشار.

الاوس والخزرج واليهود

هيأت المقادير ليثرب هذا الحظ بما لم تهيئه لبلد آخر . فقد كان الأوسُ والخزرَجُ من عبّاد الأوثان بيثرب يتجاورون مع يهودها جواراً كثيراً ماشابته البغضاء وماتعدّى البغضاء الى القتال . وإن التاريخ ليروى أن المسيحيين فى الشام ممن كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية ، وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونـكّلوا به ، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها ، فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج لاستدراجهم ، ثم قتلوا عدداً منهم غير قليل مما أنزل اليهودَ عن مكان السيادة الذى كان لهم ، ورفع عرب الأوس والخزرج الى مكانة غير مكانة العمال التى كانوا مقصورين من قبلُ عليها . وقد حاول العرب من بعد ذلك أن يوقعوا باليهود مرة أخرى ليزدادوا فى المدينة العامرة بالزراعة وبالماء سلطاناً ، فنجحوا فى غدرهم بعض النجاح ، ثم فطن اليهود لوقيعتهم بهم . بذلك تمكنت العداوة والبغضاء فى نفوس يهود يثرب لأوسها والخزرج ، وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود . ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهم الى الفناء ، أن قد يجد الأوس والخزرج حلفاً من بنى دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء . لذلك سلكوا فى سياستهم خطة غير خطة الغلب فى المعارك ، فلجئوا الى سياسة

الوقيعة والتفريق؛ إذ دسّوا بين الأوس والخزرج وملئوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظة بعضهم على بعض ، مما جعل هؤلاء وأولئك على أهبة مستمرة للقتل والقتال ، وجعل اليهود بمأمن منهم ومن عدوانهم ، يزيدون فى تجارتهم وفى ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سيادة ، ويستردّون ما أضاعوا من دار ومن عقّار .

الأثر الروحى لجوار اليهود

كان لجوار اليهود والعرب بيثرب فيما خلا هذا النزاع على السيادة والسلطان أثر آخر أعمق عند الأوس والخزرج مما كان عند سائر أهل جزيرة العرب، ذلك هو الأثر الروحى. فقد كان اليهود ، كأهل كتاب ودعاة وحدانية ، يأخذون على جيرانهم الوثنيين اتخاذهم الأوثان زُلفَى الى الله وينذرونهم بعث نبيٍّ يقضى عليهم ويشايع اليهود . ولم تصل هذه الدعوة الى تهويد العرب لسببين . أولهما : أن ما كان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطمعون فى أكثر من السلامة التى تهيّء لهم سعة التجارة . والثانى : أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار ، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة ، فلا يدعون لذلك لدينهم ولا يرضونه يخرج من بنى إسرائيل. برغم هذين السببين كان اتصال الجوار والتجارة فى يثرب بين اليهود والعرب من شأنه أن يجعل أوس يثرب وخزرجها أكثر استماعاً للحديث فى الشؤون الروحية وفى سائر شؤون الدين من غيرهم من العرب . يدلك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد الروحية مثلما استجابت يثرب .

سويد بن الصامت

كان سُوَيْد بن الصَّامِت من كبار أشراف يثرب ، حتى كان قومه يسمونه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه . وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها قدم سويد مكة حاجًّا ، فتصدّى له محمد فدعاه الى الله والى الاسلام. فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى . قال محمد : وما الذى معك ؟. قال: حكمة لُقْمان . فطلب إليه محمد أن يعرضها عليه فعرضها ؛ فقال له محمد : إن هذا الكلام حسن

والذى معى أفضل . هو قرآن أنزله الله علىّ هدى ونورا . وتلا عليه القرآن ودعاه الى الاسلام ؛ فطاب سويد نفساً بما سمع وقال : هذا حسن ، وانصرف يفكر فيه . وإن قوماً ليقولون حين قتلته الخزرج : إنه مات مسلماً .

وليس سُوَيد بن الصّامت هو المثل الوحيد الذى يدل على أثر تجاور اليهود والعرب بيثرب من الناحية الروحية . فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التى بث اليهود ما علمت . وكان كل منهم يلتمس الحِلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر . وكان من ذلك أن قدم أبو الْحَيْسَر أَنَس بن رافع مكة ومعه فِتْيَة من بنى عبد الأشْهَل فيهم إيَاس بن مُعاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم محمد فأتاهم فجلس إليهم ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثاً ، : أىْ قوم ، هذا والله خير مما جئتم فيه . وعاد القوم الى يثرب لم يسلم منهم غير إياس ؛ لأنهم كانوا فى شغل بالتماس الحلف استعداداً لواقعة بُعَاث التى اصطلى الأوس والخزرج جميعاً بنارها بعد قليل من عود أبى الحيسر ومن معه من مكة . لكن كلام محمد عليه السلام ترك فى نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا فى محمد نبيًّا ورسولا وحليفاً وإماماً .

إياس بن معاذ

كانت وقعة بعاث بعد قليل من عود أبى الحيسر ومن معه إلى يثرب ؛ اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالاً شديداً أملته عداوة متأصّلة ، حتى لكان كل قوم يسائل بعضهم بعضاً إذا هم انتصروا : أيُبقون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويُجهزون عليهم . وكان أبو أُسَيْد حُضَيْر الكتائب على رأس الأوس ، وكان فى نفسه من الحقد على الخزرج أشده . فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة فولّوا فراراً نحو نَجد . فعيّرتهم الخزرج . فلما سمع حُضَير تعييرهم طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح : وَاعَقْراه ! والله لاأريم حتى أقتل ، فان شئتم يامعشر الأوس أن تُسْلمونى فافعلوا . فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم مما

واقعة بعاث

أصابهم ماجعلهم يستبسلون مستيئسين ، حتى انهزمت الخزرج شر هزيمة .
وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها ، حتى أجارها سَعْد بن مُعاذ الأشهلى ؛
وأراد حُضَير أن يأتى الخزرج قصراً قصراً وداراً داراً يقتل ويهدم حتى
لا يُبقى منهم على أحد ، لولا أن منعه أبو قَيْس بن الأسْلَت إبقاء على بنى دينهم :
« فجوارهم خير من جوار الثعالب » .

واستعادت اليهود بعد هذا اليوم مكانتها بيثرب ، حتى رأى المنتصر
والمهزوم من الأوس والخزرج جميعاً سوء ماصنعوا ، وفكروا فى عاقبة أمرهم ،
وتطلّعوا إلى إقامة ملك عليهم ، واختاروا لذلك عبد الله بن محمد من الخزرج
المهزومة لمكانته وحسن رأيه . لكن تطوُّراً الأحوال تطوُّراً سريعاً حال دون
ما أرادوا . ذلك أن نفراً من الخزرج خرجوا إلى مكة فى موسم الحج ، فلقيهم
محمد فسألهم عن شأنهم وعرف أنهم من موالى يهود . وقد كان اليهود بيثرب
يقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم : إن نبيًّا مبعوثاً الآن قد أظل زمانُهُ نتبعه
فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَمَ . فلما كلّم النبى أولئك النفر ودعاهم إلى الله ، نظر
بعضهم إلى بعض وقالوا : والله إنه للنبىُّ الذى تواعدكم به يهود ، فلا يَسبِقُنَّكم
إليه . وأجابوا محمداً إلى دعوته وأسلموا وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا —
أى الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى
أن يَجْمَعَهم الله بك ، وإن يَجمعهم عليك فلا رجل أعزّ منك » . وعاد هؤلاء
النفر إلى المدينة ومن بينهم اثنان من بنى النجّار أخوال عبد المطلب جدّ محمد
الذى كفله منذ مولده . عادوا فذكروا لقومهم إسلامهم ؛ فألفَوْا قلوباً مفتوحة
ونفوساً متلهفة لدين يجعلهم موحّدين كاليهود ، بل يجعلهم خيراً منهم . فلم تبق
دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلا وفيها ذِكْرٌ من محمد عليه السلام . فلما
استدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحج لمكة ، أتى الموسم اثنا عشر
رجلا من أهل يثرب ، فالتقوا بالنبى بالعَقَبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى . بايعوه

بدء الاسلام بيثرب

العقبة الاولى

على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف ، فان وَفَى ذلك فله الجنة ، وإن غشّى من ذلك شيئاً فأمره إلى الله ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر .

مصعب بن عمير

وأنفذ محمد معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْر يقرئهم القرآن ويعلّمهم الاسلام ويفقّهم فى الدين .

ازداد الاسلام بعد هذه البيعة بيثرب انتشاراً . وأقام مُصْعَب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلّمهم دينهم ويلاحظ مغتبطاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق . فلما آذنت الأشهر الحُرم أن تعود ، لَحِق بمكة وقص على محمد خبر المسلمين بالمدينة وماهم عليه من منَعَة وقوة ، وأنهم سيجيئون الى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيماناً .

ودعت أخبار مُصْعَب محمداً ليفكر فى الأمر طويلا . هاهم أولاء أتباعه بيثرب يزدادون كل يوم عدداً وسلطاناً ، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين ما يجده زملاؤهم بمكة من أذى قريش ! وها هى ذى يثرب بها من الرخاء أكثر مما بمكة : بها زروع ونخيل وأعناب ! أوليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيّون الى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمنًا وليسلموا من فتنة قريش إياهم عن دينهم ؟ وذكر محمد أثناء تفكيره أولئك النفر من يثرب الذين كانوا أوّل من أسلم ، والذين ذكروا له مابين الأوس والخزرج من عداوة ، وأنهم اذا جمعهم الله به فلا رجل أعزّ منه . أوليس من الخير ، وقد جمعهم الله به ، أن يهاجر هو أيضاً ؟ إنه لا يحب أن يردّ على قريش مساءاتها وهو يعلم أنه أضعف منها ، وأن بنى هاشم وبنى المطلب إن منعوه من الاعتداء عليه فلن ينصروه معتديا . ولن يمنعوا الذين اتبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن إصابتها إياهم بأنواع المساءة . وإذا كان الايمان أقوى سند يجعلنا نستهين بكل شيء ونضحى عن طيب خاطر فى سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة ،

وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الايمان استعاراً ، فان استمرار الأذى والتضحية يشغل المؤمن بهما عن دقة التأمل التى تزيد فى أفق المؤمن سعة ، وفى إدراكه للحق قوّة وعمقاً . وقد أمر محمد الذين اتبعوه من قبلُ أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية أن كانت بلاد صدق ، وكان بها ملك لا يظلم عنده أحد. فأولى بالمسلمين ثم أولى أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقوّوا بأصحابهم المسلمين فيها ، وأن يتآزروا لذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شر ، ليكون لهم بذلك من الحرية فى تأمل دينهم والجهر به مايكفل إعلاء كلمته ، كما يكفل نجاح الدعوة اليه ، دعوةً لا تعرف الاكراه ، بل أساسها الرفق والاقناع والمجادلة بالتى هى أحسن .

تفكير محمد في الهجرة

وكان الحاجّ من يثرب فى هذه السنة — سنة ٦٢٢ ميلادية — كثيراً بالفعل . وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلماً منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . فلما عرف محمد مَقْدَمَهم فكّر فى بيعة ثانية لا تقف عند الدعوة الى الاسلام على نحو ماظل هو يدعو اليه ثلاث عشرة سنة متتابعة فى رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعاً ؛ بل تمتد الى ماوراء ذلك وتكون حِلفاً يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان. واتصل محمد سرّاً بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم ، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جَوْفَ اللّيل فى أوْسَط أيّام التّشْريق . وكتم مسلمو يثرب من معهم من المشركين أمرهم وانتظروا حتى اذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبى خرجوا من رحالهم يتسلّلون تسلل القَطَا مُستخفين مخافة أن ينكشف سرهم . فلما كانوا عند العقبة تسلّقوا الشّعب جميعاً وتسلّقت المرأتان معهم ينتظرون مَقْدَم صاحب الرسالة .

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى

وأقبل محمد ومعه عمه العبّاس بن عبد المطلب ، وكان ما يزال على دين قومه . لكنه عرف من قبلُ من ابن أخيه أن فى الأمر حلفاً ، وأن الأمر قد

يجر إلى حرب ، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا محمداً . فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يَصْلَى بنو هاشم وبنو المطلب بنارها ، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيين نصيراً . لذلك كان هو أوّل من تكلم فقال : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . وهو فى عز من قومه وَمَنَعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ؛ وإن كنتم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .

قال اليثربيون وقد سمعوا كلام العباس :

ــ سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فأجاب محمد بعد أن تلا القرآن ورغّب فى الاسلام :

ــ أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

وكان البَرَاء بن مَعْرُور سيد قومه وكبيرهم . وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الاسلام ، إلا أنه جعل قبلة صلاته الكعبة . وكان محمد والمسلمون جميعاً يومئذ ما تزال قبلتهم المسجد الأقصى . ولما اختلف قومه معه واحتكموا إلى النبيّ أوّلَ وصولهم مكة ردّ محمد البراء عن اتخاذ الكعبة قبلته . فلما طلب محمد إلى مسلمى يثرب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم مدّ البَرَاء يده يبايعه على ذلك وقال :

الحوار قبيل البيعة

ــ بايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلْقة وَرِثناها كابراً عن كابر .

ولما يتم البراء كلامه إذ اعترض ابو الهَيْثَمْ بن التَّيهان قائلا :

يارسول الله ، إنا بيننا وبين الرجال ــ أى اليهود ــ حبالاً نحن قاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا .

فتبسم محمد وقال :

ـــ بل الدَّمَ الدَّمَ والهَدْمَ الهَدْمَ . أنتم منى وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وهمّ القوم للبيعة ، فاعترضهم العَبّاس بن عُبَادة قائلا :

ـــ يا معشر الخزرج : أتعلمون َعلاَمَ تبايعون هـذا الرجل ؟ . إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من النـاس ، فان كنتم ترون أنكم إذا نُهِكَت أموالُكُمُ مصيبةً وأشرافكم قتلا أسلَمْتُموه فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزْى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليـه على نَهَكَـةِ الأموال وقتْل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيـا والآخرة .

فأجاب القوم : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟

وردّ عليهم محمد مطمئن النفس قائلا : الجنة .

ومدّوا اليه أيديهم ، فبسط يده فبايعوه . فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبي : أخرِجُوا لى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم . فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال النبي لهؤلاء النُّقَبَاء : أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : بايعنا على السمع والطاعة فى عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشَطنا ومَكْرَهنا وأن نقول الحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم .

البيعة

تم ذلك كله جوف الليل فى شِعْب العقبة فى عزلة من النـاس والقوم على ثقة من أنه لاتطلّع عليهم عين إلا الله . لكنهم ماكادوا يتموّنه حتى سمعوا صوتا يصيح بقريش : إن محمداً والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم . ذلك رجل

خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم قليلا اتصل بسمعه ، فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم وأن يدخل فى روعهم أن ما بيّتوا بليل افتضح . لكن الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم، حتى لقال العباس بن عبادة لمحمد بعد أن سمع هذا المتجسس : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل مِنًى غداً باسيافنا . فكان جواب محمد أن قال : « لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم » ، فرجعوا الى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح .

قريش وبيعة العقبة

على أن الصبح ما كاد يتنفّس حتى علمت قريش بنبأ هذه البيعة . فانزعجت فغدت جِلّتها على الخزرج فى منازلهم يعاتبونهم ويقولون لهم : إنهم لا يريدون حربهم فما بالهم يحالفون محمداً لقتالهم ! . وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء . أما المسلمون فاعتصموا بالصمت أن رأوا قريشاً مالت لتصديق شركائها فى الدين . وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه وجعلت تَتَنَطَّسُهُ علّها تقف على جلية الأمر فيه . واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين بلدهم قبل أن تثق قريش بشيء مما حصل. فلما عرفت أن الخبر حق ، خرجت تطلب أهل يثرب ، فلم تلحق منهم الا بسعد ابن عُبادة ، أدركوه وردوه إلى مكة وعذّبوه حتى أجاره جُبَير بن مُطْعِم ابن عَدِيّ والحارث بن أمية ، أن كان يجير لهما من يخرجون فى تجارتهما الى الشام حين مرورهم بيثرب .

لم تبالغ قريش قط فى فزعها ولا فى تتبعُّها الذين بايعوا محمداً على قتالها. فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوّته، ووقفت من الجهود للحرب السلبية التى أعلنت عليه ماأجهدها وأجهده، ونال منها ونال منه . عرفت ذلك القويّ بالله المستمسك برسالة الحق لا يلين فيها ولا يداجى ولا يخاف فيها أذى ولا مساءة ولا قتلا . ولقد خُيِّل الى قريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الأذى وبعد أن حاصرته فى الشِّعب وبعد أن أدخلت الى نفس أهل

مكة جميعاً من الروع ما صدهم عن اتباعه، أنها توشك أن تظفر به، وأن تحصر نشاطه فى الدائرة الضيِّقة من الأتباع الذين ظلوا على دينه ؛ وأنه ومن معه لا يلبثون الا قليلا حتى تضنيهم العزلة فيعودوا الى حكمها طائعين . أما اليوم وإزاء هذا الحِلف الجديد فقد انفتح أمام محمد والذين معه باب الرجاء فى الغلب، أو على الأقل باب الرجاء فى حرية الدعوة الى عقيدتهم والطعن على الأصنام وعبّادها . ومن يدرى ما يكون أمر القوم من بعد ذلك فى شبه جزيرة العرب كلها وقد نصرتهم يثرب بأوسها وخزرجها ، وقد جعلتهم بمأمن من العدوان وفَسَحت لهم حرية القيام بفروض دينهم ودعوة غيرهم للانضمام اليهم . فاذا لم تقض قريش على هذه الحركة وما تزال فى مهدها، فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها وفوز محمد عليها لن يزال يُقِضّ مَضْجَعَها .

دقة موقف الجانبين

لذلك أمعنت تفكر فيما تفعل لتحبط ما قام به محمد ولتقضى على هذه الحركة الجديدة . ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تفكيراً . إن هذا الباب الذى فتح الله أمامه هو باب العزة لدين الله والسموّ لكلمة الحق . فالمعركة الناشبة اليوم بينه وبين قريش هى أشد ما وقع منذ يوم بعثه، وهى معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها . والغَلَب لا ريب للصادقين . فليُجْمِعْ أمره وليستعن بالله وليكن لما تكيد قريش أشد ازدراء مما كان فى كل ماسلف، وليُقْدِم ولكن فى حكمة وأناة ودقة ؛ فالموقف موقف حنكة السياسى والقائد الدقيق المناورة .

هجرة المسلمين الى يثرب

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم . وبدأ المسلمون يهاجرون فُرَادَى أو فى نفر قليل . لكن قريشاً فطنت للأمر فحاولت أن تردّ كل من استطاعت رده إلى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذّبه وتنكّل به . وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها

كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه . لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف قبائلها إذا هى همت بقتل واحد من أهل هذه القبائل . وتتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب ومحمد مقيم حيث هو، لا يعرف أحد: أهو قد اعتزم الاقامة أم قرر الهجرة. وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه فى الهجرة إلى الحبشة من قبل وظل هو بمكة يدعو سائر أهلها إلى الاسلام . وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه فى الهجرة إلى يثرب ، فقال له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا . ولم يزد على ذلك .

قريش وهجرة النبى

على أن قريشاً كانت تحسب لهجرة النبى إلى يثرب ألف حساب . لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا . وهاهم أولاء المهاجرون من مكة ينضمون إليهم فيزيدونهم قوة . فاذا لَحِق محمد بهم وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأى وبعد نظر ، خَشَوْا على أنفسهم أن يَدْهم اليثربيون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام ، وأن يجيعوها ، كما حاولوا هم أن يجيعوا محمداً وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشِّعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً .

واذا بقى محمد بمكة وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرّضون الى مثل هذا الأذى من جانب اليثربيين دفاعاً عن نبيهم ورسولهم . فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهمّ الواصب . لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو فى مكة فتكون شرًّا عليها مما يخشونه من ناحية يثرب . واجتمع القوم بدار النَّدْوة يفكرون فى هذا كله وفى وسيلة اتقائه . قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم . لكن هذا الرأى لم يلق سميعاً . وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ثم لا نبالى بعد ذلك من أمره

شيئاً . لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يَفْرَقون منه . وانتهوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتًى شابًا جليداً وأن يعطوا كل فتى سيفاً صارماً بتّاراً فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيتفرّق دمه بين القبائل ، ولا تقدِر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً ، فيرضَون فيه بالدية وتستريح قريش من هذا الذى بدّد شملها وفرّق قبائلها شِيَعا . وأعجبهم هذا الرأى فاطمأنوا إليه واختاروا فتيانهم وباتوا يحسبون أنّ أمر محمد قد فُرِغ منه ، وأنه بعد أيام سيوارى وتوارى دعوته فى التراب ، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها التى تمزّقت ، ومكانتها التى تضعضعت أو كادت .

الفصل العاشر

هجـــرة الرسـول

الأمر بالهجرة — عليٌّ فى فراش النبى — فى غار ثور — الخروج الى يثرب قصـة سراقة بن جعشم — مسلمو يثرب فى انتظار الرسول الاسلام بيثرب — دخول محمد المدينة

الأمر بالهجرة

اتصل بمحمد نبأ ما بيّتت قريش لقتله مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه بها، وما قد يجر ذلك على مكة من أذى وعلى تجارتها مع الشام من بوار. ولم يكن أحد يشك فى أن محمداً سينتهز الفرصة فيهاجر؛ على أن ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد الى سرّه سبيلا. حتى أبو بكر، الذى أعد راحلتين منذ استأذن النبى فى الهجرة فاستمهله، قد بقى لا يعرف من الأمر إلا قليلا. ولقد ظل محمد بمكة حتى علم من أمر قريش ماعلم وحتى لم يبق من المسلمين بها إلا القليل. وإنه لينتظر أمر ربه إذ أوحى اليه أن يهاجر. هنالك ذهب إلى بيت أبى بكر وأخبره بأن الله أذن له فى الهجرة، وطلب الصديقُ أن يصحبه فى هجرته فأجاب إلى ماطلب.

هنا تبدأ قصة من أروع ماعرف تاريخ المغامرة فى سبيل الحق والعقيدة والايمان. كان أبو بكر قد أعدّ راحلتيه ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط يرعاهما لميعادهما. فلما اعتزم الرجلان مغادرة مكة لم يكن لديهما ظلّ من ريب فى أن قريشاً ستتبعهما. لذلك اعتزم محمد أن يسلك طرقا غير مألوفة وأن يخرج إلى سفره فى موعد كذلك غير مألوف. وكان هؤلاء الشبّان الذين أعدّت قريش لقتله يحاصرون داره فى الليل مخافة أن يفرّ. ففى ليلة الهجرة أسرّ محمد إلى علىّ

على فى فراش النبى

ابن أبى طالب أن يتسجّى بُرده الحضرمىّ الأخضر وأن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس . وجعل هؤلاء الفتية من قريش ينظرون من فرجة الى مكان نوم النبىّ فيرون فى الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفرّ . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج فى غفلة منهم الى دار أبى بكر وخرج الرجلان من خوخة فى ظهرها وانطلقا جنوبا إلى غار ثَوْر ، أن كان اتجاههما نحو اليمن مما لا يرد بالبال . ولم يعلم بمخبئهما فى الغار غير عبد الله بن أبى بكر وأختيه عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فُهيرة . أما عبد الله فكان يقضى نهاره بين قريش يستمع ما يأتمرون بمحمد ليقصه ليلا على النبىّ وعلى أبيه . وأمّا عامر فكان يرعى غنم أبى بكر ، وكان إذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا ، وإذا عاد عبد الله بن أبى بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم فعفّى على أثره . وأقاما بالغار ثلاثة أيام كانت قريش أثناءها تَجِدّ فى طلبهما أىّ جِدّ . وكيف لا تفعل وهى ترى الخطر محدقاً بها إن هى لم تدرك محمداً ولم تَحُلْ بينه وبين يثرب . أمّا الرجلان فأقاما بالغار ومحمد لا يفترُ عن ذكر الله ، إليه أسلم أمره وإليه تصير الأمور ؛ وأبو بكر يُرْهِف أذنه يريد أن يعرف هل الذين يَقفُون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحاً . وأقبل فتيان قريش ، من كل بطنٍ رجلٌ ، بأسيافهم وعِصيّهم وهِراواتهم يدورون باحثين فى كل الأنحاء ، حتى إذا التقوا براع سألوه فكان جوابه :

فى غار ثور

ـــ قد يكونان بالغار ، وإن كنت لم أر أحداً أمّه .

وتصبّب أبو بكر عرقاً حين سمع جواب الراعى ، وخاف أن يقتحم الباحثون الغار عليهما ، فأمسك أنفاسه وبقى لا حَرَاك به وأسلم لله أمره . وأقبل بعض القرشيين يتسلّقون إلى الغار ثم عاد أحدهم أدراجه ، فسأله أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد

محمد ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه .
ويزداد محمد إمعاناً فى الصلاة ، ويزداد أبو بكر خوفا ، فيقترب من صاحبه ويلصق نفسه به ، فيهمس محمد فى أذنه : — لاتحزن . إن الله معنا .
وفى رواية كتب الحديث : أن أبا بكر لما شعر بدنو الباحثين قال هامساً :
— لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا .
فأجابه النبى :
— يا أبا بكر . ما ظنك باثنين الله ثالثهما .
وزاد القرشيين اقتناعا بأن الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلت فروعها إلى فوهته ، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع . إذ ذاك انصرفوا ، وسمع اللاجئان تناديهم للأوبة من حيث أتوا ، فازداد أبو بكر إيماناً بالله ورسوله ، ونادى محمد : الحمد لله ، الله أكبر .

معجزة الغار

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة ، تلك هى المعجزة التى تقص كتب السيرة فى أمر الاختفاء بغار ثور . ووجه المعجزة فيها أن هذه الأشياء لم تكن موجودة ، حتى إذا لجأ النبى وصاحبه إلى الغار أسرعت العنكبوت إلى نسيج بيتها تستر به من بالغار عن الأعين ، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه ، ونمت الشجرة ولم تكن نامية . وفى هذه المعجزة يقول المستشرق درمنجم :
« هذه الأمور الثلاثة هى وحدها المعجزة التى يقص التاريخ الاسلامى الجد : نسيج عنكبوت وهوى حمامة ونماء شجيرة . . وهى أعاجيب ثلاث لها كل يوم فى أرض الله نظائر . »

إغفال بعض السير إياها

على أن هذه المعجزة لم ترد فى سيرة ابن هشام ، بل كل ما أورد هذا المؤرخ فى سياق قصة الغار ما يأتى : « عمدا إلى غار بثور — جبل أسفل مكة — فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فُهَيْرَة

مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . . . فأقام رسول الله صلعم فى الغار ثلاثاً . وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم . وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره ومعهم ، يسمع ما يأتمرون وما يقولون فى شأن رسول الله صلعم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى فى رعيان أهل مكة ، فاذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فاذا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفّى عليه . حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجرا بعيريهما وبعير له . الخ . . . . » هذا ماذكر ابن هشام عن قصة الغار نقلناه إلى حين خروج محمد وصاحبه منه .

وفى مطاردة قريش محمداً لقتله وفى قصة الغار هذه نزل قوله تعالى فى سورة الأنفال : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِين » وقوله فى سورة التوبة : « إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . »

الخروج الى يثرب

فى اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما بعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما . فلما ارتحلا لم تجد ما تعلّق به الطعام والماء فى رحالها فشقّت نطاقها وعلّقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر ، فسمّيت لذلك « ذات النطاقين » . وامتطى كل رجل بعيره ، ومعهما طعامهما ومع أبى بكر خمسة آلاف درهم هى كل ماله . وزادهما

اختفاؤهما بالغار وعلمهما بامعان قريش فى تتبعهما حرصاً وحذراً ، فتخذا الى يثرب طريقاً غير الطريق الذى ألف الناس . سلك بهما دليلهما عبد الله ابن أُرَيقط أحد بنى الدُّئل بمعناً إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متجهاً الى تِهَامة على مقربة من شاطىء البحر الأحمر . فلما كانا فى غير الطريق الذى ألف الناس اتجه بهما شمالا محاذياً الشاطىء مع الابتعاد عنه ، متخذاً من السبل ما قلّ أن يطرقه أحد . وأمضى الرجلان ودليلهما طيلة الليل وصدر النهار على رواحلهم، لا يعبأان بمشقة ولا يضنيهما تعب . وأية مشقة أخوف مما يخافان من قريش لصدهما عن الغاية التى يبتغيان بلوغها فى سبيل الله والحق ! صحيح أن محمداً لا تساوره ريبة فى أن الله ناصره . ولكن لا تُلقوا بأيديكم الى التهلكة . والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون نفسه ، وفى عون أخيه . ولئن كانا قد تخطيا فى أمان أيام الغار ، فان ما جعلته قريش لمن يردّهما أو يدل عليهما جدير بأن يستهوى نفوساً يغريها الكسب المادىّ ولو جاء من طريق الجريمة . ما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون محمداً عدوًّا لهم ، وفى نفوسهم من خُلق الغيلة ما لا يأنف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعا . فليكونا إذًا على أشد الحذر وليكونا كلهما أعينا ترى وآذاناً تسمع وقلوباً تشعر وتعى .

قصة سراقه

ولم يخنهما حَدْسُهما ؛ فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى ركبة ثلاثة مرّوا عليه يعتقدهم محمداً وبعض أصحابه . وكان سُرَاقَةُ بن مالك حاضراً فقال: إنما هم بنو فلان ؛ ليضلل الرجل وليفوز بمغنم النوق المائة . ومكث مع القوم قليلاً ثم عاد الى بيته فتدجّج بسلاحه ، وأمر بفرسه فأرسل الى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه ، وامتطاه ودفعه الى الناحية التى ذكر ذلك الرجل . وكان محمد وصاحباه قد أناخوا فى ظل صخرة ليقيلوا وليرفهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وَصَب، ولينالوا من الطعام والشراب قليلا علّهم

يستعيدون قوتهم وصبرهم. وبدأت الشمس تنحدر، وبدأ محمد وأبو بكر يفكران في امتطاء جمالهم إذ كانوا من سُراقة قيد البصر. وكان جواد سراقة قد كبا به قبل ذلك مرتين لشدة ما جهده . فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه مدرك الرجلين فرادُهما الى مكة أو قاتلُهما إن حاولا عن نفسهما دفاعا ، نسي كبوتي جواده ولزّه ليمسك بيده ساعة الظفر . لكن الجواد في قومته كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه . وتطيّر سُراقة وأُلقي في رُوعه أن الآلهة مانعة منه ضالّته ، وأنه معرّض نفسه لخطر داهم إذا هو همّ مرة رابعة لانفاذ محاولته . هنالك وقف ونادى القوم : أنا سُراقة بن جُعْشُم . أنظِروني أُكلمكم ، فوالله لا أُريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه . فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه و بينه . وكتب أبو بكر بأمر النبي كتاباً على عظم أو خزف ألقاه الى سُراقة ، فأخذه وعاد أدراجه ، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده .

لظى الطريق

وانطلق محمد وصاحبه يقطعان بطون تهامة في قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان إكاماً ووهاداً ولا يجدان أكثر الأمر ما يتّقيان به شواظ الهاجرة ، ولا يجدان إلا في صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحق الذي أنزل على رسوله ، ملجأ من قسوة ما يحيط بهما ، وأمناً مما يتخوّفان أن يفجأهما . وظلا كذلك سبعة أيام متتابعة ينيخان في حَمَارّة القيظ و يسريان على سفينة الصحراء الليل كله ، يجدان في سكينته وفي ضوء النجوم اللامعة في ظلمته ما يطمئن له قلباهما وتستريح له نفساهما . فلما بلغا مقام قبيلة بني سَهْم وجاء إليهما شيخها بُرَيْدَةَ يحييهما زالت مخاوفهما واطمأنت لنصر الله قلوبهما وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى .

مسلمو يثرب في انتظار الرسول

في فترة رحلتهما هذه المضنية كانت الأخبار قد ترامت إلى يثرب بهجرة النبي وصاحبه ليلحقا أصحابهما فيها ، وكانت قد عرفت ما لقيا من عنت

قريش ومن تتبعّها إياهما . لذلك ظل المسلمون جميعاً بها وهم ينتظرون مقدم صاحب الرسالة بنفوس ممتلئة شوقاً لرؤيته والاستماع له . وكان الكثيرون منهم لما يروه وإن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن قوة عزمه ما جعلهم للقياه أشد اشتياقا ، وفى انتظاره أشد تطلعاً . وإنك لتقدر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يثرب من لم يروا قطُّ محمداً ، ومن اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه ممن كانوا أشد المسلمين لدين الله دعوة ولرسول الله حبًّا . جلس سعد بن زُرَارَةَ ومُصْعَب بن عُمَيْر فى حائط من حوائط بنى ظَفَر واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ؛ فبلغ نبأهما سعد بن مُعَاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وكانا يومئذ سيدى قومهما . فقال سعد لحضير : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما ، فان سعد ابن زُرَارَة ابن خالتى ولا أصبر عليه . فذهب أُسَيْد إليهما يزجرهما ؛ فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فان رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كفّ عنك ما تكره ؟ . قال أُسَيْد : أنصفت . وركز حربته وجلس إليهما ، وسمع إلى مُصْعب فقام مسلماً وعاد إلى سعد بوجه غير الوجه الذى تركه به ؛ فغاظ ذلك سعداً وقام هو إلى الرجلين فكان أمره كأمر صاحبه ؛ وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد إلى قومه فقال :

انتشار الاسلام بيثرب

يا بنى عبد الأشهَل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

— قالوا : سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة .

— قال : فان كلام نسائكم ورجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فأسلم بنو عبد الأشهل جميعاً رجالاً ونساء .

وبلغ من انتشار الاسلام بيثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبىّ إليها ما لم يحلم به مسلمو مكة ، وما طوّع لبعض الشبّان من المسلمين أن يعبثوا بأصنام المشركين من أهلهم . كان لعَمْرو بن الجَمُوح صنم من خشب

يدعوه مَنَاة، قد اتخذه فى داره كما كان الأشراف يصنعون . وكان عمرو سيداً من سادات بنى سَلِمَةَ وشريفاً من أشرافهم . فلما أسلم فتيان قومه كانوا يريحون بالليل على صنمه فيحملونه فيطرحونه على رأسه فى إحدى الحفر التى يخرج أهل يثرب لقضاء حاجاتهم بها . فاذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسه حتى يعثر به ثم غسله وطهّره وردّه مكانه وهو يبرق ويرعد ويتهدّد ويتوعّد . وكرر فتيان بنى سلمة عبثهم بمناة ابن الجموح ، وهو كل يوم يغسله ويطهّره . فلما ضاق بهم ذرعاً علّق على الصنم سيفه وقال له : إن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك . وأصبح فالتمسه فوجده فى بئر مقروناً الى كلب ميت والسيف ليس معه . فلما كلمه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينيه ما فى الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه الى درك لا يحمل بانسان .

يسيرٌ عليك أن تقدر ، مع ما بلغ الاسلام من علوّ الشأن بيثرب ، تحرُّق أهلها فى انتظارهم مَقْدَم محمد عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكة . كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح الى ظاهر المدينة يتلمسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال فى هذه الأيام الحارّة من شهر يوليه . وبلغ هو قُبَاء على فرسخين من المدينة فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر . وفى هذه الأيام الأربعة أسّس مسجدها . وبينما هم بها وصلها على بن أبى طالب الذى ردّ الودائع التى كانت عند محمد لأصحابها من أهل مكة ثم غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه ، يسير الليل ويستخفى بالنهار ، ويحتمل هذا الجهد المضنى أسبوعين كاملين ليلحق باخوانه فى الدين .

دخول محمد المدينة

وإن مسلمى يثرب لينتظرون يوماً كعادتهم إذ صاح بهم يهودىّ كان قد رأى مايصنعون : « يابنى قَيْلة ، هذا صاحبكم قد جاء » . وكان هذا اليوم يوم جمعة فصلّاها محمد بالمدينة . وهناك فى المسجد الذى ببطن وادى رَانُونَا أقبل عليه مسلمو يثرب وكل يحاول أن يراه وأن يقترب منه ، وأن يملأ عينيه من

هذا الرجل الذى لم ير من قبل ، والذى امتلأت مع ذلك نفسه بحبه وبالايمان برسالته ، والذى يذكره كل يوم أثناء صلاته مرّات. وعرض عليه رجال من سادة المدينة أن يقيم عندهم فى العَدَد والعُدَّة والمنعة ، فاعتذر لهم وامتطى ناقته وألقى لها خطامها فانطلقت فى طرق يثرب والمسلمون من حولها فى حَفْل حافل يخلون لها طريقها ، وسائر أهل يثرب من اليهود والمشركين ينظرون إلى هذه الحياة الجديدة التى دبّت إلى مدينتهم ، وإلى هذا القادم العظيم الذى اجتمع عليه من الأوس والخزرج من كانوا من قبل أعداء متقاتلين ، ولا يجول بخاطر أحدهم فى هاته البرهة التى اعتدل فيها ميزان التاريخ الى وجهته الجديدة ما أعدّ القدر لمدينتهم من جلال وعظمة يبقيان على الزمن ما بقى الزمن . وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مِرْبَد لغلامين يتيمين من بنى النجّار ، هنالك بَركَتْ. ونزل الرسول عنها، وسأل لمن المِرْبَد؟ فأجابه معاذ بن عفراء : إنه لسَهْل وسُهَيل ابنى عَمْرو وهما يتيمان له وسيرضيهما، ورجا محمداً أن يتخذه مسجداً . وقبل محمد وأمر أن يبنى فى هذا المكان مسجده وأن تبنى داره .

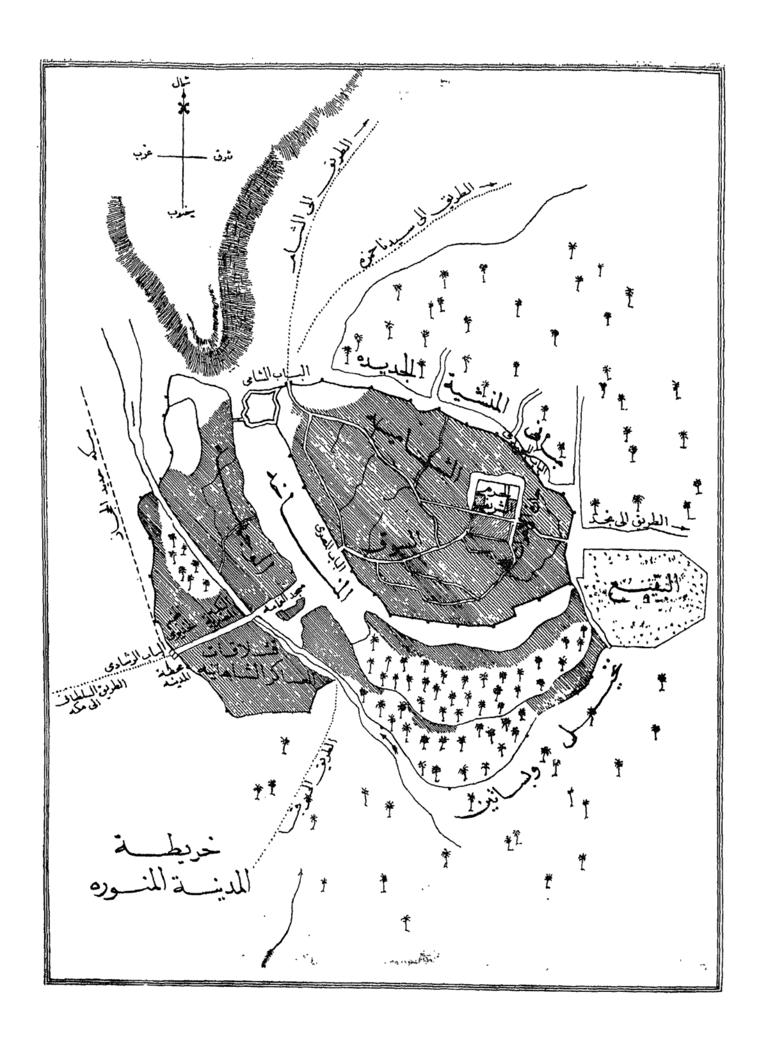
الفصل الحادي عشر

أول العهد بيثرب

استقبال يثرب للمهاجر العظيم — بناء المسجد ومنزل النبي — تفكير محمد في حرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً — يهود المدينة — مؤاخاة محمد بين المهاجرين والأنصار — معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد زواج محمد من عائشة — الأذان للصلاة — مُثُل محمد وتعاليمه — قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها — تحويل القبلة من المسجد الأقصى الى المسجد الحرام — وفد نصارى نجران الى المدينة — التقاء الأديان الثلاثة بيثرب — تفكير المسلمين في موقفهم من قريش

خرج أهل يثرب لاستقبال محمد زرافات ووحدانا، رجالاً ونساء، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته ومن ائتمار قريش به، ومن احتماله فى أشد القيظ هذه الرحلة المضنية بين كثبان تهامة وصخورها التى تردّ ضوء الشمس لظى وسعيراً. وخرجوا يثيرهم تطلعهم، لما انتشر من خبر دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة وما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم كانت عندهم موضع التقديس. لكن خروجهم لم يكن راجعاً الى هذين السببين وكفى، بل كان راجعاً أكثر من ذلك إلى أنه هاجر من مكة الى يثرب ليقيم بها. فكل طائفة وكل قبيلة من أهل يثرب كانت ترتّب على هذا المقام، من الناحية السياسية والاجتماعية، آثاراً شتى، هى التى استخفتهم أكثر مما استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا الى هذا الرجل وليروا هل تؤيد سيماه حدْسَهم أو هى تدعوهم إلى تعديله. لذلك لم يكن المشركون ولا كان اليهود

اسباب استقبال اليثربيين للنبى



شمال
غرب
شرق
جنوب
الطريق الى الشام
الطريق الى سيدنا حمزه
الجديده
المنشية
الباب الشامى
الحرم الشريف
الطريق الى نجد
البقيع
الباب المصرى
مسجد الغمامه
الباب الرشادى
محطة المدينه
الطريق السلطانى الى مكه
نخل وبساتين
خريطة
المدينة المنوره

أقل إقبالا من المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ، على استقبال النبي . ولذلك أحاطوا به جميعاً وكلٌّ يخفق قلبه خفقاً مختلفاً عن صاحبه باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم . وقد تبعوه إذ ألقى بخطام ناقته على غاربها فى شىء من عدم النظام أدى إليه حرص كلٌّ على أن يجتلى محياه ، وأن يحيط من نواحيه جميعاً بنظرة ترسم فى نفسه صورة من هذا الذى عقد بيعة العقبة الكبرى مع من بايعه من أهل هذه المدينة لحرب الأسود والأحمر من الناس ، والذى هجر وطنه وفارق أهله واحتمل عدوانهم وأذاهم ثلاث عشرة سنة متتابعة فى سبيل توحيد الله توحيداً أساسه النظر فى الكون واجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر.

بناء المسجد ومساكن الرسول

وبركت ناقة النبي عليه السلام على مربد سهل وسهيل ابني عمرو ، فابتاعه ليبنيه مسجداً له . وأقام أثناء بنائه فى دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى . وعمل محمد فى بناء المسجد بيديه ، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته فى بنائه حتى أتموه وأقاموا من حوله مساكن الرسول . وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليرهق أحداً وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد . كان المسجد فناء فسيحاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب ، وسقف جزء منه بسعف النخل وترك الجزء الآخر مكشوفاً ، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً . ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها . وكذلك ظل تسع سنوات متتابعة شدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التى كان يعتمد سقفه عليها . ولم تكن مساكن النبي أكثر من المسجد ترفاً ، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استنارة .

بنى محمد مسجده ومساكنه وأوى من بيت أبى أيوب إليها . ثم جعل يفكر فى هذه الحياة الجديدة التى استفتح والتى نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة . فقد ألفى هذه المدينة وبين عشائرها من التنافر ما لم تعرف

مكة ، لكنه ألفى قبائلها وبطونها تصبو إلى حياة فيها من السكينة ما يجنبها الخلاف والحزازات التى مزقتها فى الماضى شر ممزق ، وما يهيء لها فى المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروةً وأعظم جاهاً . وما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أوّل ما يعنى محمداً وإن كان بعض مايعنيه ؛ إنما كان همه الأوّل والآخر هذه الرسالة التى ألقى الله عليه تبليغها والدعوة إليها والانذار بها . لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهول الحرب ، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل الأنفس إيماناً بها من خوف أذى قريش وعنتها . والأذى والعنت يحولان بين الايمان والقلوب التى لمّا يدخل الايمان إليها . فيجب أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل فى دين الله بمأمن من أن يصيبه الأذى ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، وليُقبل على الايمان المتردد والخائف والضعيف . فى هذا كان يفكر محمد أوّلَ طمأنينته إلى مسكنه بيثرب ، وإلى هذا كانت تتجه سياسته . وفى هذا الاتجاه يجب ان يترجم لحياته . هو لم يكن يفكر فى ملك ولا فى مال ولا فى تجارة . إنما كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم فى عقيدتهم ككفالتها لغيرهم فى عقيدتهم . يجب أن يكون المسلم واليهودىّ والنصرانىّ سواء فى حرية العقيدة ، وفى حرية الرأى وحرية الدعوة اليه . فالحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق وبتقدُّم العالم نحو الكمال فى وحدته العليا . وكل حرب للحرية تمكين للباطل ونشر لجيوش الظلام لتقضى على جذوة النور المضيئة فى النفس الانسانية ، والتى تصل بينها وبين الكون كله من أزله الى أبده ، صلة اتساق ومحبة ووحدة ، لاصلة نفور وحرب وفناء .

كفالة حرية العقيدة

رغبة محمد عن القتال

هذه الوجهة فى التفكير هى التى نزل بها الوحى على محمد منذ الهجرة ، وهى التى جعلته جنوحا للسلم راغبا عن القتال مقتصداً طول حياته أشد القصد فيه ، غير لاجيء اليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية ، دفاعا

عن الدين وعن العقيدة. ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه فى العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش يُنبهها لأمرهم: «والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلَنّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا». فكان جوابه: «لم نؤمر بذلك». ألم تكن أول آية فى القتال: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلونَ بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ». ألم تكن الآية التى تلت هذه فى أمر القتال قوله تعالى: «وَقَاتِلوهُمْ حتَّى لاَ تَكونَ فِتنَةٌ وَيَكونَ الدِّينُ لله». فتفكير محمد إذاً إنما كان متجها لغاية واحدة عليا هى كفالة حرية العقيدة والرأى كفالة فى سبيلها وحدها أُحِلَّ القتال، ودفاعا عنها أُبيح دفع المعتدى حتى لا يُفتَن أحد عن دينه، ولا يُظلَم أحد بسبب عقيدته أو رأيه.

تفكير أهل يثرب

بينما كانت هذه وجهة محمد فى التفكير فى أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكر، وإن كان كل فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره. فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت. ثم كان بها اليهود يقيم منهم بنو قَيْنُقَاعَ داخلها ويقيم بنو قرَيْظَةَ فى فَدَك وبنو النَّضِير على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خَيْبَر. أمّا المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط، وإن بقيت فى نفس محمد بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوماً، مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له من بعدُ أثره. وأمّا المشركون من سائر الأوس والخزرج، فقد ألفَوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافا نَهَكتهم الحروب الماضية، فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك. وأمّا اليهود فبادروا بادىء الرأى إلى حسن استقبال محمد ظنّا منهم أن فى مقدورهم استمالته اليهم وإدخاله فى دينهم، والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية

التى أجلت اليهود ، شعب الله المختار ، عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومى . وانطلق كلٌّ على أساس تفكيره يمهّد أسباب النجاح لبلوغ غايته .

هنا يبدأ دور جديد من أدوار حياة محمد لم يسبقه اليه أحد من الأنبياء والرسل . هنا يبدأ الدور السياسى الذى أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الانسان يقف دهشاً ، ثم يطأطىء الرأس إجلالاً وإكبارا . كان أكبر همه أن يصل بيثرب موطنه الجديد الى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز ، وإن كانت قد عرفت الى ماقبل ذلك بكثير ببلاد اليمن . فتشاور هو ووزيراه أبو بكر وعمر ، فكذلك كان يسميهما . وقد كان أوّل ما انصرف اليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم ، للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم . ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين . فكان هو وعلىّ بن أبى طالب أخوين. وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين . وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين . وكان عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك الخزرجى أخوين . وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب ، بعد أن تلاحق اليها سائر من كان منهم بمكة فى أعقاب هجرة الرسول إياها ، مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب سواء . وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيداً .

المؤاخاة بين المسلمين

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة إزاء إخوانهم المهاجرين ما تقبّله هؤلاء أوّل الأمر مغتبطين . ذلك بأنهم تركوا مكة وتركوا وراءهم مايملكون فيها من مال ومتاع ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم . ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفّان . أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئاً ينفعه . وقد ذهب حمزة عم الرسول يوماً يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . وكان عبد الرحمن بن عوف

وسعد بن الربيع أخوين ، ولم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئاً . فعرض سعد عليه أن يشاطره ماله . فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق ، وفيها بدأ ببيع الزبدة والجبن ، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة فى زمن قصير ، وأن يمهر إحدى نساء المدينة وأن تكون له قوافل تذهب فى التجارة وتجىء . وصنع غير عبد الرحمن من بعض المهاجرين صنيعه ، أن كان لهؤلاء المكيين من الدراية فى شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم : إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً .

المشتغلون بالتجارة

أمّا الذين لم يشتغلوا بالتجارة ، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب وغيرهم ، فقد عملت أُسَرهم فى الزراعة فى أراضى الأنصار مزارعة مع مُلاكها . وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدة وبأساء . لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كَلاًّ على غيرهم ؛ فكانوا يجهدون أنفسهم فى العمل أشد الاجهاد ، ويجدون فى ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ما لم يكونوا يجدون بمكة . على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا ، كانوا فى حال من العوز والمتربة ، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه . هؤلاء أفرد محمد لهم صُفَّة المسجد — وهى المكان المسقوف منه — يبيتون بها ويأوون إليها ، ولذلك سموا أهل الصُّفَّة ، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً .

المشتغلون بالزراعة

اطمأن محمد إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة . وهى لا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر ، نتبين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم . لكن العمل السياسى الجليل حقا والذى يدل على أعظم الاقتدار ، فذلك ما وصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية

مودة محمد واليهود

والتحالف . وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملاً فى استدراجه إلى دينهم . وقد بادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلاته بهم ، فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبراؤهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة كأهل كتاب موحدين . وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم ، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً . وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى . كما أن سيرته وعظيم تواضعه وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم وما أورثه ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب ، كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتقرير لحرية الاعتقاد وتحالف ؛ هى ، فى اعتقادنا ، من الوثائق السياسية الجديرة بالاعجاب على ممر التاريخ . وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبى أو رسول . فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلّغونها للناس من طريق الجدل ، ومن طريق المعجزة ، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية إيمان الناس بها ، ولو دفاعاً مسلّحاً ، فيه الحرب والقتل والقتال . انتشرت المسيحية على يد الحواريين من بعد عيسى ، فظلوا ومن تبعهم يعذّبون ، حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهذا الدين فآواه ونشره . وكذلك كان أمر سائر الأديان فى شرق العالم وغربه . فأما محمد فقد اراد الله أن يتم نشر الاسلام وانتصار كلمة الحق على يديه ، وأن يكون الرسولَ والسياسىّ والمجاهد والفاتح ، كل ذلك فى سبيل الله وفى سبيل كلمة الحق التى بُعِث بها . وهو قد كان فى ذلك كله عظيما ، وكان مثل الكمال الانسانى على ما يجب أن يكون .

وثيقة سياسية خطيرة

كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتاباً وادع فيه اليهود وعاهدهم

وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم . وهذا الكتاب يقرر أن : « المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس ، وكل طائفة منهم تَفْدِى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وان المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم — والمفرح المثقل بالدين والعيال — أن يُعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . وألاّ يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعةَ — أى طبيعة — ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موَالى بعض دون الناس . . وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متنَاصَرٍ عليهم ، وان اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين ، وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ويهود بنى النَّجّار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جُشَم وبنى ثَعلَبة وبنى الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عَوْف سواء ، وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وبينهم النصح والنصيحة والبرّ دونَ الإثم ، واليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم ، ولا تجار حرمة إلا باذن أهلها ، ولا تجار قريش ولا من نصرها . وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دُعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله » .

عهد الموادعة

هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها محمد منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، والتى تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة

فتح جديد في الحياة السياسية

وحرمة المال وتحريم الجريمة . وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يومئذ ؛ هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فساداً . ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النَّضير وبنو قَيْنُقَاع فانهم مالبثوا بعد قليل أن وقَّعوا بينهم وبين النبيّ صحفا مثلها . وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها ، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها ويتكافلوا فيما بينهم لاحترام ماقررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية .

زواج النبى من عائشة

طاب محمد نفساً بهذه النتيجة ، وسكن المسلمون الى دينهم وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين ويقيمونها فرادى لايخافون أذى ولا يخشون فتنة . إذ ذاك بنى محمد بعائشة بنت أبى بكر ، وكانت فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها . وكانت فتاة رقيقة حلوة القَسَمات محببة العشرة ، وكانت تخطو دراكا من الطفولة الى الصبا ، وكانت ذات ولع باللعب والمرح . لكنها كانت نامية نموّا حسنا . ووجدت فى محمد أول انتقالها اليه بمسكنها الى جانب مسكن سودة فى جوار المسجد أباً بارّا عطوفاً ، وزوجا مشفقاً رفيقاً ، لا يأبى عليها أن تعبث وتلهو بألاعيبها ، وتسليه بذلك عن دائم تفكيره فى العبء العظيم الذى أُلقى عليه ، وفى سياسة يثرب التى بدأ بتوجيهها الى خير وجهة .

فى هذه الفترة التى سكن فيها المسلمون إلى دينهم فرضت الزكاة وفرض الصيام وقامت الحدود ، وتمكنت بيثرب شوكة الاسلام . وكان محمد حين قدم المدينة إنما يجتمع إليه الناس للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ؛ ففكر فى أن يدعو للصلاة ببوق كالبوق الذى يدعو به اليهود لصلاتهم . لكنه كره البوق فأمر بالناقوس ، فنُحِت ليضرب به للصلاة ، كما تفعل النصارى . على أنه بعد مشورة عمر وطائفة من المسلمين على رواية ، وبأمر الله على لسان الوحى فى رواية أخرى ، عدل عن الناقوس أيضاً إلى الأذان ، وقال لعبد الله بن زيد بن

ثعلبة : « قم مع بلال فألقها عليه — أى صيغة الأذان — فليؤذن بها فانه أندى صوتا منك». وكان لامرأة من بنى النجار منزل إلى جانب المسجد أعلى منه، فكان بلال يرقاه فيؤذّن عليه. وكذلك صار أهل يثرب جميعاً يسمعون منذ الفجر من كل يوم دعوةً إلى الاسلام مرتلة ترتيلا حسناً بصوت رطب جميل يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحى ويلقى فى أذن الحياة نداءه : « الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله ». وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمناً وأصبحت يثرب مدينة الرسول، وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوة المسلمين قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية فى سبيل الايمان وذاقت الأذى بسببه ألوانا، وهاهى ذى اليوم تحصد ثمرة الصبر وتستمتع من حرية العقيدة بما قرّر الاسلام من أن ليس لانسان على انسان سيادة، ومن أن الدين لله وحده والعبودية له وحده، والناس أمام وجهه الأكرم سواسية لا يُجزَوْن إلا بأعمالهم وبالنية التى تصدر هذه الأعمال عنها.

الأذان للصلاة

وانفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم، وليضع بذلك حجر الأساس للحضارة الاسلامية.

الاخاء اساس الحضارة الاسلامية

وحجر الأساس هذا هو الاخاء الانسانى إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يصل به هذا الأخاء الى غاية البرّ والرحمة من غير ضعف ولا استكانة. سأل رجل محمداً: أى الاسلام خير؟ فقال : « تُطعِم الطعام وتقرأ السلام على من عرَفت ومن لم تعرف». وفى أول خطبة ألقاها بالمدينة قال : « من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشِقة من تمر فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها». وفى خطبته الثانية قال : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، واتقوه حقّ تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن

يُنْكَث عهده ». بهذا وبمثله كان يحدّث أصحابه وكان يخطب الناس فى مسجده، مستنداً إلى جذع من جذوع النخل التى يعتمد عليها سقفه، حتى أمر فصُنِع له منبر من ثلاث درجات كان يقوم على درجته الأولى خطيباً، وكان يجلس على درجته الثانية.

إخاء محمد والمسلمين

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة الى هذا الاخاء الذى جعل منه حجر الزاوية فى حضارة الاسلام، بل كانت أعماله وكان مثله هو هذا الاخاء فى أسمى صور كماله. كان رسول الله. لكنه كان يأبى أن يظهر فى أىّ من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية. كان يقول لأصحابه: « لا تُطْرُونى كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله ». وخرج على جماعة من أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا له فقال: « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضاً »، وكان اذا بلغ فى مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم ويُجلسهم فى حجره، ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأمَة والمسكين، ويعود المرضى فى أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر ويبدأ مَنْ لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفّف صلاته وسأله عن حاجته، فاذا فرغ عاد الى صلاته. وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب. وكان فى بيته فى مَهْنَة أهله يفلّى ثوبه ويرقعه ويحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعقل البعير ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين. وكان اذا رأى أحداً فى حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة. وكان لذلك لا يدّخر شيئا لغده؛ حتى لقد تُوفّى ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله. وكان جمّ التواضع، شديد الوفاء، حتى لقد وفد للنجاشى وفدٌ فقام يخدمهم، فقال له أصحابه: يكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مُكرِمين وإنى

أحب أن أكافئهم . وبلغ من وفائه أنه ماذكرت خديجة إلا ذكرها أطيب الذكر؛ حتى كانت عائشة تقول : ماغِرتُ على امرأة ماغرتُ على خديجة، لما كنت أسمعه يذكرها. ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها؛ فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الايمان . وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يدع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته . بل لقد صلى بأمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه ، فاذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

رفق محمد بالحيوان

ولم يقف بالبر والرحمة اللذين جعلهما دعامة الاخاء الذى قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الانسان ، بل عدّاهما الى الحيوان كذلك . كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ ، وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض ، وكان يمسح لجواده بكمّ قميصه . وركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة فجعلت تردده ؛ فقال لها : عليك بالرفق . وكذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها ، وأظلت كل من كان بحاجة إلى فىء ظلالها . . . .

إخاء عدل ورحمة

وهى لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة ، ولم تشبها شائبة منّ ولا إستعلاء ؛ إنما كانت إخاء فى الله بين محمد والذين اتصلوا به جميعاً . ومن ثم يفترق أساس حضارة الاسلام عن كثير من سائر الحضارات . الاسلام يضع العدل إلى جانب الاخاء ويرى أن الاخاء لا يكون إخاء إلا به . « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ . » « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » . يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده والارادة الحرة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر ، مصدر الاخاء وما يدعو اليه من برّ ورحمة ، ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاما ، ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع أو التقوى ، ولا يتسرب اليها خوف أو وهن إلا عن معصية تجترحها أو إثم تقترفه . ولا تكون النفس قوية إذا كانت فى حكم غيرها ، ولا تكون قوية إذا خضعت لحكم أهوائها وشهواتها

وقد هاجر محمد وأصحابه من مكة حتى لا يكونوا فى حكم قريش ولا يُضعِف أذاها نفس أحد منهم . والنفس إنما تخضع لحكم الأهواء والشهوات إذا تحكم الجسد فى الروح وغلبت الشهوة العقل ، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنا سلطانا على حياتنا نحن ، على حين أنا فى غنًى عنها وأنا أصحاب السلطان عليها.

قوة محمد على الحياة

وكان محمد المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ماعنده ، حتى قال أحدهم: إن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . ولكى لا يكون لشىء مما فى الحياة سلطان عليه ، وليكون له هو كل السلطان عليها ، كان شديد الزهد فى مادّتها ، على شدة رغبته فى الاحاطة بها وفى معرفة أسرارها ، وتوقه إلى غاية الحقيقة من أمرها . بلغ من زهده فيها أن كان فراشه الذى ينام عليه أدما حشوه ليف ، وأنه لم يشبع قط ولم يَطْعَم خبز الشعير يومين متواليين . وكان السويق طعام أكلته الكبرى ، وكان التمر طعام سائر يومه . وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله . ولقد عانى الجوع غير مرة ، حتى كان يربط على بطنه حجراً يكظم به على صيحات معدته . ذلك كان معروف أمره فى طعامه ، وإن لم يمنعه ذلك عن أن ينال فى بعض الأحايين من أطايب الرزق ، وأن يُعْرَف عنه حبه زند الخروف والقرع والعسل والحَلْوى.

زهده فى الطعام واللباس

وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام : أعطته امرأة يوما ثوبا كان بحاجة اليه ، فطلب اليه أحدهم ما يصلح كفناً لميت فأعطاه الثوب . وكان معروف ثيابه القميص والكساء ، وكانا من صوف أو قطن أو تيل . على أنه فى بعض الظروف لم يكن يأبى أن يلبس من أقمشة اليمن لباساً فخما يناسب الظرف . وكان يحتذى حذاء بسيطاً ، ولم يلبس خفا الا حين أهداه النجاشى خفين وسراويل .

لم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفاً للتقشف ، ولا كانا من فرائض الدين . فقد جاء فى القرآن: « كلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم » ، وفى

الأثر : «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».
لكن محمداً أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان أو أيٌّما يجعل لغير الله عليه سيادة. والاخاء الذى يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ماضرب محمد له المثل الأعلى فيما رأيت، إخاء محض بالغ غاية الاخلاص والسموّ. إخاء لا تشوبه شائبة؛ لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة، ولأن صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلا إرادته الحرة المطلقة. لكن الاسلام إذ يضع العدل إلى جانب الرحمة يضع العفو إلى جانب العدل، على أن يكون عفواً عن مقدرة، ليكون مظهر الرحمة صريحاً صحيحاً، وليكون القصد منه إلى الاصلاح صادقاً.

سنة محمد

هذا الأساس الذى وضعه محمد للحضارة الجديدة التى يقيمها يتلخص خير تلخيص فيما روى عن عليّ بن أبى طالب أنه سأل رسول الله عن سنّته فقال: «المعرفةُ رأس مالى، والعقل أصل دينى، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيقى، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والفقر فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خلقى، وقُرّة عينى فى الصلاة».

بدء مخاوف اليهود

تركت تعاليم محمد هذه وترك مثله وقدوته فى النفوس أعمق الأثر، حتى لقد أقبل كثيرون على الاسلام، وزاد المسلمون بالمدينة شوكة وقوة. هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه. لقد عقدوا معه عهداً، وكانوا يطمعون فى أن يضموه إلى دينهم وفى أن يزدادوا به على النصارى منَعَة وقوة. وهذا هو أقوى من هؤلاء وأولئك جميعاً، وهذه كلمته تزداد ثباتاً. بل هذا هو يفكر فى أمر قريش وإخراجها إياه وإخراجها المهاجرين

من مكة ، وفتنتها من استطاعت فتنته من المسلمين عن دينه . أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر وسلطانه الروحي يمتد ، مكتفين بالأمن في جواره أمناً يزيد تجارتهم سعة وثروتهم ربحاً ؟ لعلهم كانوا يسيغون هذا لو أنهم أمنوا ألا تمتد دعوته إلى اليهود وألا تفشو في عامتهم ، على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبيّ من غير بني إسرائيل . لكن حبراً عالماً من كبار أحبارهم وعلمائهم هو عبد الله بن سَلاَم لم يلبث أن اتّصل بالنبي حتى أسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه . وخشى عبد الله أن يقول اليهود فيه ، إذا علموا باسلامه ، غير ما اعتادوا . فطلب إلى النبيّ أن يسألهم عنه ما شأنه ؟ قبل أن يعرف أحد منهم إسلامه . قالوا: سيّدنا وابن سيّدنا وحبرنا وعالمنا. فلما خرج عبد الله اليهم وتبيّنوا ما صنع ، ودعاهم هو إلى الاسلام ، خافوا عاقبة أمره فوقعوا به وأذاعوا عنه قالة السوء في أحياء اليهود كلها ؛ وأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا لمحمد وينُكروا نبوّته . ولم يكن بأسرع من أن اجتمع إليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهما نفاقاً جرياً وراء مغنم أو إرضاء لذى عُصبة وبأس .

إسلام عبد الله ابن سلام

وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لَدَداً وأكبر مكراً من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكة . في هذه الحرب اليثربية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين، أقامتها اليهود جميعاً صفوفاً متراصة يهاجمون بها محمداً ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار . دسّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ، ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في نفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التي يدعو إليها . وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا هم أيضاً نفاقاً ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين . وبلغ من تعنتهم

حرب الجدل بين محمد واليهود

أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما في التوراة ، وأنهم جميعاً ، وكلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو اسرائيل والمشركون الذين يتخذون أصنامهم إلى الله زلفى ، كانوا يسألون محمداً : إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ ! وكان محمد يجيبهم بقوله تعالى : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . » وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم، ورأوهم يوماً في المسجد يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم محمد فأُخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً . ولم يثنهم ذلك عن دسائسهم وسعيهم في الوقيعة بين المسلمين . مرّ أحدهم : شَاس بن قَيْس على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم . فغاظه صلاح ذات بينهم وقال في نفسه : قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة بهذه البلاد ؛ ومالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . وأمر فتى شابا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بُعَاث وما كان من ظفر الأوس فيه على الخزرج . وتكلم الغلام ، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض : إن شئتم عدنا إلى مثلها . وبلغ محمداً الأمر، فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه فذكّرهم بما ألّف الاسلام بين قلوبهم ، وجعلهم إخواناً متحابّين ، وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً .

محاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج

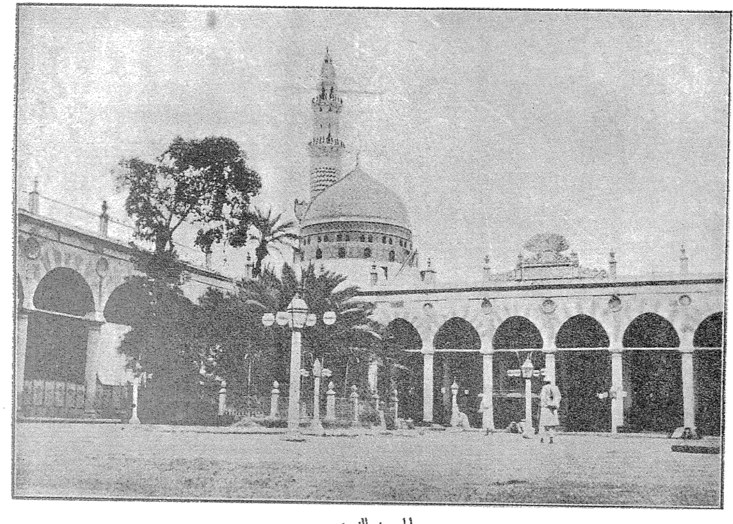
بلغ الجدال بين محمد واليهود مبلغاً من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه . فقد نزل صدر سورة البقرة الى الآية الحادية والثمانين منها ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وإنكارهم ما في كتابهم ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا

يؤمنون . ولمّا جاءهمْ كِتَابٌ من عند الله مُصَدِّقاً لما مَعَهمْ وَكانوا منْ قَبلُ يَسْتَفْتِحُونَ علَى الَّذِين كَفَرُوا ، فلَما جاءهُمْ ما عَرَفوا كَفَرُوا به فَلَعْنَة اللهِ عَلَى الـكافِرِينَ . »

وبلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حدّاً كان يصل أحياناً ، برغم ما بينهم من عهد ، الى الاعتداء بالأيدى . وحَسْبُكَ لتقدر هذا أن تعلم أن أبا بكر ، على ما كان عليه من دَماثة الخُلق وطول الأناة ولين الطبع ، تحدّث الى يهودى يدعى فِنْحَاص يدعوه الى الاسـلام ؛ فرد فنحاص بقوله : « والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإنا عنه أغنياء وما هو عنا بغنىّ . ولو كان غنيًّا عنا ما استقرضنَا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا . » . وفِنْحاص يشير هنا الى قوله تعالى : « وأقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَـكُمْ . » لـكن أبا بكر لم يطق على هـذا الجواب صبراً . فغضب وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوّ الله . وشكا فنحاص أمره الى النبى وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله؛ فنزل قوله تعالى: « لَقَدْ سَمِـعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْن أغنيَاء ، سَنَـكْتُبُ مَا قَالوا وَقَتْلَهُمُ الأنبيَاء بِغَيْرِ حَقٍ ، وَنَقولُ ذوقوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . »

لم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج من هؤلاء ، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردّهم الى الشرك دون محاولة تهويدهم ، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة محمد نفسه . ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وساداتهم ذهبوا إليه وقالوا له : « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن اتبعناك اتبعتك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك » . فنزل فيهم قوله تعالى :

قصة فنحاص



المسجد النبوى

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ؛ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

ضاق اليهود ذرعاً بمحمد ففكروا فى أن يمكروا به وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش إياه وأصحابه عن مكة . فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً الى بيت المقدس وكان به مقامهم ، وأنه إن يكن رسولا حقا لجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطاً فى هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى . لكن محمداً لم يحتج الى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به . وأوحى إليه الله يومئذ ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ، فنزلت الآية : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . وأنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم : إنهم يتبعونه اذا هو رجع الى قبلته ؛ فنزل قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » .

صرف القبلة الى الكعبة

فى هذا الظرف وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكبا ، من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا

وفد نصارى نجران

له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات . ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى مدينة النبي حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف، طمعاً فى أن يزيد هذا الخلاف شدّة حتى يبلغ به العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة فى الشام وفى اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب . واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابية بمجيء هذا الوفد وبجداله النبي وبقيام ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والاسلام . فأمّا اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى ومحمد إنكاراً فيه من العنت ما رأيت ، ويزعمون أن عُزَيْراً ابن الله . وأما النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وألوهية عيسى . وأمّا محمد فكان يدعو إلى توحيد الله ، وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالم من أزله إلى أبده . كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول : « نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . وكان ينكر عليهم أشد الانكار كل ما يلقى أية شبهة على وحدة الله ، ويذكر لهم أنهم حرّفوا الكلم مما فى كتبهم عن مواضعه ، وأنهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيّون والرسل الذين يُقرّون لهم بالنبوّة ، وأن ما جاء به عيسى وموسى ومن سبقهم لا يختلف فى شيء عما جاء هو به ؛ لأن ما جاءوا به إنما هو الحقيقة الأزليّة الخالدة التى تتكشف فى جلال وضوحها وعظمة بساطتها لكل من نزّه نفسه عن الخضوع لغير الله فى عظمة وحدته ، ونظر فى الكون على أنه وحدة متصلة نظرة سامية فوق أهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادة ، مجرّدة عن الخضوع الأعمى لأوهام العامة ولما وجد عليه آباءه وأجداده .

مؤتمر الأديان الثلاثة

أى مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذى شهدت يثرب تلتقى فيه الأديان الثلاثة التى ما تزال حتى اليوم تتجاذب مصاير العالم ، وتلتقى فيه لأسمى فكرة

وأجل غاية؟ لم يكن مؤتمراً اقتصاديًّا ولا كان مرماه أيّ غرض من هذه الأغراض المادية التى ينطح عالمنا اليوم عبثاً صخرتها؛ إنما كانت غاية روحية تقف من ورائها فى أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوى الملك والسلطان، ويقف فيه محمد لغاية روحية إنسانية بحتة يملى عليه الله فى سبيلها الصيغة التى يُلقى بها إلى اليهود وإلى النصارى وإلى الناس كافّة، يقول لهم فيها: «قلْ يأهلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أنْ لا نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولا نُشرِكَ بهِ شيئاً ولا يتَّخِذَ بعضُنَا بعضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فإنْ تَوَلّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلمون».

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا فى هذه الدعوة: ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله؟ فأما الروح المخلصة الصادقة، فأما النفس الانسانية التى كُرِّمت بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره، لكن فى الحياة الانسانية إلى الجانب النفسانى جانبها المادى. فيها هذا الضعف الذى يجعلنا نقبل لغيرنا علينا سلطاناً بثمن يشترى به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا. فيها هذا الغرور القتّال للكرامة وللعاطفة ولنور النفس العاقلة. هذا الجانب المادّى المصوَّر فى المال وفى الجاه وفى كاذب الألقاب والرتب هو الذى جعل أبا حارِثةَ أكثر نصارى نَجْران علماً ومعرفة يُدلى إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد؛ فلما سأله رفيقه: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ كان جوابه: يمنعنى ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

تراجع وفد النصارى ورجوعهم

دعا محمد اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يُلاعِن النصارى. فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد الموادعة. إذ ذاك تشاور النصارى ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا ألا يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم.

لكنهم رأوا حرص محمد على العدل حرصاً احتذى أصحابه فيه مثاله ، فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم. وبعث محمد معهم أبا عُبَيْدَة بن الجرّاح ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

وجعل محمد يمكّن للحضارة التى وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه ومثله :

التفكير فى أمر قريش ومكة

وجعل يفكر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفتهم التفكير لحظة فيه منذ هجرتهم من مكة : فيما يجب أن يكون موقفهم من قريش وأمرهم معهم . ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير أكثر من دافع . ففى مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجيجهم وحجيج العرب جميعاً . أتراهم ينقطعون عن هذا الواجب الدينى المقدّس عندهم اليوم أكثر مما كان مقدساً عندهم فى الجاهلية ! وفيها مايزال لهم أهل تهوى اليهم نفوسهم وتشفق لبقائهم على الشرك أفئدتهم وقلوبهم . وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارتهم مما منعتهم قريش منه حين هجرتهم . ثم إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمّى فأصابهم منها عنت شديد ، وبلغت منهم حتى جهدوا مرضاً وكانوا يصلّون قعوداً ، فزاد ذلك فى تحنانهم إلى مكة . وهم قد أُخرجوا من مكة كارهين ، فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم . وليس فى طبع هؤلاء القرشيين أن يصبروا على الضيم أو يذعنوا للغلَب دون تفكير فى الثأر لأنفسهم منه . وإلى جانب هذه الدوافع جميعاً الدافع الطبيعى : دافع الحنين إلى الوطن . الحنين إلى المكان الذى منه نبتنا وفيه نشأنا والى أرضه وسهله وجبله ومائه كان أوّل حديثنا وأوّل صداقتنا وأوّل ودّنا . هذه البقعة من الأرض نمتّنا صغاراً فاليها نَمْتُوانا كباراً . بها تتعلق قلوبنا وعواطفنا وأفئدتنا ، وعنها نذود بقوّتنا وبمالنا ونضحّى بمجهودنا وبحياتنا ، وفيها نود أن ندفن بعد موتنا لنعود إلى ترابها الذى خرجنا منه . هذا الدافع الطبيعى أذكى فى نفس المهاجرين سائر الدوافع وجعلهم لا ينفكون يفكرون فى قريش وفيما يجب أن يكون موقفهم منها . لن يكون هذا الموقف

موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذى ثلاثة عشر عاماً سوياً . والدين الذى احتملوا فيه هذا الأذى والذي هاجروا فى سبيله لا يقر الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة . وإذا كان يمقت الاعتداء وينكره ويقرر الاخاء ويدعو إليه ، فانه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة وعن حرية العقيدة وعن الوطن . ولهذا الدفاع أتم محمد مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى . فكيف يؤدى المهاجرون هذا الفرض عليهم لله ولبيته الحرام ولوطنهم مكة المحبب إلى قلوبهم ؟ ! هذا ما ستتجه اليه سياسة محمد والمسلمين معه حتى يتم له فتح مكة ، وحتى يعلو دين الله وتعلو كلمة الحق فيها .

الفصل الثاني عشر

السرايا والمناوشات الأولى

تفكير محمد فى أمر قريش — إيفاده السرايا لتخويف قوافلهم
غزوة عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام — الاسلام والقتال

استقر للمسلمين المُقام بالمدينة بعد أشهر من الهجرة ، فبدأ تحنان المهاجرين لمكة يزداد وبدءوا يفكرون فيمن تركوا وما تركوا بها ، وما أنزلت قريش بهم من الأذى ، فماذا عساهم يصنعون ؟ تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم فكروا وفكر محمد على رأسهم فى الانتقام من قريش لأنفسهم وفى مبادأتهم بالعداوة والحرب . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنهم فكروا فى هذه الحرب منذ مَقْدَمهم إلى المدينة ، وإنما منعهم من إشعال نارها أنهم كانوا مايزالون فى شغل باعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم . ويستدل على ذلك بأن محمداً انما عقد بيعة العقبة الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس . وطبيعىٌّ أن تكون قريش أول من يتجه اليهم نظره ونظر أصحابه ، مما فطنت له قريش بُكْرَةَ العقبة ، فخرجت فى فزع تسأل الأوس والخزرج عنه .

سياسة المسلمين بالمدينة

السرايا الأولى

ويؤيد هذا البعض قوله بما وقع بعد ثمانية أشهر من مقام الرسول والمهاجرين بالمدينة ، إذ بعث محمد عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطىء البحر من ناحية العِيص حيث لقى أبا جَهْل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، وبأن حمزة كان على أهبة مقاتلة قريش لولا أن حجز بينهم مَجْدِىُّ بن عمرو الجُهَنى ، وكان موادعا الفريقين جميعاً ، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال ؛ وإذ بعث

محمد عُبَيدَة بن الحارث فى ستين راكباً من المهاجرين دون الأنصار فساروا إلى ماء بالحجاز بوادى رَابِغ ، فلقيهم به جمع من قريش يزيد على مائتين على رأسهم أبو سُفْيان ، فانسحبوا من غير قتال ، إلا ماروى من أن سعد بن أبى وقّاص رمى يومئذ بسهم « فكان أول سهم رُمِى به فى الاسلام » ؛ وإذ بعث سعد بن أبى وَقّاص فى ثمانية من المهاجرين على رواية ، وفى عشرين منهم على رواية أخرى ، فخرجوا إلى أرض الحجاز ثم عادوا أن لم يصيبوا ما أُرسلوا فيه .

خروج النبى بنفسه

ويزيد هذا البعض دليله تأييداً بأن النبى خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهراً من مَقْدَمه إلى المدينة ، واستعمل عليها سعد بن عُبَادة ، وسار إلى غزوة الأَبْوَاء حتى بلغ وَدّان يريد قريشاً وبنى ضَمْرَة ؛ فلم يلق قريشاً وحالفته بنو ضمرة ؛ وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بُوَاط ، يريد قافلة يقودها أُميّة بن خَلَف عدتها ألفان وخمسمائة بعير ويحميها مائة محارب فلم يُدركها ، أن اتخذت طريقاً غير طريق القوافل المعبّد ؛ وأنه بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بُوَاط من ناحية رَضْوَى استعمل على المدينة أبا سلَمة بن عبد الأسد وخرج فى أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العُشَيْرَةَ من بطن يَنْبُع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته ، وكسب من رحلته هذه أن وادع بنى مُدْلِجَ وحلفاءهم من بَنِي ضَمْرَةَ ؛ وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال حتى أغار كُرْز بن جابر الفِهْرِىّ من المتصلين بمكة وبقريش على إبل المدينة وأغنامها ، فخرج النبى فى طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وتابع مسيره حتى بلغ واديا يقال له سَفَوَانَ من ناحية بَدْر وفاته كُرْز فلم يدركه . وهذه هى التى يطلق عليها كتاب السيرة اسم غزوة بدر الأولى .

رأى المؤرخين في الغزوات الأولى

أفلا يقوم هذا كله دليلا على أن المهاجرين فكروا وفكر محمد على رأسهم فى الانتقام من قريش لأنفسهم وفى مبادأتهم بالعداوة والحرب؟ وهو على أقل تقدير — فى رأى هؤلاء المؤرخين — يشهد بأنهم قصدوا من غزواتهم المبدئية هذه — والمؤرخون يسمون هذه الرحلات سَرَايَا وَغَزَوَات — الى غايتين ؛ الأولى : الوقوع على قوافل قريش فى ذهابها الى الشام أو عودتها منها حين رحلة الصيف ، واحتمال مايمكن احتماله من الأموال التى تذهب هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها . والثانية : أخذ الطريق على قريش فى رحلتها إلى الشام بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطىء البحر الأحمر ، بما يسهّل على المهاجرين مهاجمة هذه القوافل دون أن تلقى فى جوار هاته القبائل مايحميها من محمد وأصحابه ، حماية تمنع أخذ المسلمين رجالها ومالها أخذَ عزيز مقتدر . وهذه السرايا التى عقد النبى عليه السلام ألويتها لحمزة ولعبيدة بن الحارث ولسعد بن أبى وقّاص ، وهذه المحالفات التى عقدها مع بنى ضَمْرة وبنى مُدلِج وغيرهم ، تؤيد الغاية الثانية وتشهد بأن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ماقصد المسلمون اليه.

رأينا في الغرض من السرايا

فأما أنهم بهذه السرايا التى بدأت بعد ستة أشهر من مقامهم بالمدينة ، والتى اشترك فيها المهاجرون وحدهم ، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها ، فذلك مايقف الانسان منه موقف التردد والتفكير . فلم تكن سَرِيّة حمزة لتزيد على ثلاثين رجلا من المهاجرين ، ولم تزد سرِيّة عُبيدة على ستين ، وكانت سرِيّة سعد لا تتجاوز ثمانية نفر على قول ، وعشرين على قول آخر . وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد . وقد زادتهم قريش عدداً وعُدّة منذ أقام محمد بالمدينة وبدأ يحالف القبائل التى بها والقريبة منها . ومهما يكن من بأس حمزة وأبى عُبيدة وسعد ممن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين ، فان عِدّة من معهم لم تكن لتشجّعهم على الحرب ،

مما جعلهم يعودون من هذه السرايا كلها دون قتال الا ما قيل عن السهم الذى أطلقه سعد .

ثم إن قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من تصلهم بالكثيرين من المهاجرين أواصر القربى وصلات الدم ، فلم يكن يسيراً عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ، وأن يتعرض هؤلاء وأولئك لطلب الثأر ، وأن يعرضوا مكة والمدينة جميعاً لحرب أهلية استطاع المسلمون والوثنيون جميعاً اتقاءها بمكة ثلاث عشرة سنة متتابعة من يوم بعث محمد إلى يوم هجرته . والمسلمون كانوا يعلمون أن بيعة العقبة كانت بيعة دفاعية تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد ، ولم يعاهدوه ولا عاهدوا أحداً ممن معه على العدوان ؛ فليس من اليسير مع هذا كله التسليم مع المؤرخين ، الذين لم يبدءوا بكتابة تاريخ النبى إلا بعد قرنين من وفاته ، بأن هذه السرايا والرحلات الأولى كان يقصد بها إلى القتال بالفعل . فلا بد لنا إذاً من تأويل أقرب إلى العقل وأكثر اتفاقاً مع سياسة المسلمين فى هذه الفترة الأولى من مُقامهم بالمدينة ، وأدق تمشياً مع سياسة الرسول التى كانت قائمة يومئذ على قواعد التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل ، لكفالة حرية الدعوة الدينية من ناحية ، وكفالة حسن المعاملة والجوار من الناحية الأخرى .

تعرض تجارة قريش

والراجح عندى أن هذه السرايا الأولى إنما قُصِد بها إلى إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطُرّوا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد ، تفاهماً يقى الطرفين ثمرات العداوة والبغضاء ، ويكفل للمسلمين حرّية الدعوة إلى الدين ، ولأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام . وقد كانت هذه التجارة التى تبعث بها مكة والطائف جميعاً ، والتى كانت تجىء إلى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعير ، حمولتها تزيد على خمسين

ألف دينار ؛ وكانت صادرات مكة السنوية ، على ما قدّرها المستشرق سبرنجر ، توازى مائتين وخمسين ألفاً من الدنانير ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه ذهباً . فاذا أيقنت قريش تعرُّض هـذه التجارة للخطر آتياً من ناحية أبنائها الذين هاجروا إلى المدينـة ، دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهم تفاهماً طَمِع المسلمون فى أن يكفل لهم ما كانوا يطمعون فيه من حرّيَّةِ الدعوة الى دينهم ، ومن حرية الدخول الى مكة لأداء فرائض حجّهم . ولم يكن مثـل هذا التفاهم ممكناً ما لم تقدِّر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الايقاع بها ، وإيصاد طريق التجارة فى وجههـا . وهذا هو ما يفسّر عندى رجوع حمزة ومن معه من المهاجرين الذين لقوا أبا جهل بن هشام عند ساحل الجزيرة لأوّل ما حجز مَجْدِىّ بن عمرو الجُهَـنِىّ بينهما ، كما يفسر كثرة اتجاه المسلمين بسراياهم الى طريق تجارة مكة فى عدد لا يسهل معه تصوُّرهم مُقدِمين على الحرب . وهذا كذلك هو الذى يفسر حرص النبى ، بعـد ما بدا من صَلَف قريش وعدم اعتدادها بقوة المهاجرين ، على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة ، والتحالف معها تحالفاً نمى خبره الى قريش لعلها ترعوى وتعود الى التفكير فى التفاهم والاتفاق .

الأنصار والغـزو الهجوى

يدعم هذا الرأى بأقوى سند أن النبى عليه السلام لمـا خرج إلى بُواط وإلى العُشَيرة كان من بين الذين صحبوه عدد غير قليل من الأنصار أهل المدينة . والأنصار انمـا بايعوه ليدفعوا عنه لا ليهاجموا معه . وسنرى ذلك صريحاً حين غزوة بدر الكبرى ، إذ يتردد محمد دون القتال حتى يوافق أهل المدينة عليه . وإذا كان الأنصار لا يرون مخالفة لبيعتهم فى أن يعاهد محمد غيرهم من الناس ، فليس معنى هذا أن يخرجوا معه لحرب أهل مكة وليس بين الفريقين من أسباب الحرب ما تجيزه أخلاق العرب ، أو يجيزه نظام صلاتهم بعضهم ببعض . ومهما يكن فى هذه الموادعات التى يعقد محمد من تقوية المدينة ومن

إضعاف ما تطمع تجارة قريش فيه من أسباب الحماية ، فشتان ما بين ذلك و بين إعلان الحرب أو السعى اليها . فالقول إذاً بأن حمزة أو عبيدة بن الحارث أو سعد بن أبى وقاص إنما خرجوا لحرب قريش وتسمية سريّاتهم غزَوات مرجوح عندنا فلا نكاد نُسيغه . والقول كذلك بأن محمداً انما خرج إلى الأبواء وبُواط والعُشَيرة غازياً ، فيه تجوُّز كبير ترد عليه الاعتراضات التى قدّمنا . ولا يفسّر أخذ مؤرخى محمد به إلا أنهم لم يترجموا لمحمد الا فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وأنهم كانوا متأثرين بالمغازى التى حدثت بعد ذلك منذ بدر الكبرى ، فاعتبروا ما سبقها من مناوشات يُقصَد بها إلى غير الحرب سرايا ومغازى تضاف أيضاً الى حروب المسلمين أيام النبىّ .

والظاهر أن كثيرين من المستشرقين قد فطنوا لهذا الاعتراض وإن لم يشيروا بشىء فى كتبهم إليه . وإنما يدعونا الى الظن بفطنتهم له أنهم ، مع مجاراتهم مؤرخى المسلمين فى قصد المهاجرين ومحمد على رأسهم الى حرب أهل مكة منذ الساعة الأولى من مُقامهم بالمدينة ، قد أشاروا الى أن هذه السرايا الأولى إنما كان يُقصَد بها الى نهب تجارة القوافل ، وأن النهب كان بعض طباع أهل البادية ، وأن أهل المدينة انما أغرتهم الغنيمة والسلب باتباع محمد على خلاف عهدهم فى العقبة . وهذا كلام مردود . لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب ، وأنهم أكثر من أهل مكة كان فى طبعهم ما فى طبع من يعيشون على الزراعة مثلهم من حب الاستقرار ، مما يجعلهم لا يتحركون الى قتال إلا لدافع قوىّ . أمّا المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدى قريش ما أخذت من أموالهم ، وإن لم يستعجلوا ذلك قبل بدر ، ولا هو كان الدافع للسرايا والغزوات الأولى . ثم إن القتال لم يُشرَع فى الاسلام ولم يقم به محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التى يتوهم المستشرقون ، وإنما شُرِع وقام به محمد وأصحابه حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد ،

طبيعة أهل المدينة

وحتى يكون لهم من حرية الدعوة له ما يشاءون. وسنرى من بعدُ تفصيل هذا والدليل عليه . وعندئذ يزداد أمامنا وضوحاً أن محمداً انما كان يرمى من المعاهدات التى عقد الى تعزيز المدينة ، حتى لا يتطرّق إلى قريش فيها مطمع ، فلا يحاولوا إعنات المسلمين فيها كما حاولوا من قبلُ إعادتهم من بلاد الحبشة ؛ وأنه كان لا يأبى فى نفس الوقت أن يعاهد قريشاً على أن تترك حرية الدعوة لدين الله طليقة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

إرهاب اليهود

ولعل محمداً رمى من وراء هذه السرايا والرحلات المسلّحة الى غرض آخر . لعله رمى الى إرهاب اليهود المقيمين فى المدينة وعلى مقربة منها . فقد رأيت أن هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أوّل وصول محمد إلى المدينة فى ضمه اليهم ، وبعد أن وادعوه وعاهدوه على حرية الدعوة للدين ، وعلى إقامة المسلمين شعائره وفرائضه ، لم يلبثوا أن رأوا أمر محمد يستقر ولواء الاسلام يسمو ويرتفع حتى بدأوا يقلبون للنبيّ ظهر المجنّ ويعملون على الوقيعة به . ولئن قعدوا عن مصارحته العداوة خشية أن تتعرض مصالحهم التجارية للارتباك إذا نشبت بين أهل المدينة حرب أهلية ، أو محافظة على عهد موادعتهم ، فانهم لجئوا الى كل وسيلة للدسّ بين المسلمين ، ولاثارة البغضاء بين المهاجرين والأنصار ، ولا يقاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم بُعاث وباعادة ماقيل من الشعر فيه .

دسائس اليهود

وقد فطن المسلمون لدسّهم ولمبالغتهم فيه ، وبلغوا من ذلك حتى حشروهم فى زمرة المنافقين ، بل اعتبروهم شرّاً منهم ، فأخرجوهم من المسجد إخراجاً عنيفاً وأبوا عليهم أن يجلسوا اليهم أو أن يتحدّثوا معهم ، وانتهى النبيّ عليه السلام إلى الاعراض عنهم بعد إذ حاول إقناعهم بالحجة والدليل . وطبيعىٌّ أن لو تُرِك حبل يهود المدينة هؤلاء على غاربهم أن يستفحل أمرهم ، وأن يثيروا الفتنة التى يسعون لاثارتها . وليس يكفى فى عرف الدقة السياسية

التحذير منهم والتنبيه لبكيدهم ؛ بل لابد من إشعارهم أن للمسلمين من القوة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة تقوم ، ومن القضاء على أسبابها واجتثاث أصولها . وخير وسيلة لهذا الأشعار إرسال السرايا والقيام بالمناورات الحربية فى مختلف الأنحاء ، على ألا تتعرض قوّات المسلمين إلى هزيمة تُطمع اليهودَ كما تُطمع قريشاً فيهم . وهذه المناورة هى ما وقع ، ووقع من رجال كحمزة سريعين إلى الغضب لا تكفى لصدّهم عن القتال وساطة موادع يدعو إلى السلم ، مالم تكن المناوشة الحربية ثم الامساك عن القتال فى عزّة وكرامة ، سياسة مرسومة ، وخُطّة مبيّتة يُقصد بها إلى درك غايات معينة ، هى ما ذكرنا من تخويف اليهود من ناحية والاتفاق مع قريش من الناحية الأخرى ، على ترك الدعوة للدين وإقامة شعائره حرة مطلقة من غير حاجة إلى حرب أو قتال .

الاسلام والقتال

وليس معنى هذا أن الاسلام كان يومئذ يُنكر القتال دفاعاً عن النفس ودفاعا عن العقيدة ، ودفعاً لمن يريد فتنة صاحبها عنها . كلا ! بل إن الاسلام ليفرض هذا الدفاع . وإنما معناه أن الاسلام كان يومئذ ، كما هو اليوم وكما كان دائماً ، ينكر حرب الاعتداء . « وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِين » . وإذا كان لدى المهاجرين يومئذ ما يبيح لهم اقتضاء ماحجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم ، فان دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله ، وكان الغاية الأولى التى شُرع من أجلها القتال .

سرية عبد الله ابن جحش

والحجة على ذلك مانزل من الآيات فى سريّة عبد الله بن جَحْش الأسَدِىّ ؛ فقد بعثه رسول الله فى رجب من تلك السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع اليه كتابا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً . وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين فاذا فيه : « إذا نظرتَ فى كتابى هذا فامضِ حتى تنزل نخلَةَ بين مكة والطّائف فتَرَصَّدْ بها قريشاً وتَعَلَّمْ لنا من أخبارهم » . وعلم

أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحداً منهم، فمضوا معه جميعاً خلا سعد بن أبي وقّاص الزُّهريّ وعُتبة بن غَزْوان اللذين ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل فأسرتهما قريش. وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا نخلة. هنالك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمر بن الحَضْرَمِيّ، وكان يومئذ آخر رجب. وذكر عبدالله بن جَحْش ومن معه من المهاجرين ماصنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا وقال بعضهم لبعض: «والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنّ الحرم فليمتنِعُنّ منكم به. ولئن قتلتموهم لتقتُلُنّهُمْ فى الشهر الحرام». وترددوا وهابوا الاقدام، ثم شجّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. ورمى أحدهم عمر بن الحضرمى بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش.

وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول. وحجز القوم لمحمد من مَغْنَمهم الخمس. فلما رآهم قال لهم: ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام. ووقف العيرَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. وأُسقِط فى يد عبد الله بن جحش وأصحابه وعنّفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا. وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية ونادت فى كل مكان: إن محمداً وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال. وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم فى الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابو ماأصابوا فى شعبان. ودخلت يهود تريد إشعال نار الفتنة. إذ ذاك نزل قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ، وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ. وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ. وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا». وسُرّى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر

الفتنة أكبر من القتل

وقبض النبي العير والأسرين فافتدتهما منه قريش ؛ فقال : « لا نفديكمُوهُما حتى يَقْدَم صاحبانا — يعنى سعد بن أبى وقّاص وعتبة بن غزوان — فانا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . وقدم سعد وعُتبة وأفداهما النبي من الأسيرين . فأما أحدهما الحَكم بن كَيْسَان فأسلم وأقام بالمدينة . وأمّا الآخر فرجع إلى مكة وظل بها حتى مات على دينه ودين آبائه .

جديرٌ بنا أن نقف عند سرية عبد الله بن جحش هذه والآيات الكريمة التى نزلت فيها . فهى فى رأينا مفترق طرق فى سياسة الاسلام ، وحادث جديد فى نوعه يدل على روح قوىّ فى سموّه ، إنسانى فى قوّته ، ينتظم نواحى الحياة المادية والمعنوية والروحية كأشد ما يكون النظام قوة ورفعة وتوجهاً إلى الكمال . فالقرآن يجيب المشركين على تساؤلهم عن القتال فى الشهر الحرام وإن كان من الكبائر ، ويُقرّهم على أنه كذلك أمر كبير . لكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر . فالصدّ عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال فى الشهر الحرام . والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام والقتل فيه . وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والاغراء والتعذيب أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام . وقريش والمشركون الذين يَنْعَوْن على المسلمين ما قَتَلوا فى الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردّوهم عن دينهم إن استطاعوا . فاذا كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعاً ، فيصدُّون عن سبيل الله ويكفرون به ويخرجون أهل المسجد الحرام منه ويفتنونهم عن دينهم ، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم فى الشهر الحرام ، وإنما الكبيرة أن يقاتل فى الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزراً .

القرآن والقتال

الفتنة أكبر من القتل . وحقٌ بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصدّ عن سبيل الله أن يقاتل فى سبيل الله حتى لا يُفتَن وحتى ينصر

دين الله . هنا يرفع المستشرقون والمبشرون عقائرهم صائحين : أرأيتم ! هذا محمد يدعو دينهُ إلى الحرب وإلى الجهاد فى سبيل الله ، أى إلى إكراه الناس بالسيف على اعتناق الاسلام . أليس هذا هو التعصب بعينه ؟ وهذا فى حين تنكر المسيحية القتال وتمقت الحرب وتدعو إلى السلام وتنادى بالتسامح وتربط بين الناس برابطة الاخاء فى الله وفى السيد المسيح . ولست أريد ، لكى أناقش هؤلاء ، أن أذكر كلمة الانجيل : « ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفاً . . الخ » ولا ما تنطوى عليه هذه الكلمة من المعانى ، فالمسلمون يُقرُّون دين عيسى كما نزل به القرآن . وإنما أريد بادىء الرأى أن أرد قولهم : إن محمداً دعا دينهُ إلى القتال لاكراه الناس بالسيف على اعتناق الاسلام . فهذه فرية ينكرها القرآن فى قوله تعالى : « لا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ » . وفى قوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . وفى كثير غير هاتين الآيتين الكريمتين .

الجهاد فى سبيل الله

والجهاد فى سبيل الله معناه الصريح ، على نحو ما ورد فى الآيات التى ذكرناها والتى نزلت فى سرية عبد الله بن جحش ، قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدّون عن سبيل الله . وهذا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه ، وبعبارة تتمشى مع أسلوب عصرنا الحاضر : الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يُقَاتَل بها أصحاب الرأى . فاذا أراد أحد أن يفتن رجلا عن رأيه بالدعاوة وبالمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوة وبغير القوة من وسائل الرشوة والتعذيب ، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بدحض حجته وتفنيد منطقه . لكنه اذا حاول بالقوة المسلّحة أن يصدّ صاحب رأى عن رأيه وجب دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الانسان إليها سبيلا . ذلك بأن كرامة الانسان تتلخص فى كلمة واحدة : عقيدته . العقيدة أثمن ، عند من يقدر معنى الانسانية ، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن

الانسان وعقيدته

الحياة بنفسها ، من هذه الحياة المادية التى يشترك الإنسان والحيوان فيها ، يأكلون ويشربون وتنمو أجسامهم وتقوى عضلاتهم . والعقيدة هى هذه الصلة المعنوية بين الانسان والانسان ، والصلة الروحية بين المرء وربه ؛ هى هذا الحظ الذى يمتاز به الانسان على سائر الحيوان مما فى الحياة ، والذى يجعله يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثر البائس والفقير والمسكين على أهله ولو كان به وبهم خصاصة ، ويتصل بالكون كله ليعمل دائباً كى يبلغ الكون ما قدّر الله له من كمال .

إذا ملكت هذه العقيدة إنساناً من الناس فحاول غيره فتنته عنها ، ولم يستطع دفاعاً عن نفسه ، فعل ما فعل المسلمون قبل هجرتهم الى المدينة ، فاحتمل المساءة والأذى وصبر على الهوان والضيم ولم يصدّه جوع ولا حرمان أيًّا كان نوعه عن التمسك بعقيدته . وهذا الذى فعل المسلمون الأوّلون هو الذى فعل المسيحيون الأوّلون . لكن الصابرين لعقيدتهم ليسوا هم سواد الناس ولا جماعتهم ، وإنما هم الصفوة والمختارون ومن وهبهم الله من قوة الايمان ما يصغر معه كل أذى وكل ضيم ، وما يدكّ الرواسى ، وما تقول معه للجبل انتقل من مكانك ينتقل ، على حد تعبير الانجيل . لكنك اذا استطعت أن تدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة وأن تقف فى وجه من يصد عن سبيل الله بوسائله ، وجب عليك أن تفعل ، وإلاّ كنت مزعزع العقيدة ضعيف الايمان . وهذا مافعل محمد وأصحابه بعد أن استقر لهم الأمر بالمدينة ؛ وهذا مافعل المسيحيون بعد أن استقر لهم السلطان فى رومية وبعد أن لان قلب بعض عواهل رومية لدين المسيح .

المسيحية والقتال

يقول المبشرون : لكن روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه . ولست أقف لأبحث صحة هذا القول . لكن تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل ، وتاريخ الاسلام أمامنا شاهد عدل . فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خُضبت

أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح . خضبتها رومية وخضبتها أمم أوربا كلها . والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون ولم يُـذْك المسلمون لهيبها ؛ وظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الاسلامية ، تقاتل وتحارب وتُهرق الدماء . وفى كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدّسة . أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة وكانت مسيحيتهم زائفة ؟ أم كانوا أدعياء جهّالا لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ؟ أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها ؟ ! إن يكن ذلك بعض ما قد يقولون ، فان هذا القرن العشرين الذى نعيش فيه والذى يسمونه عصر الحضارة الانسانية العليا ، قد رأى مارأت تلك العصور الوسطى المظلمة : فقد وقف لورد أللنْبى ممثل الحلفاء ، انكلترا وفرنسا وايطاليا ورومانيا وأمريكا ، يقول فى بيت المقدس فى سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

القديسون فى الاسلام والمسيحية

وإذا كان من بين المسيحيين قدّيسون أنكروا القتال فى مختلف العصور وسمَوْا بذواتهم الى الذروة من معنى الاخاء الانسانى ، بل من معنى الاخاء بين عناصر الكون كله ، فمن بين المسلمين كذلك قدّيسون سمتْ نفوسهم هذا السموّ واتصلوا بكل الوجود اتصال إخاء ومحبة وإشراق ملأ منهم النفوس بوحدة الوجود . لكن هؤلاء القدّيسين ، من النصارى والمسلمين ، وإن صوّروا المثل الأعلى ، فانهم لا يمثلون حياة الانسانية اثناء تطوُّرها الدائم وفى دأب جهادها إلى الكمال ؛ إلى هذا الكمال الذى نحاول تصوّره ثم يقعد بنا العلم ويقعد بنا الفن ويقعد بنا الخيال دون شىء من الدقة فى إدراكه ، وإن نحن جازفنا بتصويره تمهيداً لما نحاول من جهود فى سبيله . وهذه أربع وخمسون وثلاثمائة وألف

سنة قد انقضت منذ هجرة النبي العربي من مكة إلى يثرب والناس فى مختلف العصور يزدادون فى القتال افتناناً وفى صنع آلاته الجهنمية المدمرة دقة وإتقاناً . وما تزال كلمات نبذ الحرب وإلغاء التسلح والتحكيم لا تزيد على أنها كلمات تقال فى أعقاب كل حرب تنهك الأمم ، أو على أنها دعاوات تُلقَى فى جو الحياة من أناس لم يستطيعوا حتى اليوم — ومن يدرى فلعلهم لا يستطيعون يوماً — أن يحققوا منها شيئاً ، وأن يحلّوا السلام الصحيح سلام الاخاء والعدل محل السلام المسلّح نذير الحرب وطليعة ويلاتها .

الاسلام دين الفطرة

والاسلام ليس دين وهم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده الى الكمال . إنما الاسلام دين الفطرة التى فُطِر الناس جميعاً عليها أفراداً وجماعات ؛ وهو دين الحق والحرية والنظام . ومادامت الحرب فى فطرة الناس، فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود الانسانية هى غاية ما تحتمل فطرة البشر وما يحقق للانسانية اتصال تطورها فى سبيل الخير والكمال . وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة اليه ، وأن ترعى فيها الحرمات الانسانية تمام الرعاية . وهذا ما قرّر الاسلام على ما رأينا وما سنرى من بعدُ . وهذا ما نزل به القرآن ، وضعناه وسنضعه تحت نظر القارىء فى الظروف والمناسبات التى نزل فيها .

الفصل الثالث عشر

غزوة بدر الكبرى

خروج أبى سُفيان إلى الشام — محاولة المسلمين قطع الطريق عليه . نجاته فى الذهاب — انتظارهم إيّاه فى أوبته — علم قريش بتجهيز المسلمين — خروجهم إلى بدر — نجاة أبى سفيان بتجارته — تردد قريش والمسلمين فى القتال — زوال التردد — موقف الفريقين فى بدر — حماسة المسلمين وانتصارهم

كانت سريّة عبدالله بن جحش مفترق طرق فى سياسة الاسلام ، أن رمى فيها واقِد بن عبد الله التّميمى عمر بن الحضرمىّ بسهم فقتله ، فكان أوّل دم أراق المسلمون ؛ وأن نزلت فيها الآيات التى قدّمنا ؛ وأن شُرِع على إثرها قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدونهم عن سبيل الله . وكانت هذه السريّة مفترق طرق كذلك فى سياسة المسلمين إزاء قريش ، أن جعلت الفريقين يتناظران بأساً وقوة ، وأن جعلت المسلمين يفكرون تفكيراً جدّيًّا فى استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم . ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه أن قتلوا فى الشهر الحرام ، حتى لقد أيقن محمد أن لم يبق فى مصانعتهم أو فى الاتفاق معهم رجاء . وقد خرج أبو سُفيان فى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام ، وهى التجارة التى أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبى عليه السلام إلى العُشَيرة . لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبى سُفيان قد مرّت بها ليومين قبل وصولهم إليها .

تجارة أبى سفيان

إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها فى عودتها . ولما تحين محمد انصرافها من الشام بعث طَلْحة بن عُبَيْدِ الله وسعيد بن زَيْد ينتظران خبرها ، فسارا حتى نزلا على كَشْد الجُهَنِىّ بالحَوْراء وأقاما عنده فى خباء حتى مرّت العِير فأسرعا إلى محمد لِيُفضيا إليه بأمرها وما رأيا منها .

على أن محمداً لم ينتظر رسوليه إلى الحوراء وما يأتيان به من خبر العير. فقد ترامى اليه أنها عير عظيمة ، وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها ، لم يبق منهم رجل ولا بقيت امرأة استطاعت أن تساهم بحظ إلا فعلت وفعل ، حتى قُوِّم مافيها بخمسين ألفاً من الدنانير . ولقد خشى إن هو انتظرهما أن تفوته العير فى عودتها إلى مكة كما فاتته فى ذهابها إلى الشام . لذلك ندَب المسلمين وقال لهم : هذه عِير قريش فاخرجوا اليها لعل الله يَنْفُلُكُمُوهَا . وخفّ بعض الناس وثقل بعض ، وأراد جماعة لم يُسلموا أن ينضموا طمعاً فى الغنيمة ، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

خروج المسلمين إلى بدر

أما أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام ، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن ربحت تجارته ، وجعل ينتظر أخبارهم . وكان الجُهَنِىّ الذى نزل عليه رسولا محمد بالحوراء بعضَ من سأل . ومع أن الجُهَنِىّ لم يصدُقه الخبر فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأنصار معه مثلُ ماترامى إلى محمد من خبره ، فخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش فى حراسة العِير الا ثلاثون أو أربعون رجلا . عند ذلك استأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفَارِىّ فبعثه مسرعا إلى مكة ليستنفر قريشاً الى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه . ووصل ضَمْضَم من مكة إلى بطن الوادى فقطع أذنى بعيره وجدع أنفه وحوّل رحله ووقف هو عليه وقد شقّ قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح : يا معشر قريش ! اللَّطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى

رسول أبى سفيان إلى قريش

أن تدركوها . الغَوْث الغَوْث ! (واللطيمة المال والتجارة) . وما لبث أبو جهل أن سمعه حتى صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم . وكان أبو جهل ، على ما بلغ السبعين ، رجلا خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر . ولم تكن قريش بحاجة إلى من يستنفرها ، أن كان لكل منها فى هذه العير نصيب .

ثأر قريش وكنانة

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها حتى اضطرتهم الى الهجرة الى الحبشة ، ثم الهجرة الى المدينة ، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألاّ يضيب العير مكروه . وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشاً وكنانة بينهما ثأر فى دماء تبادل الفريقان إراقتها . فاذا هى خفّت الى لقاء محمد لمنع عيرها منه خافت بنى بكر أن تهاجمها من خلفها . وكادت هذه الحجة ترجح وتؤيد رأى القائلين بالقعود لولا أن جاء مالك بن جُعْشُم المدلجيّ وكان من أشراف بنى كنانة فقال : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه . إذ ذاك رجحت كفة أبى جهل وعامر الحَضْرَمى والدعاة الى الخروج لدفع محمد والذين معه ؛ ولم يبق لكل قادر على القتال عذر فى التخلف أو يرسل مكانه رجلا . ولم يتخلف من أشراف قريش الا أبا لهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة أن كان مديناً له فى أربعة آلاف درهم وأفلس بها . وكان أُمَيَّة بن خَلَف قد أجمع على القعود ، وكان شيخاً جليلا جسيما ثقيلا ، فأتاه بالمسجد عُقْبَه بن أبى مُعَيْط وأبو جهل ومع عقبة مِجْمَرة فيها بخور ومع أبى جهل مكحلة ومِرْوَد ، فوضع عقبة المجمرة بين يديه وقال : يا أبا علىّ استجمر فانما أنت من النساء ، وقال أبو جهل : اكتحل أبا على فانما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى ؛ وخرج معهم ، فلم يبق بمكة متخلّف قادر على القتال .

أمّا النبى عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة لثمان ليال خلون

مسيرة جيش المسلمين

من شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، وجعل عمرو بن أم مكتوم فيها على الصلاة بالناس وردّ أبا لُبَابة من الرَّوْحاء واستعمله على المدينة . وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها ، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يَعْتَقِبُون بعيراً . وكان حظ محمد فى هذا كحظ سائر أصحابه : فكان هو وعلىّ بن أبى طالب ومَرْثَد بن مرثد الغَنَوِىّ يعتقبون بعيراً . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً . وكانت عِدّةُ من خرج مع محمد الى هذه الغزوة خمسة وثلاثمائة رجل ، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج . وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم ، وهم يحاولون حيثما مروا أن يقفوا على أخباره . فلما كانوا بعِرْق الظَّبية لقَوا رجلا من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً . وانطلقوا حتى أتوا واديا يقال له ذَفِرَان نزلوا فيه ، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم . هنالك تغيّر وجه الأمر . لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبى سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلا معه ، لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه ؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها . فهب المسلمين أدركوا أبا سفيان وتغلّبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبله وما عليها ، فلن تلبث قريش أن تدركهم يحفزها حرصها على مالها والدفاع عنه وتؤازرها كثرة عديدها وعُدَدها ، وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها .

خروج قريش من مكة

ولكن اذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه ، واضطر الى موقف المصانعة واضطر أصحابه الى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة . وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الحق وأن ينصر الله دينه .

استشار الناسَ وأخبرهم عما بلغه من أمر قريش ؛ فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المِقْداد بن عمر فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : إذهَبْ أنت وربك فقَاتلاَ إنّا هاهنا قاعدون ، ولـكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

كلمة الانصار

وسكت الناس ، فقال الرسول : أشيروا عليّ أيها الناس . وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على اعتـداء خارج مدينتهم . فلمـا أحس الأنصار بانه يريدهم ، وكان سعد بن مُعَـاذ صاحب رايتهم ، التفت الى محمد وقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل . قال سعد : لقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطينـاك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هـذا البحر لخضته لخضناه معك وما تخلّف منا رجل واحد . وما نـكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً . إنّا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينـك . فسر بنا على بركة الله . ولم يكد سـعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسّرة وبدا عليـه كل النشاط وقال : سيروا وأبشروا فان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وارتحلوا جميعاً ، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه ، ومنه عرف أن عير قريش منه قريب .

تطس الأخبـار

إذ ذاك عاد إلى قومه فبعث عليّ بن أبى طالب والزُّبَيْر بن العَوّام وسعد ابن أبى وَقّاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه . وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منهما أن قريشاً وراء الـكَثِيب الذى بالعُدْوَةِ القُصْوَى . ولما أن أجابا : إنهما لا يعرفان عِدّة قريش ، سألهما محمد :

كم ينحرون كل يوم ؟ وأجابا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فاستنبط النبي من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف ، وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعه ؛ فقال لقومه : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذَ كَبِدِها » . إذاً فلا بدّ له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثة أضعاف أن يشحذوا عزائمهم وأن يوطّنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم ، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الايمان بالنصر قلبه .

وكما عاد علىّ ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معهما ، نقد ذهب اثنان من المسلمين حتى نزلا بَدْراً فأناخا إلى تلّ قريب من الماء وأخذا وعاء لها يستقيان فيه . وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك . وعاد الرجلان فأخبرا محمداً بما سمعا . فأمّا أبو سفيان فسبق العيرَ يَتَنَطَّسُ الاخبار حذر أن يكون محمد قد سبقه إلى الطريق . فلما ورد الماء وجد عليه مَجْدِيّ بن عمرو فسأله : هل قد رأى أحداً ؟ وأجاب مجدى بأنه لم يرَ إلا راكبين أناخا إلى هذا التل ، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين . فأتى أبو سفيان مناخهما فوجد فى روث بعيريهما نوًى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مساحلاً البحر مسرعا فى مسيره ، حتى بعد ما بينه وبين محمد ، ونجا .

انفلات أبى سفيان ونجاته

وأصبح الغد والمسلمون فى انتظار مروره بهم ، فاذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مقاتلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم ، فيذوى فى نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل فى الغنيمة ،ويجادل بعضهم النبى كى يعودوا إلى المدينة ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم . وفى ذلك نزل قوله تعالى فى سورة الأنفال . « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ

يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » .

وقريش ، هى أيضاً ، ما حاجتها إلى القتال وقد نجت تجارتهم ؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا ، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخُفّى حُنَين ؟ كذلك فكر أبو سفيان ، وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم : إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجّاها الله فارجعوا . ورأى من قريش رأيه عدد غير قليل . لكن أبا جهل ما لبث أن سمع هذا الكلام حتى صاح : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بَدْراً فنقيم عليه ثلاثا ننحر الجُزُرَ ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القِيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها . ذلك أن بدراً كانت موسما من مواسم العرب ، فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسّره العرب، فيما رأى أبو جهل ، بخوفهم من محمد وأصحابه ، مما يزيد محمداً شوكة ويزيد دعوته انتشاراً وقوّة ، وبخاصة بعد الذى كان من سريّة عبد الله ابن جحش وقتل الحَضْرَمىّ وأخذ الأسرى والغنائم من قريش .

ايكون قتال؟

وتردد القوم بين اتّباع أبى جهل مخافة أن يتهموا بالجبن ، وبين الرجوع بعد أن نجت عيرهم ، فلم يرجع إلا بنو زُهْرَة الذين اتبعوا مشورة الأخْنَس بن شَرِيق وكان فيهم مطاعا . واتبعت سائر قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلا يتهيّئون فيه للحرب ثم يتشاورون بعدها . ونزلوا بالعُدْوَة القُصْوَى خلف كثيب من الرمل يحتمون به . أما المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يصمدوا للعدوّ إذا أجمع محاربتهم . لذلك بادروا إلى ماء بدر، ويسّر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتهم اليها . فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل محمد به . وكان الحُبَاب بن المنذر ابن الجَمُوح عليما بالمكان . فلما رأى حيث نزل النبىّ قال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال :

نزول المسلمين بدراً

يارسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ؛ فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نُغَوِّر ماوراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا . ولم يلبث محمد أن رأى صواب ما أشار الحُبَاب به حتى قام ومن معه واتبع رأى صاحبه ، معلنا إلى قومه أنه بشرٌ مثلهم وأن الرأى شورى بينهم ، وأنه لا يقطع برأى دونهم ، وأنه بحاجة الى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم .

بناء العريش للنبي

ولما بنوا الحوض أشار سعد بن مُعاذ قائلا : « يانبي الله ، نبني لك عريشاً تكون فيه ونُعِدّ عندك ركائبك ثم نلقَ عدوّنا ؛ فان أعزنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام يانبي الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم . ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » . وأثنى محمد على سعد ودعا له بخير ، وبُنِيَ العريش للنبي حتى إذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه لم يقع فى يد عدوّه واستطاع اللحاق بأصحابه بيثرب .

صدق إيمان المسلمين

هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق إيمان المسلمين وعظيم محبتهم لمحمد وإيمانهم برسالته . فهاهم أولاء يعلمون أن قريشاً تفوقهم فى العدد وأنها ثلاثة أمثالهم ، وهم مع ذلك قد اعتزموا الوقوف فى وجهها وقتالها . وهاهم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الطمع المادىّ هو الذى يحفِزهم للقتال ، وهم مع ذلك يقفون إلى جانب النبى يؤيدونه ويعزّزونه . وهاهم أولاء تتردد نفوسهم بين الطمع فى النصر وخوف الهزيمة ، وهم مع ذلك يفكرون فى حماية النبى وتوقيته أن يظفر به عدوّه ويمهّدون له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة . فأى موقف أدعى للاعجاب من هذا الموقف ، وأى إيمان يكفل النصر كهذا الايمان !

ونزلت قريش منازل القتال ، ثم بعثوا من يقص لهم خبر المسلمين ، فجاءهم

بأنهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلا أو ينقصونه ، ولا كمين لهم ولا مورد ؛ ولكنهم مع ذلك قوم ليس لهم مَنَعَة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله . ولما كانت صَفْوَة قريش قد خرجوا فى هذا الجيش خشى بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانتها . لكنهم مع ذلك خافوا حدّة أبى جهل ورميه إياهم بالجبن والخوف . على أن ذلك لم يمنع عُتْبَة بن ربيعة من أن يقف بينهم قائلا : « يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلّوا بين محمد وسائر العرب . فان أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم تتعرض منه لما تكرهون » . فلما بلغت أبا جَهْل مقالة عُتْبة استشاط غيظاً وبعث إلى عامر بن الحضرمىّ يقول له : « هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشدُ مقتل أخيك » . وقام عامر فصرخ : وَاعُمَرَاه . ولم يبق بعد ذلك من الحرب مفرٌّ . وأعجل القتال أن اندفع الاسوَد بن عبد الاَسَد المَخْزومىّ من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوْض الذى بنوا ، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دما ، ثم أتبعه حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض . ولا شىء أرهف لظُبَا السيوف من منظر الدم . ولا شىء أشد إثارةً فى الانسان لعواطف القتال والحرب كمرأى رجل مات بيد العدوّ وقومه إياه وقوف ينظرون .

حمزة يقتل ابن عبدالأسد

وما إن سقط الأسود حتى خرج عُتْبَة بن رَبيعة بين أخيه شَيْبَة وابنه الوَليد بن عُتْبة ودعا الى المبارزة . وخرج إليه فتية من أبناء المدينة . فلما عرفهم قال لهم : ما لنا بكم من حاجة ، إنما نريد قومنا . ونادى مناديهم : يا محمد ، أخرِج إلينا أكفاءنا من قومنا . وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن

أبي طالب وعُبَيْدَةُ بن الحارث . ولم يُمهلْ حمزة شَيْبَةَ ولا أمهَل عليٌّ الوليد أن قتلاهما ، ثم أعانا عبيدة وقد ثبت له عُتْبَة . فلما رأت قريش من ذلك ما رأت تزاحف الناس والتقَى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر يوماً خلت من شهر رمضان ، ومحمد على رأس المسلمين يعدل صفوفهم . فلما رأى كثرة قريش وقلّة رجاله وضعف عُدّتهم إلى جانب عُدّة المشركين عاد إلى العريش ومعه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير ذلك اليوم ، وأشد ما يكون إشفاقاً مما يصير إليه أمر الاسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر، واستقبل محمد القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشُدُه ما وعده ويهتف به أن يتم له النصر . وبالغ في التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخُيَلائها تحاول أن تكذّب رسولك ، اللهم فنصرَك الذي وعدتني ؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعْبَد » . وما زال يهتف بربّه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ؛ وجعل أبو بكر من ورائه يردّ على منكبيه رداءه ويُهيب به : يا نبي الله ، بعضَ مناشدتك ربك فان الله منجزٌ لك ما وعدك . لكن محمداً ظل فيما هو فيه أشد ما يكون توجُّهاً لله وأشد ما يكون تضرُّعاً وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذي لم يتوقّع المسلمون ولم يتخذوا له عدته ، حتى خفق خفقةً من نعاس رأى خلالها نصر الله ، وانتبه بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرّضهم ويقول لهم : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

التقاء الجمعين

دعاء محمد وابتهاله

وسرت من نفسه القوّية ، أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته ، قوّة ضاعفت عزمهم ، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال . ويسيرٌ عليك أن تقدّر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها . فدافع الوطنية يزيدها . وهذا الجنديّ الذي يقف مدافعاً

القوة المعنوية

عن وطنه المهدّد بالخطر ويحس بحب الوطن إحساساً صادقاً ، تتضاعف قوّته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به ، وبمقدار تخوّفه من الخطر الذى يتهدد العدوُّ الوطن به . ولهذا تغرس الأمم فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حب الوطن والاستهانة بالتضحية فى سبيله . والايمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعانى الانسانية السامية يزيد القوة المعنوية فى النفس بما يضاعف القوة المادية فيها . والذين يذكرون ما قام به الحلفاء فى الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرّية والحق ، ويحاربون فى ألمانيا الجندية المسلّحة ويمهدون لعهد سلام ونور ، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة فى نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر أمم العالم . وما الوطنية وما قضيّة السلام إلى جانب ما كان محمد يدعو إليه ! إلى اتصال الانسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح معه قوّة من قوى الكون الموجهة له سبيل الخير والنعمة والكمال . نعم ! ما الوطنية وما قضيّة السلام إلى جانب الوقوف فى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدّون عن سبيله ، والذين ينزلون بالانسان إلى درك الوثنية والاشراك ! إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة ، ويزيدها حب السلام للانسانية قوة بمقدار ما فى الانسانية كلها من قوة ، فما أكثرَ ما يزيدها الايمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة !! إنه ليجعلها قديرة على أن تُسَيِّر الجبال وتحرّك العوالم وتهيمن بسلطانها المعنوىّ على كل من كان أقل منها فى هذا الأمر إيماناً . وهذا السلطان المعنوى يزيد فى قوتها المادية أضعافاً مضاعفة . فاذا لم يصل هذا السلطان المعنوى إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة ، لم تبلغ القوة المادية كل ما تطمح الى بلوغه ؛ وإن هى زادت بفعل هذا الايمان الذى ازداد قوة بتحريض محمد أصحابه فعوّضهم بذلك عن قلة عددهم

تحريض محمد المؤمنين

وعدتهم . وفى حال النبى وأصحابه هذه نزلت الآية : « يأيها النَّبىُّ حرِّض المؤمنين على القتال إنْ يَكنْ منكم عِشرُونَ صابرونَ يَغلبُوا مائتَين وَإنْ يكن منكم مائةٌ يغلبُوا ألفاً منَ الّذِينَ كفرُوا بِأنّهم قوْمٌ لا يَفقهُونَ . الآنَ خفّفَ اللهُ عنكم وَعلِمَ أنّ فيكم ضعفاً ، فإنْ يَكنْ منكم مائة صابرةٌ يَغلبُوا مائتَين وَإنْ يَكن منكم ألفٌ يَغلبُوا ألفَين بإذنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصّابرين » .

ازداد المسلمون قوة بتحريض محمد إيّاهم ووقوفه بينهم ودفعهم لمقاتلة العدوّ والصيحة بهم إنّ الجنة لمن أحسن البلاء منهم ومن غمس يده فى العدوّ حاسراً . ووجه المسلمون أكبر همّهم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم ، جزاءً وِفاقاً لما عذّبوهم بمكة ، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله . رأى بلالٌ أميّة بن خلف وابنه ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله ، وكان أمية هو الذى عذّب بلالا إذ كان يخرجه إلى رَمْضاء مكة فيُضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتنه عن الاسلام فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ . رأى بلال أمية فصاح به : أُمَيّة رأس الكفر، لا نجوتُ إن نجا ! . وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيراً ، فصرخ بلال بأعلى صوته فى الناس : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوتُ إن نجا . واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قتل أمية . وقتل معاذ بن عمرو بن الجَمُوح أبا جهل بن هشام . وخاض حمزة وعلىٌّ وأبطال المسلمين وطيس المعركة وقد نسى كل منهم نفسه ونسى قلة أصحابه وكثرة عدوّه ، فثار النقع وامتلأ الجو بالغبار وجعلت هام قريش تطير من أجسادها ، والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوة ويصيحون مهللين : أحدٌ أحدٌ ، وقد انهارت أمامهم حجب الزمان والمكان وأمدهم الله بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم تثبيتاً وإيمانا ، حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع

بلال يقتل أمية بن خلف

محمد وسط المعمعة

سيفه ويهوى به على عنق عدوه إنما تحرك قوة الله يده . ووقف محمد وسط هذه المعمعة، يتمشى خلالها ملك الموت يَقُطُّ رقبة الكفر ، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال : شاهت الوجوه ! ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شدّوا ، وشدّ المسلمون وما يزالون أقل من قريش عدداً . لكن كل واحد منهم امتلأت بنفحة من أمر الله نفسه ، فلم يكن هو الذى يقتل العدوّ ولا كان هو الذى يأسر من يأسر لولا هذه النفحة التى ضاعفت قوته المعنوية بما ضاعف قوته المادية . وفى ذلك نزل قوله تعالى « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ؛ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » . وقوله تعالى : « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى » . ولما آنس الرسول أن الله أنجزه وعده وأتم على المسلمين النصر عاد الى العريش . وفرت قريش فطاردهم المسلمون يأسرون منهم من لم يُقتل ولم يساعفه حسن فراره بالنجاة .

هذه غزوة بدر التى استقرّ بها الأمر للمسلمين من بعدُ فى بلاد العرب جميعاً ، والتى كانت مقدمة وَحدة شبه الجزيرة فى ظلال الاسلام ، ومقدمة الامبراطورية الاسلامية المترامية الأطراف ، والتى أقرت فى العالم حضارة ما تزال ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته . ولقد تعجب إذ تعلم أن محمداً ، على ما كان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدوّ الله وعدوه ، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بنى هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش ، مع أنهم اشتركوا فى قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله . ولا تحسب أنه فى ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحداً ممن يَمُتّون له بصلة القربى ، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا ، وإنما ذكر لبنى هاشم منعهم إياه مدى ثلاثة عشر

المسلمون لا يقتلون من أحسنوا إلى المسلمين

عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة .
وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التى اضطرته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة . فهذا المعروف الذى تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنة يُجزَى من قدمها بمثلها بل يُجزَى بعشر أمثالها ، ولذلك كان شفيعاً لهؤلاء وأولئك عند المسلمين ساعة القتال ، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البَخْتَرى أحد الذين قاموا فى نقض الصحيفة ، فقد أبى وقتُل .

وَلَّى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم خُشَّعاً من الذل أبصارهم ، ما يكاد أحدهم يلتقى نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلا من سوء ماحل بهم جميعاً . أما المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار ، ثم جمعوا الذين قتلوا من قريش

أهل القليب

فحفروا لهم قليباً فدفنوهم فيه . وقضى محمد وأصحابه تلك الليلة فى الميدان فى شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى . وإذ جَنَّ الليل جعل محمد يفكر فى نصر الله المسلمين على قلة عددهم ، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوة الايمان عضدٌ تعتز به كثرتهم . جعل يفكر فى هذا حتى سمعه أصحابه جوف الليل وهو يقول : « يأهل القَليب . يا عُتْبة بن ربيعة ويا شَيْبَة بن ربيعة . ويا أُمَيَّة بن خلف ، ويا أبا جَهْل بن هِشَام ؛ واستمر يذكر من فى القليب واحداً بعد واحد ! يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ! فانى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » . قال المسلمون : يا رسول الله ، أتنادى قوماً جَيَّفُوا ؟ قال عليه السلام : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » . ونظر رسول الله فى وجه أبى حُذَيفة بن عُتْبَة فألفاه كئيباً قد تغير لونه ؛ فقال له : لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟ قال أبو حذيفة : « لا والله يا رسول الله . ما شككت فى أبى ولا فى مَصْرَعه ،

ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك للاسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى أمره » . فطمأنه رسول الله ودعا له بخير .

اختلاف المسلمين على الفىء

ولما أصبح الصبح وآن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة بدءوا يتساءلون فى الغنيمة لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : نحن جمعناها فهى لنا . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : نحن والله أحق بها ، فلولانا لما أصبتموها . وقال الذين كانوا يحرسون محمداً مخافة أن يرتد اليه العدوّ : ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله كرّة العدو فقمنا دونه . فأمر محمد الناس أن يردوا كل ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه .

وبعث محمد الى المدينة عبد الله بن رَوَاحَة وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر . وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله ابن كعب . وسار القوم ، حتى إذا تخطوا مضيق الصفراء نزل محمد على كثيب

قسمته بينهم على سواء

فقسم هناك النَّفَل الذى أفاء الله على المسلمين ، بين المسلمين على سواء . يُقول بعض المؤرخين: إنه قسمه بينهم بعد إذ أخذ منه الخمس، لقوله تعالى : «واعلَمُوا أنَّمَا غَنِمتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأنَّ للهِ خُمُسَهُ وللرسول ولذِى القُرْبَى وَاليَتَامى والمَسَاكِين وابْنِ السَبِيلِ إنْ كُنتم آمنتم باللهِ وَمَا أنزَلنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرقَانِ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ ، واللهُ على كلّ شىءٍ قَدِيرٌ» . ويذهب الأكثرون من كتّاب السيرة ، والمتقدمون منهم خاصة ، إلى أن هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قَسْم فيئها ، وأن محمداً جعل القسمة بين المسلمين على سواء ، وأنه جعل للفرس مثل ما للفارس ، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر ، وجعل حصة

لمن تخلّف بالمدينة فلم يشهد بدراً ما كان قائماً فيها بعمل للمسلمين ، ومن حرّضهم حين الخروج إلى بدر وتخلّف هو لعذر قبله الرسول . وكذلك قسم الفيء بالقسط . فليس المقاتل وحده هو الذي اشترك في الحرب والنصر ، بل اشترك في الحرب والنصر كل من كان لعمله في الفوز حظ أيًّا كان هذا العمل ؛ وسواء أكان في ميدان القتال أم كان بعيداً عنه .

قتل اسيرين

وفيما المسلمون في طريقهم إلى مكة قتل من الأسرى رجلان ؛ أحدهما النَّضْر بن الحارث والآخر عُقْبَة بن أبي مُعَيْط . ولم يكن محمد ولا كان أصحابه الى هاته اللحظة قد وضعوا للأسرى نظاما يكون على مقتضاه قتلهم أو افتداؤهم أو استرقاقهم . لكن النضر وعقبة كانا على المسلمين أيام مُقامهم بمكة شرًّا مستطيراً ، وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان . قتل النَّضر حين عرض الأسرى على النبي عليه السلام عند بلوغهم الأُثَيْل . فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير وقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلي ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت . قال الذي إلى جنبه : ماهذا والله منك إلا رعب . وقال النضر لمُصْعَب بن عُمَيْر وكان أقرب من هناك به رحما : كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه ، فهو والله قاتلي إن لم تفعل . فكان جواب مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا ، وكنت تعذّب أصحابه . قال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حيّ . قال مصعب : والله إني لا أراك صادقا ، ثم إني لست مثلك فقد قطع الاسلام العهود . وكان النضر أسير المقداد وكان يطمع أن ينال في افتداء أهله إياه مالا كثيراً . فلما رأى الحديث حول قتله صاح : النضر أسيري . قال النبي عليه السلام : إضرب عنقه ، واللهم اغنِ المقداد من فضلك . فقتله عليّ بن أبي طالب ضرباً بالسيف .

ولما كانوا من طريقهم بعرق الظُّبْيَة أمر النبي بقتل عُقبة بن أبي مُعَيْط

فصاح عقبة : فمَنْ للصبية يامحمد ؟ . قال : النار . وقتله على بن أبى طالب أو قتله عاصم بن ثابت ، على اختلاف فى الرواية .

أنباء النصر بالمدينة

وقبل أن يصل النبى والمسلمون المدينة بيوم وصلها رسولاه زيد بن حارثة وعبد الله بن رَوَاحة ودخل كل واحد من ناحية منها ؛ فجعل عبد الله ينادى على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه ويذكر لهم من قُتِل من المشركين . وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعه وهو ممتط القصوى ناقة النبىّ . وسُرّ المسلمونَ واجتمعوا وخرج من كان منهم فى داره وانطلقوا يهللون لهذا النصر العظيم . أمّا الذين بقوا على الشرك ، وأمّا اليهود فقد كُبِتوا لهذا النبأ وحاولوا أن يُقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا الذين أقاموا فى المدينة من المسلمين بعدم صحته ، فصاحوا : إن محمداً قتل وأصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعاً ، ولو أنه انتصر لبقيت عنده ، وإنما يقول زيد مايقول هذيانا من الفزع والرعب . لكن المسلمين مالبثوا أن تثبتوا من الرسولين ، وأن اطمأنوا إلى صحة الخبر حتى زاد بهم السرور لولا حادث طرأ خفف من سرورهم . ذلك الحادث هو موت رُقيّة بنت النبى ، وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة وترك معها زوجها عثمان بن عفّان يمرّضها . ولما أيقن المشركون والمنافقون بنصر محمد أسقط فى أيديهم ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلة ،حتى قال أحد زعماء اليهود : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

اليهود والمشركون بالمدينة

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم . فلما جىء بهم ورجعت سَوْدة بنت زَمْعَة زوج النبى من مناحة ابنى عفراء وكانت بها ، رأت أبا يزيد سُهَيْل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلم تملك نفسها أن توجه اليه الكلام قائلة : أى أبا يزيد ! أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم . ألا متّم كراماً ! فناداها محمد من البيت : ياسَوْدة ! أعلى الله عز وجل وعلى

أسرى بدر

رسوله تحرِّضين !. فأجابت: يارسول الله! والله الذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت ما رأيت أن قلت ماقلت. وفرّق محمد الأسارى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيراً. وطفق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم. أفيقتلهم أم يأخذ منهم الفداء؟!. إن منهم لأشداء فى الحرب أقوياء فى النضال، ومن امتلأت بالحقد والضغينة نفوسهم بعد الذى كان من هزيمتهم ببدر وما لحقهم من عار الأسر، فان هو قبل الفداء كانوا عليه حربا وألباً، وإن هو قتلهم أثار فى نفوس أهليهم من قريش ما ربما هدأ لو أنهم افتدوهم.

مقالة ابى بكر وعمر فى الأسرى

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخيار. وكان المسلمون قد أنسوا من الأسرى طمعاً فى الحياة واستعدادا لفدية عظيمة. فقال هؤلاء: لو بعثنا إلى أبى بكر فانه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعطفاً. ولا نعلم أحداً آثر عند محمد منه. وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له: يا أبا بكر إن فينا الآباء والاخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب. كلّمْ صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا. فوعدهم خيراً. وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر، فنظر إليهم شزراً. وذهب وزيرا محمد اليه فجعل أبو بكر يُسليه ويَفثؤه ويقول: يارسول الله، بأبى أنت وأمى، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والاخوان، وأبعدهم منك قريب. فامنُنْ عليهم مَنّ الله عليك أو فَادِهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذتَ قوة للمسلمين، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم. وسكت محمد فلم يجبه، فقام فتنحى. وجاء عمر فجلس مجلسه وقال: يارسول الله، هم أعداء الله كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك، إضرب رقابهم؛ هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة يُوَطِّىء الله بهم الاسلام ويُذِلّ بهم أهل الشرك. ولم يجب محمد. فعاد أبو بكر إلى مقعده الأول وجعل يتلطّف ويستعطف ويذكر القرابة والرحم ويرجو لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أُبقِيَ على حياتهم. وعاد عمر مثال العدل الصارم

لا تأخذه فيه هوادة ولا رحمة . ولما فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما قام محمد فدخل قبته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس يخوضون فى شأنهم ، يقف بعضهم فى صف أبى بكر ، ويقف آخرون فى صف عمر . فشاورهم فيما يصنع ، وضرب لهم فى أبى بكر وفى عمر مثلا . فأمّا أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضاء الله وعفوه عن عباده ، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم ، كان ألين على قومه من العسل . قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : « أفٌّ لكم ولِمَا تَعبُدُونَ من دُونِ اللهِ أفلا تعقِلون » ، وأن قال : « فَمَنْ تَبِعَنِي فإنَّه مِنِّي ومَنْ عَصَانِى فإنَّكَ غفورٌ رَحيم » ، ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : « إنْ تُعَذِّبْهُم فإنَّهم عِبَادُكَ وإنْ تَغْفِرْ لهم فإنَّكَ أنْتَ العزيز الحكيم » . ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله ، ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّارًا » ، وكمثل موسى إذ يقول : « رَبَّنا اطْمِسْ على أموالِهِم واشْدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذاب الأليم » . ثم قال : وإن بكم عَيْلة فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق . وتشاور القوم فيما بينهم . وكان من بين الأسرى شاعر هو أبو عَزَّة عمرو ابن عبد الله بن عُمَيْر الجُمَحِىّ رأى خلاف القوم واستعجل النجاة فقال : لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدَّقْ بى عليهن يا محمد ، وإنى لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً . فأمَّنه النبى وأرسله من غير فداء ، وكان هو وحده الأسير الذى ظفر بهذا الأمان . على أنه ما لبث أن نكث بعهده وأن عاد فقاتل بعد عام فى أُحد فأسر وقُتِل . وظل المسلمون فى تشاورهم زمناً انتهوا بعده إلى قبول الفداء . وفى قبولهم نزلت هذه الآية من الأنفال : « مَا كانَ لِنَبِىٍّ أنْ يَكون له أسْرَى حتَّى يُثْخِنَ فى الأرْضِ ، تريدونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والله يريد الآخِرَة ، والله عَزِيزٌ حَكيمٌ » .

حديث النبى فيهم الى المسلمين

جدال المستشرقين

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النضر وعُقبة ويتساءلون : أليس فى ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد للدم ظمأ لولاه لما قُتِل الرجلان ، ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالشيء الذى غنموا ؟ . وذلك تساؤل الذى يريد أن يثير فى النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع ، ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزوات وسيلة للنيل من الدين ومن صاحب الدين . على أن هذا التساؤل مايلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنّا مقتل النضر وعقبة بما يجرى اليوم وما سيجرى دائماً مادامت الحضارة الغربية ، التى تتّشح بوشاح المسيحية ، متحكمة فى الأرض . فهل تراه يوازى شيئاً إلى جنب مايقع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها وبالرغم منهم ؟ وهل تراه يوازى شيئاً إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى ؟ ثم هل هو يوازى شيئاً مما حدث أثناء الثورة الفرنسية الكبرى وأثناء الثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى أمم أوربا المختلفة ؟ .

الثورة على الوثنية

وليس ريب فى أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قويّة من محمد بعثه الله ليقوم بها فى وجه الوثنية والمشركين من عبّادها ، ثورة قامت أوّل أمرها بمكة واحتمل محمد وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عاما سويّا . ثم انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جموعهم وقوّاتهم بها ، وما تزال مبادىء الثورة قائمة على أشدها فى نفوسهم وفى نفوس قريش جميعاً . وانتقال المسلمين إلى المدينة وموادعتهم اليهود من أهلها وما قاموا به من مناوشات سبقت بدراً ، وغزوة بدر هذه — ذلك كله كان سياسة الثورة ولم يكن مبادئها . كان السياسة التى قرر القائم بهذه الثورة وأصحابه أن يتبعوا لاقرار أسمى المبادىء التى جاء الرسول بها . وسياسة الثورة شىء ومبادئها شىء آخر . والخطة التى تتبع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من

هذه الخطة . وإذا كان الاسلام يقصد إلى إعلان الأخوّة فى الأرض كمبدأ ، فيجب أن يسلك لذلك سبله وإن اقتضى ذلك من العنف والشدة مالا مفرّ منه .

مجزرة سان بارتلمى

وهـذا الذى صنع المسلمون بأسرى بدر آية فى الرحمـة وفى الحسنى إلى جانب ما يقع فى الثورات التى يتغنى أهلها بمعانى العـدل والرحمة ، وهو لا شيء إلى جانب المجـازر الكثيرة التى قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سانْ بَارْتِلْمِي . هذه المجزرة التى تعتبر سبّة فى تاريخ المسيحية لا شيء من مثلها قطُّ فى تاريخ الاسلام . هـذه المجزرة التى دُبِّرت بليل وقام فيها الكاثوليك بذبح البروتستنتيين فى باريس وفى فرنسا غدراً وغِيلة فى أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة . فاذا قتـل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قساة على المسلمين مدى الأعوام الثلاثة عشر التى احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة ، فقد كان فى ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفـائدة العاجلة ما نزلت معه الآية : « مَا كان لِنَبِيٍّ أنْ يَكون لَه أسْرَى حتَّى يُثْخِنَ فى الأرْضِ تريدون عَرَضَ الدُّنْيا واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

* * *

النذير الى مكة

بينما كان المسلمون فى فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغانم كان الحَيْسُمَان بن عبد الله الخُزَاعىّ يحث الطريق إلى مكة ، حتى كان أوّل من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها فى كبرائها وأشرافها وسادتها . وقد ذهلت مكة أوّل الأمر فلم تصدِّق الخبر . وكيف لا تذهل وهى تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة والأشراف منها ! لكن الحَيْسُمان لم يكن يهذى وكان يؤكد مايقول وهو أشد من قريش جزعا لما أصابهم . فلما استوثقوا من روايته خرّوا صعِقين، حتى لقد حمّ أبو لهب ومات بعد سبعة أيام . وتشاورت قريش ما تصنع ، فأجمعت على ألاّ تنوح على قتـلاها مخافة أن يبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بهم ، وألاّ تبعث فى أسراها حتى لا يأرَبَ عليها محمـد

موت أبى لهب

وأصحابه ويغلوا فى الفداء . وانقضى زمن وقريش صابرة على محنتها حتى سنحت فرصة افتدائها أسراها . إذ ذاك قدم مِكْرَز بن حَفْص فى فداء سُهَيل ابن عمرو . وكأنما عزّ على عمر بن الخطاب أن يُفتدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه ، فقال : يارسول الله ، دعنى أنزع ثَنِيَّتَىْ سُهيل بن عمرو ويَدْلَعُ لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً . فكان جواب النبى هذا الجواب البالغ غاية السمو : لا أُمَثِّل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًّا .

افتداء الأسرى

وبعثت زينب ابنة النبى تفتدى زوجها العاصى بن الربيع ، وكان فيما بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاصى حين بنى عليها ؛ فلما رآها النبى رقّ لها رقة شديدة فقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا . ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبى العاصى على أن يفارق زينب وقد فرّق الاسلام بينه وبينها . وبعث محمد زيد بن حارثة وصاحباً معه فجاءا بها إلى المدينة . على أن أبا العاصى ما لبث بعد مدة إساره أن خرج إلى الشام فى مال لقريش ؛ حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سريّة لمحمد فأصابوا ما معه ، فانحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته . وردّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكة . فلما ردّه لأصحابه من قريش قال : يا معشر قريش ! هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا لا ! جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيًّا كريماً . قال : فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . والله ما منعنى من الاسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أدّاها الله إليكم وفرغت منها أسلمت . وعاد إلى المدينة ورد عليه النبى زينب . واستمرت قريش تفتدى أسراها ، وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف إلاّ من لا شىء عنده فقد مَنّ عليه محمد بحريته .

افتداء العاصى ابن الربيع وإسلامه

لم يهوّن ذلك على قريش مصابها ، ولا هو دعاها إلى أن تهادن محمداً

بكاء قريش قتلاها

أو أن تنسى هزيمتها؛ بل ناحت من بعد ذلك نساء قريش على قتلاها شهراً كاملا، فجززن شعر رءوسهن، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فَيَنُحْنَ حولها. ولم يخالفهن فى هذا إلا هند بنت عُتْبة زوج أبى سفيان. ولقد مشى نساء منهن يوماً إليها فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك!. فقالت: أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بنى الخزرج! لا والله حتى أثأر من محمد وأصحابه! والدُّهن علىّ حرام حتى نغزو محمداً. والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت؛ ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قَتَلة الأحبة. ومكثت لا تقرَب الدهن ولا تقرب فراش أبى سفيان وتحرِّض الناس حتى كانت واقعة أُحد. أمّا أبو سفيان فنذر بعد بدر ألاّ يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً.

هند وأبو سفيان

الفصل الرابع عشر

بين بدر وأحـــــــد

المسلمون واليهود — غزوة بنى قينقاع — جلاء اليهود عن المدينة — قريش تتحرك — غزوة السَّوِيق — القبائل تتحرك فتفر — هزيمة صفوان أبن مية

أثر بدر بالمدينة (يناير سنة ٦٢٤ م)

تركت بدرٌ بمكة من عميق الأثر ما رأيت، تركت الحرص على الثأر من محمد والمسلمين يوم تتهيأ فرصة الثأر. لكن أثرها بالمدينة كان أوضح وأكثر اتصالا بحياة محمد والمسلمين معه. فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيد قوّة المسلمين: ورأوا هذا الرجل الأجنبى الذى وفد عليهم من أقل من عامين فارًّا مهاجراً من مكة يزداد سلطانا وبأساً، ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعاً لا فى أصحابه وحدهم. وكان اليهود، على ما رأيت، قد بدأ تذمُّرهم من قبل بدر وبدأت مناوشاتهم المسلمين، حتى لكان ما بين الفريقين من عهد الموادعة هو الذى حال فى أكثر من ظرف دون الانفجار. لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر معتزّين بالنصر حتى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتأتمر، وحتى بدأت تُغرى بهم وترسل الأشعار فى التحريض عليهم. بذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة، وانتقل من الدين إلى السياسة. فلم تبق دعوة محمد إلى الله هى وحدها التى تُحارَب، ولكن سلطانه ونفوذ أمره وكلمته هو الذى كان موضع الرهبة والخوف، وسبب الائتمار به والتفكير فى اغتياله. ولم يكن محمد لتخفى عليه من ذلك كله خافية؛ بل كان يقف على أخباره جميعاً ويتصل بعلمه كل ما يدبَّر ضده. وجعلت النفوس من

اليهود يأتمرون

جانبي المسلمين واليهود تمتلىء بالغلّ والضغينة شيئاً فشيئاً ، رويداً رويدا ، وجعل هؤلاء وأولئك يتربّص كل بصاحبه الدوائر .

وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله ببدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة ؛ فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم . فلما عادوا منتصرين أخذ سالم بن عُمَيْر نفسه بالقضاء على أبى عَفَك أحد بنى عمرو بن عوف ؛ لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين ، ويحرّض بها قومه على الخروج عليهم ؛ وظل كذلك بعد بدر يُغرى بهم الناس . فذهب اليه سالم فى ليلة صائفة كان أبو عفك نائماً فيها بفناء داره ، فوضع سالم السيف على كبده حتى خشّ فى الفراش . وكانت عَصْماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد تعيب الاسلام وتؤذى النبى وتحرّض عليه ؛ وظلت كذلك إلى مابعد بدر . فجاءها يوما عُمير بن عَوْف فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام ومنهم من تُرضعه ؛ وكان عمير ضعيف البصر ، فجسّها بيده فوجد الصبى ترضعه ، فنحّاه عنها ، ثم وضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها . ورجع عمير من عند النبى بعد أن أخبره الخبر ، فوجد بنيها فى جماعة يدفنونها ؛ فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال : « نعم ! فَكيدُونى جميعاً ثم لا تُنْظِرون . فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى حتى أموتَ أو أقتلكم » . وقد كان من أثر جرأة عمير هذه أن ظهر الاسلام فى بنى خَطْمَة ، وكانت عصماء زوج رجل منهم ، فأظهر منهم من كان يخفى إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم .

قتل المسلمين أبا عفك وعصماء

ويكفى أن نضيف إلى هذين المثلين أن كَعْب بن الأشْرَف هو الذى قال حين علم بمقتل سادات مكة : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرضِ خير من ظهرها ، وأنه لما تيقّن الخبر ذهب إلى مكة يحرّض على محمد ويُنشد الأشعار ويبكى أصحاب

مقتل كعب ابن الأشرف

القليب، وأنه رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يُشَبِّب بنساء المسلمين. وأنت تعرف طبائع العرب وأخلاقها وتعرف مبلغ تقديرهم للعِرْض وثورتهم من أجله. وقد بلغ من غيظ المسلمين أنهم أجمعوا على قتل كعب، واجتمع فى ذلك عدّة منهم، وذهب اليه أحدهم يستدرجه بالطعن على محمد إذ يقول له: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادَتْنا العرب ورَمَوْنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السُّبلَ حتى ضاع العيال وجُهِدَت الأنفس. ولما أنِسَ إلى كَعْب وأنس اليه كعب طلب اليه مالاً لنفسه ولجماعة من أصحابه على أن يرهنوه دروعهم. ورضى كعب على أن يجيئوه من بعد. وإنه لفى داره على بعدٍ من المدينة إذ ناداه صَدْرَ الليل أبو نائِلَةَ أحد المؤتمرين به، فنزل اليه رغم تحذير عروسه إياه النزول فى مثل هذه الساعة من الليل. وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبى نائلة وكعب آمنٌ لا يخافهم. وخرج القوم يتماشون حتى مشوا ساعة بَعُدوا بها عن دار كعب وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويذكرون من حالهم وما وصلوا اليه من شِدَّة ما يزيد فى طمأنينة كعب. وفى هذه الأثناء كان أبو نائلة يضع يده فى رأس كعب ويشمها ويقول: ما رأيت كالليلة طِيبا أعطَرَ قط. ولما لم تبق لدى كعب شبهة فيهم، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم أخذ بفَوْد رأسه وقال: اضربوا عدوّ الله؛ فضربوه بأسيافهم حتى مات.

مخاوف اليهود وعدوانهم

زاد هذا الحادث فى مخاوف اليهود، فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه. على أن ذلك لم يُسكتهم عن محمد ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أىّ فيض. قَدِمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قَيْنُقَاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى؛ فجاء يهودىّ من خلفها فى سرٍّ منها فأثبت طرَف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها؛ فصاحت فوثب رجل من المسلمين

على الصائغ وكان يهوديًا فقتله ؛ وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ؛ فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع . وطلب محمد إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش ، فاستخفوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس » . فلم يبق بعد ذلك من سبيل لعدم مقاتلتهم إلا أن يتعرّض المسلمون ويتعرض سلطانهم بمكة للتداعى ويصبحوا أحدوثة قريش وقد جعلوا قريشاً بالأمس أحدوثة العرب .

حصار بنى قينقاع

وخرج المسلمون فحاصروا بنى قينقاع فى دورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد ، حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه . فلما سلّموا قرر محمد ، بعد مشورة كبار المسلمين ، قتلهم جميعاً . فقام إليه عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً ، فقال : يا محمد ، أحسن فى موالىّ . فأبطأ عليه النبىّ فكرر الطلب ، فأعرض النبى عنه فأدخل يده فى جيب درع محمد ، فتغير محمد وقال له : أرسلنى : وغضب حتى رأوا لوجهه ظُللا ، ثم أعاد وأثر الغضب فى نبرات صوته : « أرسلنى ويحك ! » . قال ابن أُبَىّ : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الاحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ! . إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . وكان عبد الله ذا سلطان ما يزال فى المشركين من الأوس والخزرج ، وإن كان هذا السلطان قد ضَعُف بقوة المسلمين . فرأى النبى فى إلحاحه ما جعله يعود إلى سكينته ، وبخاصة بعد إذ جاء عُبادَةُ بن الصّامت يحدّثه حديث ابن أُبَىّ ، وما جعله يفكر فى أن يُسدى هذه اليد لعبد الله وللمشركين موالى يهود جميعاً حتى يصبحوا مدينين لاحسانه ورحمته ؛ على أن تجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاء لها على صنيعها ،

وجاء ابن أبى ألا يقتلوا

وقد حاول ابن أُبيّ أن يتحدث مرة أخرى إلى محمد فى بقائهم ومُقامهم. لكن أحد المسلمين حال دون ابن أُبيّ ولقاء محمد واشتجرا حتى شُجَّ عبد الله. فقالت بنو قَيْنُقَاع: والله لا نقيم ببلد تُشَجُّ فيه يابن أُبيّ ولا نستطيع عنك دفاعاً. وعلى ذلك سار بهم عُبادة بعد الذى كان من تسليمهم وإذعانهم تاركين المدينة، تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغون، حتى بلغوا وادى القرى. هناك أقاموا زمناً، ومن هناك احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرِعَات على حدود الشام وبها أقاموا. ولعلهم إنما استهوتهم إلى الشمال أرض الميعاد التى كانت وما تزال تهوِى إليها أفئدة اليهود.

إجلاؤهم عن المدينة

خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها. فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينة بعيداً عنها بخيبر وبأم القرى. ولهذه النتيجة كان يقصد محمد من إجلائهم. وهذا تصرُّف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر. وهو مقدمة لم يكن منها بدٌّ للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد. فليس شىء أضرّ على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها. وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بدّ منه فهو لا بدّ منته إلى تغلُّب طائفة على سائرها غلبةً تنتهى إلى سيادتها. وقد تحدّث بعض المؤرخين منتقداً تصرّف المسلمين إزاء اليهود، زاعماً أن حكاية المسلمة التى ذهبت إلى الصائغ كانت من اليسير تسويتها ما دام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل. وقد نستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودى والمسلم لم يمحُ ما لحق المسلمين من إهانة فى شخص المرأة التى عبث اليهودى بها، وأن مثل هذه المسألة عند العرب أكثر منها عند غيرهم من الأمم جديرة أن تثور لها الثائرات، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة. وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ. لكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتباراً آخر

الوحدة السياسية فى المدينة

أقوى منه . فحادث المرأة كان من حصار بنى قينقاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولى عهد النمسا بسيرا جيفو سنة ١٩١٤ من الحرب الكبرى التى اشتركت فيها أوربا جميعاً . هو إنما كان الشرارة التى ألهبت ما تأجّجُ به نفوس المسلمين واليهود جميعاً لهباً أدّى إلى انفجارها وإلى كل ما يُحدث الانفجار من آثار . والحق أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة ، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة ، قد جعل المدينة من الناحية السياسية على بُرْكان لا مفرَّ له من أن ينفجر ، وقد كان حصار بنى قينقاع وجلاؤهم عن المدينة أوّل مظاهر هذا الانفجار .

كان طبيعيا أن ينكمش غير المسلمين من أهل المدينة بعد جلاء بنى قينقاع عنها ، وأن تبدو من الهدوء والسكينة فى المظهر الذى يعقب كل عاصفة وكل إعصار . وعلى هذا الهدوء ظلّ الناس شهراً كاملا كان جديراً أن يزداد إلى أشهر ، لولا أن أبا سفيان لم يُطق البقاء بمكة قابعاً تحت خزى هزيمة بدر دون أن يُعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيرة أن قريشاً ما تزال لها قوّتها وعصبيّتها ومقدرتها على الغزو وعلى القتال . لذلك جمع مائتين ، وقيل أربعين ، من رجال مكة وخرج فيهم مستخفِين ، حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة خرجوا سَحَراً فأتوا ناحية يقال لها العُرَيْض ، فوجدوا رجلا من الأنصار وحليفاً له فى حَرْث لها فقتلوهما ، وحرّقوا بيتين بالعريض ونخيلا ، ثم رأى أبو سفيان أنّ يمينه بغزو محمد برّت فانكفأ هارباً ، خائفاً أن يطلبه النبىّ وأصحابه . وندب محمد أصحابه فخرجوا فى أثره وهو على رأسهم حتى بلغوا قَرْقَرة الكُدْر وأبو سفيان ومن معه جادّون فى الفرار يتزايد خوفهم فيُلقون ما يحملون من زادهم من السويق، فاذا مر المسلمون بها أخذوها . ولما رأى محمد أن القوم أمعنوا فى الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة ، وقد انقلب فرار أبى سفيان عليه بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر . وبسبب السَّوِيق الذى ألقت

غزوة السويق

قريش ، سُمِّيت هـذه الغزوة من غزوات محمد غزوة السَّوِيق .

تداولت أنباء محمد هذه سَمْعَ العرب جميعاً . فأما القبائل البعيدة عنه فظلت فى مأمنها لا تُعْنَى إلا قليلا بأمر هؤلاء المسلمين الذين كانوا إلى يوم بدر — أى إلى أشهر قليلة خلتْ — أذلّة يلتمسون بالمدينة ملجأ ، والذين أصبحوا اليوم يقفون فى وجه قريش ويُجلون بنى قَيْنُقَاع ويرسلون الرعب إلى رُوع عبد الله بن أُبىّ ويطاردون أبا سفيان ويظهرون مظهراً لم يكن من قبل مألوفا . فأما القبائل القريبة من المدينة فقد بدأت ترى ما يتهدّد مصيرها من قوة محمد وأصحابه ، ومن تعادل هذه القوة مع قوة قريش بمكة تعادلاً تُخشَى نتائجه . ذلك بأن طريق الشاطىء إلى الشام هى الطريق المُعَبَّدة المعروفة . وتجارة مكة فى مرورها بها تُفيد هذه القبائل فائدة اقتصادية تذكر . وقد عاهد محمد كثيراً من القبائل التى تتاخم الشاطىء ، فهدّد هذا الطريق وعرّض رحلة الصيف لمخاطر قد تُضطر معها قريش الى العدول عن متاخمة الشاطىء . فماذا عسى أن يصيب هذه القبائل إذا انقطعت تجارة قريش ؟ وكيف تراهم يحتملون شظف الحياة فى هذه البقاع الشديدة الشظف بطبعها ؟ فمن حقها إذاً أن تفكر فى مصيرها وفيما عساه يصيبها من أثر هذا الموقف الجديد الذى لم يُعْرَف قبل هجرة محمد وأصحابه إلى يثرب ، والذى لم يَصِلْ الى ما وصل اليه من تهديد حياة هذه القبائل قبل بدر وانتصار المسلمين فيها .

تهديد طريق الشاطىء إلى الشام

لكن بدراً أدخلت الرعب الى قلوب هذه القبائل . أفتراها تُغير على المدينة وتحارب المسلمين ، أم ماذا تراها تصنع ؟ ! بلغ محمداً أن جمعاً من غَطَفَان وسُلَيْم اعتزم الاعتداء على المسلمين ؛ فخرج الى قَرْقَرَة الكدر ليأخذ عليهم الطريق . فلما وصل الى ذلك المكان رأى آثار النَّعَم ولم يجد فى المجال أحداً ، فأرسل نفراً من أصحابه فى أعلى الوادى وانتظر هو فى بطنه ، فالتقى بغلام اسمه يَسَار ، فسأله فعلم منه أن الجمع ارتفع الى الماء ؛ فجمع المسلمون ما وجدوا من

فزع العرب من المسلمين

نَعَم فاقتسموه بعد أن أخذ محمد الخمس ، كنص القرآن . قيل : وكان ماغنموا خمسمائة بعير أُخرج خمسها وقسم الباقى فأصاب كل رجل بعيران . وبلغ محمداً أن جمعا من بنى ثَعْلَبَة ومُحَارب بذى أَمَرّ قد تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه . فخرج عليه السلام فى أربعمائة وخمسين من المسلمين ، فلقى رجلا من ثعلبة فسأله عن القوم فدله الرجل على مكانهم وقال له : إنهم يامحمد إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رءوس الجبال ، وأنا سائر معك ودالُّك على عورتهم . فما لبث المغيرون أن سمعوا باقتراب محمد منهم حتى فرّوا فوق الجبال . وبلغه أن جمعاً كبيراً من بنى سُلَيم ببَحْران تهيئوا لقتاله ، فخرج فى ثلاثمائة رجل فأغَذُّوا السير ، حتى اذا كانوا دون بحران بليلة لقيهم رجل من بنى سُلَيم ، فسأله محمد عنهم فأخبره أنهم تفرّقوا وعادوا أدراجهم . وكذلك كان هؤلاء الأعراب فى فزع من محمد وفى فزع على مصيرهم ، مايكادون يفكرون فى الكيد لمحمد وفى السير لملاقاته حتى تنخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره للقائهم .

فزع اليهود

وفى هذه الأثناء وقع مقتل كعب بن الأشرف على نحو ما قدّمنا ، فأصاب اليهود أيضاً من الفزع ما جعلهم يلزمون دورهم لا يخرج أحد منهم مخافة أن يصيبه ما أصاب كعبا . وزاد فى فزعهم أن أهدر محمد دماءهم بعد الذى كان من أمر بنى قَيْنُقَاع مما أدّى الى حصارهم . فجاءوا إلى محمد يشكون إليه أمرهم ويذكرون له مقتل كعب غِيلةً بلا جُرْم ولا حدث علموه . فكان جوابه لهم : إنه آذانا وهجانا بالشعر ، ولو قرّ كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شر . وبعد حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتاباً يحترمونه . وخافت اليهود وذلّت وإن بقى فى نفسها من محمد ما بدا من بعدُ أثره .

قريش تسلك طريق العراق الى الشام

ما ذا تصنع قريش بتجارتها إلى الشام وقد أخذ محمد عليها طريقها !؟ إن مكة تعيش من التجارة ، فاذا لم تجد الوسيلة إليها تعرّضت لشر ما تتعرّض له مدينة مثلها . وهذا محمد أراد حصارها والقضاء فى نفس العرب

على مكانتها . وقف صَفوان بن أُميَّة يوماً فى قريش وقال لهم : « إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا مَتْجَرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامَّتهم معه ، فما ندرى أين نسكن . وإن أقمنا فى دارنا هـذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لهـا من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء » . قال له الأسود بن المطلب : تنَكّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق . ودلَّه على فُرَاتِ بن حَيَّان من بنى بَكْر بن وَائِل يدلهم على الطريق . وقال لهم فرات : طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد فإنما هى أرض نجد وفَيَافٍ . ولم يخف صَفْوان الفيافى أن كان الفصل شتاء وحاجتهم إلى المـاء قليلة ، وتجهز صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم . وكان بمكة حين تدبير قريش خروج تجارتها ، يثربىٌّ هو نُعَيْم بن مَسْعُود الأشْجَعِىّ عاد إلى المدينة ، وجرى على لسانه ذكر حديث قريش وما صنعت ، لأحد المسلمين . فأسرع هذا فنقل الخبر إلى محمد . وما لبث النبى أن بعث زيد بن حارثة فى مائة راكب اعترضوا التجارة عند القَرَدَة (ماء من مياه نجد) ففرّ الرجال وأصاب المسلمون العِير . فكانت أوّل غنيمة ذات قيمة غنمهـا المسلمون . وعاد زيد ومن معه فخَمَّسَهَا محمد وقسم ما بقى على رجاله ، وجىء بفُرات بن حَيَّان فعرض عليه أن يسلم لينجو فأسلم ونجا .

فيغزوها المسلمون

هل اطمأن محمد بعـد هذا كله إلى أن الأمر قد استقر له ؟ هل خدعه يومه عن غده ، وهل خُيِّل له فزع القبائل منه وما غنم من قريش أن كلمة الله وكلمة رسوله قد اطمأنت ولم يبق للخوف عليها محل ؟ وهل جعل إيمانه بنصر الله إياه يلقى حبال الأمور على غواربهـا علماً منه بأن الأمر كله لله !! كلا ! فالأمر كله حقًّا لله . لكنك لن تجـد لسنة الله تبديلا . وما ركّب الله فى النفوس من سلائق لا سبيل إلى إنكاره . وقريش لهـا سيادة العرب ، وهى

لا يمكن أن تنى عن الأخذ بثأرها . وما أصاب قافلة صفوان بن أمية لن يزيدها على الثأر إلا حرصاً ، وفى التهيؤ للأخذ به إلا شدّة . وما كان شيء من هذا ليغيب عن محمد وبعد نظره وسلامة سياسته . فلا بدّ له إذاً من أن يزيد المسلمين به تعلّقاً وارتباطاً . ومهما يكن الاسلام قد شدّ من عزائمهم وجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، فان حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدّةً وتضامنَهم قوّة . ومن حسن رعايتهم أن يزيد محمد رابطته بهم . لهذا تزوّج من حَفْصة بنت عمر بن الخطاب كما تزوّج من عائشة بنت أبى بكر من قبل . وكانت حفصة من قبله زوج خُنَيْس أحد السابقين إلى الاسلام . وقد مات عنها قبل زواج محمد بسبعة أشهر . وكما تزوّج من حفصة فزاد ابن الخطاب به تعلّقاً ، زوّج ابنته فاطمة من ابن عمه علىّ أشدّ الناس محبةً للنبىّ وإخلاصاً له منذ طفولته . ولما كانت رُقَيّة ابنته قد اختارها الله إلى جواره ، فقد زوّج عثمان بن عفّان بعدها ابنته أم كُلثوم ، وكذلك جمع حوله برابطة المصاهرة أبا بكر وعمر وعثمان وعلى ، وجمع بذلك أربعة من أقوى المسلمين الذين كانوا معه ، بل أقواهم إن شئت . بهذا كفل للمسلمين مزيداً من القوة ، كما كفل لهم بما غنموا فى مغازيهم إقداماً على الحرب يجمع فيها الرجل بين الجهاد فى سبيل الله والمغنم من المشركين . وهو فى هذه الأثناء يتتبّع بدقة كل الدقة أخبار قريش وما تُعِدّ . فقد كانت قريش تُعد للثأر ولتفتح لنفسها طريق التجارة إلى الشام حتى لا تهوى مكانة مكة التجارية ومكانتها الدينية إلى حيث لا تقوم لها من بعد ذلك قائمة .

زواج النبى من حفصة بنت عمر

أصهار محمد

الفصل الخامس عشر

غزوة أحـــــــد

استعداد قريش بمكة — خروجها للغزو — كيف علم به محمد — تشاور المسلمين فى التحصن بالمدينة أو الخروج لملاقاة العدو — انتصار المسلمين ثم هزيمتهم — خروج النبى من المدينة غداة أُحُد ليلحق بالمنتصرين فيغزوهم — عَوْدُ أبى سُفْيان وقريش إلى مكة

لم يهدأ منذ بدر لقريش بال ، ولم تُغْنِها غزوة السويق شيئاً ، وزادتها سرية زيد بن حارثة التى أخذت تجارتها حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام حرصاً على الثأر وادّكاراً لقتلى بدر . وكيف لقريش بنسيانهم وهم أشراف مكة وسادانها وذوو النَّخْوَةِ والكرامة من كبارها ! . وكيف لها بنسيانهم وما تزال نساء مكة تذكر كلٌّ منهن فى القتلى لها ابناً أو أخاً أو أباً أو زوجاً أو حميا ، فهى له تتوجع وعليه تبكى وتُوَلْوِل . هذا ، وكانت قريش منذ قدم أبو سُفْيان ابن حرب بالعير التى كانت سبب بدر من الشام ، وعاد الذين شَهِدوا بدراً وسَلِموا من القتل فيها ، قد وقفت العير بدار الندوة واتفق كُبراؤها : جُبَيْر بن مُطْعِم وصَفْوان بن أُميَّة وعِكْرِمة بن أبى جهل والحارثُ بن هِشام وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى وغيرهم على أنْ تباع العير وأن تعزل أرباحها وأن يجهّز بها جيش لقتال محمد ، جرّار فى عَدَدِه وعُدَّتِهِ ، وأن تستنفر بها القبائل ليشاركوا قريشاً فى أخذهم بالثأر من المسلمين . وقد استنفروا معهم أبا عَزَّة الشاعر الذى عفا عنه النبى من أسرى بدر ، كما استنفروا معهم من اتبعهم من الأحابيش . وأصرّت النسوة من قريش على أن يَسِرْنَ مع الغزاة ؛ فتشاور

تجهيز قريش للثأر من بدر

القوم ؛ فمن قائل بخروجهن : « فانه أقمن أن يحفظكم ويذكّركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » . ومن قائل : « يا معشر قريش ! هذا ليس برأى أن تعرّضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدّبْرةُ عليكم فتفتضحوا فى نسائكم » . وفيما هم يتشاورون صاحت هند بنت عُتْبة زوج أبى سفيان بمن يعترض خروج النساء : « إنك والله سَلِمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك . نعم ! نخرج فنشهد القتـال ولا يردّنا أحد كما ردّت الفتيات فى سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجُحْفَة (والجحفة مكان) فقتلت الأحِبّة يومئذ ، أنْ لم يكن من يحرّضهم . وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هند وهى أشدهن على الثأر حُرقة ، أنْ قُتل يوم بدر أبوها وأخواها وأعزّ الناس عليها . خرجت قريش تقصد المدينة فى ثلاثة ألوية عُقِدت فى دار النّدْوة ، وعلى اللواء الأكبر منها طَلْحة بن أبى طَلْحة وهم ثلاثة آلاف ليس بينهم غير مائة رجل من ثَقِيف ، وسائرهم من مكة سادتها ومواليها وأحابيشها . وقد أخذوا معهم من العدّة والسلاح الشىء الكثير وقادوا مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير ومن بينهم سبعمائة دارع .

تهيؤ قريش للقتـال

تهيأ القوم للمسير بعد أن أجمعوا عليه والعباس بن عبد المطلب عم النبى بينهم واقف على أمرهم مطّلع على كل دقيق وجليل من شأنهم . وكان العباس على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحس لمحمد عليه بشعور العصبية وشعور الاعجاب ، ويذكر له حسن معاملته إيّاه يوم بدر . ولعل الاعجاب والعصبية اللذين جعلاه يشهد مع محمد بيعة العقبة الكبرى ويخاطب الأوس والخزرج بانهم إن لم يكونوا مانعى ابن أخيه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه الى أهله يذودون عنه ذيادهم من قبل ، هما اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير فى هذا العدد العظيم إلى أن يكتب كتابا يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعدّتهم وعديدهم ، ويدفع به إلى رجل غِفَارى يسير به إلى النبى حتى

مسيرة قريش إلى المدينة

يبلغ المدينة فى ثلاثة أيام فيدفعه اليه . فأما قريش فسارت حتى بلغت الأبواء ومرت بقبر آمنة بنت وهب ، فدفعت الحمية بعض الطائشين منها إلى التفكير فى نبشه . لكن زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة حتى لا تكون سنة عند العرب ، وقالوا : لا تذكروا من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خُزاعة موتانا . وتابعت قريش مسيرها حتى بلغت العَقِيق ثم نزلت عند بعض السفوح من جبل أُحُدٍ على خمسة أميال من المدينة .

رسول العباس إلى النبي

وبلغ الغِفَارىّ الذى بعثه العباس بن عبد المطلب بكتابه المدينة فوجد محمداً بقبَاء ؛ فذهب اليه فوجده على باب المسجد هناك يركب حماره ، فدفع اليه الكتاب ، فقرأه عليه أبو كعب ، فاستكتمه محمد ما فيه وعاد إلى المدينة فقصد الى سعد بن أُبَىّ فى داره فقص عليه ما بعث العباس به اليه واستكتمه أيضاً إياه . على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سرًّا . وبعث محمد أَنَسًا ومُؤْنِسا ابنى فَضَالة يتَنَطَّسان خبر قريش فألفياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها . وبعث محمد من بعدهما الحُبَابَ بن المُنذِر بن الجَمُوح . فلما جاءه من خبرهم بمثل ما أخبره العباس أخذته عليه السلام الحيرة . وخرج سلمة بن سلامة ، فاذا طليعة خيل قريش تقترب من المدينة وتكاد تدخلها ، فعاد فخبّر قومه بما رأى ، وخشى الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التى أعدّت لها قريش خير ما أعدّت فى تاريخ حروبها ، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبى ، وحُرِست المدينة كلها طيلة الليل . فلما أصبحوا جمع النبى أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالاسلام — أو المنافقين على ما كانوا يدعون يومئذ وما نعتوا فى القرآن — وجعلوا يتشاورون : كيف يلقون عدوهم ؟

تشاور النبى وأهل المدينة

رأى النبى عليه السلام أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً

خارجها ، فاذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم . ورأى عبد الله بن أبيّ بن سلول رأى النبي وقال : « لقد كنا يارسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فاذا أقبل العدوّ رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه باسيافنا فى السكك . إن مدينتنا يارسول الله عذراء مافُضّت علينا قط وما دخل علينا عدوٌّ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا الى عدوّ قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يارسول الله وأطعنى فى هذا الأمر ، فانى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » .

القائلون بالتحصن بالمدينة

وكان كلام ابن أبيّ هذا هو رأى الأكابر من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار كما كان رأى الرسول عليه السلام . لكن فتيانا ذوى حميّة لم يشهدوا بدراً ورجالا شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملأ الايمان قلوبهم أن ليس لقوّة أن تغالبهم أو تتغلب عليهم أحبّوا الخروج الى العدوّ وملاقاته حيث نزل ، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج وتحصّنوا بالمدينة جبناً عن لقائه . ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا ببدر لا يعرف أهلهم من أمرهم شيئاً . قال قائل منهم : « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه مُجَرِّئة لقريش ، وهاهم قد وطئوا سعفنا ، فاذا لم نذبّ عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الابل حتى نزلوا بساحتنا ، أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكلَموا ! . لئن فعلنا لازدادوا جرأةً ولشنُّوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا » . وتعاقب الدعاة إلى الخروج يتحدّث كلٌّ حديثه ويذكرون جميعاً أنهم إذا ظفّرهم الله بعدوّهم فذلك الذى

والقائلون بالخروج للقاء العدو

حديث الشجاعة والاستشهاد

أرادوا وذلك الذى وعد الله رسوله بالحق ، وإن هم انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة .

وهزّ حديث الشجاعة وحديث الاستشهاد القلوب ، واستنفر روحُ الجماعة الأنفسَ لتجرى كلها فى هذا التيار ، ولتتحدّث كلها على هذه النغمة ، فلم يبق تلك اللحظة أمام الجمع الماثل فى حضرة محمد الممتلىء القلب بالايمان بالله ورسوله وكتابه وحسابه ، إلا صورة الظفر بهذا العدوّ المعتدى تفرقه سيوفهم أيدى سبا ، ويبعثه بأسهم بدداً شذَرَ مذَرَ ، وتستولى أيديهم على مغانمه ومحارمه ؛ وصورة الجنة أُعِدَّت للذين قُتلوا فى سبيل الله فيها ماتشتهى الأنفس وتَلَذّ الأعين يلقون فيها أحبتهم الذين شهدوا بدراً واستشهدوا فيها ، « لا يَسْمَعونَ فيها لَغْوًا ولا تَأْثِيما إلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا » . قال خَيْثَمَة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة . لقد أخطأتنى وقعةُ بدر وكنت عليها حريصاً ، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : إلْحَقْ بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ماوعدنى ربى حقاً . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة ؛ وقد كَبِرتْ سنّى ورقّ عظمى وأحببت لقاء ربى » . فلما ظهرت الكثرة واضحة فى جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدوّ وملاقاته قال لهم محمد : إنى أخاف عليكم الهزيمة ؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج . فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم . وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة ، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى اليه من عند الله .

تغلب القائلين بالخروج

وكان اليوم يوم جمعة ؛ فصلّى بالناس وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم . ودخل محمد بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه درعه وتقلّد سيفه ، والناس أثناء غيبته هذه فى جدل

يتحاورون . قال أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن مُعَـاذ وكانا ممن أشار بالتحصن بالمدينة للذين رأوا الخروج منها : « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره . فرُدُّوا الأمر اليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيـه هوى أو رأياً فأطيعوه » . ولان الداعون للخروج لما سمعوا ، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول إلى شيء قد يكون لله فيه آية . فلما خرج لهم وعليه درعه وقد تقلّد سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا : « ما كان لنا يارسول الله أن نخالفك فاصنع مابدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم اليك » . قال محمد : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . وما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمتَه أن يضعها حتى يحـكم الله بينه وبين أعدائه . أُنظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ماصبرتم » . وكذلك وضع محمد الى جانب مبدأ الشورى أساس النظام . فاذا تم للكثرة رأى بعد بحث ، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغاية ، بل يجب أن ينفَّذ الأمرُ على أن يُحسن من يتولى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه .

النظام مع الشورى

وتقدم محـمد بالمسلمين متجهاً إلى أُحُـد ، حتى نزل مكاناً به صنمان ، اسمهما الشيخان ، كان يُتَحَدَّث فى الجاهلية اليهما بشيخ أعمى وشيخة عمياء . وهناك بصُر بكتيبة لا يعرف أهلها ، فسأل عنها فقيل : هؤلاء حلفاء ابن أُبَيّ من يهود . قال عليه السلام : لا يُستنصَر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا . فانصرف اليهود عائدين إلى المدينـة . إذ ذاك جعل حلفاء ابن أُبى يقولون له : لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى من آبائك فكان رأيه مع رأيك ، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه . وصادف حديثهم هوى من نفس ابن أُبى ، فلما أصبحوا انخذل مع كتيبة من أصحابه . وبقى النبى ومعه المؤمنون حقـا وعِدّتهم سبعمائة ، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشيّ من أهـل مكة كلهم موتور من يوم بدر ، وكلهم على ثأره حريص .

خروج المسلمين

عود اليهود وابن أبى إلى المدينة

تنظيم النبي الصفوف

وسار المسلمون مع الصبح حتى بلغوا أحداً فاجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهرهم. وجعل محمد يَصُفُّ أصحابه وقد وضع منهم خمسين من الرماة على شِعْب في الجبل وقال لهم: «احموا لنا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّبْل، فان الخيل لا تُقدِم على النبل». ثم نهى غير الرماة أن يقاتل أحد حتى يأمر هو بالقتال.

فأمّا قريش فصفّت صفوفها وجعلت على الميمنة خالد بن الوَليد وعلى الميسرة عِكْرِمة بن أبي جهْل، ودفعت اللواء إلى عبد العُزَّى طَلْحَة بن أبي طلحة. وجعلت نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضربن بالدفوف والطبول، فيكنّ تارة في مقدمة الصفوف وتارة في مؤخرتها، وعلى رأسهن هند بنت عُتبة زوج أبي سفيان وهن يقلن:

قريش ونساؤها

ويهاً بني عبد الدّار ويهاً حُماة الأدبار
ضَرْباً بكلّ بتّار

ويقلن:

إن تُقبِلُوا نُعَانِقْ ونَفْرُش النمارِقْ
أو تُدْبِروا نُفَارِق فراق غير وَامِق

واستعد الفريقان للقتال وكل يحرّض رجاله. فأمّا قريش فتذكر بدراً وقتلاها، وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره. ومحمد يخطب ويحض على القتال ويَعِد رجالَه النصر ماصبَروا. مدّ يده بسيف فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام اليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دُجَانَة سِمَاكُ ابن خَرَشَة أخو بني ساعدة فقال: وما حقه يارسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدوّ حتى ينحني. وكان أبو دجانة رجلا شجاعاً له عصابة حمراء إذا

ابو دجانة وعصابة الموت

اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، وأنه أخرج عصابة الموت . فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصّب بها رأسه وجعل يَتَبَخْتَر بين الصفّين على عادته إذ يختال عند الحرب . فلما رآه محمد يتبختر قال : « إنها لمِشيَةٌ يُبْغِضُهَا الله إلا فى مثل هذا المَوْطِنِ » .

وكان أوّل من أنشب الحرب بين الفريقين أبو عامر عمرو بن صَيْفِى الأوسىّ ، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يحرّض قريشاً على قتال محمد ؛ ولم يكن شهد بدراً ، فخرج إلى أُحد فى خمسة عشر رجلا من الأوس وفى عبيد أهل مكة . وكان يزعم أنه إذا نادى أهله من الأوس المسلمين الذين يحاربون فى صف محمد ، استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً . فخرج فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ! . ثم نشب القتال بينهم . وحاول عبيد قريش وحاول عِكْرِمة ابن أبى جهل ، وكان على الميسرة ، أن يأخذ المسلمين من جناحهم ، لكن المسلمين رشقوهم بالحجارة حتى ولّى أبو عامر مدبرا . هنالك صاح حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال يوم أُحد : أَمِتْ ، أَمِتْ ، واندفع إلى قلب جيش قريش . فلقيه طلحة بن أبى طلحة حامل لواء أهل مكة فضربه حمزة بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى ، فقطّها حمزة بسيفه ؛ فضم طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره ، فذفّف عليه حمزة بضربة أردته صريعاً . واندفع أبو دُجانة وفى يده سيف النبى وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، حتى شقّ صفوف المشركين ، فرأى إنسانا يخمش الناسَ خمشاً شديداً ، فحمل عليه بالسيف فوَلْوَل ، فاذا هند بنت عتبة فارتد عنها مُكْرِماً سيفَ الرسول أن يضرب به امرأة .

حمزة وابو دجانة وبلاؤهما

واندفعت قريش إلى القتال أيضاً ، يثور فى عروقها طلب الثأر لمن مات من أشرافها وساداتها منذ عام ببدر . ووقفت بذلك قوتان غير متكافئتين فى العدد ولا فى العُدّة . يحرّك الكثرة العظيمة ثأرٌ لا يهدأ منذ

بدر فى النفوس ثائره ، ويحرّك الفئة القليلة عاملان : الدفاع عن العقيدة وعن الايمان وعن دين الله ، والدفاع عن الوطن وعما يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح . فأما المطالبون بالثأر فكانوا أعزّ نفراً وأكثر جنداً ، وكان من ورائهم الظُّعُن يحرّكنهم وقد أعدّت غير واحدة منهن مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها ممن فجعها فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز . كان حمزة ابن عبد المطلب من أعظم أبطال العرب وشجعانهم ، وكان قد قتل يوم بدر عُتْبة أبا هند كما قتل أخاها ونكّل بكثير من الأعزة عليها . وكان يوم أُحُد كما كان يوم بدر أسد الله وسيفه البتّار . قتل أرْطاةَ بن عبد شُرَحبيل وقتل سِبَاع بن عبد العُزّى بن الغُبْشَانى ، وجعل يهدّ كل من لقى بسيفه فتسيل من جسده روحه . وكانت هند بنت عُتْبة قد وعدت وَحْشيًّا الحَبَشىّ مولى جُبَيْر خيراً كثيراً إن هو قتل حمزة ، كما قال له جبير بن مُطْعِم مولاه وكان عمه قد قُتل ببدر : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق . روى وحشىّ قال :

مقتل حمزة سيد الشهداء

« خرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أُخطىء بها شيئاً . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته فى عُرْض الناس مثل الجمل الأورق يَهُدّ الناس بسيفه هدًّا ، فهززت حربتى ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثُنَّتِه حتى خرجت من بين رجليه وتركته وإيّاها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ولم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكة أُعتقت » .

قزمان وقتله نفسه

أمّا المدافعون عن الوطن فكان لهم مثلٌ فى قُزْمان أحد المنافقين الذين أظهروا الاسلام . تخلّف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأحد ، فلما أصبح عَيّره نساء بنى ظَفَر فقلن : يا قُزْمان ، ألا تستحى لما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ! خرج قومك فبقيت فى الدار . فدخل قزمان بيته مغيظاً محنقاً فأخرج قوسه

وجَعْبته وسيفه ، وكان يعرف بالشجاعة ، فخرج يعدو حتى كان عند الجيش والنبي يسوّي صفوف المسلمين ، فتخطّاها حتى كان فى الصف الأوّل منها فكان فيه . وكان أوّل من رمى بنفسه من المسلمين ، وجعل يرسل نبلا كأنها الرماح . فلما كان آخر النهار فضّل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن أصاب من قريش سبع رجال فى سويعة غير من قتل منهم بَدْء المعركة . ومرّ به أبو الغَيْداق وهو يُسلم الروح فقال له : هنيئاً لك الشهادة يا قزمان ! . قال قزمان : إنى والله ماقاتلت يا أبا عمر على دين . ما قاتلت إلا على الحِفَاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا وتطأ سعفنا . ووالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت .

أمّا المؤمنون حقًّا ، وكان عددهم لا يزيد على سبعمائة يقاتلون ثلاثة آلاف ، فقد رأيت من فعال حمزة وأبى دُجانة ما يصوّر لك صورة من قوّتهم المعنوية ؛ قوة انثنت أمامها صفوف قريش وكأنها الخيزران ، وتراجع أمامها أبطال قريش وكانوا ابين العرب مضرب المثل فى الاقدام والشجاعة . وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شىء حتى أحيط بنسائهم وحتى وقع الصنم الذى احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذى كان يحمله ومن خلال الهودج الذى كان يحتويه . والحق أن ظفر المسلمين فى صبيحة يوم أُحد كان معجزة من معجزات الحرب ، قد يفسّرها بعضهم بمهارة محمد فى وضعه الرماة فى شِعْب الجبل يصدّون الفرسان بالنبل فلا يتقدمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم . وهذا حق . ولكن من الحق أيضاً أنّ ستّ المائة من المسلمين الذين هاجموا عدداً يوازى خمسة أمثالهم ، وعُدّة وعديداً فى مثل هذه النسبة ، إنما دفعهم إلى معجزات البطولة التى أتوا شىء أعظم من مهارة القيادة ؛ ذلك هو الايمان ، الايمان الصادق بأنهم على الحق . ومن آمن بالحق لم تزعجه قوة مادّية مهما عظمت ، ولم تضعضع من عزمته كل قوّات الباطل وإن اجتمعت .

ظفر المسلمين صبيحة أحد

وهل رأيت مهارة القيادة وحدها كانت تُغْنى والرماة الذين وضعهم النبى فى الشِّعب لم يكونوا إلا خمسين . فلو أن مائتين أو ثلاثمائة رجل هاجموهم مستقتلين لما صمدوا ولا صبروا أمامهم . لكن القوة الكبرى ، قوة الفكرة ، قوة العقيدة ، قوة الايمان الصادق بالحق العلىّ الأعلى ، هذه القوة لا غالب لها ما أراد صاحبها وجه الحق وحده . ولذلك تمزقت قريش فى ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات سبعمائة مسلم ، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات . وتبع المسلمون عدوّهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتى بَعُدَ عن معسكره ، فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمة ، وما أكثر ما كانت ! وصرفهم ذلك عن اتباع عدوّهم ابتغاء عرَض الدنيا .

قوة العقيدة والايمان

ورآهم الرماة الذين أمرهم الرسول ألا يبرحوا الشِّعب ولو رأوه وأصحابه يقتلون ، فقال بعضهم لبعض وقد سال لمرأى الغنيمة لعابهم : « لِمَ تقيمون ها هنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » . قال قائل منهم : « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ؟ » . قال الأولون : « لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذلّ الله المشركين » . واختلفوا ؛ فخطبهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْر ألا يخالفوا أمر الرسول ؛ فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر دون العشرة . واشترك المنطلقون فى النهب وشُغِلوا كما شغل سائر المسلمين به . إذ ذاك اهتبل الفرصةَ خالد بن الوليد ، وكان على فرسان مكة ، فشد برجاله على مكان الرماة فأجلاهم ، والمسلمون مايزالون نسوا إيمانهم ونسوا الوطن ولم يبق أمامهم إلا هذه المغانم يَعُبُّون منها حتى لم يبق رجل منهم وقع فى يده شىء إلا أخذه . وإنهم لكذلك وقد صاح ابن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين حتى عاد منهم كل هزيم وحتى أثخنوا فى المسلمين ضرباً وقتلا . هنالك دارت الدائرة ؛ فألقى كل

اشتغال المسلمين بالغنيمة

مخالفة الرماة مرالنبى وأخذ خالد بن الوليد مكانهم

الدائرة تدور على المسلمين

مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد إلى سيفه يسلّه ليقاتل به. ولكن هيهات هيهات! لقد تفرّقت الصفوف وتمزقت الوحدة وابتلع البحر اللُّجِّىّ من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين كانت الى ساعة تقاتل بأمر ربها تَنْضَح عن إيمانها، وهى الساعة تقاتل لتنجو من براثن الموت ومخالب المذلة. وكانت تقاتل متراصّة متضامنة، وهى الآن تقاتل مبعثرة متناكرة. وكانت تقاتل تحت قيادة قوّية حازمة حكيمة، وهى الآن تقاتل ولا قيادة لها. فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه ولا يكاد يعرفه. وصاح صائح بالناس: إن محمداً قد قُتل، فازدادت الفوضى وعظمت البليّة، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً ولا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش. قتل المسلمون مواطنهم المسلم حُسَيْل بن جابر أبا حُذَيْفة وهم لا يعرفونه. وكان أكبرهَمّ كل مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصَم الله من أمثال علىّ بن أبى طالب.

ازدياد قوة قريش المعنوية

وازدادت قوة المشركين المعنوية حتى صاح حامل لوائهم أبو سعد ابن أبى طلحة: أتزعمون أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار! واللات إنكم لتكذبون. ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقًّا فليتقدم منكم من يقاتلنى. وسمعه علىّ فضربه بسيفه ضربة فلَقت هامته. فتقدمت عَمْرَة بنت علْقَمَة الحارثيّة فتناولت اللواء من يد طلحة ثم أخذه منها صُوَاب الحبشىّ فقتله سعد بن أبى وقّاص. فتناوله بعده أربعة من قريش كان نصيبهم الموت متتابعين.

على أن قريشاً ما لبثت أن سمعت بمقتل محمد حتى تدافعت تدافع السيل إلى الناحية التى كان فيها، وكلٌّ يريد أن يكون له فى قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به.

ما أصاب رسول الله

هنالك أحاط المسلمون القريبون من نبيهم به يدفعون عنه ويحمونه، وقد عاد الايمان فملأ نفوسهم وملك قلوبهم وحبّب اليهم الموت وهوّن عليهم الحياة الدنيا. وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا الحجارة التى تقذفها

قريش قد أصابت النبيّ فوقع لشِقِّه فأصيبت رَبَاعِيَتُه وشُجّ فى وجهه وكُلِمَتْ شفته ودخلت حلَقتان من المِغْفَر الذى يستر به وجهه فى وجنته — وكان رامى الحجر الذى أصابه عُتْبَة بن أبى وَقّاص — فمالك وسار وأصحابه من حوله ، فاذا به يقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . هنالك أسرع إليه علىّ بن أبى طالب فأخذ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى ، وجعل يسير وأصحابه ، متسلقين أُحداً ، ناجين من العدوّ واتباعه إياهم .

استماتة المؤمنين فى الدفاع عن الرسول

وفى لحظة قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا فى الدفاع عن رسول الله استماتةً لا يُقهَر صاحبها أبداً . كانت أُم عُمَارة الأنصارية قد خرجت أوّل النهار ومعها سِقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تسقى منهم من استسقى . فلما انهزم المسلمون ألقت سقاءها واستلّت سيفاً وقامت تباشر القتال تذُبّ عن محمد بالسيف وترمى عن القوس حتى خلصت الجراح إليها . وتَرّسَ أبو دُجانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنبل يقع فيه . ووقف سعد بن أبى وقّاص إلى جانب محمد يرمى بالنبل دونه ومحمد يناوله النبل ويقول له : إرم فِدَاك أبى وأُمى . وكان محمد قبل ذلك يرمى بنفسه عن قوسه حتى اندقّت سِيَتها . هذا ، فأما الذين ظنوا محمداً قد مات ومن بينهم أبو بكر وعمر فانتحوا الجبل وألقوا بأيديهم . فرآهم أنس بن النَّضر فقال : ما يُجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل القوم فقاتل قتالا شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير ، حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضُرِب سبعين ضربة ، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أُخته ، عرفته من بنانه .

زعم قريش موت النبى

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت محمد ، فراح أبو سفيان يفتقده فى القتلى . ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذّب أحد منهم خبر قتله إطاعة لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه . على

أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحية أبى دجانة ومن معه فعرف محمداً حين رأى عينيه تَزْهَران تحت المغفَر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله. فأشار النبي اليه ليسكت. لكن المسلمين مالبثوا أن عرفوا حتى نهضوا بالنبي ونهض معهم نحو الشِّعب. ومن حوله أبو بكر وعمر وعليّ بن أبى طالب والزُّبَير بن العوّام ورهط غيرهم. وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها. صحيح أن أكثرهم لم يصدّقها وحسبها صيحةً أريد بها شدّ عزائم المسلمين، إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد والذين ساروا معه. وقد أدركهم أُبىّ بن خلَف وهو يقول: أين محمد؟ لانجوت إن نجا!.

نجاة الرسول ومن معه

فطعنه الرسول بحربة الحارث بن الصِّمَّة طعنة جعلته يتقلّب على فرسه ويعود أدراجه ليموت فى الطريق. فلما انتهى المسلمون الى فم الشعب خرج علىّ فملأ دَرَقته ماء فغسل محمد به الدم عن وجهه وصبّ منه على رأسه؛ ونزع أبو عبيدة بن الجرّاح حَلْقتى المِغفَر من وجه الرسول فسقطت ثنيّتاه. وإنهم لكذلك إذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل، فقاتلهم عمر ابن الخطاب ورهط من أصحاب الرسول فردوهم. وازداد المسلمون فى الجبل تصعيداً وقد نهكهم التعب وهدّهم الجهد حتى صلى النبي الظهر قاعداً من الجراح التى أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

فأما قريش فطارت بنصرها سروراً وحسبت نفسها انتقمت لبدر أشد الانتقام؛ حتى صاح أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والموعد العام المقبل. فأمّا هند

التمثيل بقتلى المسلمين

بنت عتبة زوجه فلم يَكْفِها النصر، ولم يكفها قتلُ حمزة بن عبد المطلب، بل انطلقت هى والنسوة اللاتى معها يمثّلن بالقتلى من المسلمين يُجَدّعن الآذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطاً، ثم إنها بقَرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعل النسوة ممن معها، بل ما فعل الرجال كذلك

من الفظائع ، أن تبرّأ أبو سفيان من تَبِعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه ، بل قال يخاطب أحد المسلمين : إنه قد كان فى قتلاكم مَثْلٌ والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت .

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها وعاد المسلمون الى الميدان لدفن قتلاهم . وخرج محمد يلتمس عمه حمزة . فلما رآه قد بُقر بطنه ومُثّل به حزن من أجله أشد الحزن وقال : لن أصاب بمثلك أبداً . ما وقفتُ موقفاً قط أغيَظَ إلىّ من هذا . ثم قال : والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثّلن بهم مُثلة لم يمثّلها أحد من العرب . وفى هذا نزل قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » . فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المُثلة ؛ وسجّى حمزة ببرده وصلى عليه . وجاءت أخته صفية بنت عبد المطلب فنظرت اليه وصلّت عليه واستغفرت له . ودُفن حمزة ، وأمر النبى بالقتلى فدفنوا حيث لقوا مصارعهم . وانصرف المسلمون الى المدينة ومحمد على رأسهم ، تاركين وراءهم سبعين من القتلى ؛ يحزّ فى نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة بعد نصر ، ومن مذلة وهوان بعد ظفر لا َظفرَ مثله ؛ وذلك كله لعصيان الرماة أمر النبى واشتغال المسلمين عن العدوّ بغنائمه .

حزن محمد على حمزة

دفن القتلى والعود الى المدينة

ودخل النبى الى بيته وجعل يفكر . ها هم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يُظهرون السرور أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه . وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه ، وهذا هو يوشك أن يضطرب ويتزعزع . وهذا عبد الله بن أُبَىّ بن سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أُحد ولم يشترك فى القتال بدعوى أن محمداً لم يسمع رأيه ، أو أن محمداً غضب على مواليه من اليهود . فلو أن هزيمة أُحُد

لا بد من استرداد هيبة المسلمين

بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لهان أمر محمد وأصحابه على العرب من ناحيـة ، ولتضعضع سلطانهم بيثرب من ناحية أخرى ، ولكانوا عرضةً لاستخفاف قريش بهم وإرسالها دعاية السخر والاستهزاء منهم فى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً . أضف إلى هذا ما قد يكون من اجتراء المشركين وعبّاد الأوثان على دين الله فتكون الطامة الكبرى . فلا بد إذاً من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أُحُد وتردّ إلى المسلمين قوتهم المعنوية ، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الهيبة ، وتعيد إلى محمد وأصحابه سلطانهم بيثرب قويًّا كما كان .

الخروج فى الغد الى العدو

فلما كان الغد من يوم أُحُد ؛ وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شـوال ، أذّنَ مُؤَذّنُ النبى فى المسلمين بطلب العدوّ واستنفرهم لمطاردته ، على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة . وخرج المسلمون . فوقع فى رُوع أبى سُفْيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد نخاف لقاءهم . وبلغ محمد حَمْراء الأسد ، وكان أبو سفيان وأصحابه بالرَّوْحاء ، فمرّ به مَعْبَد الخُزاعِىّ وكان قد مر بمحمد ومن معه ، فسـأله عن شأنهم فأجابه معبد — وكان ما يزال على الشرك — : « إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلّف عنه ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حَنَقاً ومنكم للثأر طلباً » . على أن أبا سفيان فكر من جانبـه فيما يكون لفراره من محمد ومن عدم مواجهته إيّاه بعد انتصاره علـيه بأُحُد من الأثر . أفلا تقول العرب فى قريش ما كان يودّ هو أن تقوله فى محمد وأصحابه ! ولـكن هَبْهُ رجع إلى محمد فهزمه المسلمون ، إذاً ليـكونن ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعـده قائمة أبداً . فلجأ إلى الحيلة ، فبعث مع ركب من عبـد القَيْس يقصدون المدينة أن يبلّغوا محمداً أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم . فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحَمْراء الأسد لم يتضعضع عزمه ولم تَهِن قوته ، بل ظل فى مكانه يوقد النـار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدل

قريشاً على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم . وأخيراً تذعذعت[1] همة أبى سُفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحُد وعادوا أدراجهم ميممين مكة . ورجع محمد إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانة تزعزعت على إثر أحُد ، وإن كان المنافقون قد بدءوا يرفعون رءوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم : إذا كانت بدر آية من الله برسالة محمد ، فما ذا عسى أن تكون آية أحُد وما ذا تكون دلالتها ؟ !

---

(١) تفرقت

الفصل السادس عشر

آثار أحـــــــد

ائتمار القبائل المجاورة بالمسلمين — غزوة بنى أسـد — أمر الهذلى
مقتل خبيب وأصحابه بالرجيع — مقتـل المسلمين ببئر معونة
إجلاء بنى النضير عن المدينـة — غزوة بدر الآخرة
غزوة دومة الجنـدل

عاد أبو سفيان من أحُد إلى مكة وقد سبقته اليها أخبار النصر وهو ممتلىء النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر . ولم يلبث أن بلغها حتى قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته ، وبهـا رفع إلى كبير آلهتهم هُبَل آى الثناء والحمد . ثم حلَق لِمتّه ورجع إلى داره موفيا نذره ألا يقرَب زوجه حتى ينتصر على محمد . أمّا المسلمون فألفوا المدينة قد تنكر لهم الكثير من أمرها ، رغم مطاردتهم عدوّهم وصمودهم له ثلاثة أيام متتابعة من غير أن يجترىء على الرجعة اليهم ، وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم . ألفوا المدينة وقد تنكر لهم الكثير من أمرها وإن بقى سلطان محمد فيها السلطان الأعلى . وشعر عليه السلام بدقة الموقف وحرج المركز ، لا فى المدينة وحدها ، بل عند سائر قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها ، بل ردّت أُحد اليها من السكينة ما يسمح لها أن تفكر فى معارضته ومناوأته . لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار العرب جميعاً ، على ما يمكّنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم فى النفوس .

سياسة محمد بعد احد

سرية أبي سلمة ابن عبد الأسد

وكان أوّل مابلغه بعد شهرين من أحُد أن بني أسد، وعلى رأسهم طُلَيْحة وسَلَمة ابنا خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعونهم إلى مهاجمة المدينة والسير إلى محمد في عُقْر داره ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من نَعَم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدينتهم. وإنما شجّعهم على ذلك اعتقادهم أن محمداً وأصحابه ما يزالون مضعضعين من أثر أُحُد. فما لبث النبي أن اتصل به الخبر حتى دعا اليه أبا سَلَمة بن عبد الأسَد وعقد له لواء سريّة تبلغ عِدّتها مائة وخمسين منهم أبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبي وَقّاص وأُسَيْد ابن حُضَير وأمرهم بالسير ليلا والاختفاء نهاراً وسلوك طريق غير مألوف حتى لا يطّلع أحد على خبرهم، فيَفْجئوا العدوّ بالاغارة عليه على غرّة منه. ونفّذ أبو سَلَمة ما أُمر به حتى جاء القوم ولم يستعدّوا لنضال، فأحاط بهم في عماية الصبح، وحضّ رجاله وحرّضهم على الجهاد؛ فلم يستطع المشركون أن يثبتوا لهم. فوجّه لواءين في طلبهم وطلب الغنيمة، وأقام هو ومن معه حتى عاد المطاردون بما غنموا فنحّوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل، واقتسموا الباقي ورجعوا إلى المدينة ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما ضيّعت أُحُد. على أن أبا سلمة لم يعش بعد السريّة طويلا؛ فقد كان جُرح بأحد ولم يكن التئام جرحه إلا ظاهراً. فلما أجهد نفسه نَغَر الجرح وظل به حتى قضى عليه.

سرية عبد الله ابن أنيس

واتصل بمحمد من بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلي مقيم بنَخْلة أو بعُرَنَة وأنه يجمع الناس ليغزوه، فدعا إليه عبد الله بن أُنَيْس وبعثه يتجسس حتى يقف على جليّة الخبر. وسار عبد الله حتى التقى بخالد وهو في ظُعُن يرتاد لهن منزلا. فلما انتهى إليه سأله خالد: من الرجل؟ فأجابه: أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك. فلم يخف خالد أنه يجمع الجموع ليغزو المدينة. ولما رآه عبد الله في عزلة من الرجال

وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للسير معه ، حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله ، ثم ترك ظعائنه منكبات عليه يبكينه ، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر . وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمناً ثم فكرت تحتال لتثأر له .

فى هذا الظرف وفد رهط من قبيلة تجاورهم إلى محمد يقولون له : إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلّمونا شرائعه ويقرئونا القرآن . وكان محمد يبعث من أصحابه كلما دُعى الى ذلك ليؤدوا هذه المهمة الدينية السامية ، وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق وليكونوا لمحمد وأصحابه عيوناً على خصومهم وأعدائهم ،على نحو ما رأيت من ذلك كله فيمن بعثهم إلى المدينة على أثر العقبة الكبرى . لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط وساروا معهم ، حتى إذا كانوا جميعاً على ماء لهُذَيل بالحجاز بناحية تدعى الرَّجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هُذَيلا . ولم يَرُع المسلمين الستة وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم . فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا . لكن هُذَيلا قالت لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألاّ نقتلكم . ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكة فُرَادى انما هو المذلة والهوان وما هو شرّ من القتل . فأبوا ما وعدت هذيل وانبروا لقتالها وهم يعلمون أنهم فى قلة عددهم لا يُطيقونه . وقتلت هذيل ثلاثة منهم ، ولان الثلاثة الباقون ، فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرَى وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها . فلما كانوا فى بعض الطريق انتزع أحد المسلمين الثلاثة ، عبد الله ابن طارق ، يده من غُلّ الأسر ، ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم وطفقوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه . أما الأسيران الآخران فقدمت بهما هُذَيل مكة وباعتهما من أهلها . باعت زيد بن الدَّثِنَّة لصَفْوان بن أُميَّة الذى اشتراه

يوم الرجيع (س ٦٢٥ م)

ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، فدفع به الى مولى يقال له نَسطَاس ليقتله . فلما قُدِّم سأله أبو سفيان : أنشُدك الله يازيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟ . قال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تُصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى !. فعجب أبو سفيان وقال : ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً . وقتل نَسطاس زيداً ، فذهب شهيد أمانته لدينه ولنبيه . أما خُبَيْب فحبس حتى خرجوا به ليصلبوه ، فقال لهم : إن رأيتم أن تَدَعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا ؛ فأجازوه ما أراد ؛ فركع الركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال : أمَا والله لولا أن تظنوا أنى انما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . ورفعوه الى خشبة ، فلما أوثقوه اليها نظر اليهم بعين مُغضَبَة وصاح : اللهم احصِهم عدداً ، واقتُلهم بَدَداً ، ولا تغادر منهم أحداً . فأخذت القوم الرجفة من صيحته واستلقوا الى جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته ثم قتلوه . وكذلك استشهد خبيب كما استشهد زيد فى سبيل بارئه وفى سبيل دينه ونبيه ؛ وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران كان فى استطاعة صاحبيهما أن يستنقذاهما من القتل إذا رضيا الرِّدة عن دينهما ، لكنهما فى يقينهما بالله وبالروح وبيوم البعث ، يوم تُجزَى كل نفس بما كسبت ، ولا تَزِر وازرة وزر أُخرى ، رأيا الموت وهو غاية كل حى خير ما يكون غاية للحياة فى سبيل العقيدة وفى سبيل الايمان بالحق ؛ ولكنهما آمنا بأن دمهما الزكى الطهور الذى أريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوتهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطِّمون أصنامها ويطهِّرونها من رجس الوثنية والشرك ، ويردُّون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من قداسة وتنزُّه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله .

قتل زيد وخبيب

حزن المسلمون وحزن محمد لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا

فى سبيل الله بغدر هُذَيل بهم ، وأرسل حسان بن ثابت أشعاره يرثى فيها خُبيبا وزَيدًا أحرّ الرثاء . وازداد محمد تفكيراً فى أمر المسلمين وخشى إن تكررت مثل هذه الأمور أن تستخفّ العرب بشأنهم . ولا شىء أقتل لهيبتك من استخفاف الغير بشأنك . وإنه لفى تفكيره إذ قدم عليه أبو بَرَاء عامر بن مالك مُلَاعب الأسنَّة ، فعرض محمد عليه أن يُسلم فلم يقبل ، ولكنه لم يُظهر للاسلام عداوة ؛ بل قال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فخاف محمد على أصحابه أهلَ نجد وخشى أن يغدروا بهم ماغدرت هُذيل بخبيب وأصحابه . ولم يقتنع ولم يجب طلب أبى براء حتى قال : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك . وكان أبو بَرَاء رجلا مسموع الكلمة فى قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه . وبعث محمد المُنْذِر بن عمرو أخا بنى ساعدة فى أربعين رجلا من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا بئر مَعُونة بين أرض بنى عامر وحَرَّة بنى سُلَيْم . ومن هناك بعثوا حَرام بن مِلْحَان إلى عامر بن الطُّفَيل بكتاب محمد . فلم ينظر عامر فى الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ بنى عامر كى يقتلوا المسلمين . فلما أبوا أن يخفِرُوا ذمة أبى بَرَاء وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين فى رحالهم . فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم لم ينج منهم إلا كَعْب بن زَيد : إذ تركه ابن الطفيل وبه رمق فعاش ولحق بالمدينة ، وإلا عمرو بن أُمَيَّة الذى أعتقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه . ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته بعد انطلاقه ، فحسبهما من القوم الذين عَدَوْا على أصحابه فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وتابع مسيرته حتى بلغ المدينة فأخبر الرسول عليه السلام بما صنع ، فاذا الرجلان عامريّان من قوم أبى براء ، وإذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدى دِيَتهما .

يوم بئر معونة
(س ٦٢٥ م)

ووجد محمد لقتلى بئر معونة أشد الوجد وحزن من أجلهم أعمق الحزن ، وقال : هذا عمل أبى براء ، لقد كنت لهذا كارها متخوّفا . وشق على أبى براء إخفار عامر بن الطفيل إياه ، حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامراً بالرمح انتقاما منه لأبيه . وبلغ من حزن محمد أنه ظل شهراً كاملا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قَتَلَتِهِم . وتأثر المسلمون جميعاً لهذه الكارثة التى أصابت إخوانهم فى الدين وإن آمنوا بأنهم جميعاً استشهدوا وبأنهم جميعاً لهم الجنة .

يهود المدينة ومنافقوها

على أن أهل المدينة من المنافقين واليهود قد وجدوا فيما أصاب المسلمين بالرَّجيع وبئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأُحُد وما أنساهم نصر المسلمين على بنى أسد وما أضعف فى نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه . وفكّر النبىّ عليه السلام فى هذه الحالة تفكير سياسى دقيق النظر بعيد مرامى الرأى ؛ فليس شىء أشد على المسلمين يومئذ خطراً من أن تضعف فى نفوس مُساكنيهم بالمدينة هيبتهم ، وليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلى يوشك أن يثير حرباً أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها . ثم إنه قد رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر . فقدّر أن لاشىء خير من أن يستدرجهم لتتضح نيّاتهم . ولما كان اليهود من بنى النَّضير حلفاء لبنى عامر ، فقد ذهب إلى محلتهم على مقربة من قباء فى عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلىّ ، وطلب اليهم معاونتهم فى دية القتيلين اللذين قتل عمرو بن أمية خطأً ومن غير أن يعلم أن محمداً أجارهما .

ائتمار اليهود بمحمد

فلما ذكر لهم ماجاء فيه أظهروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لاجابته . لكنه مالبث أثناء تبسّط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون ويذهب أحدهم إلى ناحية ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ويدخل أحدهم (عمرو بن جِحَاش بن كعب) البيت الذى كان محمد مستنداً إلى

جداره . إذ ذاك رابه أمرهم ، وزاده ريبة ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به . لذلك مالبث أن انسحب من مكانه تاركا أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره . أمّا اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب محمد ولا ما يصنعون بهم . فان هم غدروا بهم فمحمد لا ريب منتقم منهم شرّ انتقام . وإن هم تركوهم فلعل ائتمارهم بحياة محمد وأصحابه لا يكون قد افتضح فيظل ما بينهم وبين المسلمين من عهد قائماً . وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رابهم من غير أن يشيروا إلى شيء منه . لكن أصحاب محمد استبطئوه فقاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن محمداً دخلها وأنه قصد توًّا إلى المسجد فيها ، فذهبوا اليه . فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به وتنبهوا إلى ما كانوا رأوا ، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول وما أوحى اليه . وبعث النبي يدعو اليه محمد بن مَسْلَمَة وقال له : « إذهب إلى يهود بنى النَّضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجّلتكم عشراً ، فمن رُئى بعد ذلك ضربتُ عنقه » . وأُبلِسَت بنو النَّضير فلم يجدوا لهذا الكلام دفعاً ولم يحيروا جوابا إلا أن قالوا لابن مَسلَمة : يامحمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس . وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبلُ فى حرب الخزرج . فكان كل ما أجاب به ابن مسلمة : تغيّرت القلوب .

إنفاذه إلى بنى النضير بالجلاء

ابن أبي يحرض اليهود

ومكث القوم على ذلك أياماً يتجهّزون . وإنهم لكذلك إذ جاء رسولان لعبد الله بن أُبى يقولان : لاتخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ، فان معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم . وتشاورت بنو النضير فى مقالة بن أُبى وهم

أشـد ما يكونون حيرة . فمنهم من لم يكن له بابن أبى أية ثقة . ألم يَعِدْ بنى قَيْنُـقَاع من قبلُ مثل ما يعد بنى النَّضير اليوم ، فلما جدّ الجِدّ تخلى عنهم وولّى مدبراً ! وهم يعلمون أن بنى قُرَيْظَة لا ينصرونهم لما بينهم وبين محمد من عهد . ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خَيْبَر أو إلى محلة قريبة استطاعوا أن يعودوا حين يُثمر نخيلهم الى يثرب يجنون ثمره ويعودون أدراجهم فلا يكونون قد خسروا كثيراً . قال كبيرهم حُيَىّ بن أخْطَب : كلا ! بل أنا مرسل الى محمد : إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ، فليصنع مابداله . وما علينا إلا أن نَرُمّ حصوننا نُدْخل إليها ماشيتنا وندرّب أزقتنا وننقل الحجارة اليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سـنة كاملة . وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

حصار بنى النضير

فأخذ المسلمون السلاح وساروا اليهم فقاتلوهم عشرين ليلة كانوا أثناءها إذا ظهروا على الدرب أو الدار تأخر اليهود الى الدار التى من بعـدها بعد تخريبهم إياها . ثم أمر محمد أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يُحَرّقوه حتى لا تبقى اليهود فى شدة تعلقها بأموالها تتحمس للقتال وتـقدم عليه . وجزع اليهود ونادوا : يامحمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ! . وفى ذلك نزلت هذه الآية من سورة الحشر : «ماقَطَعْتُم من لِينَةٍ أو تَرَكْتُمُوهَا قائِمَةً على أصُولِهَا فبإذنِ الله ولِيُخزِىَ الفَاسِقِين» . وعبثاً انتظر اليهود نصر ابن أبى أو تقدُّم أحد من العرب لنجدتهم حتى لم تبق لديهم ريبة فى سوء مصيرهم إذا هم أصرّوا على متابعة القتال . فلما ملأ اليأس قلوبهم رعباً ، سألوا محمداً أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المـدينة . فصالحهم محمد على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ماشاءوا من مال أو طعـام أو شراب ، ليس لهم غيره . واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُيَىّ بن أخْطَب ، فنزل منهم من نزل خيبراً ،

جلاء اليهود عن المدينة

وسار آخرون الى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً، ثم كان ماخلّت اليهود من الأرض التى كانوا يملكون خيرَ ما غنم المسلمون. على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، ولذلك لم تقسم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء. وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن استبقى قسما خُصّصت غلّته للفقراء والمساكين. وبذلك أصبح المهاجرون فى غنًى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثروتهم. ولم يشترك فى القسمة من الأنصار إلا أبا دُجانة وسهل بن حنَيف فقد ذكرا فقراً فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين. ولم يُسلم من يهود بنى النّضير غير رجلين، أسلَمَا على أموالهما فأحرزاها.

ليس عسيراً أن يقدّر الانسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بنى النضير عن المدينة بعد الذى قدّمنا من تقدير الرسول عليه السلام لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رءوسهم كلما أصاب المسلمين شر، ومن التهديد بالحرب الأهلية اذا غزا المسلمين غاز من الأعداء. وفى جلاء بنى النضير نزلت سورة الحشر وجاء فيها: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ. لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ». وتجرى السورة بعد ذلك بذكر الايمان وسلطانه؛ الايمان بالله وحده لا تعرف النفس الانسانية التى تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطاناً: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ

إلاّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

كاتب سر النبى

كان كاتب سرّ النبى إلى حين إجلاء بنى النضير عن المدينة من اليهود ليتسنّى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريده . فلما جلا اليهود خاف النبى أن يستعمل فى أسراره غير مسلم ، فأمر فتعلم زَيْد بن ثابت من شبّان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين ، وأصبح كاتبَ سرالنبى فى كل شؤونه . وزيد ابن ثابت هذا هو الذى جمع القرآن فى خلافة أبى بكر ، وهو الذى عاد فراقب الجمع حين اختلفت القراءات فى خلافة عثمان ، فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف .

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بنى النضير عنها ، ولم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها ، واغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود ، واغتبط الأنصار أن لم يبق عليهم عيال غيرهم ، وتنفس الكل الصُّعَدَاء ، وكانت فترة سكينة وهدوء وطمأنينة استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً . وظلوا كذلك حتى استدار العام منذ أُحُد ، وذكر محمد عليه السلام قولة أبى سفيان يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل ودعوته محمداً للقائه ببدر مرّة أخرى . وكان العام عام جدْب ، وكان أبو سفيان يود لو يؤجّل اللقاء إلى عام آخر . فبعث نُعَيْماً إلى المدينة يقول للمسلمين : إن قريشاً جمعت جيشاً لا قِبَلَ لجيش فى العرب بمواجهته لتحاربهم به حتى تقضى عليهم قضاء لا يعتبر ما تم بأُحُد إلى جانبه شيئاً . وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر ، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر . لكن محمداً غضب لهذا الاستضعاف والتراجع وصاح بهم مُقْسِماً أنه ذاهب إلى بَدْر ولو ذهب وحده .

بدر الآخرة

لم يبق بعد هذه الغضبة العظيمة إلا أن يذوب كل تردُّد ويتلاشى كل

خوف وأن يحمل المسلمون سلاحهم وأن يذهبوا إلى بدر مع محمد الذى استعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبىّ بن سلول . ونزل المسلمون بَدْراً ينتظرون قريشاً مستعدّين لقتالها . وخرجت قريش مع أبى سفيان من مكة فى أكثر من ألفى رجل . لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فنادى فى الناس : يامعشر قريش ؛ إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب وإن عامكم هذا جدب ، وإنى راجع فارجعوا . ورجع الناس وأقام محمد فى جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة اتّجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة . وفى بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى فى سورة آل عمران : « الَّذِينَ قَالُوا لإخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُم الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أُحد محواً تامًّا ولم يبق لقريش الا أن تنتظر عاماً آخر رازحة تحت عار من جُبْنها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها فى بدر الأولى .

وأقام محمد بالمدينة مستريحاً إلى نصر الله إياه مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين

من هيبتهم ، حذِراً دائماً غدرة العدوّ ، باثّاً عيونه فى كل النواحى . وإنه لكذلك إذ اتصل به أن جماعة من غَطَفَان بنَجْد يَجْمعون يريدون حربه . وكانت خُطّته أن يأخذ عدوّه على غِرّة قبل أن يُعِدّ العُدة لدفعه . لذلك خرج فى أربعمائة من رجاله حتى نزل ذات الرِّقَاع حيث اجتمع بنو مُحَارب وبنو ثَعْلبة من غَطَفَان ، فخافوه حين رأوه طلع عليهم فى عُدّة حربه مهاجماً مَسَاكنهم ، وتفرّقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم . واحتمل المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدراجهم إلى المدينة . على أنهم خافوا رجعة العدوّ عليهم فتناوبوا الحراسة ليل نهار ، وجعل محمد يصلى بهم أثناء ذلك كله صلاة الخوف . فكان جماعة منهم يظلون مستقبلين العدوّ مخافة لحاقه بهم فى حين يصلى الآخرون مع محمد ركعتين . ولم يبدُ للعدو من أثر ، بل عاد النبى وأصحابه إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يوماً عنها وهم بظفرهم جِدّ فرحين .

غزوة ذات الرقاع

وخرج النبى بعد قليل من ذلك إلى غزوة أخرى هى غزوة دَوْمَة الجندل . ودَوْمَة الجَنْدل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام ، تقع فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس . ولم يقابل محمد القبائل التى أراد مقاتلتها هناك ، والتى كانت تغير على القوافل ، لأنها مالبثت أن سمعت باسمه حتى أخذها الفزع وولّت مدبرة وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم . وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافى لدومة الجندل مبلغ ما اتّسع نفوذ محمد وأصحابه وما بلغ اليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إياهم ، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب فى غزواتهم مستهينين بالقيظ والجَدْب وقلة الماء ، مستهينين بالموت نفسه ، يحرِّكهم إلى هذا النصر والظفر شىء واحد هو سبب قوّتهم المعنوية : الايمان بالله وحده لاشريك له .

غزوة دومة الجندل

آن لمحمد من بعد ذلك أن يطمئنّ بالمدينة عدة أشهر متتابعة ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم — سنة خمس من الهجرة — ويقوم بأمر ربه باتمام

التنظيم الاجتماعى للجماعة الاسلامية الناشئة تنظيما كان يتناول عدة ألوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك ، ويقوم باتمام هذا التنظيم الاجتماعى فى دقة وحسن سياسة ، يوحى إليه ربه منه بما يوحى ، ويقر هو ما يتفق وأمر الوحى وتعاليمه ، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ ، وما ظل من بعد ذلك قائماً على الاجيال والدهور ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الفصل السابع عشر

ازواج النبي

زينب بنت خزيمة وأم سلمة — قصة زينب بنت جحش وكلام المستشرقين فيها — وقائعها كما يرويها التاريخ الصحيح

فى الفترة التى وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين تزوّج محمد من زَيْنَب بنت خُزَيْمة ، ثم من أم سَلَمة بنت أبى أُمَيّة بن المغيرة ، ثم من زينب بنت جَحْش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة الذى تبنّاه محمد وأعتقه منذ اشتراه يَسَارٌ لخديجة . هاهنا يصيح المستشرقون ويصيح المبشرون : انظروا ! لقد انقلب محمد الذى كان بمكة داعيةً قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات هذه الحياة الدنيا ، رجل شهوة يُسيل منظر المرأة لُعابَه ، ولا يكفيه ثلاث نسوة فى بيته ، بل يتزوّج أولئك الثلاث اللاتى ذكرنا ، ويتزوّج من بعدهن ثلاثاً أُخريات غير ريْحَانَة . وهو لا يكفيه أن يتزوج ممن لا بُعُولة لهن ؛ بل هو يُشغَف حبًّا بزينب بنت جَحْش وهى تحت زيد بن حارثة مولاه ، لغير شىء إلا أنه مر ببيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب ، وكانت فى ثياب تُبدى محاسنها ، فوقع منها فى قلبه شىء لجمالها ، فقال : سبحان مقلّب القلوب ، ثم كرر هذه العبارة ساعة انصرافه ؛ فسمعتها زينب ورأت فى عينه وهج الحب ، فأُعجبت بنفسها وأبلغت زيداً ما سمعت . فذهب من فوره إلى النبى يذكر له استعداده لتسريحها ؛ فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله . لكن زينب لم تُحسن من بعدُ عشرته فطلّقها . وأمسك محمد عن زواجها وقلبه فى شغل بها حتى نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ

صيحة المستشرقين فى مسألة زينب بنت جحش

عَلَيهِ وَأَنعَمتَ عَلَيهِ أَمسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخفِي فِي نَفسِكَ مَا اللهُ مُبدِيهِ وَتَخشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيدٌ مِنهَا وَطَراً زَوَّجنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى المُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزوَاجِ أَدعِيَائِهِم إِذَا قَضَوا مِنهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمرُ اللهِ مَفعُولاً » . إذ ذاك تزوجها فأطفأ بزواجها لاذع حبّه ومتوهج غرامه . فأيّ نبي هذا ! وكيف به يُبيح لنفسه ما يحرّمه على غيره ! وكيف به لا يخضع للقانون الذى يقول إن الله أنزله عليه ! وكيف به يخلُق هذا « الحريم » الذى يثير فى النفس ذكر الملوك المترَفين بدل أن يثير فيها ذكر الأنبياء الصالحين المصلحين ! ثم كيف به يبلغ منه الخضوع لسلطان الحب فى شأن زينب حتى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها ثم يتزوّجها هو ، وقد كان ذلك مُحرَّماً فى الجاهلية فأباحه نبيّ المسلمين إرضاء لهواه ، وإطفاء لداعى حبه .

بنت جحش كما يصورها المستشرقون

ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون من تاريخ محمد فى هذا الموضوع ، حتى يصوِّر بعضهم زينب ساعة رآها النبي وهى نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنه من كل معانى الهوى ، وليَذْكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممددة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفَاتنها ، فكتم ما فى نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلا ... وأمثال هذه الصور التى أبدع الخيال كثيرٌ تراه فى موير وفى درْمنجمْ وفى وَاشنطُن إرْفنجْ وفى لاَمنْس وغيرهم من المستشرقين والمبشرين . ومما يدعو إلى أشد الأسف أن هؤلاء جميعاً اعتمدوا فى روايتهم على ما ورد فى بعض كتب السيرة وبعض كتب التفسير ، ثم أقاموا على ماصوّروا قصوراً من الاستنباط فى شأن محمد وصلته بالمرأة ، واستدلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعاً فى القول الراجح ، وحتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات .

العظماء لا يخضعون للقانون

كان فى مقدورنا أن نَجْبَهَ هذه الأقوال جميعاً بقولنا : فلتكن صحيحة ، فماذا فيها مما يطعن على عظمة محمد أو على نبوّته ورسالته ؟ ! إن القوانين التى تجرى على الناس لاسلطان لها على العظماء ، ولا سلطان لها من باب أولى على المرسلين والأنبياء . ألم ير موسى عليه السلام خلافاً بين رجلين هذا من شيعته وهذا من عدوّه ، فوكز الذى من عدوّه فقضى عليه . وهذا قتلٌ محرّم فى غير حرب ولا شبه حرب ، وهذا مخالف للقانون ، ومع ذلك لم يخضع موسى لقانون ولم يطعن ذلك فى نبوّته ولا فى رسالته ، ولم يطعن فى عظمته . وشأن عيسى فى مخالفة القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن محمد ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعاً . فليس يقف أمره عند بسطة فى القوة أو فى الرغبة ، بل خرج بمولده وبحياته على قوانين الطبيعة وسننها جميعاً . تمثّل لأمه مريم روح الرحمن بشراً سويّا ليَهَبَ لها غلاماً زكيًّا ، فعجبت وقالت : أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيًّا ! قال الرسول : إن الله يريد أن يجعله آية للناس . فلما جاءها المخاض قالت : ياليتنى مِتّ قبل هذا وكنت نسياً منسيًّا ، فناداها من تحتها ألاّ تحزَنى قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا ، وأتت به قومها تحمله ، فقالوا : لقد جئت شيئاً فَرِيًّا . فحدّثهم عيسى فى مهده قال : إنى عبد الله إلى آخر ماقال . ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله ومن نسبتهم عيسى الى يوسف النّجّار نسبة مايزال بعض العلماء أمثال رينان يأخذون اليوم بها ، فقد كانت عظمة عيسى ونبوّته ورسالته دليل معجزة الله فيه وخَرْقه لنواميس الكون وسنن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله . فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشرون إلى الايمان بهذا الخروج على سنة الكون فى أمر عيسى ، وأن يأخذوا محمداً بما هو دونه ، ومالا يزيد على أنه سموٌّ عن الخضوع لقانون المجتمع يُسْمَح به لكل عظيم ، ويُسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدّسهم الدساتير وتجعل ذاتهم مصونة لا تمس .

كان فى مقدورنا أن نَجْبَهَ هذه الأقوال جميعاً بهذا الرد ، وكان فيه من

فساد تصوير المستشرقين

غير شك ما يسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين . لكنا في هذا كنا نجني على التاريخ ونجني على عظمة محمد وجلال رسالته . فهو لم يكن كما صوّره هؤلاء وأولئك رجلاً يأخذ بعقله الهوى . وهو لم يتزوّج من تزوّج من نسائه بدافع من شهوة أوغرام . وإذا كان بعض الكتاب المسلمين في بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول وأن يُقدّموا لخصوم الاسلام عن حسن نية هذه الحجة ، فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد إلى المادية ، فأرادوا أن يصوّروا محمداً عظيماً في كل شيء ، عظيماً حتى في شهوات الدنيا . وهذا تصوُّر خاطىء يُنكره تاريخ محمد أشد إنكار ، وتأبى حياته كلها أن تقرّه .

الى الخمسين لم يتزوج غير خديجة

فهو قد تزوج من خديجة وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وهو في شرخ الصّبا وريعان الفتوّة ووسامة الطلعة وجمال القسمات وكمال الرجولية . مع ذلك ظلّت خديجة وحدها زوجه ثمانياً وعشرين سنة حتى تخطّى الخمسين . هذا على حين كان تعدُّد الزوجات أمراً شائعاً بين العرب في ذلك الحين ، وعلى حين كان لمحمد مندوحة في التزوج على خديجة أن لم يعش له منها ذكر ، في وقت كانت توأد فيه البنات ، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلَفاً . وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده وهو لا يفكر قط في أن يشرك معها غيرها في فراشه . ولم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب ، بل كانت النساء تتبرّج فيه ويبدين من زينتهن ما حرّم الاسلام من بعدُ . فمن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطّى الخمسين ينقلب فجأة هذا الانقلاب الذي يجعله ما يكاد يرى بنت جحش وعنده نساء خمس غيرها من بينهن عائشة التي أحبّ وظل يحبّ طوال حياته ، حتى يُفتَن بها وحتى تأخذ تفكيره ليله ونهاره . ومن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطّى الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفي سبع سنوات تسع زوجات ، وذلك كله بدافع

من الرغبة فى النساء رغبة صوّرها بعض كتاب المسلمين وحذا الافرنج حذوهم تصويراً لا يليق فى ضخته برجل مادّى ، بله عظيم استطاعت رسالته أن تنقل العالم وأن تغيّر مجرى التاريخ وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرةً أخرى وتغيّر مجرى التاريخ طوراً جديداً .

خديجة وحدها التى اعقبت

وإذا كان هذا عجيباً وكان غير طبيعى ، فمن العجيب كذلك أن نرى محمداً تلد له خديجة ما ولدت من بنيه وبناته إلى ما قبل الخمسين ، وأن نرى ماريةَ تلد له إبراهيم وهو حوالى الستين ، وألا تلد غير هاتين من نسائه ، وكلهن بين شابة فى مقتبل العمر لا يمنع مانع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن تلد ، وبين امرأة كملت لها أنوثتها فتخطّت الثلاثين أو تخطت الأربعين وكان لها ولد من قبل . فكيف تُفَسّر هذه الظاهرة العجيبة من ظاهرات حياة النبى ، هذه الظاهرة التى لا تخضع للقوانين الطبيعية فى تسع نسوة جميعاً ! . هذا وقد كانت نفس محمد كانسان تهفو من غير ريب إلى أن يكون له ولد ، وإن كان مقام النبوة والرسالة قد جعله من الناحية الروحية أباً للمسلمين جميعاً .

ثم إن التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد يكذّب رواية المبشرين والمستشرقين فى شأن تعدد زواج النبى . فهو ، كما قدّمنا ،لم يشرك مع خديجة أحداً مدى ثمان وعشرين سنة . فلما قبضها الله اليه تزوّج سَوْدَة بنت زَمْعَة أرملة السكران بن عمرو بن عبدشمس . ولم يروِ راوٍ أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثراً فى زواجه منها .

زواج سودة بنت زمعة

انما كانت سودة زوجا لرجل من السابقين إلى الاسلام الذين احتملوا فى سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبى بالهجرة عبر البحر اليها . وقد أسلمت سودة وهاجرت معه ، وعانت من المشاقّ ما عانى ولقيت من الأذى مالقى . فاذا تزوّجها محمد بعد ذلك ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أُمومة المؤمنين ، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجل الحمد .

أما عائشة وحفصة فكانتا ابنتا وزيريه أبى بكر وعمر . وهذا الاعتبار هو الذى دعا محمداً أن يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتزوّج من ابنتيهما، كما دعاه أن يرتبط بعثمان وبعلىّ برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما . ولئن صح القول فى عائشة وفى حبه إياها، فانما ذلك حب نشأ بعد الزواج لاحينه . فهو قد خطبها إلى أبيها وما تزال فى التاسعة من عمرها، وهى بقيت سنتين قبل أن يبنى بها . فليس مما يقبل العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهى فى هذه السن الصغيرة . يؤيد ذلك زواجه من حفصة بنت عمر فى غير حب بشهادة أبيها نفسه . قال عمر : «والله إن كنا فى الجاهلية ما نَعُدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ! فقلت لها : ومالك أنت ولما هاهنا وما تَكَلُّفكِ فى أمر أريده ! فقالت لى : عجباً لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تراجَع أنت وإن ابنتك لتُراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . فآخذ ردائى ثم أخرجُ مكانى حتى أدخلَ على حفصة، فقلت لها: يابنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ . فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه . فقلت :تعلمين أنى أُحذّرك عقوبة الله وغضب رسوله . يابنية لايغرنّك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها . والله لقد علمتِ أن رسول الله لايحبك ولولا أنا لطلّقك» .

زواج عائشة

زواج حفصة

أفرأيتَ اذاً أن محمداً لم يتزوج من عائشة ولم يتزوج من حفصة لحب أو لرغبة، وانما تزوج منهما ليمتّن أواصر هذه الجماعة الاسلامية الناشئة فى شخص وزيريه كما تزوّج من سودة ليَعلَم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوةً وذرّية ضعافاً يخافون عليهم عَيْلة .

زينب بنت خزيمة وأم سلمة

يقطع فى ذلك زواجه من زينب بنت خُزَيمة ومن أم سَلَمة . فقد كانت زينب زوجاً لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذى استشهد يوم بدر

ولم تكن ذات جمال ، وانما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبت أم المساكين. وكانت قد تخطت الشباب ، فلم تلث الا سنة أو سنتين ثم قبضها الله ، فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبي التى توفيت قبله . أما أم سلمة فكانت زوجا لأبى سلمة وكان لها منه أبناء عدة . وقد سبق القول : إن أبا سلمة جرح فى أحد ثم برأ جرحه ، فعقد له النبي لحرب بنى أسد فشتتهم وعاد إلى المدينة بما غنم ثم نَغَر عليه جرح أُحُدٍ وما زال به حتى قضى عليه . وقد حضره النبي وهو على فراش موته وظل إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه . وبعد أربعة أشهر من وفاته طلب محمد إلى أم سلمة يدها فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطت الشباب ، فما زال بها حتى تزوج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها . أفيزعم المبشرون والمستشرقون بعد ذلك أن أم سلمة كانت ذات جمال هو الذى دعا محمداً إلى التزوج منها ؟ إن يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالاً وشباباً وثروة ونضرة ومن لا يَبْهَظه عبء عيالها . لكنه إنما تزوج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعاه ليتزوج زينب بنت خُزَيمة ، والذى زاد المسلمين به تعلقاً وجعلهم يرون فيه نبى الله ورسوله ، ويرون فيه إلى جانب ذلك أباً لهم جميعاً ؛ أباً لكل مسكين ومحروم وضعيف وبائس وعاجز ؛ أباً لكل من فقد أباه شهيداً فى سبيل الله.

التمحيص التاريخى وما يستنبط

ماذا يستنبط التمحيص التاريخى النزيه مما تقدم ؟ يستنبط أن محمداً نصح بالزوجة الواحدة فى الحياة العادية . هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضربه فى حياة خديجة ، وبه نزل القرآن فى قوله تعالى : « فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » . « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » . ولقد نزلت هذه الآيات فى أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعاً ، ونزلت لتحدد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حد له ، مما

يسقط قول القائلين : إن محمداً أباح لنفسه ما حرّم على النـاس . ثم نزلت لتشيد بفضل الزوجة الواحدة وتأمر بها لمجرد الخوف من عدم العدل ، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع . على أنه رأى فى ظروف حياة الجماعة الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدد إلى أربع على شرط العدل . وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضرب أيام غزوات المسلمين واستشهاد من استشهد منهم . ولعمرك هل تستطيع أن تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها ، خير من هذا التعـدد الذى أبيح على طريق الاستثناء ؟ وهل يمكن لأهل أوربا فى هـذا العصر الذى عقب الحرب الكبرى أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحـدة نظام نافذ بالفعل ، إن استطاعوا أن يقولوا إنه نافذ بالقانون ؟ أو لا يعود سبب الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى الذى عقب الحرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعـاوناً قد كان من شأنه أن يعيـد إلى الحال الاقتصادية شيئاً غير قليـل من التوازن ؟ إننى لا أريد أن أقطع بالحكم . لكنى أترك الأمر لتفكير المفكر وتدبُّر المتـدبّر ، مع القول دائماً بأنه متى عادت الحياة العادية فخير ما يكفل سعادة الأسرة وسعادة الأمة اقتصار الرجل على زوجة واحدة .

قصة زينب بنت جحش

أمّا قصـة زينب بنت جحش ، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووَلَه ، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد ، وأنه ، وهو المثل الكامل للايمان ، قد طبّق فيها حديثه الذى معناه : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؛ وقد جعل نفسه أوّل من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها ، ويُقرّ به النظام الجديد الذى أنزل الله هدى ورحمة للعالمين . ويكفى لهدم كل القصة التى قرأت عنهـا من أساسها أن تعلم أن زينب بنت

قرابة محمد من زينب

جحش هذه هي ابنة أُمَيْمَة بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه السلام، وأنها رُبِّيَت بعينه وعنايته، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، وأنه كان يعرفها ويعرف أهي ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوّج زيداً، وأنه شهدها في نموّها تحبو من الطفولة إلى الصِّبا إلى الشباب، وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مرّ ببيت زيد ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان مقلّب القلوب؛ أو أنه لما فتح باب زيد عَبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب فألفاها في قميصها ممددة وكأنها «مدَام رِكامِيِيه» فانقلب قلبه لفجأة ونسي سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سَلَمة، ونسي كذلك ذكر خديجة التي كانت عائشة تقول: إنها لم تجد في نفسها غيرةً من أحد من نساء النبي ما وجدت من ذكره خديجة. ولو أن شيئاً من حبها علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد. وهذه الصلة بين زينب ومحمد وهذا التصوير الذي صوّرناها به لا يدعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التي يروون أي أساس أو أيّ حق من البقاء.

خطبته إياها على زيد وإباؤها

وماذا يثبت التاريخ أيضاً؟ يثبت أن محمدا خطب ابنة عمته زينب على مولاه زيد، فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية، وهي فوق ذلك ابنة عمة الرسول، وأن تكون تحت عبد رقّ اشترته خديجة ثم أعتقه محمد؛ ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً. وكان ذلك عاراً حقًّا عند العرب كبيراً. فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوّجن من مَوَالٍ وإن أعتقوا. لكن محمداً يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة في النفوس على العصبية وحدها، وأن يدرك الناس جميعاً أن لا فضل لعربيّ على أعجمي إلا بالتقوى. «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم». وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله. فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتمل هذا

الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدم لعاداتها، مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنها مما تخشى سماعه. وليكن زيد مولاه الذى تبنّى والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذى يتزوّجها، فيكون مستعدًّا للتضحية التى أعدّ الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتُّخذوا أبناء. وليُبْدِ محمد إصراره على أن تقبل زينب وأن يقبل أخوها عبد الله بن جحش زَيداً زوجاً لها. ولينزل فى ذلك قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا».

اضطرارها واضطرار أخيها للرضا

لم يبق أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الاذعان، فقالا: رضينا يا رسول الله. وزوّجت زينب من زيد، وساق النبى إليها عنه مهرها. فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس له قيادها ولا لان إباؤها، بل جعلت تؤذى زيداً وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رقّ. واشتكى زيد إلى النبى غير مرة من سوء معاملتها إياه واستأذنه غير مرة فى تطليقها، فكان النبى يجيبه: «أمسك عليك زوجك واتق الله». لكن زيداً لم يُطق معاشرة زينب وإباءها عليه طويلا فطلّقها.

شكوى زيد منها وطلاقه إياها

وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعىّ جميع حقوق الابن ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى فى الميراث وحرمة النسب، وألّا يجعل للمتبنّى واللصيق إلا حق المولى والأخ فى الدين. فنزل قوله تعالى: «ومَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بأفواهكم والله يَقُولُ الحَقَّ وهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ». ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوّج ممن كانت زوجاً لمن ادعاه، ويجوز للمتبنِّى أن يتزوّج ممن كانت زوجاً لمتبنّاه. ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة

حكم الأدعياء فى الاسلام

جميعاً ؟ إن محمداً نفسه على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوّج زينب بعد تطليق زيد إياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة فى نفوس العرب ؛ وذلك مايريده تعالى فى قوله : « وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » . لكن محمداً كان القدوة فى كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلّغ رسالته ؛ فليخش ما يقول الناس فى تزوّجه من زوج زيد مولاه ، فذلك لا شىء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره . وليتزوّج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنى والادّعاء . وفى ذلك نزل قوله تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً » .

كيف تزوج محمد من زينب

هذه رواية التاريخ الصحيح فى أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها . فهى ابنة عمته ، وكان يراها ويعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوج زيداً . وهو الذى خطبها على زيد . وهو كان يراها بعد أن تزوجت زيداً أن لم يكن الحجاب معروفا يومئذ . على أنه كان من شأنها ، بحكم صلة القرابة من ناحية وأنها زوج دعيّه زيد من ناحية أخرى ، أن تتصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها . وقد نزلت هذه الأحكام جميعاً فأيدها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطليقه إياها وزواج محمد منها بعد ذلك . هذه الأحكام التى ترفع المُعتَق إلى مكانة الحر الشريف والتى تُبطل حقوق الأدعياء وتقضى عليها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها . أفيبق بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون ويرددها موير وإرفنج وسبرنجر وفيل ودرمنجم ولامنس وغيرهم ممن تناولوا كتابة حياة محمد ! لكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة

والآن فما رأى المستشرقين فى قصة بنت جحش ؟

القديمة للاسلام خصومة تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية هى التى تُملى على هؤلاء جميعاً ما يكتبون، وتجعلهم فى أمر أزواج النبى، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش، يتجنّون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه، مما دُسّ عليه ونسب اليه.

ولو أن ماذكروا كان صحيحاً، لكان فى مقدورنا أن نجبهه بأن العظمة لاتخضع لقانون، وبأن موسى وعيسى ويونس من قبل قد سَمَوْا فى مولد بعضهم وفى حياة بعض فوق نواميس الطبيعة وسنن الاجتماع فلم يطعن ذلك فى عظمتهم. لكن محمداً كان يضع سنن الاجتماع الصالحة بوحى ربه وكان ينفّذها بأمر ربه، وكان بذلك المثل الأسمى والأُسوة الحسنة فى تنفيذ ما أمر ربه. أفكان أولئك المبشرون يريدونه على أن يُطلّق أزواجه فلا يزيد على الأربع كما شرع للمسلمين من بعد زواجه إياهن جميعاً؟ وهل كانوا يومئذ يعفونه من نقدهم!؟ على أن معاملة محمد لأزواجه معاملة بلغت من السموّ ما رأيت شيئاً منه فى حديث عمر بن الخطاب الذى سقنا وفيما سنذكر خلال فصول هذا الكتاب، ستكون المثل الناطق على أنه لم يحترم المرأة أحد ما احترمها محمد، ولم يسمُ بها إلى المكان اللائق ما سما بها محمد.

سمو محمد بمكانة المرأة

الفصل الثامن عشر

غزوتا الخندق وبنى قريظة

حيىّ بن أخطب وتأليبه العرب جميعا على المسلمين — عشرة آلاف مقاتل يقصدون المدينة — سلمان الفارسى يشير بحفر الخندق حولها . حصار قريش وغطفان إياها — نقض بنى قريظة عهدهم مع المسلمين . ضياع الثقة بين العرب واليهود — انسحاب العرب عن المدينة محاصرة بنى قريظة والقضاء عليهم بالقتل

آن للمسلمين بعد إجلائهم بنى النَّضير عن المدينة ، وبعد بدر الآخرة وبعد غزوتى غَطَفَان ودَوْمَة الجَنْدَل ، أنَ يركنوا إلى شىء من الطمأنينة إلى الحياة بالمدينة . وذهبوا ينظّمون عيشهم ، وكان من بعدُ أقلّ شظفاً بما غنموا فى غزواتهم هذه ، وإن كانت قد صرفتهم فى كثير عن الزرع والتجارة . وكان محمد على طمأنينته حذِراً دائماً غدرة العدو ، باثًا دائماً عيونه وأرصاده فى أنحاء شبه الجزيرة ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأتمرون به ، ما يمهّد له دائماً فرصة الأهبة لدفاع المسلمين عن أنفسهم . ويسيرٌ عليك أن تقدر ضرورة الحذر والحيطة بعد كل الذى رأيت من غدرات قريش وغير قريش بالمسلمين ، ومن أن بلاد العرب كلها كانت فى ذلك الحين ، وكانت من بعد ذلك فى أكثر ظروف تاريخها الخاص ، أشبه بمجموعة جمهوريات ، مستقلة كل واحدة منها عن سائرها ، تتخذ كل واحدة منها نظاماً هو إلى نظام القبائل أقرب ، مضطرة لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألفها تصوّرنا فى الأمم المنظّمة . وكان محمد أشد ما يكون حذراً أن كان عربياً يقدر ما ركّب فى الغريزة العربية من

الغريزة العربية وحذر محمد

الحرص على الثار ، وأن كانت قريش وكان يهود بنى قَيْنُقَاع ويهود بنى النَّضير وعرب غَطَفَان وهُذَيْل والقبائل المتاخمة للشام تتربّص كل واحدة منها بمحمد وبأصحابه الدوائر ، وتود كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لادراك ثأرها من هذا الرجل الذى فرّق العرب فى دينها شيعاً ، والذى خرج من مكة مهاجراً لا حول له ولا قوة الا ما يملأ نفسه الكبيرة من الايمان ، وها هو ذا فى خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوة ما جعله مرهوب الجانب من أشد مدائن بلاد العرب ، ومن أشد قبائلها حولاً وقوة .

شدة خصومة اليهود

ولقد كان اليهود أبصر خصوم محمد بتعاليمه وبمصير دعوته ، وكانوا أكثرهم تقديراً لما يصيبهم بانتصاره . فهم كانوا فى بلاد العرب دعاة التوحيد ، وكانوا ينافسون المسيحيين سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلّبَ عليهم . ولعلهم كانوا على حق أن كانت النفس الساميّة أميل بطبعها إلى فكرة التوحيد ، وأن كان التثليث المسيحى مما لا يسهل على هذه النفس السامية مساغه . وهذا محمد من صميم العرب ومن صميم الساميين يدعو إلى التوحيد بعبارات قوية حارة تأخذ بمجامع الفؤاد ، وتصل إلى أعماق القلب ، وتسمو بالانسان إلى ما فوق نفسه . وهـذا هو قد بلغ من القوة حتى أخرج بنى قينُقاع من المدينة وحتى أجلى بنى النَّضِير عن ديارهم . فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشـام وإلى وطنهم الأوّل ببيت المقدس فى أرض الميعاد ، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه ؟ !

رسل اليهود إلى قريش

كانت فكرة تأليب العرب هى الفكرة التى اختمرت فى نفوس أكابر بنى النَّضير . وتنفيذاً لها خرج نفر منهم من بينهم حُيَيّ بن أخْطَب وسَلاّم ابن أبى الحُقَيْق وكنانة بن أبى الحقيق ومعهم من بنى وائل هَوْذَة بن قَيْس وأبو عمّار حتى قدِموا على قريش مكة . فسأل أهلها حُيَيًّا عن قومه فقال : تركتهم بين خَيْبَر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه ،

وسألوه عن قُرَيْظَة فقال : أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم . وترددت قريش أتَقدِم أم تُحجِم ؛ فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التي يدعو إلى الله . أفليس من الممكن أن يكون على حق وها هو ذا تزداد كلمته كل يوم رفعة وسموّا ! . وقالت قريش لليهود : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً » . وفى موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيتهم على توحيد محمد يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب : « كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورّطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأنّ بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بالله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين . هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة » .

اليهود يفضلون الوثنية على الاسلام

رأى يهودى في ذلك

لم يَكْفِ حُيَيّ بن أخطب واليهود الذى معه هذا الذى قالوا لقريش فى تفضيل وثنيتها على توحيد محمد حتى تنشط لمحاربته ، وأن يأخذوا وإياهم

اليهود يؤلبون سائر العرب

لذلك بعد أشهر موعداً ؛ بل خرج أولئك اليهود إلى غَطَفان من قَيْس عَيْلان ومن بنى مُرَّة ومن بنى فَزَارة ومن أشْجَع ومن سُلَيم ومن بنى سَعد ومن أسد ومن كل من لهم عند المسلمين ثأر ، وما زالوا بهم يحرِّضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد ، ويحمَدون لهم وثنيّتهم ويَعِدُونهم النصر لامحالة . وخرجت الأحزاب التى جمع اليهود لحرب محمد وأصحابه . خرجت قريش وعلى رأسها أبو سُفيَان فى أربعة آلاف مُجَنَّد وثلاثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره . وعقد اللواء فى دار الندوة لعُثْمان بن طلحة الذى قتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى أُحُد . وخرجت بنو فَزَارَة وعلى رأسها عُيَيْنَة بن حِصْن بن حُذَيفَة فى رجال كثير وألف بعير . أما أشْجَع ومُرَّة فجاء كل منهم فى أربعمائة محارب يتزعّم الحارث ابن عَوْف مُرّة ، ويتزعّم مِسْعَر بن رُخَيْلَة أشجع ، وجاءت سُليم أصحاب بئر مَعُونة فى سبعمائة رجل ، واجتمع هؤلاء . وانحاز اليهم بنو سعد وأسد فصاروا فى عشرة آلاف رجل أو نحوها، وساروا جميعاً تحت إمرة أبى سفيان قاصدين المدينة . فلما بلغوها تداول زعماء هاته القبائل الزعامة أثناء الحرب كل واحد منهم يوما على التوالى .

فزع المسلمين

واتصل نبأ هذا السير بمحمد والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا . ها هى ذى العرب كلها قد أجمعت أمرها لتَسْحَقَنّهم ولتقضينّ عليهم ولتستأصلنّهم ، وهاهى ذى قد جاءت فى عُدّة وعديد مالها فى حروب العرب جميعاً من قبل مثل. وإذا كانت قريش قد انتصرت فى أُحد عليهم لمّا خرجوا من المدينة وكانت أقل من هاته الأحزاب عدداً أضعافا ، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة ؟ ! لم يكن إلى غير التحصن بيثرب العذراء ، على ماوصفها عبد الله بن أُبىّ ، سبيل . ولكن ! أفيكفى هذا التحصنّ أمام تلك القوة الساحقة ؟ وكان سَلْمَان الفارسى يعرف من أساليب

حفر الخندق حول المدينة

الحرب ما لم يكن معروفا فى بلاد العرب . فأشار بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها . وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته فَحُفِرَ الخندق وعمل فيه النبي عليه السلام بيديه ، فكان يرفع التراب ويشجّع المسلمين بذلك أعظم التشجيع ويدعوهم الى مضاعفة الجهد . وأخذ المسلمون آلات الحفر من مَسَاحٍ وكَرَازِينَ ومَكَاتِلَ من بنى قُرَيْظة اليهود الذين بقوا على ولائهم . وبهذا الدأب والجهد المتصل تم حفر الخندق فى ستة أيام . وفى هذه الأثناء كذلك حُصِّنت جدران المنازل التى تواجه مأتَى العدو ، والتى يفصل الخندق بينه وبينها بنحو فرسخين . وعند ذلك أُخليت المساكن التى ظلت خارج الخندق وجيء بالنساء والأطفال فى هذه المنازل التى حُصِّنت ، ووضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحا يرمى به عند الحاجة إليه .

دهش قريش للخندق ومواقع عسكرها أمامه

وأقبلت قريش وأحزابها ، وهى ترجو أن تلقى محمداً بأُحُد فلم تجد عنده أحداً ، فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق ، فعجبت أن لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول منها ، وبلغ منها الغيظ حتى زعمت الاحتماء وراءه جبناً لاعهد للعرب به . وعسكرت قريش ومن تابعها بمُجْتَمَع الأسيال من رُومَة وعسكرت غَطَفَان ومن تبعها من أهل نجد بذَنَب نَقَمَى . أمّا محمد فخرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى جبيل سَلْعٍ وجعل الخندق بينه وبين أعدائه ، وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء . ورأت قريش والعرب معها أن لاسبيل إلى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الترامى بالنبال عدة أيام متتابعة .

وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلا دون أن يستطيعوا اقتحامها ، وكان الوقت آنئذ شتاء قارساً برده ، عاصفة رياحه ، يخشى فى كل وقت مطره . وإذا كان يسيراً أن يحتمى أهل مكة وأهل غَطَفَان من ذلك كله بمنازلهم فى مكة وفى غطفان ، فالخيام التى ضربوا أمام

تردد العرب فى البقاء والشتاء قارس

يثرب لا تحميهم منه فتيلا . وهم بعد قد جاءوا يرتجون نصراً ميسوراً لا يكلّفهم غير يوم كيوم أحد ، ثم يعودون أدراجهم يتغنّون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب . وماذا عسى أن يمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في هذه الحرب لأن اليهود وعدتها متى تم النصر ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها . وها هي ذي ترى النصر غير ميسور أو هو على الأقل غير محقق ؛ وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما ينسيها الثمار والحدائق . فأمّا انتقام قريش لنفسها من بَدْر ومما لحقها بعد بدر من هزائم فأمره مُدْرَكٌ على الأيام مادام هذا الخندق يحول دون إمساك محمد بالتلابيب ، وما دامت بنو قريظة تمد أهل يثرب بالمؤونة مدداً يطيل أمد مقاومتهم شهوراً وشهوراً . أفليس خيراً للأحزاب أن يعودوا أدراجهم ؟! نعم ! . . لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر الميسور . وقد استطاع اليهود وحُيَيّ بن أخطب على رأسهم أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من محمد وأصحابه عما أوقع بهم وببني قينقاع من قبلهم . فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود . وإن انتصر محمد بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود .

خوف حيي من انسحاب الأحزاب

قَدَّر حُيَيّ بن أخطب هذا كله وخاف مغبته ورأى أن لا مفرّ من أن يقامر بآخر سهم عنده . فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنع بني قُرَيْظَة بنقض عهد موادعتهم محمداً والمسلمين وبالانضمام إليهم ، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن محمد من ناحية ، وفتح الطريق لدخول يثرب من الناحية الأخرى . وسُرّت قريش وغَطَفَان بما ذكر حُيَيّ . وسارع هو فذهب يريد كَعْب بن أسَد صاحب عقد بني قريظة . وقد أغلق كعب دونه باب حصنه لأوّل ما عرف مَقْدَمَه عليه ، مقدّراً أن غدر قريظة بمحمد ونقضها عهده وانضمامها إلى عدوه قد يفيدها ويفيد اليهود إذا دارت الدوائر بالهزيمة على

المسلمين ، لكنه جدير بأن يمحوها محواً إذا هزمت الأحزاب وانصرفت قواتها عن المدينة . لكن حُيَيًّا ما زال به حتى فتح له باب الحصن ثم قال له : « ويحك يا كعب ! جئتك بعزّ الدهر وببحر طام . جئتك بقريش وبغَطَفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستاصل محمداً ومن معه » . وتردد كعب وذكر وفاء محمد وصدقه لعهده ، وخشى مغبة مايدعوه حُيَىٌّ إليه . لكن حُيَيًّا مازال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب فى القضاء عليه ، ويصف له قوة الأحزاب وعُدَّتها وعَدَدَها ، وأنها لم يمنعها غير الخندق من أن تقضى فى سويعة على المسلمين جميعاً ، حتى لان كعب له ، فسأله : وماذا يكون إذا ارتدت الأحزاب ؟ هنالك أعطاه حُيَىٌّ موثقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه فى حصنه فيشاركه حظه . وتحركت فى نفس كعب يهوديته فقبل ما طلب حُيَىّ ، ونقض عهده مع محمد والمسلمين وخرج من حياده .

محاولته كسب قريظة

قريظة تنقض عهدها

واتصل نبأ انضمام قريظة إلى الأحزاب بمحمد وأصحابه فاهتزوا له وخافوا مغبته . وبعث محمد سعد بن مُعاذ سيد الأوس وسعدَ بن عُبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جُبَير ليقفوا على جلية الأمر ، على أن يلحقوا به عند عودتهم إن كان حقًّا حتى لا يفتُّوا فى أعضاد الناس . فلما أتى هؤلاء الرسل ألفوا قريظة على أخبث مابلغهم عنهم . فلما حاولوا ردهم إلى عهدهم طلب سعد إليهم أن يردوا إخوانهم يهود بنى النَّضير إلى ديارهم . وأراد سعد بن معاذ ، وكان حليف قريظة ، أن يُقنعها مخافة أن يحلّ بها ماحل ببنى النضير أو ما هو شر منه ، فانطلقت اليهود ووقعوا فى محمد عليه السلام وقال كعب : مَنْ رسول الله !! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . وكاد الفريقان يتشاتمان .

رسل محمد إلى قريظة

رجع رسل محمد إليه بما رأوا. هنالك عظم البلاء واشتد الخوف ورأى أهل المدينة طريق قُرَيْظة وقد فُتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم. ولم يكن ذلك محض خيال ووهم؛ فهم قد رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم، ورأوا قريشاً وغَطَفان منذ عاد حُيَيّ بن أخطب ينبئهم بانضمام قريظة إليهم قد تغيرت نفسيتهم وأخذوا يعدّون أنفسهم للقتال. وذلك أن قريظة استمهلت الأحزاب عشرة أيام تُعِدُّ فيها عُدّتها على أن تقاتل الأحزابُ المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال. وذلك ما فعلوا. فقد ألَّفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبي. فأتت كتيبة ابن الأعوَر السُّلمى من فوق الوادى. وأتت كتيبة عُيَيْنَة بن حِصن من الجنب. ونصب له أبو سفيان من قِبَل الخندق. وفى هذا الموقف نزلت هذه الآيات من سورة الأحزاب: «إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أسفلَ منكُمْ وَإذْ زَاغَتِ الأبْصارُ وبلغتِ القُلُوبُ الحَنَاجِر وتَظنُّونَ باللهِ الظُّنُونا. هُنَالِكَ ابْتُلِىَ المؤمنون وزُلزِلُوا زِلزَالاً شَدِيداً. وإذْ يقُولُ المنافِقون والَّذِين فى قلُوبِهمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ ورَسُولُهُ إلاَّ غرُورً. وإذْ قالت طائِفةٌ منْهُمْ يا أهلَ يَثْرب لا مُقَامَ لَكُمْ فارْجعُوا، ويستأذِن فريقٌ مِنهُم النَّبيَّ يقولون إنَّ بيُوتنا عَوْرةٌ وَمَا هِىَ بعوْرَةٍ، إنْ يُرِيدُون إلاَّ فِرَارًا».

نفسية الأحزاب تقوى

فزع أهل يثرب

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفزع وزُلزلت قلوبهم. ولمن قال منهم العذر فى أن يقول: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وللذين زاغت أبصارهم العذر فى أن تزيغ، وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر فى أن تبلغها. أليس هو الموت الذى يرون آتياً تقدح بالشرر عينه، مصورة فى بريق هذه السيوف تلمع فى أيدى قريش وفى أيدى غطفان، وتدبّ إلى القلب مخافته متسللة من منازل بنى قريظة الغَدَرة الخائنين! ألا ويل لليهود! ما كان أجدر محمداً بأن

يقضى على بنى النَّضِير ، وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين وأن يذر حُيَيًّا والذين معه يؤلِّبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم . ألا إنها الطامّة الكبرى والفزع الأكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !.

الذين اقتحموا الخندق

وسمت روح الأحزاب المعنوية حتى دفعت بعض فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عبد وُدٍّ وعِكرمة بن جهل وضِرار بن الخطاب ، أن يقتحموا الخندق ، فتيمموا مكاناً منه ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم فى السَّبْخة بين الخندق وسَلْع . وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها خيلهم ، وتقدم عمرو بن عبد وُدٍّ ينادى : من يبارز ؟ ولما دعاه ابن أبى طالب إلى النزال قال فى صَلَف : لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك . قال على : لكنى أحب والله أن أقتلك . فتنازلا فقتله علىٌّ ؛ وفرّت خيل الأحزاب منهزمة ، حتى اقتحمت الخندق من جديد مولّية الأدبار لا تلوى على شىء . وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق ، فهوى هو والفرس فيه فصُرِعا وتحطما . وأرسل أبو سُفيان يعرض دية جثته مائة من الابل ، فرفض النبى عليه السلام وقال : خذوه فانه خبيث خبيث الدية .

استهانة قريظة بالمسلمين

وأعظمت الأحـــزاب نيرانها مبالغة فى تخويف المسلمين وإضعافا لروحهم ، وبدأ المتحمسون من قريظة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم يريدون إرهاب أهلها . كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسّان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان . فمر بهم يهودى ضليل يُطيف بالحصن . قالت صفية مخاطبة حسان : إن هذا اليهودى يُطيف ياحسّان بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شُغلوا عنا ، فانزل اليه فاقتله . قال حسّان : يغفر الله لك يا بنة عبد المطلب . والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا .

فأخذت صفية عموداً ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى حتى قتلته . فلما رجعت قالت : ياحسان . إنزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال حسان : مالى يابنة عبد المطلب بسلبه من حاجة !

وظل أهل المدينة فى فزعهم وزلزال قلوبهم على حين جعل محمد يفكر فى الوسيلة للخلاص . ولم تكن الوسيلة مواجهة العدوّ بطبيعة الحال . فلتكن الحيلة إذاً . فبعث إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت . وكانت غطفان قد بدأت تَمَلّ فأظهرت امتعاضاً من طول هذا الحصار وما لقوا من العنت أثناءه لغير شيء إلا إجابة حيّ بن أخطب واليهود الذين معه.

دسيسة نعيم بين الأحزاب وقريظة

ثم إن نُعَيْم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظة ، وكانت لا تعرف أنه أسلم ، وكان لها نديما فى الجاهلية ، فذكّرهم بما بينه وبينهم من مودة ، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد ، وقريش وغطفان قد لا تستطيعان المقام طويلا فتخلّيان ما بينهم وبين محمد فينكّل بهم . ونصحهم لذلك ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رُهنا يكونون بأيديهم حتى لا تنتحى قريش وغطفان عنهم . واقتنعت قريظة بما قال . ثم إنه ذهب الى قريش فأسرّ لهم أن قريظة ندموا على مافعلوا من نكث عهد محمد ، وأنهم عاملون على استرضائه وكسب مودته بأن يقدّموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم . ولذلك نصحهم إن بعثت اليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً . وصنع نُعَيم مع غطفان ماصنع مع قريش وحذّرهم مثلما حذرهم . ودبّت الشبهة من كلام نعيم الى نفس قريش وغطفان ، فتشاور زعماؤهم ، فأرسل أبو سفيان الى سعد سيد بنى قريظة يقول له : قد ياسعد طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل ، وقد رأيت أن تعمدوا اليه فى الغداة ونحن من ورائكم . فعاد رسول أبى سفيان اليه بقول زعيم قريظة : إن غداً السبت ، وإنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت . فغضب أبو سفيان وصدّق حديث نُعَيم ، وأعاد

الرسول يقول لقريظة : اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت ، فانه لابد من قتال محمد غداً . ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأنّ من حِلفكم ولنبدأنّ بكم قبل محمد . فلما سمعت قريظة كلام أبى سفيان كررت أنها لا تتعدّى السبت وقد غضب الله على قوم منهم تعدّوه فجعلهم قِرَدة وخنازير . ثم أشاروا إلى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم . فلما سمع أبو سفيان لم يبق لديه فى كلام نُعيم ريبة وبات يفكر ماذا عساه يصنع . وتحدّث إلى غطفان فاذاهى تتردد دون الاقدام على قتال محمد متأثرة بما كان قد بدأها به من وعدها ثلث ثمار المدينة وعداً لم يتم أن اعترضه سعد ابن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله .

العاصفة تقتلع خيام الأحزاب

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر هاتناً وقصف الرعد وخطف البرق ، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب إلى نفوسهم . وخُيِّل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة ليعبروا إليهم وليُوقعوا فيهم . فقام طُلَيْحة بن خُوَيلد فنادى : إن محمداً قد بدأ كم بشر فالنجاةَ النجاةَ . وقال أبو سفيان : يامعشر قريش ، إنكم والله ماأصبحتم بدار مُقام . لقد هلك الكراعُ والخفّ وأخلفتنا بنو قُريظة وبلغنا منهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، فارتحلوا فانى مرتحل . فاستخفّ القوم مااستطاعوا حمله من متاع وانطلقوا وما تزال الريح تعصف بهم ، وفرّوا هاربين ، وتبعتهم غطفان . حتى إذا كان الصبح لم يجد محمد منهم أحداً .

رحيل الأحزاب

فانصرف راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله شكراً أن رفع الضر عنهم وأن كفى المؤمنين شرّ القتال .

***

عاد محمد بعد رحيل الأحزاب يفكر فى موقفه . لقد أذهب الله عنه عدوّه الذى كان يهدده . لكن اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلا من السنة غير الشتاء القارس الذى كان جند الله فى هزيمة عدوّه . ثم

إن قريظة ، لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع فى صفوفها من شقاق وانقسام ، كانت على أهبة النزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم . لا تقطعن إذاً ذنب الأفعى وتتركها . ولا بدّ من القضاء على بنى قُرَيظة بما فعلت . وأمر عليه السلام مؤذناً فأذّن فى الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر إلا ببنى قريظة ؛ وقدّم علَيًّا برايته إليها . ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَبٍ بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم ، فقد خفوا لهذا القتال الذى لم يكن لديهم أى شك فى نتيجته . صحيح أن بنى قريظة يقيمون فى حصون محصّنة كالتى كانت لبنى النضير ؛ لكن هذه الحصون إن أغنتهم فى الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم فى مهاجمة المسلمين . والميرة قد أصبحت فى متناول يد أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها . لذلك خفّ المسلمون فرحين وراء علىّ حتى أتوا بنى قريظة ، فإذا يهودها ومعهم حُيَىّ بن أخطب النَّضْرىّ يقعون فى محمد بأقبح مقالة : يكذّبونه ويطعنون عليه وينالون من عرض نسائه . . وكأنما شعروا بعد انخذال الأحزاب عن المدينة بما هُيّئ لهم . ولما جاء الرسول لقيه علىّ وطلب إليه ألا يدنو من حصون اليهود . فسأله محمد : ولم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ! قال نعم . قال رسول الله : لو رأونى لما قالوا من ذلك شيئاً . فلما دنا من حصونهم ناداهم : يا إخوان القِردة ! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ . قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا . وجعل المسلمون بقية نهارهم يتوافدون إلى بنى قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها ؛ فأمرهم محمد بحصارها .

غزو قريظة

ظل هذا الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض تراشق بالنبل والحجارة ، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدة الحصار مرة واحدة . فلما جهدوا وأيقنوا أن لن تمنعهم حصونهم من الهلاك شيئاً ، وأنهم لابد أن يقعوا فى قبضة المسلمين وإن طال الزمن ، بعثوا إلى الرسول أن ابعث إلينا أبا لُبَابة لنستشيره فى أمرنا . وكان أبو لُبَابة من

استطالة زمن الحصار

استشارة أبى لبابة

الأوس حلفائهم . فلما رأوه قام اليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رق لهم . فقالوا له : أترى يا أبا لبابة أن ننزل على حكم محمد ؟ قال نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح إن لم تفعلوا . وقد ندم أبو لبابة على إشارته هذه فيما روت السير . فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن يتابعوا محمداً على دينه وأن يُسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم . فرفض أصحاب سعد أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به : لانفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره . فعرض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه رجالا مُصلتين بالسيوف لم يتركوا وراءهم ثقلاً حتى يحكم الله بينهم وبين محمد . فان هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء . فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ! . قال لهم سعد : لم يبق إذاً إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعدّ لكم . وتشاور القوم فيما بينهم وقال قائل منهم : إنهم لن يكونوا أسوأ من بنى النّضير مصيراً ، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشر ، وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد محمد بأساً من قبول عرضهم .

وبعثت قريظة إلى محمد تعرض عليه الخروج إلى أذرعات تاركة وراءها ماتملك ، فأبى ذلك عليها إلا أن تنزل على الحكم . فأرسلت إلى الأوس تقول لهم : ألا تأخذون لاخوانكم مثلما أخذت الخزرج لاخوانهم !. فمشى جماعة من الأوس إلى محمد فقالوا : يا نبيّ الله ، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج ؟ . قال محمد : يامعشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بينى وبين حلفائكم رجلا منكم ؟ . قالوا بلى . قال : فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا .

تحكيم سعد ابن معاذ

فاختار اليهود سعد بن مُعاذ ، وكأنما أعماهم القدر الذى كتب لهم لوح حظهم فأنساهم مَقْدَم سعد اليهم أوّل نقضهم عهدهم ، وتحذيره إياهم ، ووقوعهم فى

محمد أمامه ، وسبّهم المسلمين بغير حق . وأخذ سعد المواثيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به . فلما أعطوه المواثيق ، أمر ببنى قريظة أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا ، فحكم سعد فيهم أن تُـقتَل المقاتلة وتقسم الأموال وتُسْبَىَ الذرّية والنساء . فلما سمع محمد هذا الحكم قال : والذى نفسى بيده لقد رضى بحكمك هذا ، الله والمؤمنون وبه أُمرت . ثم خرج إلى سوق المدينة فأمر فحُفرت بها خنادق ثم جىء باليهود أرسالا فضُربت أعناقهم ، وفى هذه الخنادق دفنوا . ولم يكن بنو قريظة يتوقّعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ماصنع عبد الله بن أُبىّ مع بنى قينقاع . ولعل سعداً ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لما كان أمام المسلمين إلا أن يُستَأصلوا وأن يقتلوا وأن يمثّل بهم ، فجزاهم بمثل ماعرّضوا المسلمين له .

حكمه بقتل اليهود

وقد أظهر اليهود من الجلد أمام القتل ماتراه فى حديث حُيَىّ بن أخطب حين قُدّم لتضرب عنقه فنظر اليه النبىّ وقال : ألم يُخزك الله ياحيىّ ! فأجاب حيي : كل نفس ذائقة الموت ولى أجل لا أعدوه ، ولا ألوم نفسى على عداوتك . ثم التفت إلى الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله . كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل . ثم إن الزبير بن باطا القرَظى كان قد منّ على ثابت بن قيس فى يوم بُعاث بأن خلّى سبيله بعد أسره ، فأراد ثابت أن يجزيه بعد حكم ابن مُعاذ على اليهود عن يده عنده ، فذكر لرسول الله منة الزبير عليه واستوهبه دمه ، وأجاب رسول الله طلبته . فلما عرف الزبير ما فعل ثابت قال له : شيخ كبير مثلى لا أهل له ولا ولد ماذا يصنع بالحياة ! . فاستوهب ثابت رسول الله دم امرأته وأولاده فوهبه إياه ؛ ثم استوهبه ماله فوهبه إياه كذلك . فلما اطمأن الزبير إلى أهله وولده وماله سأل عن كعب بن أسد وعن حيىّ بن أخطب وعن عزّال بن سَمَوْءل وعن

جلد اليهود للقتل

زعماء بنى قريظة ، فلما علم أنهم قُتلوا قال : إنى أسألك ياثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فَتْلَةَ دَلْوٍ حتى ألقى الأحبّة . وكذلك ضُربت عنقه بمشيئته . وكان المسلمون لا يقتلون فى غزواتهم النساء والذرارى ؛ ولكنهم يومئذ قتلوا امرأة طرحت الرحا على مسلم فقتلته . وكانت عائشة تقول : والله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل . وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فنجوا من القتل .

دم بنى قريظة فى عنق حيى بن أخطب

وفى رأينا أن دم بنى قُرَيظة معلّق فى عنق حُيَيّ بن أخطب وإن كان قد قتل معهم . فهو قد حنث بالعهد الذى عاهد قومه من بنى النضير حين أجلاهم محمد عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً . وهو بتأليبه قريشاً وغَطَفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد قد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين وجعل هؤلاء يعتقدون أن بنى إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه . وهو الذى حمل بنى قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها ، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شيء . وهو الذى دخل حصن بنى قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم ، ولو أنهم نزلوا على حكم محمد منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم فى نقض عهدهم لما أُهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم . لكن العداوة بلغت من التأصل فى نفس حييّ وانتقلت منه إلى نفوس بنى قريظة حدّا جعل سعد بن معاذ نفسه ، وهو حليفهم ، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم فلن تهدأ لهم نفس حتى يؤلّبوا الأحزاب من جديد وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم . فالحكم الذى أصدره على قسوته وشدته إنما كان متأثراً فيه بالدفاع عن النفس واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين .

قسمة أموال بنى قريظة

وقسم النبي أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منه الخمس . قسمه بأن كان للفارس سهمان ولفرسه سهم وللراجل سهم . وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرساً . ثم بعث سعد بن زيد الأنصاريّ بطائفة من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادة فى قوة المسلمين الحربية .

وكانت رَيْحَانة إحدى سبايا بنى قريظة قد وقعت فى سهم محمد ، فعرض عليها الاسلام فأصرّت على يهوديتها ، وعرَض عليها أن يتزوّجها فقالت : بل تتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعليك . ولعل حرصها على اليهودية ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها وما كان باقياً فى نفسها من كراهية للمسلمين ولنبيهم . ولم يتحدّث أحد عن جمال ريحانة ما تحدثوا عن جمال زينب بنت جحش ، وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميلة وسيمة . وقد اختلفت السير فيها : أهى قد ضُرِب عليها الحجاب كما ضُرب على نساء النبي أم أنها ظلت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب . وبقيت ريحانة فى ملكه حتى ماتت عنده .

وطّدت غزوة الأحزاب ووطّد القضاء على بنى قريظة للمسلمين فى المدينة فلم يبق للمنافقين فيها صوت قط . وذهبت العرب كلها تتحدّث بقوة المسلمين وسلطانهم وبمقام محمد وقوّته ورهبة جانبه . لكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم بأسره . فما يزال على النبيّ وأصحابه إذاً أن يمهّدوا لكلمة الله وأن يدعوا الناس لدينه الحق ، وأن يصدّوا عنه كل معتد عليه ، وهذا ما فعلوا .

الفصل التاسع عشر

من الغزوتين الى الحـــديبية

المرأة والرجل فى الاسلام — غزو بنى لحيان — قتل عيينة بن الأقرع غزو بنى المصطلق — حديث الافك

تنظيم الجماعة العربية

استتب الأمر لمحمد والمسلمين بعد غزوة الخنـدق وبعد القضاء على بنى قريظة ، استتباباً جعل العرب تخافهم أشـد الخوف ، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون : أليس خيراً لقريش لو أنهـا هادنت محمداً وصافته وهو منها وهى منه والمهاجرون معه بينهم كبراؤها وسادتها . واستراح المسلمون بعد الذى اطمأنوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينـة قضاء لا تقوم لهم قيامة بعده . ومكثوا بالمدينة لذلك ستة أشهر يباشرون من تجارة الحياة ما يستمتعون معه بشىء من نعمة الحياة ، ويزدادون برسالة محمد إيماناً ولتعاليمه تمثلا ، ويسيرون وإياه فى طريق تنظيم الجماعة العربية تنظيما لم يكن مألوفاً عندها من قبل ، ولكنه لم يكن منه بدٌّ فى جماعة منظّمة ذات كيان ووحـدة كالجماعة التى كانت تتكوّن تحت سلطان الاسلام رويداً رويداً . فقد كانت العرب فى الجاهلية لا تعرف لها نظاماً ثابتاً إلا ما أقرّته عاداتها . ولم يكن لهـا فى أمر الأسرة ونظامها والزواج وحدوده والطلاق وقيوده وصِـلات الزوجين والأبناء إلا ما تملى به طبيعة ذلك الجو الذى يغلو فى الاباحة تارة ، ليصل من الجمود والتقيد إلى حدود الرقّ وعسفه تارةً أخرى . فلينظِّم الاسلام الجماعة الاسلامية الناشئة التى لما تتكون تقاليدها ، ليمهِّدها فى وقت قصير لتضع نواة حضارة تنتظم من بعـد ذلك حضارة الفرس والروم والمصريين

وتطبعها بطابعها الاسلامى الذى يتدرّج رويداً رويداً حتى يصل إلى كماله يوم ينزل قوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لكم دينَكم وَأَتْمَمْتُ عليكم نِعْمتِي وَرَضِيتُ لكمُ الاسلامَ دِينًا . »

ومهما يكن الرأى فى حضارة بلاد العرب قبل الاسلام وبداوتها ، وهل كانت القرى من أمثال مكة والمدينة ذات حضارة لا تعرفها البادية أو أنها كانت أيضاً فى أوليات مراتب الحضارة ، فان صلات الرجل والمرأة فى هذه الجماعة العربية كلها لم تكن تعدو ، بشهادة القرآن وبشهادة ما بقى من آثار ذلك العهد ، صلات الذكورة والأنوثة ، مع تفاوت تملى به مراتب الطوائف والعشائر لا يخرجها عن هذا الوضع القريب من مراتب الانسان الأوّل . ولذلك كان النسوة يتبرّجن فى الجاهلية الأولى ويُبدين من زينتهن مالا يقف أمره عند بعُولتهن ، وكن يخرجن فُرَادَى وَمَثْنَى وزرافات لحاجتهن يقضينها فى غوطة فى الصحراء ، فيلقاهن الشبّان والرجال وهن يتهادين فى جماعاتهن فلا يأبى هؤلاء ولا أولئك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول الحديث مما يستريح له الذكر وتطمئن له الأنثى . وبلغ من أمر هذه الصلة وما وقرت فى النفوس ، أن لم تأب هند زوج أبى سفيان أن تقول فى أشد مواقف الجِدّ والشدة ، وهى تحث قريشاً حين الحرب يوم أُحد :

صلات الرجل والمرأة

إن تقبلوا نعانِقْ ونفرُش النَّمارِقْ

أو تُدبِروا نفارِقْ فراقَ غير وامِقْ

ولم يكن الزنا يومئذ بالجريمة ذات الخطر والشأن . ولقد ذكر الرواة عن هند هذه ، على ما كان لأبى سفيان من مكانة وخطر ، أحاديث غرام وهوى لم تغيِّر من مكانتها فى قومها ولا بين أهلها . ثم إن المرأة كانت إذا ولدت ، ولم يعرف لمولودها أب ، لم تأبَ أن تذكر من لامسها من الرجال ليُنسَب مولودها إلى أيهم كان أقرب إليه شبهاً . ولم يكن إلى ذلك لتعداد

الزواج. ولا للرق حدٌّ أو قيد . كان للرجل أن يتزوّج ما شاء ، وأن يتسرّى ما شاء ، وكان لهؤلاء ولأولئك أن يلدوا ما شاءوا . وكان الأمر فى ذلك لا خطر له إلا أن يفتضح وتخشّى مَعَرّته وما قد يجر وراءه من أهاج تتبادل لايدرى أحد ما ينجمُ عنها من خصومة وقتال . هنالك يتبدّل الأمر غير الأمر ، وترى ما كانت المودة قد سترت من قبلُ من مَلَاحم الهوى ووَثَبات الغرام ، قد هتكته الخصومة فجعلته سبباً لملاحم القتال ووثبات النزال . وإذا شبّت الخصومة فلكلٍّ أن يتقوّل ما شاء وأن يزعم ما يريد . وخيال العربى خِصْب بطبيعة عيشه تحت السماء وتَجوّاله الدائم فى طلب الرزق واضطراره للمغالاة وللكذب أحياناً فى شؤون التجارة . والعربى لُكَع بطبعه ، حتى لقد كانت لكاعة العرب وما تزال مضرب المثل . فاذا وقف زيد فى السِّلم يحادث هنداً حديث هوى لم يزد على شهى اللفظ تساقطه لآلىء الثنايا العذاب ، رأيت زيداً حين الخصومة والحرب يرفع عقيرته بهند وقد لقيها أمامه متجرّدة يقول فى نحرها وصدرها ونَهدها وخَصْرها وعَجُزها وما دون ذلك ما شاءت له أفانين الخصومة واهتياج الخيال الذى لا يعرف فى المرأة غير الأنثى وغير ما تفرُش من النمارق . ومع ما قضى الاسلام على هـذه النفسية فقـد بقى من آثارها ما تقرؤه فى مثل شعر عمر بن أبى ربيعة وما تأثّر به شعر الغزل فى العربية إلى عصور كثيرة ، وما لا يزال له أثره ، ولو إلى حد قليل ، فى شعر عصرنا الحاضر .

احاديث الهوى ووثبات القتال

ربما بدا هذا التصوير للقارىء المُعْجَب بالعرب وحضارتهم ، وللمُعْجَب حتى بعرب الجاهلية ، مشوباً بشىء من الغلوّ . وللقارىء العذر من ذلك إذ يوازن بين هذه الصورة التى وضعنا أمامه وبين ماهو واقع بالفعل فى عصرنا الحاضر ، وبين ما نرجو أن تصل اليـه صِلات الرجل والمرأة فى الزواج والطلاق وصِلات الزوجين والأبناء . لكن موازنةً كهذه مخطئةٌ جديرة أن تجرّ إلى أفحش الضلال . إنما يجب أن توازن الجماعة العربية التى صوّرنا إحدى نواحيها

المرأة عند العرب واوربا فى ذلك العصر

فى القرن السابع المسيحى بالجماعات الانسانية فى ذلك العصر . وما أحسبنا نغالى إذا قلنا : إن الجماعة العربية كانت ، مع ما وصفنا من أمرها ، خيراً بكثير من الجماعات المعاصرة لها فى آسيا وفى أوربا . ولسنا نقف عند ما كان من ذلك فى الصين أو فى الهند ، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا يُساعفنا . لكن أوربا الشمالية وأوربا الغربية كانت يومئذ فى ظلمات تبيح لك أن تصوّر من نظام الأسرة فيها ما تريد مما يقرب من أوليات مراتب الانسانية . وكانت رُومية ، وهى صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغلب والسيادة والمنافس الوحيد القوى للفرس ، تجعل المرأة من الرجل فى مكانة دون مكانة المرأة العربية من الرجل حتى فى البادية . كانت المرأة فى شرائع رومية يومئذ معتبرة متاعا مملوكا للرجل يتصرّف فيه كيف يشاء ، ويملك من أمره مايريد ، ويقدر له على الحياة والموت . كانت تُعامل معاملة الرقيق سواء ، لا فارق بينها وبينه فى نظر الشرع الرومانى . كانت مملوكة لأبيها ثم لزوجها ثم لابنها . وكان ملكهم إياها تامًّا كملكهم الرقيق وكملكهم الحيوان والجماد . وكان ينظر إلى المرأة على أنها مثار الشهوة وعلى أنها لا سلطان لها على أنوثتها الحيوانية ، حتى لم يكن بدٌّ من اصطناع نطاق العفة ومن التمسك بذلك قرونا متوالية ، بعد هذا العصر الذى نصف فيه أحوال جزيرة العرب . ومع أن السيد المسيح عليه السلام كان برًّا بالنساء عطوفاً عليهن ، حتى لقد قال حين أظهر بعض رجاله العجب لحسن معاملته مريم المَجْدَليّة : « من لم يكن منكم ذا خطيئة فليَرْمِها بحجر » ، مع هذا ظلت أوربا المسيحية ، كما كانت أوربا الوثنية من قبلُ ، تزدرى المرأة شر ازدراء . ولم تكن تنظر إلى صلاتها بالرجل على أنها صلات الذكورة والأنوثة وكفى : بل على أنها صلة عبودية ورقّ ومهانة ، مما طوّع لبعض المتكلمين فى عصور مختلفة أن يتساءلوا : أللمرأة روح وأنها ستحاسب ، أم أنها كالحيوان لا روح لها ولا تعرف عند الله حسابا وليس لها فى ملكوت الله متسع .

المرأة فى الشرع الرومانى

محمد والاصلاح الاجتماعى

وكان محمد يقدر بما أوحى اليه أن لاصلاح للجماعة إلا بتعاون الرجل والمرأة ، على أنهما أخوان متضامنان تضامن مودة ورحمة ، وأن للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . لكن الأخذ فى ذلك بالطَّفْرة لم يكن أمراً ميسوراً . ومهما يكن من إيمان العرب الذين اتبعوه به ، فان أخذهم باليسير من الأمر وعدم تعريضهم للحرج ، أدعى إلى مزيد إيمانهم ، أدعى إلى ازدياد أنصاره . وكذلك كان الشأن فى كل إصلاح اجتماعى فرضه الله على المسلمين ، بل كذلك كان الشأن فى فروض الدين ذاتها ، فى الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وكذلك كان الشأن فى المحرمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما إليها من مثلها . وقد بدأ محمد فى شأن الاصلاح الاجتماعى وتقرير صلات مابين الرجل والمرأة بالمثل يضربه فيما بينه وبين أزواجه مما كان المسلمون جميعاً يرونه ، أن لم يكن الحجاب قد فرض على نساء النبى إلى ماقبيل غزوة الأحزاب ، كما لم يفرض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل إلى مابعد غزوة الأحزاب بل إلى مابعد غزوة خَيْبَر بأكثر من سنة . فكيف يصل النبى إلى توطيد علاقات الرجل والمرأة على أساس صالح ، تمهيداً لهذه المساواة التى انتهى الاسلام اليها مساواة تجعل للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة .

الاسلام ينهى عن التبرج

كانت صلات الرجل والمرأة عند المسلمين كما كانت عند سائر العرب على ما وصفنا ، مقصورة على صلات الذكورة والأنوثة . وكان التبرُّج وإبداء الزينة بصورة تدعو إلى تحرّش الرجال بالنساء ، كلما وجدوا الفرصة لذلك ، بعض ما يُذكى عواطف الجنس عند الرجل والمرأة على سواء ، وما يحول لذلك دون التقريب بينهما تقريباً أساسه المعنى الانسانى السامى ، وأساسه الاشتراك الروحى فى العبودية لله وحده . وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود والمنافقين فى المدينة وخصومتهم لمحمد وللمسلمين أن بلغ تحرش هذه الطوائف

بالمسلمات حدًّا أدى إلى حصار بنى قَيْنُقَاع كما رأيت ، وإلى إيصال الأذى بالمسلمات مما كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضرورة لها . فلو أن المسلمات لم يُبدين زينتهن أثناء خروجهن لكان ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذَيْنَ ، ولوَفّر ذلك هذه المشاكل ، ولكان بدءًا حسناً لهذه المساواة التى يريد الاسلام تحقيقها بين الجنسين ، من غير أن يشعر المسلمون رجالا ونساء بانتقال فى الفكرة لم يمهدوا له . وفى هذا الظرف نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب : « وَالَّذِينَ يُؤْذونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احتَمَلوا بُهْتَاناً وَإِثْمًا مُبِينًا . يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِين يدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللهُ غَفورًا رَحِيمًا . لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يجَاوِرُونَكَ فِيهَا إلاَّ قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذوا وَقُتِّلوا تَقْتِيلًا . سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً . »

بهذا التمهيد سهل على المسلمين أن يُقلعوا عن عادات العرب الأولى . كما أن ما قصد إليه شارع الاسلام من تنظيم الجماعة على أساس الأسرة ، طاهرةً من أدران الدخيلة مما جعل الزنا جريمة كبرى ، قد جعل يسيراً على كل مسلم أن يقدر ما فى تبرج الأنثى تتبدّى به للذكر من عيب ومعرّة ، ما لم تكن صلة ما بين الرجل والمرأة تسمح بهذا التبرج . وذلك قوله تعالى فى سورة النور : « قلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحفَظْنَ فرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي

وينهى عن إبداء الزينة

إخوانهنّ أو بَني أخواتهنّ أو نِسائِهنّ أو ماملكت أيمانُهنّ أو التّابعين غيرِ أولي الإربة من الرّجال أو الطّفل الّذين لم يظهروا على عورات النّساء، ولا يضربنَ بأرجلهنّ ليُعلمَ ما يخفين من زينتهنّ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون» .

وكذلك عمل الاسلام ، فتدرّجت صلة ما بين الرجل والمرأة إلى غير ما كانت ، فلم تبق صلة ذكورة وأنوثة إلا حيث لا فتنة من مثل هذه الصلة ؛ فأما فى تجارة الحياة وفى علاقات الرجال والنساء جميعاً فالكل سواسية ، والكل عباد الله ، والكل متضامنون للخير ولتقوى الله . فاذا فرط من أحدهم أو من إحداهن مايذكي فى النفس معانى الجنس فذلك إثم يجب على من فرّط منه أن يتوب إلى الله إنه هو التواب الرحيم .

لكن ذلك كله لم يكن كافياً لينقل النفس العربية فى أعوام قلائل من اعتباراتها الأولى جميعاً ليغيّرها فى هذا الشأن كما غيّرها فى الايمان بالله وعدم الشرك به نفساً جديدة . وذلك طبيعىّ . فالمادة إذا تكيّفت على صورة ما لم يكن يسيراً أن تحوّلها إلا رويداً رويداً . ومهما تحوّلها فلن تحوّلها إلا قليلا . ذلك شأن حياة الانسان المادّية . تطبعه العادات المتوارثة ، وتطبعه تقاليد البيئة فى تجارة حياته ، فاذا أُريد به أن يتغيّر فقد وجب أن يتدرّج فى انتقاله وتغيره . ثم إنه لن يستطيع هذا التدرّج إلا إذا غيّر ما بنفسه . وقد يستطيع الانسان أن يغيّر جانباً من جوانب نفسه بازالة ما أمامها من حوائل تعوق تمددها وانتشارها لتتمثل الكون كله ، وهذا ما فعل الاسلام بالمسلمين فى شأن توحيد الله والايمان به وبرسوله وباليوم الآخر ؛ لكن كثيراً من جوانب النفس العربية لم تُحطّم أمامه العوائق ، وخاصّةً فى شؤون الحياة المادية ، فبقى المسلمون فيه قريبين مما كانوا قبل إسلامهم . وكذلك كان شأنهم فيما طبعتهم عليه حياة الصحراء من تلكّؤ ، وفيما درجوا عليه من حب التحدّث الى النساء

الحياة الروحية والحياة المادية

وبرغم ما أسلفنا من تعديل الدين الجديد نظرتهم لصلات ما بين الرجل والمرأة فقد ظلوا فيما سوى ذلك كما كانوا من قبل أو على مقربة منه . وكثيراً ما كان أحدهم يحب أن يدخل الى النبي بيته وأن يمكث عنده وأن يتحدث إليه وأن يتحدث الى نسائه . وقد كانت مهام النبوة العظمى أكبر من أن تدع محمداً يشغل نفسه بحديث هؤلاء الذين يجيئون اليه والذين يتحدثون الى نسائه وما ينقل نساؤه إليه من أحاديثهم . لذلك أراد الله أن يخلي نبيه من هذه المشاغل الصغرى ، فأنزل عليه هذه الآيات من سورة الأحزاب :

بيت النبي ونساؤه

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ . وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً » . وكما نزلت هذه الآيات حديثاً للمؤمنين وإرشاداً إياهم إلى واجبهم إزاء النبي وأزواجه ، فقد نزلت الآيات الآتية من سورة الأحزاب كذلك موجهة الى أزواج النبي في هذا الشأن نفسه ؛ قال تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » .

التوسيد الاجتماعي للجماعة الاسلامية

هذا هو التوسيد الاجتماعي الجديد الذي أراد الاسلام للجماعة الاسلامية . أقام أساسه على تغيير نظرة الرجل والمرأة لما بينهما من صلات ، وأراد أن يمحو من النفوس تسلط فكرة الجنس واعتبارها وحدها المتغلبة

على كل اعتبار ، وأراد بذلك أن يوجّه الجماعة وجهتها الانسانية العليا التى لا تُنكر على الانسان استمتاعه بالحياة استمتاعاً لا يُضعف من حريته فى أن يريد ، ومن باب أولى لا يسلبه هذه الحرية فى أن يريد ، والتى تجعل من الانسان صلة ما بين الكائنات جميعاً ، فترتفع به من مراتب زراعة الأرض ومن الصناعة ، ومن تجارة الحياة أيا كانت ، لتصل به إلى مجاورة القدّيسين والاتصال بالملائكة المقرّبين . وقد جعل الاسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السموّ بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وبما تطهّر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله ، وبما تقوّى من أسباب الاخوّة بين المؤمنين ، وبين الانسان وسائر مافى الكون .

* * *

هذا التنظيم للحياة الاجتماعية رويداً رويداً ، تمهيداً إلى الانتقال العظيم الذى أعدّ الاسلام له الانسانية ، لم يمنع قريشاً والعرب من أن تتربّص بمحمد الدوائر ، ولم يمنع محمداً من أن يكون دائم الحذر من ناحية ، سريعاً إلى النشاط لالقاء الرعب فى قلوب خصومه من ناحية أخرى . من ذلك أنه بعد ستة أشهر من القضاء على بنى قريظة شعر بشىء من الحركة فى ناحية مكة ، ففكر فى أن ينتقم لخبيْب بن عَدِىّ وأصحابه ممن قتل بنو لِحْيان عند ماء الرَّجيع منذ سنتين خلتا . على أنه لم يَجْهَر بقصده خيفة أن يتخذ العدوّ الحيطة لنفسه ، فأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرّة فأخذ قوّاته ويمم بها شمالا . فلما اطمأن إلى أن قريشاً وجيرانها لم يبق منهم من يفطن لمقاصده انفتل راجعاً إلى ناحية مكة وأغذّ السير مسرعاً حتى بلغ منازل بنى لِحْيان بغُرَان . لكن قوماً رأوه أوّل انحداره إلى الجنوب فعرّف منهم بنو لحيان قصده إياهم ، فاعتصموا برءوس الجبال هم ومتاعهم . وفات النبىّ أن يصيبهم ؛ فبعث أبا بكر فى مائتى راكب حتى بلغوا عُسْفان على مقربة من مكة ؛ ثم كر رسول الله

غزوة بنى لحيان

قافلا إلى المدينة فى يوم قائظ بلغ من قيظه حتى كان النبي يقول : « آئبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون . أعوذ بالله من وَعثاء السفر وكآبة المُنْقَلَب وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

غزوة ذى قرد

ولم يكد محمد يقيم بالمدينة ليالى بعد أوبته اليها حتى أغار عُيَيْنَة بن حصن على أطرافها . وكان بظاهرها إبل ترعى يحرُسها رجل وامرأته . فقتل عُيَيْنَة وأصحابه الرجل وساقوا الابل واحتملوا المرأة وانصرفوا يحسبون أنهم من اللّحاق بمنجاة . لكن سَلَمة بن عمرو بن الأكْوَع الأسْلَميّ كان قد غدا يريد الغابة متوشّحاً قوسه ونبله . فلما مرّ على ثَنِيّة الوداع وأشرف على ناحية من سَلْع بَصُر بالقوم قد اقتادوا الابل واحتملوا المرأة ، فصاح : واصبَاحاه ؛ وجعل يشتد فى آثار القوم حتى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل ، وهو فى أثناء ذلك لا ينفك يصيح . وبلغ محمداً صياح سَلَمة ، فنادى فى أهل المدينة : الفَزَع الفَزَع ، فترامى الفرسان اليه من مختلف النواحى . فأمرهم فانطلقوا فى أثر القوم ، وجهّز هو قوّاته وسار على رأسها يتبعهم . وكان عُيَيْنَة ومن معه قد أغذّوا السير مسرعين يريدون اللحاق بغَطَفان نجاة من المسلمين ، لكن فرسان المدينة أدركوا مؤخّرتهم واستخلصوا شطر الابل منهم ، ولحق بهم محمد فأعانهم ، ونجت المرأة المؤمنة التى كان العرب قد احتملوها . وأراد جماعة من أصحاب النبي أخذت منهم الحماسة مأخذها أن يتأثروا عيينة . فردّهم رسول الله ، أن علم أن عيينة وأصحابه قد أدركوا غَطَفَان واحتموْا بهم . ورجع المسلمون إلى المدينة وجاءت امرأة الحارس فى آثارهم على ناقة للمسلمين . وكانت المرأة قد نَذَرت إن أنجتها الناقة لتنحرنّها قرباناً إلى الله . فلما أخبرت النبي بنذرها قال : بئس ماجزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها . إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين .

وأقام محمد بالمدينة بعد ذلك قرابة الشهرين . ثم كانت غزوة

غزوة بنى المصطلق

بنى المُصْطَلِق بالمرَيْسيع ، هـذه الغزاة التى يقف عندها كل كاتب وكل مؤرّخ سيرة النبى العربى لا لأنها غزاة ذات قيمة ، أو لأن المسلمين أو عدوّهم أبلوا فيها بلاء خارقاً للعادة ، بل لأن الشقاق كاد يفشو بعدها فى صفوف المسلمين لحسمه الرسول بأحسن ما يكون عزيمة وحزما ، ولأن من أثرها أن تزوّج الرسول من جويرية بنت الحارث ، ولأن هذه الغزوة أثمرت حديث الافك عن عائشة حديثاً كان موقفها منه ، وهى لما تزل فى السادسة عشرة ، موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتهما كل القوى وعنت لجلالها كل الوجوه .

فقد بلغ محمداً أن بنى المُصْطَلِق ، وهم فرع من خُزَاعَة ، يجمعون له فى حيِّهم على مقربة من مكة ، وأنهم يحرِّضون عليه يريدون قتله وعلى رأسهم قائدهم الحارث بن أبى ضِرَار . ووقف محمد من أحد البدو على سرّ جمعهم فأسرع فى الخروج ليأخذهم على غرّة ، كعادته فى أخذ أعدائه ، وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ولواء الأنصار لسعد بن عُبَادة . ونزل المسلمون على ماء قريب من بنى المصطَلِق يقال له المُرَيْسيع ، ثم أحاطوا ببنى المصطلق ففر من جاءوا لنصرتهم . قتل من بنى المصطلق عشرة ولم يقتل من المسلمين إلا رجل يقال له هشام بن صُبَابة أصابه رجل من الأنصار وهو يحسبه خطأ من العدوّ . ولم يجد بنو المصطلق بعد قليل من التراشق بالنبال مفرًا من التسليم تحت ضغط المسلمين القوى السريع ، فأُخذوا أسرى هم ونساؤهم وإبلهم وماشيتهم .

فتنة عبد الله ابن أبى

وكان لعمر بن الخطاب فى الجيش أجير يقود فرسه ، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد رجال الخزرج على الماء ، فاقتتلا فتصايحا ، يقول الخزرجى : يا معشر الأنصار ، ويقول أجير عمر : يا معشر المهاجرين . وسمع عبد الله ابن أُبىّ النداء ، وكان قد خرج مع المنافقين فى هذه الغزاة ابتغاء الغنيمة ، فثار ما فى نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيظة ، وقال لجلسائه : لقد كاثرنا

المهاجرون فى ديارنا . والله ما أعدُّنا وإياهم إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك . أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . ثم قال لمن حضر من قومه : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم . ومشى بحديثه هذا ماشٍ إلى رسول الله بعد فراغه من عدوّه ، وكان عنده عمر بن الخطاب ، فهاج عمر لما سمع وقال : مُرْ به بلالاً فليقتله !. هنا ظهر النبى كدأبه مظهر القائد المحنَّك والحكيم البعيد النظر ، إذ التفت إلى عمر وقال : فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ! .

لكنه قدّر فى نفس الوقت أنه إن لم يتخذ خطة حازمة فقد يستفحل الأمر . لذلك أمر أن يؤذَّن فى الناس بالرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها . وترامى إلى ابن أُبَىّ ما بلغ النبىّ عنه ، فأسرع إلى حضرته ينفى ما نسب إليه ، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به . ولم يغيّر ذلك من قرار محمد الرحيل شيئاً ، بل انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسى ، وطيلة ليلتهم حتى أصبح ، وصَدْرَ يومهم الثانى حتى آذتهم الشمس . فلما نزل الناس لم تلبث جنوبهم أن مست الأرض حتى وقعوا من فرط تعبهم نياماً ، وأنسى التعب الناس حديث ابن أُبَىّ ، وعادوا بعد ذلك إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بنى المصطلق وأسراهم وسبيهم ، ومعهم جويرية بنت الحارث قائد الحىّ المهزوم وزعيمه .

حقد بن أبى على النبى

بلغ المسلمون المدينة وأقام ابن أُبَىّ بها ولا تهدأ له نفس حسداً لمحمد وللمسلمين ، وإن تظاهر بالاسلام بل بالايمان ، وإن أصرّ على إنكار ما نُقل عنه لرسول الله عند ماء المرَيْسيع . أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى : « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ؛ وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ وَلَـكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ .

يَقُولونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَلِلّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين ، وَلَـكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُون » . هنالك حسب قوم أن هذه الآيات قضاء على ابن أبى ، وأن محمداً لاريب آمر بقتله . فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وكان مسلماً حسن الاسلام ، فقال : « يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه . فان كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ماكان بها من رجل أبرّ بوالده منى . وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمناً بكافر فأدخل النار » . كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبى لمحمد . وما أحسب عبارة أبلغ من عبارته على إيجازها فى قوة التعبير عن حالة نفسية تضطرب فيها أقوى العوامل فى النفس أثراً : تضطرب فيها عوامل البر بالأب وصدق الايمان والنخوة العربية والحرص على سكينة المسلمين حتى لاتتواتر الثارات بينهم ! فهذا ابن يرى أباه سيقتل فلا يطلب إلى النبى ألاّ يقتله ، لأنه يؤمن بأن النبىّ إنما يصدَع بأمر ربه ، ويُوقن بكفر أبيه . وهو ، من خيفة ما يقتضيه البرّ بأبيه وماتقتضيه الكرامة والنخوة أن يثأر له ممن قتله ، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه وأن يحمل بنفسه إلى النبى رأسه وإن تَقَطَّع لذلك قلبه وإن فَرَى ذلك كبده ! . وهو يجد فى إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذى يكلف نفسه مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذى يأمر النبى بقتل أبيه . أىُّ جِلادٍ بين الايمان والعاطفة والخُلق أشدّ من هذا الجلاد ! وأية مأساة نفسية أفتك بصاحبها من هذه المأساة ! أفتدرى بم أجاب النبى عبد الله بعد أن سمع قوله ؟ قال له : إنا لا نقتله بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقى معنا . يا لَروعة العفو وجلاله ! محمد يترفق بهذا الذى يؤلِّب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه فيكون رفقه ويكون عفوه أبعد أثراً من عقوبته لو أنه أنزلها . فقد

مأساة نفسية بالغـــة

عفو النبى عن ابن ابى

كان عبد الله بن أُبَيّ بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه يعاتبونه ويعنّفونه ويُشعرونه أن حياته بعض هِبات محمد إيّاه. وتذاكر النبي مع عمر يوماً شؤون المسلمين، وجاء ذكر ابن أُبَيّ وما يعاتبه قومه وما يعنّفونه، فقال محمد: كيف ترى يا عمر! أمَا والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أُنُف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمتُ لأَمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري.

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السبي والغنائم. على أن أمراً حدث لم يترك بادىء الرأي أثراً، ثم كان له بعد ذلك حديث طويل. ذلك أن النبي كان إذا غزا، أقْرَعَ بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه. وخرج سهم عائشة عشية غزاة بني المصطلق فخرج بها. وكانت عائشة نحيفة خفيفة، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت اليه فأخذ الرجال به فشدّوه إلى ظهر البعير وهم لا يكادون يشعرون بها فيه لخفة زنتها. ولما فرغ النبي من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المضنية التي ذكرنا، اتجه بعد ذلك إلى المدينة، حتى اذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل ثم أذّن في الناس بالرحيل. وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة في انتظار دخولها فيه. وكان لعائشة عقد انسلّ من عنقها وهي في بعض حاجتها، فلما قامت عائدة الى الرحل التمست العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه. ووجدته ورجعت إلى المعسكر لتستقل هودجها، فاذا القوم قد شدّوه الى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه، واذا هم قد ارتحلوا يحسبون أنهم حملوا معهم أشد أمهات المؤمنين حظوةً عند النبي. ولم تجد هي في المعسكر داعياً ولا مجيبا. فلم يساورها الخوف وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا اليها؛ فخير لها أن تبقى مكانها من أن تضرب في الصحراء على غير هدى فتضل السبيل. لم يساورها الخوف

عائشة مع النبي في بني المصطلق

تخلف عن الركب ولا يحسبونها

فالتفت فى جلبابها واضطجعت مكانها منتظرة عودة الباحث عنها . وإنها لفى ضجعتها إذ مرّ بهـا صفوَان بن المُعَطَّل السُّلَمىّ وكان قد تخلّف عن العسكر لبعض حاجته ، وكان يراها قبل أن يُضرب الحجاب على نسـاء النبى . فلما بصُر بها على هذه الحال تراجع دهشاً وقال : إنا لله وإنا اليه راجعون ! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ماخلّفك رحمك الله ؟ . فلم تجبه ، فقرّب هو لها البعير واستأخر عنه وقال : اركبى ؛ فركبت ، وانطلق بالبعير سريعاً يطلب الناس فلم يدركهم أن كانوا يُعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذى أمر به رسول الله إطفاء للفتنة التى كادت تقوم بسبب حديث ابن أُبىّ : ودخل صفوان المدينة فى وضح النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره ، حتى إذا كانت عند منزلها من بين منازل نسوة الرسول نزلت فدلفت إليه ، ولا يجول بخاطر أحد أن يحدث فى أمرها قولا أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهة ، ولا يدور بخاطر الرسول ظنة سوء فى ابنة أبى بكر أو فى صفوَان المؤمن الحسن الايمان .

عودها إلى المدينة مع صفوان

وما كان لحديث أن يدور وها هى ذى تدخل بأعين الناس المدينة فى أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يمض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظنـة أو يبعث إلى نفسٍ ريبة ، وها هى ذى تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه ، ليس فى شىء من مظهرها مايُريب . فلتجر إذاً شؤون المدينة كما هى ، وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا ممـا أسروا من بنى المصطلق ، ولينعموا بهذه الحياة الرخيّة التى تزداد على الأيام رخاء كلما زادهم إيمانهم على عدوّهم عزًّا ، وكلما أظفرتهم به عزيمتهم الصادقة واستهانتهم بالموت فى سبيل الله وفى سبيل دينه وفى سبيل حرية العقيدة ، حرية كان العرب من قبل يأبونها عليهم .

وكانت جُوَيْرِية بنت الحارث من سبايا بنى المصطلق ، وكانت امرأة

جويرية بنت الحارث

حـلوَة مُلّاحَـة ، وقد وقعت فى سهم أحد الأنصار ، فأرادت أن تفتدى نفسها منه ، فأغلى الفداء علماً منه بأنها ابنـة زعيم بنى المصطلق ، وأن أباها على أداء ما طلب قدير . وخشيت جويرية أثر شططه ، فذهبت إلى النبى وكان فى دار عائشة فقالت : « أنا جُـوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبى ضِرَار سيد قومه ، وقد أصابنى من البـلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعت فى سهم فلان فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابتى » . قال : فهـل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : أقضى كتابتك وأتزوّجك . فلما بلغ الناس الخبر أطلقوا ما بأيديهم من أسرى بنى المصطلق إكراماً لصهر رسول الله إيّاهم ، حتى لـكانت عائشة تقول عن جُـوَيْرِيَة : ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومهـا بركةً منها .

النبى يتزوجها

هذه رواية . وتجرى رواية أخرى بأن الحارث بن ضِرَار جاء إلى النبى بفداء ابنته ، وأنه أسلم بعـد أن آمن برسالة النبى ، وأنه أخذ ابنته جُـوَيْرِيَة فأسلمت كما أسلم أبوها . فخطبها محمد إليه فزوّجه إيّاها وأصدقها أربعمائة درهم .

وفى رواية ثالثة : أن أباها لم يكن راغباً فى هـذا الزواج ، بل لم يكن راضياً عنه ، وأن أحد أقارب جُـوَيْرِيَة هو الذى زوّجهـا من النبى على غير إرادة أبيها .

تزوّج محمد من جُـوَيْرِيَـة ، وبنى لها منزلهـا إلى جانب منازل نسائه فى جوار المسجد ، وأصبحت بذلك من أمّـهات المسلمين . وبينا هو فى شغله بها كان قوم قد بدءوا يتهامسون : ما بال عائشة تأخرت عن العسكر وجاءت مع صفوان على بعيره ، وصفوان شابٌ وسيم الطلعة مكتمل فتوة الشباب ! . وكان لزينب بنت جَحْش أخت تدعى حَـمْنة ، وكانت تعلم ما لعائشة عند محمد من حظوة تقدّمها على أختها . فجعلت حَـمْنة هذه تذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشة ، وكانت تجد من حسّان بن ثابت عوناً ، ومن علىّ بن أبى طالب سميعاً .

حديث الافك

فأما عبد الله بن أُبَيٍّ فوجد فى هـذا الحديث مرعىً خصيباً لشفاء ما فى نفسه من غِلٍّ. وجعل يذيعه جهد طاقته. لكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة وقد كانت مضرب المثل فى الطهر وسُمُوّ النفس. وكاد الحديث يؤدى إلى فتنة فى المدينة. وبلغت هذه الأخبار محمداً فاضطرب لها. ماذا؟! عائشة هذه تخونه! هذا مستحيل. إنها الأنفة والاباء؛ وإن لها من حبه إيّاها وشدة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا إثماً دونه كل إثم. نعم!.. ولكن أفٍّ للنساء! من ذا يستطيع أن يسبر غورهن وأن يصل إلى قرارة ما فى نفوسهن. وعائشة بعدُ طفلةٌ يافعة الشباب. وأى شىء هذا العقد الذى فقدت فذهبت تلتمسه جوف الليل؟! وما بالها لم تُحَدِّثْ له وهم ما يزالون فى المعسكر من أمره ذكراً؟! وتقلّب النبى على أشواك الحيرة، ما يدرى أيصدّق أم يكذّب.

حيرة النبى

أمّا عائشة فلم يجرؤ أحد على أن يبلّغها من كل هذا الذى يقول الناس شيئاً، وإن أنكرت من زوجها جفاء لم تعرفه منه، ولا يتفق فى شىء مع لطفه بها وحبه إياها. ثم إنها مرضت من بعد ذلك مرضاً شديداً، فكان إذا دخل عليها وأمها تمرّضها لم يزد على قوله: كيف تيكم؟! ووجدت عائشة فى نفسها لما رأت من جفاء النبى إياها، وجعلت تحدث نفسها: ألا تكون جُوَيْرية قد حلّت من قلبه محلها!. وبلغ من ضيق ذَرْعها بجفاء محمد إياها أن قالت له يوما: لو أذِنتَ لى فانتقلت إلى أُمى فمرّضتنى!. وانتقلت إلى أمها وفى نفسها من الدهشة لهذا التفريط فى أمرها ما آذاها وآلمها. وظلت فى مرضها بضعة وعشرين يوماً حتى نقهت، وهى لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئاً. أمّا محمد فقد بلغ من تأذيه بترامى هذه الأخبار إليه أن قام يوماً فى الناس يخطبهم فقال: «أيها الناس. ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق! . والله ما علمت منهم إلا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله

مرض عائشة

تأذى الرسول من حديث الناس

ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا معى » . فقام أسَيْد بن حُضَيْر فقال : يا رسول الله إن يكونوا من إخواننا الأوس نكفِكهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . وردّ عليه سعد بن عبادة بأنه إنما تقدّم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها . وتثاور الناس وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول وحسن مُداخلته .

الخبر يبلغ عائشة

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة ، حدّثتها به امرأة من المهاجرين . فلما عرفته كاد يُغْشَى عليها من هوله ، وانطلقت تبكى لا يحبس دمعها حابس حتى شعرت كأن كبدها تتصدّع . وذهبت إلى أمها وقد أثقل الهمُّ كاهلها حتى كاد ينوء بها ، وقالت لها والعبرة تخنقها : يغفر الله لك يا أماه !! تحدّث

معاتبتها أمها

الناس بما تحدّثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ! . ورأت أمها الهمّ الذى بها ، فحاولت تخفيف أثره فى نفسها فقالت : أى بُنَيّة ، خفِّفى عليك الشأن . فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثّرن وكثّر الناس عليها . ولكن عائشة لم تتعزّ بهذا القول ، وزادها ألماً أن ذكرت جفاء النبى إياها بعد الذى كان من لطفه بها ، وأن شعرت بأنه قد وقع فى نفسه من

حيرتها

هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة . لكن ! ماذا عساها تستطيع أن تفعل ؟ ! أتفاتحه القول وتذكر له الخبر وتُقسم له أنها بريئة ؟ ! هى إذاً تتهم نفسها ثم تدفع التهمة بالأيمان والتوسلات . أفتعرض عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها ؟ . لكنه رسول الله وهو قد اصطفاها على نسائه ، وليس من ذنبه أن تحدّث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع صفوان . رباه ! . ألهمها فى هذا الموقف الدقيق مخرجا يتضح لمحمد معه الحق فى أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبها والعطف عليها واللطف بها .

ولم يكن محمد خيراً منها مكاناً ؛ فقد آذاه ما يتحدث به الناس حتى اضطر

محمد يشاور أسامة وعلى

آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خلصائه ماذا يصنع . فذهب الى بيت أبى بكر ودعا اليه عليًّا وأسامة بن زيد فاستشارهما . فأمّا أسامة فنفى كل ما نسب إلى عائشة على أنه الكذب والباطل ، وأن الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبى عنها إلا خيراً . وأمّا علىّ فقال : يارسول الله ، إن النساء لكثير . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تَصْدُقه . ودُعيت الجارية وقام لها علىّ فضربها ضرباً موجعاً وهو يقول : أصدُقى رسول الله ، والجارية تقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وتنفى عن عائشة قالة السوء . أخيراً لم يبق أمام محمد إلا أن يواجه زوجه وأن يطلب اليها أن تعترف . ودخل عليها وعندها أبواها وعندها امرأة من الأنصار ، وهى تبكى والمرأة تبكى معها وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعمق قرارات الحزن من هول ماترى من ريبة محمد بها : من ريبة هذا الرجل الذى تحب وتقدّس ، والذى به تؤمن وفيه تفنَى . فلما رأته كفكفت دمعها وسمعت اليه وهو يقول : ياعائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقولون فتوبى إلى الله فان الله يقبل التوبة عن عباده . فما إن أتم حديثه حتى ثار فى عروقها دمها وجفّ من عينها دمعها وتلفّتت إلى ناحية أمها وإلى ناحية أبيها تنظر بم يجيبان . لكنهما سكتا فلم ينبسا بكلمة . فازدادت ثورة نفسها وصاحت بهما : ألا تجيبان ! قالا : والله ما ندرى بم نجيب ، وعادا إلى وجومهما . هنالك لم تملك نفسها دون النشيج بالبكاء ؛ وساعفتها دموعها لتهدّىء من الثورة المضطرمة بين ضلوعها تكاد تُحرقها . ثم وجهت الكلام إلى النبى وهى تبكى فقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ! . والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة لأقولنّ مالم يكن . ولئن أنا أنكرت لا تصدّقوننى . ثم سكتت برهة وعادت تقول : إنما أقول كما قال أبو يوسف : « صَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

مواجهة محمد عائشة

ثورة عائشة

فترة سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضروها طالت أو قصرت.

على أن محمداً لم يبرح مجلسه حتى تغشاه من نزول الوحى ما كان يتغشاه، فسُجِّى بثوبه ووضعت وسادة من أدَم تحت رأسه. قالت عائشة: أمّا أنا فوالله مافزعت ولا باليت حين رأيت من ذلك مارأيت، قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى. وأمّا أبواى فما سُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن نفسُهما فرَقاً من أن يأتى من الله تحقيق ماقال الناس. فلما سُرِّى عن محمد جلس يتصبّب عرَقاً، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول: أبشرى ياعائشة؛ قد أنزل الله براءتك. قالت عائشة: الحمد لله. وخرج محمد إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التى نزلت من سورة النور:

الوحى ببراءة عائشة

«إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» إلى قوله تعالى: «وَلَوْلاَ إذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ، هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللهُ أنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أبَداً إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ». وفى هذا الظرف كذلك نزلت عقوبة رمى المحصنات:

رمى المحصنات وتنفيذ حكمه فى رماة عائشة

«وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ».

وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بمِسْطَح بن أُثاثة وحسّان بن ثابت وحَمْنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضرب كل منهم ثمانين جلدة. وعادت عائشة إلى مثل مكانها الأول من بيت محمد ومن قلبه. يقول السير وليَم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته: «إن حياة عائشة قبل هذا

الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد فى دحض أية شبهة أثيرت حولها » .

حال العدو

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعدُ أن يعود إلى رضا محمد وعطفه عليه ، كما طلب محمد إلى أبى بكر ألا يحرم مسْطَحاً عطفه الذى عوّده إيّاه . وكذلك انقضى هذا الحادث ولم يبق له فى المدينة كلها من أثر . وأسرعت النقاهة إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول وإلى مكانتها من قلبه وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعاً . وبذلك فرغ النبى إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحديبية يفتح به الله على المسلمين فتحاً مبيناً .

الفصل العشرون

عهد الحديبية

بعد ست سنوات بالمدينة — دعوة محمد الناس للحج — لا قتال ولا حرب — قريش تقرر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة. مفاوضات الصلح — أناة محمد وسياسته — عهد الحديبية فتح مبين.

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبي وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهم فيما رأيت من جهاد مستمر وغزو متصل بينهم وبين قريش تارة وبينهم وبين اليهود أخرى. والاسلام أثناء ذلك يزداد انتشاراً ويزداد قوة ومَنَعة. ومنذ السنة الأولى من الهجرة عدل محمد بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذى بنى إبراهيم بمكة، والذى تجدد بناؤه بعد ذلك حين رفع محمد حجره الأسود إلى مكانه من جداره وهو ما يزال فى فتوة الشباب، وقبل أن يرد بخاطره أو بخاطر أحد من الناس ما سيُلقى الله عليه من رسالة.

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت وجهة العرب فى عبادتهم يحجّون إليه كل عام فى الأشهر الحُرُم، فمن دخله أثناءها كان آمناً: فاذا التقى المرء بأشد الناس له عداوة لم يستطع عنده أن يجرد سيفاً أو يسفك دماً. لكن قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر محمد والمسلمون معه أن يصدُّوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب. وفى ذلك نزل قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؛ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ

صد المسلمين عن المسجد الحرام

الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ». ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر فى سورة الأنفال: « وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ». وفى هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة فى هذا المسجد الحرام الذى جعله الله مثابةً للناس وأمناً. لكن قريشاً كانت ترى محمداً والذين معه كفروا بآلهة هذا البيت هُبَلَ واللّات والعُزّى وسائر الأصنام معها، وكانت لذلك ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة، حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم، واجباً عليها.

شوق المسلمين إلى مكة

والمسلمون فى أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء هذا الواجب الدينى المفروض عليهم كما كان مفروضاً من قبلُ على آبائهم. والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك هما واصباً وألماً لذّاعاً: ألم النفى وهمّ الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه. وهؤلاء وأولئك كانوا فى ثقتهم بنصر الله رسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله، يؤمنون بأن يوماً قريباً لابدّ آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطّوّفوا بالبيت العتيق، وليؤدوا فريضةً فرضها الله على الناس جميعاً. وإذا كانت السنة تمرّ تلو السنة فتُساجل الغزوة الغزوة وتكون بَدْرٌ ثم أُحُد ثم الخندق ثم ما بين هذه الغزوات وما بعدها، فان هذا اليوم الذى يؤمنون به لا ريب آت. وما أشدّهم لهذا اليوم شوقاً! وما أشد ما يشاركهم محمد فى شوقهم وما يؤكد لهم أن هذا اليوم آت عما قريب!

العرب والكعبة

والحق أن قريشاً ظلموا محمداً وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة. فلم يكن هذا البيت العتيق ملكا لقريش، ولكنه كان

ملكا للعرب جميعاً . وإنما كانت فى قريش سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه . ولم يكن اتجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر ليبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من طقوس . فاذا جاء محمد ليدعو الناس إلى نبذ عبادة الأصنام ، وإلى التطهُّر من رجس الوثنية والشرك ، والسمو بالنفس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والارتفاع فى سبيل ذلك فوق كل نقص ، والارتقاء بالروح إلى حيث يستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله . وكان من فرائض ذلك حج البيت والعمرة ، فمن العدوان منع أصحاب هذا الدين الجديد من أداء هذه الفريضة . لكن قريشاً خافت إن جاء محمد ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته ، وهم من صميم أهل مكة ، أن يتعلّق سواد المكيين بهم وأن يشعروا بما فى بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم ، فتكون هذه نواة حرب أهلية . ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة لم ينسوا لمحمد والذين معه ما حطموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبَّدة إلى الشام ، وما أثاروا بذلك فى نفوسهم من حقد وبغضاء لن يخفف منها أن البيت لله وللعرب جميعاً ، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه .

المسلمون والكعبة

انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرّقون شوقاً يريدون زيارة الكعبة ويريدون الحج والعمرة : وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبى بما أُلهم فى رؤياه الصادقة : ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسهم ومُقَصِّرين لا يخافون . فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف . ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ؟ أفيحاربون فى سبيله ؟ أفيُجلون قريشاً عنه عنوةً ؟ ! أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مذعنةً صاغرة ؟ !

أذان محمد في الناس بالحج

كلا ! لاقتال ولا حرب . بل أذّن محمد فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام . وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإياه فى الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين . وحرص محمد فى نفس الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع . وحكمته فى ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج فى الشهر الحرام حاجًّا ولم يخرج غازيا ، وأنه أراد أداء فريضة فرضها الاسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل ؛ وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه فى أداء هذه الفريضة . فان أصرّت قريش مع ذلك على مقاتلته فى الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به ، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها فى موقفها ومن يعينها على قتال المسلمين ، وكانت بامعانها فى الصد عن المسجد الحرام تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن ملة أبيهم ابراهيم ، فأمن المسلمون بذلك أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل ، وكان لدينهم بذلك مايزيد شأنه ، عند العرب الذين لا يؤمنون به ، رفعة على رفعته . وما عسى أن تقول قريش لقوم جاءوا محرمين ، لاسلاح معهم إلا سيوفهم فى غمودها ، يتقدّمهم الهَدْى الذى ينحرون ، ولاهمّ لهم إلا أن يؤدّوا بتَطْواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعاً ؟ !

استنفار غير المسلمين للحج

أذّن محمد فى الناس بالحج ، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج فى أوّل ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، يتقدّمهم على ناقته القصوى ، فكانت عِدّة الذين خرجوا ألفاً وأربعمائة . وساق محمد معه الهدى سبعين بَدَنة ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا ، وانه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام مُعظما له . فلما بلغ ذا الحُلَيْفَة عقص الناس الرءوس ولبّوا بالحج وعزلوا الهدى ومازوا جوانبها اليمنى ، ومن

بينها بعير أبى جهل الذى أخذوا ببدر . ولم يحمل أحد من هذا الحاجّ سلاحا إلا مايحمل المسافر من سيف مُغْمَد . وكانت أم سَلَمة زوج النبىّ معه فى هذه الرحلة .

قريش وحج المسلمين

وبلغ قريشاً أمر محمد ومن معه وأنهم يسيرون قِبَلَهم حاجّين ، فامتلأت نفس قريش بالمخاوف وجعلوا يُقَلّبون هذا الأمر على وجوهه ، يحسبونه حيلة أراد محمد أن يحتال بها على دخول مكة بعد أن صدّهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة . ولم يثنهم ماعلموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم فى أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحركهم إلا العاطفة الدينية لقضاء فرض يُقرّه العرب جميعاً ، عن أن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة ، بالغاً مابلغ الثمن الذى يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا . لذلك عقدوا لخالد ابن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين . وتقدّم هذا الجيش حتى يحول بين محمد وأم القرى ، وبلغ من تقدمه أن عسكر بذى طُوًى .

معسكران يلتقيان

أمّا محمد فتابع مسيرته ، حتى إذا كان بعُسْفان لقيه رجل من بنى كعب سأله النبى عما قد يكون لديه من أخبار قريش ، فكان جوابه : « قد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طُوًى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كُرَاع الغَمِيم » . قال محمد : « ياويح قريش لقد أهلكتهم الحرب ؛ ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة » . ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع . إنه لم يخرج من المدينة غازياً وإنما خرج محرماً يريد بيت الله يؤدى عنده إلى الله فرضه ، وهو لم

يتخذ للحرب عُدّتها ؛ فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصد إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلا .

وفيما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدل مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين إلى درك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً ، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها : معركة لم يُرِدها محمد وإنما حملته قريش عليها حملا وألزمته خوض غمارها إلزاماً . إن المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية ، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جرِّدت من غمودها لدفع عدوان المعتدى ؛ لكنه يفوت بذلك قصده ، وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه ، وهو أبعد من هذا نظراً وأكثر حنكةً وأدقّ سياسة . إذاً . . نادى فى الناس قائلا : مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ وكذلك ظل مستقرًّا رأيه على سلوك سياسة السلم التى رسم منذ خرج من المدينة ، ومنذ اعتزم الذهاب إلى مكة حاجًّا . وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعراً بين شِعاب مضنية وجد المسلمون فى سلوكها مشقة أى مشقة ، حتى أفضت بهم إلى سهل عند مُنْقَطَع الوادى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنيّة المُرَار مهبط الحُدَيْبية من أسفل مكة . فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ، ركضوا راجعين أدراجهم ليقفوا مدافعين عن مكة إذا دهمها المسلمون . ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت القَصْوَى (ناقة النبى) وظن المسلمون أنها جُهِدت . قال رسول الله : « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطَّة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ، ثم دعا الناس إلى النزول ؛ فقالوا له : يا رسول الله ، ما بالوادى ماء ننزل عليه . فأخرج هو سهماً من كنانته فأعطاه رجلا نزل به إلى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء فغرزه فى

حرص محمد على السلم

الرمال من قاع البئر فجاش الماء ، فاطمأن الناس ونزلوا .

نزلوا ، ولكن قريشاً بمكة لهم بالمرصاد . وهى تؤثر الموت على أن يدخل محمد عليهم إياها . فهل يُعِدّون لقريش عُدّة النزال فيحاربوها حتى يحكم الله بينهم وبينها وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ؟! فى هذا فكر بعضهم ، وفى احتماله فكرت قريش . وهو إذا كان وانتصر المسلمون فقد قضى على قريش عند العرب كلها قضاء أخيراً ، وقد تعرّضت قريش لأن ينزع محمد منها سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ وكل ماتفاخر به العربَ من مراسم وطقوس دينية . ماذا تصنع إذاً ؟! وقف المعسكران يفكر كلٌّ فى الخطة التى يتبع .

تفكير المعسكرين

فأما محمد فظل على خطته التى رسم منذ أعدّ للعمرة عُدّته ، خطة السلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به ، وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفرّ . وأما قريش فترددت ثم فكرت فى أن توفد إليه من رجالها من يتعرّف قوّته من ناحية ، ومن يصده عن دخول مكة من الناحية الأخرى . وجاءه بُدَيْل بن وَرْقاء فى رجال من خُزَاعة يسألونه ما الذى جاء به . فلما اقتنعوا من حديثه بأنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته ، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليُخَلّوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق . لكن قريشاً اتهموهم وجبهوهم وصاحوا بهم : لئن جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخل علينا عَنْوَةً أبداً ولا تتحدّث بذلك عنا العرب . ثم بعثت قريش رسولا آخر لم يسمع إلا ما سمع صاحبه ولم يغامر بأن يتّهم عند قريش . وكانت قريش تعتمد فيما أعدّت من قتال محمد على حلفائها من الأحابيش ، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن محمداً لا يسمع له ولا يتفاهم وإياه ازداد لقريش نصرة فزادهم على محمد قوة . وخرج الحُلَيْس سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين . فلما رآه النبى مقبلا أمر بالهَدْى أن تُطلق أمامه ، لتكون تحت نظره دليلا ماديًّا على أن هؤلاء الذين تريد قريش

رسل قريش إلى محمد

حربهم إنما جاءوا حاجّين معظّمين البيت . ورأى الحُلَيس الهَدْى سبعين بدَنة تسيل عليه من عُرْض الوادى قد تأكلت أوبارها ، فتأثر لهـذا المنظر وثارت فى نفسه ثائرات دينه ، وأيقن أن قريشاً ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حرباً ولا عدواناً ؛ فانقلب إلى قريش دون أن يلقى محمداً وذكر لهم ما رأى . فلما سمعوا حـديثه غاظهم وقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك . وغضب الحليس لمقالتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصدّ عن البيت من جاء معظّماً إياه ، وأنهم إن لم يُخلّوا بين محمد وما جاء به نَفَر بالأحابيش عن مكة . وخشيت قريش عاقبة غضبه فاسترضوه وطلبوا إليـه أن يُنْظِرهم حتى يفكروا فى أمرهم .

سفارة عروة ابن مسعود

ثم رأوا أن يوفدوا حكيما يطمئنون إلى حكمته ، فتحـدثوا فى ذلك إلى عُرْوة بن مَسْعُود الثقفى ، فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم . فلما اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متّهم وأنهم يطمئنون إلى حـكمته وحسن رأيه ، خرج إلى محمد وذكر له : أن مـكة بَيْضته ، وأنه إن يَفْضُضها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه ، كان العار الخـالد لقريش عاراً لا يرضـاه محمد وإن اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت . فصاح أبو بكر بعروة منكراً أن ينصرف الناس عن رسول الله . وكان عروة يتناول لحية محمد وهو يكلمه ، وكان المغيرة ابن شُعْبة واقفاً على رأس الرسول يضرب يد عروة كلما تناول لحية محمد ، مع علمه بأن عروة هو الذى دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرة قتلهم . ورجع عروة بعـد أن سمع من محمد مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء معظّماً البيت مؤدّياً فرض ربه . فلما كان عند قريش قال لهم : « يا معشر قريش ، إنى جئت كسرى فى ملـكه ، وقيصر فى ملـكه ، والنّجاشى فى ملـكه ، وإنى والله ما رأيت ملـكا فى قوم قط مثل

محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً ، فرَوْا رأيكم » .

رسل محمد إلى قريش

وطالت المحادثات على النحو الذى قدمنا : ففكر محمد فى أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الاقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذى يرى . فبعث من جانبه رسولا يبلغهم رأيه هو . لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخلّوا سبيله . وقد دل أهل مكة بتصرفهم هذا على مايسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما قلق له صبر المسلمين ، حتى لقد فكر بعضهم فى القتال . وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق ، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلا يرمون عسكر النبى بالحجارة ؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلا يوماً ليصيبوا من أصحاب النبى ، فأُخذوا أخذاً وجىء بهم إليه . أفتدرى ماذا صنع ؟! عفا عنهم وخلّى سبيلهم تشبثا منه بخطة السلم واحتراماً للشهر الحرام أن يُسفَك فيه دم فى الحُدَيبية ، وهى من حرَم مكة . وبُهتت قريش حين عرفوا هذا وسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن محمداً يريد حرباً ، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على محمد لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر دنىء ، لمحمد الحقُّ فى أن يدفعه بكل ما أوتى من قوة .

سفارة عثمان ابن عفان

ثم إنه عليه السلام حاول أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى بارسال رسول يفاوضهم ؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب كى يبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له . قال عمر : « يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكة من بنى عَدِىّ بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفتْ قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعزّ بها منى : عثمان بن عفان » . فدعا النبى عثمان زوج ابنته وبعثه إلى أبى سُفيان وأشراف قريش . فخرج عثمان فى رسالته ؛ فلقيه لأول ما دخل مكة أبانُ بن سعيد فأجاره الزمن الذى يفرغ فيه من رسالته ، وانطلق عثمان إلى سادة قريش فأبلغهم رسالته . قالوا : يا عثمان

إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ؛ إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظّم حرمته ولنؤدى فرض العبادة عنده . وقد جئنا بالهَدْى معنا ، فاذا نحرناها رجعنا بسلام . وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين ، وترامى إليهم أن قريشاً قتلته غيلة وغدراً . ولعل سادة قريش كانوا فى هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توفق بين قسمهم ألا يدخل محمد هذا العام مكة عنوة ، وبين حرص المسلمين على أن يطوّفوا بالبيت العتيق ويؤدّوا إلى رب البيت فرضه ؛ ولعلهم قد أنسوا إلى عثمان وكانوا فى هذه الأثناء يبحثون وإياه عن تنظيم علاقاتهم بمحمد وتنظيم علاقات محمد بهم .

بيعة الرضوان

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان أشد القلق ، وتمثل أمامهم غدر قريش وقتلهم إياه فى هذا الشهر الذى لا تجيز فيه أديان العرب جميعاً لعدوّ أن يقتل فى حرم الكعبة ولا فى حرم مكة عدوّه ، وتمثل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم فى رسالة سلم وموادعة . ووضع كلٌّ منهم يده على قبضة سيفه سمة النذير وسمة البطش والغضب . ودخل فى رُوع النبى عليه السلام أن قريشاً قتلت عثمان فغدرت فى الشهر الحرام ، فقال : « لا نَبرح حتى نناجز القوم » . ودعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعاً على ألاّ يفرّوا حتى الموت . بايعوه وكلهم ثابت الايمان ، قوى العزيمة ، ممتلىء حماسة للانتقام ممن غدر وقتل . بايعوه بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى فى سورة الفتح : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتحًا قَرِيبًا » . فلما أتم المسلمون البيعة ضرب عليه السلام باحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان ؛

وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى غمودها وتبدّى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها ، وجعل كلٌّ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئن . وإنهم لكذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يقتل ، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه إليهم . على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك ، كبيعة العقبة الكبرى ، علما فى تاريخ المسلمين كان محمد يستريح إلى ذكره لما كشف من متانة الروابط بينه وبين أصحابه ، ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون . ومن أقدم على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جبهة الحياة وكان من الفائزين .

رسالة قريش إلى محمد

عاد عثمان فأبلغ محمداً ماقالت قريش . فهم لم تبق عندهم ريبة فى أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجّين معظّمين للبيت . وهم يقدّرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة فى الأشهر الحُرُم ، وهم مع ذلك قد خرجوا من قبلُ تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكة ، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات ؛ فاذا هم بعد الذى حدث تركوه يدخل مكة تحدّثت العرب بأنهم انهزموا أمامه ، فتضعضعت فى نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم . لذلك هم يُصِرّون على موقفهم منه هذا العام إبقاء على هذه الهيبة واستبقاء لتلك المكانة . فليفكر وإياهم ، وهذه ظروفه وظروفهم ، لعلهم جميعاً يجدون من هذا الموقف مخرجا ، وإلا فليس إلا الحرب يدخلونها طوعاً أو كرهاً . بل إنهم لها لكارهون فى هذه الأشهر ، تقديراً لحرمتها الدينية من ناحية ، ولأنها ، من الناحية الأخرى ، إذا لم تُحترم اليوم حُرْمتها ووقعت الحرب فيها ، لم يأمن العرب فى مستقبل أيامهم أن يجيئوا إلى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرّةً أخرى ، فيجنى ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها .

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كرة أخرى .

المفاوصات بين الفريقين

وأوفدت قريش سُهَيْل بن عمرو وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فوالله لا تحدّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبداً . فلما انتهى سُهَيْل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصلح وشروطه كانت تكاد تنقطع فى بعض الأحيان ، ثم يعيد اتصالها حرص الجانبين على النجاح . وكان المسلمون من حول النبى يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبراً، لتشدُّد سهيل فى مسائل يتساهل النبى فى قبولها . ولولا ثقة المسلمين المطلقة فى نبيّهم ، ولولا إيمانهم به ، لما ارتضوا ما تم الاتفاق عليه ، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى . فقد ذهب عمر بن الخطاب فى أعقاب انتهاء المحادثات إلى أبى بكر ودار بينهما الحديث الآتى :

أبو بكر وعمر

عمر — يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ !

أبو بكر — بلى !

عمر — أولسنا بالمسلمين ؟ !

أبو بكر — بلى !

عمر — فعلام نعطى الدّنيّة فى ديننا ؟ !

أبو بكر — ياعمر الزم مكانك ، فانى أشهد أنه رسول الله !

عمر — وأنا أشهد أنه رسول الله !

وانقلب عمر بعد ذلك إلى محمد وتحدث وإياه بمثل هذا الحديث وهو مَغيظ مُحْنَق ؛ لكن ذلك لم يغيّر من صبر النبى ولا من عزمه . وكل الذى قاله فى ختام الحديث لعمر : « أنا عبد الله ورسوله لن أُخالف أمره ولن يُضيّعنى » . ثم كان بعد ذلك من صبر محمد حين كتابة العهد ما زاد فى حفيظة بعض المسلمين . فقد دعا علىّ بن أبى طالب وقال له اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سُهَيل : أمسك ؛ لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم . قال رسول الله :

أكتب باسمك اللهم. ثم قال: اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو. فقال سهيل: أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال رسول الله: أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. ثم كتبت العهدة من الطرفين وفيها أنهما تهادنا عشر سنين، فى رأى أكثر كتاب السيرة، وسنتين فى قول الواقدى، وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قُرُبها ولا سلاح غيرها.

عهد الحديبية مارس سنة (٦٢٨ م)

وما كاد هذا العهد يوقّع حتى حالفت خُزاعة محمداً وحتى حالفت بنو بكر قريشاً. وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جَنْدل بن سُهَيل بن عمرو على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير وإياهم. فلما رأى سهيل ابنَه ضربَ وجهه وأخذ بتلبيبه وجعل يجرّه ليرده إلى قريش وأبو جَنْدل يصيح بأعلى صوته: يامعشر المسلمين، أأردّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى! وزاد ذلك فى قلق المسلمين وعدم رضاهم عن العهد الذى عقد الرسول مع سهيل. لكن محمداً وجّه إلى أبى جندل قوله: «ياأبا جَنْدل، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم». وعاد أبو جَنْدل إلى قريش نفاذاً لعهد النبى ووعده. وقام سهيل راجعاً إلى مكة. وأقام محمد مضطربا بما رأى من شأن من حوله. ثم صلّى واطمأن، ثم قام إلى هَدْيه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه إيذاناً بالعمرة، وقد امتلأت نفسه بالسكينة والرضا. فلما رأى الناس صنيعه ورأوا سكينته تواثبوا ينحرون ويحلقون،

تنفيذ محمد العهد

وإن منهم من حلّق ومنهم من قصّر. قال محمد: يرحم الله المحلّقين. فتنادى الناس: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلّقين. فتنادى الناس فى قلق: والمقصّرين يارسول الله؟ قال: والمقصّرين. قال بعضهم: فلِمَ ظاهرت يارسول الله الترحيم للمحلّقين دون المقصّرين؟ فكان جوابه: لأنهم لم يشكّوا.

لم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة فى انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل. وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض ولا يهوّنها على نفسه إلا أنها أمر الرسول. فهم ليس لهم عادة بهزيمة ولا تسليم من غير قتال. وهم فى إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبة فى اقتحام مكة لو أن محمداً أمر باقتحامها. وأقاموا بالحُدَيبية أياماً، منهم من يتساءلون فى حكمة هذا العهد الذى عقد النبى، ومنهم من تحدّثه نفسه بالشك فى حكمته. ثم تحمّلوا وقفلوا راجعين. وإنهم لفى طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحى على النبى بسورة الفتح. فتلا النبى على أصحابه قوله تعالى: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً» الى آخر السورة. لم يبق إذاً ريب فى أن عهد الحديبية فتح مبين، وهو قد كان كذلك. وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعد نظر كان لها أكبر الأثر فى مستقبل الاسلام وفى مستقبل العرب كله. فقد كانت هذه أوّل مرة اعترفت قريش فيها بمحمد لا على أنه ثائر بها خارج عليها؛ ولكن على أنه ندّها وعدلها، فاعترفت بذلك بالدولة الاسلامية وقيامها. ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت وإقامة شعائر الحج اعتراف منها بأن الاسلام دين مقرّر معترف به من أديان شبه الجزيرة، وهدنة السنتين أو السنوات العشر قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش، ومهّدت للاسلام أن يزداد انتشاراً. أفليست قريش ألدّ أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالاذعان لما لم تكن تُذعن

سورة الفتح

له من قبل قط ؟ ! وقد انتشر الاسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع أضعافاً من انتشاره من قبل . كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفاً وأربعمائة . فلما كان بعد عامين اثنين وجاء محمد لفتح مكة جاء فى عشرة آلاف . وأشد ما اعترض عليه مَنْ ساورتهم الشكوك فى حكمة عهد الحديبية ما نص عليه العهد من أن مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردّوه على محمد . وكان رأى محمد فى هذا أن من ارتد عن الاسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين ؛ وأن من أسلم وحاول اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجا . وقد صدّقت الظروف رأى محمد فى ذلك بأسرع مما كان يظن أصحابه ، ودلّت على أن الاسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب ، ومهّد إلى ماجاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء محمد مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الاسلام .

الحديبية فتح مبين

قصة أبى بصير

صدّقت الظروف رأى محمد بأسرع مما كان يظن أصحابه . فقد وَفَد أبو بَصير من مكة إلى المدينة مسلماً ينطبق عليه العهد بردّه إلى قريش لأنه خرج بغير رأى مولاه . فكتب أزْهَر بن عوف والأخنَس بن شَرِيق إلى النبىّ كى يردّه ، وبعثا بكتابهما مع رجل من بنى عامر ومعه مولى لهم . قال النبى : يا أبا بصير ، إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت . ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك . قال أبو بصير : يارسول الله أتردُّنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ! فكرر عليه النبى قوله ، فانطلق مع الرجلين ؛ حتى إذا كان بذى الحُلَيْفة سأل أخا بنى عامر أن يريه سيفه ، وما إن استوت قبضته فى يده حتى علا به العامِرىّ فقتله ، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة حتى أتى النبى . فلما رآه قال : إن هذا رجل قد رأى فزعا . ثم قال للرجل : ويحك ! مالك ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبى . ثم مابرح حتى طلع أبو بصير متوشّحاً السيف موجّهاً الحديث الى

محمد وهو يقول : يارسول الله ، وفت ذمتك وأدّى الله عنك ، أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أُفتَن فيه أو يُعبَث بى . ولم يُخفِ الرسول إعجابه به وتمنّيه أن لو كان معه رجال . ثم خرج أبو بَصير حتى نزل العِيصَ على ساحل البحر على طريق قريش التى كانوا يأخذون إلى الشام . وكان عهد محمد وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش . فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إعجاب الرسول به ، فرّ إليه منهم نحو سبعين رجلا اتخذوه لهم إماماً ، وجعلوا وإياه يقطعون على قريش طريقها ، حتى كانوا لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم عِير إلا اقتطعوها . هنالك رأت قريش أنها أكبر خسارة بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظلوا بمكة ، وقدرت أن الرجل الصادق الايمان محاولةُ حبسه شرٌّ من إطلاق سراحه ، فهو لا بدّ منتهز فرصة الفرار ، مقيمٌ على الذين حاولوا حبسه حربا عَوَاناً هم فيها الأخسرون . وكأنما ذكرت قريش محمداً حين هاجر إلى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل ، وخشيت أن يكرر أبو بصير هذا الصنيع ؛ فبعثت إلى النبى تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً . ونزلت قريش بذلك عما أصرّ عليه سُهَيل بن عمرو من رد المسلمين من قريش الى مكة إذا هم ذهبوا إلى محمد بغير رأى مواليهم . وسقط بذلك الشرط الذى أحفظ عمر بن الخطاب والذى كان سبباً فى ثورته التى ثار على أبى بكر . وآوى محمد أصحابه وعاد طريق الشام آمناً .

المهاجرات المسلمات

أمّا المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان لمحمد فيهن رأى آخر . خرجت أم كلثوم بنت عُقبة بن أبى مُعَيط من بعد الهدنة ، فخرج أخواها عُمارة والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردّها عليهما بحكم عهد الحديبية . لكن النبى أبى ورأى أن هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه ؛ وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن . ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تُصبح حِلاًّ لزوجها

المشرك فوجب التفريق بينه وبينها. وفى ذلك نزل قوله تعالى من سورة الممتحنة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ. وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا؛ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ؛ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ. وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا؛ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وكذلك صدّقت الظروف حكمة محمد وبعد نظره ودقة سياسته، وأثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجراً لا ينقض فى سياسة الاسلام وانتشاره. وهذا هو الفتح المبين.

ماصنعت قريش

اطمأنت العلاقات بعد الحديبية بين قريش ومحمد أعظم الطمأنينة وأمن كلٌّ جانب صاحبه؛ واتجهت قريش كلها إلى التوسع فى تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها ما فقدته أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سُدَّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرّضة للضياع. أما محمد فاتّجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها، واتّجه فكره إلى توسيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين فى شبه الجزيرة. وهذا

ماصنع محمد

وذاك هو ماصنع بارسال الرسل إلى الملوك فى مختلف الدول، وباجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلاء تاما بعد غزوة خيبَر.

الفصل الحادى والعشرون

خيبر والرسل الى الملوك

الاسلام والتنظيم الاجتماعى — تحريم الخمر — رسل محمد إلى الملوك والأمراء — المسلمون واليهود — غزوة خيبر — القضاء الأخير على سلطة اليهود — رد الملوك على رسل النبى — فى انتظار عمرة القضاء.

عاد محمد والمسلمون معه من الحديبية قافلين إلى المدينة بعد ثلاثة أسابيع من تمام الصلح بينهم وبين قريش ألا يدخلوا مكة هذا العام وأن يدخلوها العام الذى يليه. عادوا وفى نفوسهم من أمر هذا الصلح شىء، أن اعتبره بعضهم غير متفق مع كرامة المسلمين، حتى نزلت سورة الفتح وهم فى الطريق وتلاها النبىّ عليهم. وجعل محمد يفكر أثناء مُقامهم بالحديبية وبعد عودهم منها ماذا عساه يصنع للمزيد من تثبيت أصحابه، ولزيادة انتشار دعوته. وانتهى به التفكير إلى إرسال رسله إلى هِرَقْل وكِسْرَى والمُقَوْقِس ونجاشِىّ الحبشة وإلى الحارث الغَسَّانىّ وإلى عامل كسرى فى اليمن، كما انتهى به إلى ضرورة القضاء قضاء أخيراً على شوكة اليهود فى شبه جزيرة العرب.

نضج الدعوة الاسلامية

والحق أن الدعوة الاسلامية كانت قد بلغت يومئذ من النضج ما يجعلها دين الناس كافة. فهى لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه التوحيد من عبادات، بل انفرج ميدانها وتناولت من صور النشاط الاجتماعىّ العامة ما يوازى بينها وبين سمو فكرة التوحيد، ويجعل صاحبهما أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الانسانى وإلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة. اختلف مؤرخو السيرة فى

تحريم الخمر

تحريم الخمر متى كان، وذهب بعضهم إلى أنه كان فى السنة الرابعة للهجرة،

ولكن أكثرهم على أنه كان عام الحديبية . والفكرة فى تحريم الخمر اجتماعية غير متصلة بالتوحيد من حيث هو التوحيد . ولا أدلّ على ذلك من أن التحريم لم ينزل به القرآن إلا بعد انقضاء عشرين سنة أو نحوها على بعث النبى ، وأن المسلمين ظلوا يشربونها إلى أن نزل التحريم . ولا أدلّ على ذلك من أن التحريم لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل على فَتَرات جعلت المسلمين يخفّفون منها ، حتى كان التحريم فانتهوا عن شربها . فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن الخمر وقال : اللهم بَيِّنْ لنا فيها ؛ فنزلت الآية : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . فلما لم يكفّ المسلمون بعد هذه الآية ، وكان بعضهم يقضى ليله متوفّراً على شرابه حتى إذا ذهب إلى صلاة الفجر ذهب وهو لا يعلم ما يقول فى صلاته ، عاد عمر فقال : اللهم بَيِّنْ لنا فى الخمر فانها تُذهب العقل والمال ؛ فنزلت الآية : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولون » . وحتى كان منادى الرسول ينادى وقت الصلاة : لا يقرَبَنّ الصلاة سكران . وعلى الرغم مما كان يقتضى هذا الأمر من الاقلال من الشراب وما كان له فى هذه الناحية من أثر بالغ جعل الكثيرين يقلّون من الخمر ما استطاعوا ، فقد عاد عمر بعد زمن يقول : اللهم بَيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً فانها تُذهب العقل والمال . وقد كان عمر فى حِلٍّ من قولها أن كان العرب ، والمسلمون من بينهم ، يصل بهم الشراب إلى حد يجعلهم يعربدون ، يأخذ بعضهم بلحية بعض ويهوى بعضهم على رأس بعض . دعا بعضهم جماعة إلى طعام وشراب ، فلما ثَمِلوا ذكروا المهاجرين والأنصار ، فأبدى أحدهم التعصّب للمهاجرين ، فأخذ متعصب للأنصار بعظمة من عظام رأس الجزور الذى يأكلونه فجرح به أنف المهاجرىّ . وثَمِل حيّان فتشاجرا فشجّ بعضهم بعضاً فوقعت فى أنفسهم الضغائن ، وكانوا من قبل ذلك أحبّة متصافين ؛ إذ ذاك نزل

قوله تعالى : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » . وقد كان أنسٌ الساقى يوم حُرِّمت الخمر ، فلما سمع المنادى بتحريمها بادر فأراقها . لكن أناساً لم يرقهم هذا التحريم فقالوا : أتكون الخمر رجساً وهى فى بطن فلان وفلانٌ قتل يوم أُحُد ، وفى بطن فلانٍ وفلانٌ قتل يوم بَدْر ! فنزل قوله تعالى :

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

وما أمر به الاسلام من البر والرحمة وما دعا إليه من عمل الخير وما فى عباداته من رياضة النفس والطبع وما يصل إليه الركوع والسجود فى الصلاة من قتل غرور القلب ، كل ذلك جعله الكمال الطبيعى للأديان التى سبقته ، وجعل الدعوة إليه للناس كافة . وقد كان هرقل وكسرى يومئذ على رأس دولتى الرومان والفرس أقوى دول العصر وصاحبتى الاملاء على سياسة العالم وعلى مصير أمه جميعاً . وكانت الحرب سجالاً بين الدولتين كما رأيت : وكانت الفرس صاحبة الغلب أوّل الأمر فاستولت على فلسطين وعلى مصر ، ووضعت يدها على بيت المَقْدس ونقلت منه الصليب . ثمّ دارت على الفرس الدائرة ، فعادت أعلام بيزنطة تخفق مرة أخرى على مصر وعلى سورية وفلسطين . واسترد هرَقْل الصليب بعد أن نذر إن هو تم له النصر أن يحج إلى بيت المقدس ماشياً حتى يرد الصليب فيه إلى مكانه . ويسير عليك إذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدّر ما يبعثه اسمهما من الرهبة إلى النفوس ومن الهيبة إلى القلوب حتى لا تفكر دولة فى التعرّض لهما ، ولا يدور بخَلَد أحد أن يفكر

دولتا الرومان والفرس

فى غير خطبة ودّهما . وإذا كان ذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعاً؛ فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها، وقد كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هرَقل؛ فكان الحجاز وسائر شبه الجزيرة محصوراً فى دائرة نفوذ الأمبراطوريتين . وكانت حياة العرب وقفاً على التجارة مع اليمن ومع الشام؛ فكانت بذلك محتاجة أشد الحاجة إلى مصانعة كسرى وهرقل جميعاً حتى لا يُفسدا بسلطانهما عليها تجارتها . ثم إن العرب لم تكن تزيد على قبائل تشتد الخصومة بينها حيناً وتهدأ حيناً آخر، ولا تربط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحدة سياسية تستطيع أن تفكر فى مواجهة نفوذ الدولتين العظيمتين . ولذلك كان عجيباً أن يفكر محمد يومئذ فى أن يرسل رسله إلى الملكين العظيمين وإلى غسّان واليمن ومصر والحبشة يدعوهم إلى دينه، دون خشية مما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجرّ على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بيزنطة .

رسل محمد إلى الملوك والأمراء

لكن محمداً لم يتردد فى دعوة هؤلاء الملوك جميعاً إلى دين الحق. بل خرج يوماً على أصحابه فقال: « أيها الناس، إن الله قد بعثنى رحمة وكافة فلا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » . قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ » . قال : « دعاهم إلى الذى دعوتكم اليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم، وأما مَنْ بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل » . ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرَقل وكسرى والمقوقس والحارث الغسّانى ملك الحيرة والحارث الحِميَرِىّ ملك اليمن وإلى نجاشى الحبشة يدعوهم إلى الاسلام . وأجابه أصحابه إلى ما أراد . فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » . وبعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلا أمام القارئ كتابه إلى هرَقل إذ جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرَقل عظيم الروم : سلامٌ على من اتبع الهدى . أما بعدُ فانى أدعوك

بدعاية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين . (يٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . ودفع بكتاب هِرَقل إلى دِحْيَة بن خليفة الكلبي ، وبكتاب كسرى إلى عبد الله بن حُذافة السّهمى ، وبكتاب النجاشىّ إلى عمرو بن أمية الضَّمْرىّ ، وبكتاب المقوقس إلى حاطِب بن أبى بَلْتَعة ، وبكتاب ملكى عمان إلى عمرو بن العاص السهمى ، وبكتاب ملكى اليمامة إلى سَليط بن عمرو ، وبكتاب ملك البحرين إلى العلاء ابن الحَضرَمىّ ، وبكتاب الحارث الغَسّانى ملك تخوم الشام إلى شُجاع بن وهب الأسدىّ ، وبكتاب الحارث الحميرىّ ملك اليمن إلى المهاجر بن أُمية المخزومى . وانطلق هؤلاء جميعاً كلٌ إلى حيث أرسله النبى . انطلقوا فى وقت واحد على قول أكثر المؤرخين ، وانطلقوا فى أوقات مختلفة على قول بعضهم .

أليس إرسال محمد هؤلاء الرسل عجباً يثير الدهشة ! أوليس أشد إثارة للدهشة ألا تمضى ثلاثون عاماً بعد ذلك حتى إذا هذه البلاد التى أرسل محمد إليها رسله قد فتحها المسلمون وقد اعتنق أكثرها الاسلام ؟ لكن هذه الدهشة ما تلبث أن تتلاشى حين تذكر أن الأمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر ، وكانت حضارتهما هى الغالبة على العالم كله ، إنما كانتا تتنازعان الغَلَب المادىّ ، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعاً قد انحلّت واضمحلت . فقد كانت فارس مقسّمة بين الوثنية والمجوسية . وكانت مسيحية بِزَنْطِية قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق ، فلم تظل عقيدة سليمة تحرّك النفوس وتقوّى القلوب ، بل انقلبت طقوساً يهيمن بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستغلاله . أمّا الدعوة الجديدة التى يدعو محمد إليها فكانت روحية صرفة ، وكانت ترتفع بالانسان إلى أسمى

فارس وبزنطية

مراتب الانسان . وحيثما التقت المادة والروح ، وحيثما انتطح همّ الحاضر بأمل الخلود ، انهزمت المادة وعنا وجه الحاضر .

ثم إن فارس وبزنطية كانتا ، على عظم سلطانهما ، قد فقدتا قوة الابتكار وملكة الانشاء ، ونزلتا فى عالم التفكير وفى عالم الشعور وفى عالم العمل إلى درك التقليد واحتذاء السلف ، واعتبار كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة . والجماعة الانسانية ، كالفرد الانسانى وككل كائن حى ، تتجدّد كل يوم . فامّا كانت ماتزال فتيّة شابة فكان تجدّدها خلقا وإنشاء ومزيداً فى الحياة . وإما كانت قد بلغت الذروة ولم تعد قادرة على الانشاء والخَلْق فهى تُنفق من رأس مال حياتها ، فحياتها لذلك فى نقص مستمر وفى انحدار إلى درك النهاية . والجماعة الانسانية التى تنحدر إلى درك النهاية مصيرها أن يخلقها عنصر خارجىّ ، فيه فتوّة الحياة ، خَلقاً جديداً . والعنصر الخارجى الملىء بقوة الحياة الفتيّة إلى جانب فارس وبزنطية لم يكن فى ناحية الصين أو الهند ولا كان فى ناحية أواسط أوربا ؛ إنما كان هذا العنصر محمداً . كانت دعوته فى شباب فتوّتها جديرة بأن تعيد إلى هذه النفوس ، المتهدم داخلها بحكم الطقوس والخرافات القائمة منها مقام الايمان والعقيدة ، حياةً فتيّة تجدّدها وتردّها إلى الحياة . وشعلة الايمان الجديد التى كانت تضىء نفس الرسول ، وقوّة نفسه التى سمت فوق كل قوة ، هى التى هدت إلهامه إلى أن يبعث بهؤلاء الرسل يدعون عظماء الأرض بدعاية الاسلام إلى دين الحق ، دين الكمال ، دين الله جلّ شأنه ؛ إلى الدين الذى يحرّر العقول لترى والقلوب لتبصر ، والذى يضع للانسان فى حياة العقيدة كما يضع له فى نظام الجماعة ، قواعد عامة توازى بين سلطان الروح وقوة المادّة التى تنطوى على الروح ، لتبلغ بالانسان من طريق هذه الموازاة إلى غاية مايستطيع بلوغه من قوة على الحياة ؛ قوة لايشوبها وَهَنٌ ولا يشوبها غرور ، ولتبلغ بالجماعة الانسانية بفضل ذلك النظام

مزاوجة الاسلام بين الروح والجسد

إلى خير مكان أُعِدّ لها بعد أن تسلك ما قُدِّر لها من دروب التطوّر بين كائنات الوجود جميعاً .

أفيرسل محمد رسله إلى هؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة ؟ صحيح أنه قد عهد عهد الحديبية فأمِنَ قريشاً وأمِنَ الجنوب كله ؛ لكنه لن يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هرقل أو أن يستعين كسرى بيهود خيبر وأن يحرك فى نفوسهم ثاراتهم القديمة ، وأن يذكّرهم باخوانهم فى الدين من بنى قُرَيظة وبنى النَّضِير وبنى قَيْنُقاع وقد أجلاهم محمد عن ديارهم بعد أن حصرهم بها وقاتلهم فيها وقتل منهم وسفك دماءهم . واليهود أشد من قريش عداوة له ، لأنهم أحرص منهم على دينهم ، ولأن فيهم ذكاء وعلماً أكثر مما فى قريش . وليس من اليسير أن يُوادعهم بصلح كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن لهم وقد سبقت بينه وبينهم خصومات لم ينتصروا فى إحداها . فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم اذا هم وجدوا من ناحية هرقل مدداً . لابدّ اذاً من القضاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاء أخيراً حتى لا تقوم لهم من بعدُ ببلاد العرب قائمة أبداً . ولابدّ من المسارعة إلى ذلك حتى لا يكون لديهم من الوقت متسع للاستعانة بغَطَفان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لها .

القضاء الأخير على يهود شبه الجزيرة

وكذلك فعل ؛ فانه لم يقم بالمدينة بعد عوده من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول ، وشهراً على قول آخر ، ثم أمر الناس بالتجهز لغزو خَيْبَر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية ، إلا أن يكون غازياً متطوّعاً ليس له من الغنيمة شيء . وانطلق المسلمون فى ألف وستمائة ومعهم مائة فارس ، وكلهم واثق بنصر الله ، ذاكر قوله تعالى فى سورة الفتح التى نزلت فى عهد الحديبية : «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ

السير لغزو خيبر

قالَ اللهُ مِنْ قَبلُ فَسَيَقولُونَ بَلْ تَحْسُدونَنَا بَلْ كانوا لا يَفقَهُونَ إلا قَليلا » . وقطعوا مراحل الطريق مابين خيبر والمدينة فى ثلاثه أيام لم تكد خيبر تحسّهم أثناءها ، حتى لقد باتوا أمام حصونها . وأصبح الصباح وغدا عُمّال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مَسَاحيهم ومَكَاتلهم ؛ فلما رأوا جيش المسلمين ولّوا الأدبار يتصايحون : هذا محمد والجيش معه . وقال الرسول حين سمع قولهم : خَرِبت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صبَاحُ المُنْذَرِينَ .

تفكير اليهود

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد ، وكانوا يودّون أن يجدوا الوسيلة إلى الخلاص منه . أمّا بعضهم فنصح لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القُرَى وتَيْماء تغزو يثْرِب ، دون اعتماد على البطون العربية فى الغزاة . أمّا آخرون فكانوا يرون أن يدخلوا فى حِلفٍ مع الرسول ، لعل ذلك يمحو ما ثبت فى نفوس المسلمين ، والأنصار منهم خاصة بعد اشتراك حُيَيّ بن أخطب وجماعة من اليهود معه ، فى تأليب العرب لاقتحام المدينة وأخذها عنوة فى غزوة الخَنْدَق . لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى ، حتى لقد سبق المسلمون قبل غزوة خيبر بقتل كلٍّ من سلاّم بن أبى الحُقَيْق واليسير بن رَزّام من زعماء خيبر . ولذلك كانت اليهود على اتصال دائم مع غَطَفَان ، ولذلك استعانوا بهم أوّل ماترامىَ إليهم خبر اعتزام محمد غزوهم . ويختلف الرواة فيما كان من غَطَفَان : أهى أعانتهم ، أم أن جيوش المسلمين قد حالت بينها وبين خيبر . وسواء أكانت غطفان قد أعانت اليهود أم كانت قد وقفت بمعزل بعد أنْ وعدها محمد حظّاً من الغنائم ،

ضخامة القوتين المتقاتلتين

فقد كانت هذه الموقعة من أكبر المواقع ، أن كانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحا ، وأن كان المسلمون مؤمنين بأنه مابقيت لليهود شوكة فى شبه الجزيرة فستظل المنافسة بين

دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغَلَب لهم . لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردد إلى نفوسهم سبيلا . ووقفت قريش ووقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلّعة إلى هذه الغزوة ؛ حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولمن يتم الغلب فيها . وكان كثيرون من قريش يتوقّعون أن تدور الدائرة على المسلمين لِما عُرف من قوّة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال .

وقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهّبين كاملي العُدّة . وتشاور اليهود فيما بينهم ، فأشار عليهم زعيمهم سَلّام بن مِشْكَم فأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الوَطيح والسُّلالم ، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعِم ، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب في حصن نَطاة ، ودخل سَلّام بن مِشْكَم معهم يحرّضهم على الحرب . والتقى الجمعان حول حصن نَطاة واقتتلوا قتالا شديداً ، حتى قيل : إن عدد الجرحى من المسلمين في هذا اليوم بلغ خمسين . فكم كان إذاً عدد الجرحى من اليهود ! . وتُوُفِّي سَلّام بن مِشْكَم ، فتولّى الحارث بن أبي زينب قيادة اليهود ، وخرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين ؛ فدحَره بنو الخزرج واضطروه أن يرتَدّ إلى الحصن على أعقابه . وضيّق المسلمون الحصار على حصون خَيْبَر واليهود يستميتون في الدفاع عنها إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد قضاء أخير على بني إسرائيل في بلاد العرب . وتتابعت الأيام ، فبعث الرسول أبا بكر براية إلى حصن ناعم كي يفتحه ، فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فُتح . وبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة ، فكان حظه حظ أبي بكر . فدعا الرسول إليه في الغداة عليّ بن أبي طالب ثم قال له : خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك . ومضى عليّ بالراية ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فطاح تُرْسه ، فتناول عليٌّ باباً كان عند الحصن فترّس به ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فُتِح الحصن ، ثم جعل الباب قنطرةً اجتاز

حصار حصون خيبر

فتح الحصون

المسلمون عليها إلى داخل أبنية هذا الحصن ، وإنما سقط حصن ناعم بعد أن قُتل قائده الحارث بن أبى زينب ، مما يدل على استماتة اليهود فى القتال واستماتة المسلمين فى الحصار وفى الهجوم .

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القَمُوص بعد قتال شديد ، وبعد أن قلّت المؤونة عندهم قلّةً توجّه بسببها جماعة منهم يشكون إلى محمد أمرهم ويطلبون اليه ما يسدّون به رَمَقهم ، فلم يجد شيئاً يعطيهم إياه وأذن لهم فى أكل لحوم الخيل . وقد رأى أحد المسلمين قطيعاً من الغنم يدخل إلى أحد حصون اليهود ، فاختطف منه شاتين فذبحوهما وأكلوهما . على أنه بعد أن تم لهم فتح حصن الصَّعْب بن مَعَاذ قَلَّتْ حاجتهم ، أن وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكّن لهم من متابعة قتال اليهود وحصارهم فى سائر حصونهم . واليهود أثناء ذلك كله لا يسلّمون فى شبر أرض ولا يسلّمون حصناً إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاع

استقتال اليهود

الأبطال ، وبعد ألا يبقى لهم على صدّ هجوم المسلمين قوّة . خرج مَرْحَب اليهودى من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عُدّته وهو يرتجل :

قد علمتْ خيبرُ أنّى مَرْحبُ   شاكى السلاح بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أطعَنُ أحياناً وحِيناً أضرِبُ   إذا اللّيوثُ أقبلتْ تحَرَب
إن حِمَاىَ لَلْحِمَى لا يُقْرَبُ   يُحْجِمُ عن صولتى المُجَرَّبُ

فصاح محمد بأصحابه : مَنْ لهذا ؟ قال محمد بن مَسْلَمة : أنا له يارسول الله . أنا والله الموتور الثائر ! قُتل أخى بالأمس . وقام إليه باذن النبىّ وتصاولا حتى كاد مَرْحَب يقتله . لكن ابن مسلمة اتقى سيفه بالدَّرَقة فعضّت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله . وكذلك كانت هذه الحرب بين اليهود والمسلمين ضَروساً قاسية ، وكانت مَنَعَة حصون اليهود تزيدها شدّةً وقسوة .

مبدأ يأس اليهود

حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصارهم إياه وقاتلوا حوله قتالا شديداً ، ومع ذلك لم يستطيعوا فتحه حتى قطعوا الماء عنه واضطروا اليهود فيه إلى

الخروج منه وإلى قتال المسلمين قتالاً انتهى بالأوّلين إلى أن يلوذوا بالفرار . وكذلك جعلت الحصون تقع واحداً بعد الآخر فى يد المسلمين، حتى انتهوا إلى الوطيح والسُّلاَلِم بمنطقة الكَتِيبة آخر حصنين منيعين عندهم . هنالك استولى على نفوسهم اليأس ، فطلبوا الصلح بعد أن حاز النبى أموالهم كلها بالشِّقّ ونَطَاة والكَتِيبة ، على أن يحقن النبىّ دماءهم . وقَبِل محمد وأبقاهم على أرضهم التى آلت له بحكم الفتح ، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم .

عامل محمد يهود خَيْبَرَ بغير ما عامل به بنى قَيْنُقَاع وبنى النَّضير حين أجلاهم عن أرضهم لأنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود ، وآمن بانهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبداً . ثم إن ما كان بخيبر من الحدائق والمزارع والنخيل كان يحتاج إلى الأيدى العاملة الكثيرة لاستغلاله وحسن القيام على زراعته . ولئن كان أنصار المدينة أهل زراعة فان أرضهم بها كانت بحاجة إلى أذرعهم ، كما أنّ النبى كان بحاجة إلى جيوشه للحرب ، فهو لا يرضى أن يتركها للزرع . وكذلك ظل يهود خيبر يعملون بعد أن انهار سلطانهم السياسى انهياراً جنى على نشاطهم ، حتى لقد أسرعت خَيْبَرَ من ناحية الزراعة نفسها إلى البوار والخراب ، برغم ما كان من حسن معاملة النبى أهلها ومن عدل عبد الله بن رَوَاحة رسوله إليهم كل عام بينهم فى القسمة . وقد كان من إحسان النبى معاملة يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عِدّة صحائف من التوراة . فطلب اليهود ردَّها ، فأمر النبى بتسليمها لهم ، ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورَشليم وأحرقوا الكتب المقدّسة وداسوها بأرجلهم ، ولا هو صنع صنيع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة .

صلح خيبر وانهيار سلطانهم السياسى

ولما طلب يهود خيبر الصلح أثناء محاصرة المسلمين إياهم فى حصنى الوطيح والسلالم بعث النبى إلى أهل فَدَك كى يُسلموا برسالته أو يُسَلِّموا أموالهم .

يهود فدك

ووقع فى نفوس أهل فَدَكَ الرعب بعد الذى علموا من أمر خيبر فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال . فكانت خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها، وكانت فَدَكُ خالصةً لمحمد لأن المسلمين لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

إذعان وادى القرى

وتجهّز الرسول بعد ذلك كله للعود إلى المدينة عن طريق وادى القُرَى فتجهز يهودها لقتال المسلمين ، وقاتلوا . لكنهم اضطروا للاذعان والصلح كما صنعت خيبر . أمّا يهود تَيْماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال . وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبى وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة ، وأصبح محمد بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية . وبانهيار سلطان اليهود خفّت بغضاء المسلمين ، والأنصار منهم خاصّة ، إياهم وتغاضَوْا عن رجوع بعضهم إلى يثرب ، ووقف النبىّ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أُبَىّ وعزّى ابنه فيه . وأوصى مُعاذ بن جَبَل بألا يفتِن اليهود عن يهوديّتهم . ولم يكلّف يهود البَحْرَين دفع الجزية وإن ظلوا متمسكين بدين آبائهم . وصالح بنى غازية وبنى عريض بأن لهم الذمة وعليهم الجزية . وعلى الجملة دان اليهود لسلطان المسلمين وتضعضع فى بلاد العرب مركزهم، حتى اضطُرّوا لمهاجرة تلك البلاد وكانوا من قبلُ بها أعزّة ، وحتى تم جلاؤهم فى حياة الرسول على قول ، وبعد وفاته على قول آخر .

إذعان اليهود لسلطان المسلمين

على أن إذعان أهل خَيْبَر وسائر اليهود لمصيرهم فى شبه الجزيرة لم يقع مرةً واحدة بعد هزيمتهم ، بل لقد كانت نفوسهم فى أثر الهزيمة ملأى بالغلّ والغضب أخبث الغضب . أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلّام بنى مِشْكَم إلى محمد شاة بعد أن اطمأن وبعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر . فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها ، وتناول عليه السلام الذراع فلاكَ منها مُضغةً فلم يُسِغها . وكان بِشر بن البَرَاء معه قد تناول منها مثل ما تناول . فأمّا بشر فأساغها

الشاة المسمومة

وازدردها ، وأمّا الرسول فلفظها وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم . ثم دعا بزينب فاعترفت وقالت : لقد بلغتَ من قومي ما لم يخفَ عليك ، فقلتُ : إن كان ملكاً استرحتُ منه ، وإن كان نبيًّا فسيُخبَر . ومات بِشْر من أكلته هذه . وقد اختلف الرواة فذكر أكثرهم أن النبيّ عفا عن زينب وقدّر لها عذرها بعد الذي أصاب أباها وزوجها . وذكر بعضهم أنها قُتلت في بشر الذي مات مسموماً .

وقد تركت فعلة زينب في نفوس المسلمين أعمق الأثر ، وجعلتهم في أعقاب خيبر لا يثقون باليهود ويخشون غدرهم أفراداً بعد أن قُضى على جماعتهم القضاء الأخير . كانت صفيّة ابنة حُيَيّ بن أخطب النّضيرية من بين السبايا الذين أخذ المسلمون من حصون خَيْبَر ، وكانت زوجاً لكنانة بن الربيع . وكان عند كنانة مما يعرف المسلمون كنز بني النّضير . فسأله النبي عنه فأقسم لا يعرف مكانه . فقال له محمد : إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ قال نعم . وكان أحدهم قد رأى كنانة يطوف بخربة وذكر أمره للنبي ، فأمر بالخربة فحُفرت فأخرج منها بعض الكنز ، فقُتل في إنكاره . فلما خلَصت صفيّة إلى المسلمين وصارت بين الأسرى ، قيل للنبي : « صفيّة سيدة بني قُرَيظة والنّضير لا تصلح إلاّ لك » ، فأعتقها وتزوّجها مقتفياً بذلك أثر الفاتحين العظماء الذين كانوا يتزوّجون من بنات عظماء الممالك التي يفتحونها ليخفّفوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم . وقد خشى أبو أيوب خالد الأنصاريّ أن تتحرك في نفسها الضغينة على الرسول الذي قتل أباها وزوجها وقومها ؛ لذلك بات حول الخيمة التي أعرس فيها محمد بصفيّة في طريق عودته من خيبر متوشّحاً سيفه . فلما أصبح الرسول ورآه سأله : مالك ؟ قال : خفتُ عليك من هذه المرأة وقد قتلتَ أباها وزوجها وقومها ، وقد كانت حديثة عهد بكفر . على أن صفيّة أقامت على الوفاء لمحمد حتى قبضه الله إليه . وقد اجتمع نساؤه حوله في مرضه

زواج محمد صفية ابنة حيي بن أخطب

الأخير؛ فقالت صفية: أمَا والله يانبيّ الله لوَددتُ أن الذى بك بى. فغمزها أزواج النبى، فقال لهن: مضمضن. قلن: من أى شىء يانبى الله؟ قال: من تغامزكن بصاحبتكن، والله إنها لصادقة. وبقيت صفيّة بعد النبى حتى خلافة معاوية، وفيها توفّيت ودُفنت بالبقيع.

ماذا فعل الله بالرسل الذين أوفد محمد إلى هرَقل وكسرى والنجاشى وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب؟! وهل سافروا قبل غزوة خيبر، أو أنهم حضروها حتى تم النصر للمسلمين فيها ثم سافروا من بعدها كلٌ إلى ناحيته؟ يختلف المؤرخون فى ذلك اختلافاً كبيراً يصعب معه القطع فى الأمر بقول. وأكبر ظننا أنهم لم يسافروا جميعاً فى وقت واحد، وأن منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها. فقد جاء فى أكثر من رواية أن دِحْيَة ابن خَليفة الكلبىّ حضر خيبر وهو مع ذلك الذى ذهب برسالة هرَقل. سافر إليه وكان يومئذ عائداً يحفّ به النصر بعد أن تغلّب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذى أُخِذ من بيت المَقدِس، وآن له أن يُتم نذره وأن يحجّ إلى بيت المقدس ماشياً ليرد الصليب الأعظم مكانه. وكان قد بلغ من سياحته مدينة حِمص حين حمل الخطاب إليه. هل حمله اليه جماعة من رجاله بعد أن أسلم دِحْيَة الخطاب إلى عامله على بُصْرَى، أم أنه اطّلع عليه بعد أن أدخِل جماعة من البدو ودِحْيَة على رأسهم يقدّم إليه الكتاب بنفسه؟ هذا ما تضطرب الرواية كذلك حوله. على كل حال فقد تُلى الخطاب عليه وتُرْجِم له، فلم يغضب ولم تَثُرْ ثائرته ولم يفكر فى إرسال جيش يغزو بلاد العرب، بل ردّ على الرسالة ردا حسناً، جعل بعض المؤرخين يزعمون خطأ أنه أسلم.

رسول النبى إلى هرقل

وفى نفس الوقت بعث الحارث الغَسّانى إلى هرقل يخبره أنّ رسولا جاءه من محمد بكتاب رأى هرَقل شبهه بالكتاب الذى أرسل اليه يدعوه الى الاسلام، ويستأذن الحارثُ فى أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة هذا المدّعى

جواب هرقل

النبوة . لكن هرقل رأى الخير فى أن يكون الحارث ببيت المقدس حين زيارته إياه ليزيد فى جلال الحفلات برد الصليب إليه ؛ ولم يعبأ بهذا الداعى إلى دين جديد . ولم يَدُرْ بخَلَده أن سنوات قليلة لن تحول حتى يكون بيت المقدس وتكون الشام فى ظل الراية الاسلامية ، وأن العاصمة الاسلامية ستنتقل إلى دِمَشق ، وأن النضال بين دول الاسلام والامبراطورية الرومانية لن تهدأ ثائرته حتى يستولى الأتراك على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ ، وحتى يحيلوا كنيستها الكبرى مسجداً يكتب فيه اسم هذا النبى الذى حاول هرقل أن يظهر مظهر من لا يحفِل به أو يُعْنَى بأمره ، وأن تظل هذه الكنيسة مسجداً عِدّة قرون حتى يُحيلها المسلمون الأتراك متحفاً للفن البزنطى .

كسرى وكتاب النبى

أمّا كسرى عاهل الفرس فانه مالبث أن تُلى عليه كتاب محمد يدعوه إلى الاسلام حتى استشاط غضباً وشقّ الكتاب ؛ وكتب إلى بازان عامله على اليمن يأمره بأن يبعث اليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز . ولعله كان يحسب فى هذا مايخفف من آثار هزائمه أمام هرقل . فلما بلغت النبىّ مقالة كسرى وما فعل بكتابه قال : مزّق الله ملكه . وأوفد بازان رسله برسالة إلى محمد . وفى هذه الأثناء كان كسرى قد خلفه ابنه شيرويه ، وكان النبى قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به وطلب إليهم أن يكونوا رسله إلى بازان يدعونه إلى الاسلام . وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حلّ بفارس من هزائم وقد شعروا بانحلال سلطتها عنهم ، وقد اتصلت بهم انتصارات محمد على قريش وقضاؤه على سلطة اليهود . فلما رجع رسل بازان اليه وأبلغوه رسالة النبى كان سعيداً بأن يُسلم وأن يبقى عامل محمد على اليمن . وماذا ترى يطلب محمد إليه وما تزال مكة بينه وبينه ؟ . إذاً فله الغُنْم بعد أن تقلّص ظل فارس فى أن يحتمى بالقوة الناشئة الجديدة فى بلاد العرب من غير أن تطلب اليه هذه القوة شيئاً . ولعل بازان لم يقدّر يومئذ أن انضمامه إلى محمد إنما هو فى الواقع نقطة ارتكاز قوية

للاسلام فى جنوب شبه الجزيرة ، كما دلّت الظروف عليه بعد عامين اثنين .

رد المقوقس

وكان ردّ المقوقس عظيم القبط فى مصر غير ردّ كسرى ، بل كان أجمل من رد هرقل . فقد بعث إليه يخبره أنه يعتقد أن نبيًّا سيظهر ، ولكنه سيظهر فى الشام ، وأنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث معه بهديّة جاريتين وبغلة بيضاء وحماراً ومقداراً من المال وبعض خيرات مصر . أما الجاريتان فمارِيّة التى اصطفاها النبى لنفسه والتى ولدت له إبراهيم من بعد ، وشيرين التى أهديت لحسّان بن ثابت . وأمّا البغلة فأسماها النبى دُلدل ، وكانت فريدة ببياضها بين البغال التى رأتها بلاد العرب . وأمّا الحمار فأسمى عُـفَيْراً أو يعفوراً . وقبِل محمد هذه الهديّة ، وذكر أن المقوقس لم يُسلم من خشية أن يسلبه الروم ملك مصر ، وأنه لولا ذلك لآمن ولـكان من حظه الهدى .

رد النجاشى

وكان طبيعياً بعد الذى عرفنـا من صِلات نجاشىّ الحبشة بالمسلمين أن يكون ردّه جميـلا ، حتى لقد ورد فى بعض الروايات أنه أسلم وإن أثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا . على أن الرسول بعث له غير كتاب دعوته إلى الاسلام بكتاب آخر يطلب إليه رد المسلمين الذين أقاموا بالحبشة إلى المدينة . وقد جهّز لهم النجاشىّ سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر ابن أبى طالب ومعهم أُمّ حَبِيبَة رَمْـلة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبد الله بن جَحْش الذى جاء إلى الحبشـة مُسلماً ثم تنصّر وبقى على نصرانيته حتى مات . وقد أصبحت أمّ حَبِيبَة بعد عودها من الحبشة من أزواج النبى ومن أمهـات المؤمنين . ذكر بعض المؤرخين أن النبى تزوّجها ليرتبط مع أبى سفيان برابطة النسب توكيداً لعهد الحديبية . ورأى آخرون غير هذا وأن فى زواج رَمْـلة من محمد ، وأبو سفيان ما يزال على وثنيّته ، ما تألم له نفسه ويغصّ به حلقه .

وأما أمراء العرب ، فقد رد أمير اليمن وعمان على رسالة النبى ردًّا فاحشاً

ورد أمير البحرين ردًّا حسناً وأسلم ، ورد أمير اليمامة مظهراً استعداده للاسلام إذا هو نُصب حاكما ؛ فلعنه النبيّ لمطامعه . ويذكرون أنه لم يلبث عاما بعد ذلك حتى مات .

لماذا كانت ردود أكثر الملوك رقيقة

يستوقف القارىء ما فى إجابات أكثر هؤلاء الملوك والأمراء من رفق ومن حسن رأى ، وأنه لم يُقْتل أحد من رسل محمد ولم يسجن ، بل عادوا إليه كلهم بما حملوا من رسالات فى أكثرها رقة وعطف ، وفى بعضها غلظة وشدة . فكيف تلَقّى أولئك الملوك رسالة الدين الجديد من غير أن يتألّبوا على صاحب الدعوة له ، ومن غير أن يتضافروا على سحقه ؟ ذلك أن عالَم يومئذ كان كعالمنا الحاضر، قد طغت فيه المادة على الروح ، وأصبح فيه الترف غاية الحياة ، وأصبحت الأمم تقتتل حبًّا فى الظفر وإرضاء لمطامع ملوكها وساداتها وشفاء لغرور أنفسهم ، أو طمعاً فى مزيد من الترف تبلغه وتستمتع به . ومثل هذا العالَم تهوى فيه العقيدة إلى طقوس تُقام فى العلَن لا تؤمن النفوس التى تؤدّيها بشىء مما وراءها ، ولا تُعْنَى إلا بأن تكون فى حكم صاحب السلطان الذى يُطعمها ويكسيها ويكفُل لها رخاء العيش وعرض الجاه وكثرة المال ، ولا تستمسك بهذه الطقوس إلا بمقدار ما تدرّ عليها من خير مادّى . فاذا فاتها هذا الخير ، خارت عزيمتها ، وتضعضعت هِمّتها ، ووهنت فيها قوة المقاومة . لذلك لم يلبث الناس أن سمعوا دعوة جديدة للايمان فيها بساطة وفيها قوّة وفيها مساواة أمام رب واحد إيّاه نعبد وإيّاه نستعين ، هو وحده الذى يملك ضرّ النفوس ونفعها ؛ شعاع من رضاه يبدّد غضب ملوك الأرض جميعاً ، ومخافة غضبه تزعزع النفس وإن أغرقها الملوك كلهم فى النعمة والرضا ، والرجاء فى مغفرته متصل لمن تاب وآمن وعمل صالحاً — لم يلبث الناس أن سمعوا هذه الدعوة وأن رأوا صاحبها يقوَى بها على الاضطهاد وعلى الظلم وعلى التعذيب وعلى كل ما فى الحياة المادّية من قوى ؛ ويمتد بها سلطانه ، وهو

اليتيم الفقير المحروم، إلى ما لم يحلم به أحد من قبله فى بلده ولا فى بلاد العرب كلها، حتى اشرأبت الأعناق وأرهفت الآذان وشعرت النفوس بظمئها وتطلعت الأرواح لمورد ريّها، لولا بقيّة من الخوف والشك تقوم بينها وبين الحقيقة حجاباً. لذلك ردّ من ردّ من الملوك فى رفق ورقّة؛ وبذلك ازداد المسلمون إيماناً على إيمانهم وقوة فى يقينهم.

عود المسلمين من الحبشة

عاد محمد من خيبر، وعاد جعفر والمسلمون معه من الحبشة، وعاد رسل محمد من حيث أوفدهم، والتقوا جميعاً بالمدينة كرّةً أخرى. التقوا ليقضوا بقية عامهم هذا مشوقين ليوم فى العام القابل يحجّون فيه إلى مكة يدخلونها آمنين محلّقين رءوسهم ومُقصّرين لا يخافون. وقد بلغ من غبطة محمد بلقيا جعفر أن ذكر أنه لا يدرى بأىّ هو أشد اغتباطاً: بالنصر على خيبر أو بلقيا جعفر. وفى هذه الفترة تجرى القصة التى تروى أن اليهود سحروا محمداً بفعل لبيد حتى كان يحسب أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله. وهى قصة اضطربت فيها الروايات اضطراباً شديداً، يؤيد رأى بعضهم فى أنها أقرب إلى أن تكون محض اختراع لا ظلّ من الحق فيها.

فى انتظار عمرة القضاء

وأقام المسلمون آمنين بالمدينة مستمتعين بالعيش ناعمين بفضل من الله ورضوان، لا يفكرون من أمر الغزو فى أكثر من إرسال بعض السرايا لمعاقبة من يفكر فى الاعتداء على حقهم أو سلب شىء من مالهم ومتاعهم. فلما استدار العام كانوا فى ذى القعدة إذ خرج النبى فى ألفين من رجاله لعمرة القضاء نفاذاً لعهد الحديبية، وإطفاء لظمأ هذه النفوس الشديدة الظمأ لأداء فرائض البيت العتيق.

الفصل الثاني والعشرون

عمرة القضاء

ركب المسلمين إلى مكة — جلاء قريش عن مكة — نزول المسلمين بها طواف محمد وهرولته — زواج محمد من ميمونة — رغبته إلى قريش أن يُعرس بمكة ورفضهم ذلك — إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

استدار العام بعد الحديبية، وأصبح محمد وأصحابه فى حلٍّ، بعهدهم مع قريش، من الدخول إلى مكة ومن زيارة الكعبة. لذلك نادى الرسول فى الناس كى يتجهّزوا للخروج إلى عُمْرة القضاء بعد أن منعوا من قبلُ منها. ويسيرٌ عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلَبُّون هذا النداء، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة ولهم إلى زيارة البيت الحرام هوى. لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفاً وأربعمائة فى العام الذى سبقه. وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا سيفاً فى قرابه. لكن محمداً كان يخشى الغدر دائماً. فجهّز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مَسْلمة، وبعثهم طليعةً له على ألا يتخطَّوْا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مَرَّ الظَّهران إلى واد قريب منها. وساق المسلمون، ومحمد على رأسهم يركب ناقته القصوى، الهَدْى أمامهم ستين ناقة. وساروا من المدينة يحدوهم شغف أىُّ شغف بالدخول إلى أم القُرَى والطواف ببيت الله، ويرقُبُ كل واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التى وُلد فيها، والبيت الذى شبّ عن الطَّوْق بين جدرانه،

خروج المسلمين إلى مكة

والأصحاب الذين غادر ، وأن يتنسّم عَرْفَ هذا الوطن المقدّس ، وأن يلمس في إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التي أنجبت الرسول ، والتي نزل فيها أوّل ما نزل من الوحي . وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين عِدّتهم ألفان يُغذّون سيرهم تطفر أمامهم قلوبهم وترقص جَذَلاً أفئدتهم ، فاذا أناخوا جعل كل واحد منهم يقص على أصحابه آخر عهده بمكة أو أيام طفولته بها ، أو يحدّث عن أصدقائه فيها ، أو عن المال الذي ضحّى به في سبيل الله عند هجرته منها . تستطيع أن تتصوّر هذه المظاهرة الفذّة من نوعها ، يُزْجِي سيرها الايمان ، ويجذب أصحابها إليه بيت جعله الله مَثَابةً للناس وأمْناً ؛ وإنك إذاً لترى بعين بصيرتك أيّ طرب كان يستخف هؤلاء الذين حِيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس إذ يسيرون إليه ليدخلوا مكة آمنين ، محلّقين رءوسهم ومقصّرين ، لا يخافون .

جلاء قريش عن مكة

وعرفت قريش بمَقْدَم محمد وأصحابه ، فجلَت عن مكة ، نزولا على صلح الحديبية ، وصَعِدت في التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام ، وحيث أوى منهم من أوى إلى فيء الشجر . ومن فوق أبي قُبَيْس وحرَاء ، ومن فوق كل مرتفع مُطِلٍّ على مكة ، أطل هؤلاء المكيون ينظرون بعيون كلها التطلّع إلى الطريد وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدُّهم عنه صادّ ، ولا يحول بينهم وبينه حائل . وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبد الله بن رَوَاحة بخِطام القَصْوَى ، وأحاط كبار الصحابة بالنبي عليه السلام ، وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقتعد غارب بعيره . فلما انكشف البيت الحرام أمامهم انحسرت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد منادية ؛ لبّيْك لبيك ، متوجّهة بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذي الجلال ، محيطة في هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والحق أنه كان منظراً فذّا من مشاهد التاريخ

المسلمون أمام البيت الحرام

التى اهتزت لها أرجاؤه ، والتى جذبت إلى الاسلام قلوب أشَدّ المشركين صلابة فى وثنيته وفى عناده . وعلى هذا المنظر الفذ كانت تقع عيون أهل مكة ، وهذا الصوت المنبعث من القلوب يُدَوِّى : لبَّيْك . لبَّيْك ، كان يخترق آذانهم فيهزُّ قلوبهم هَزًّا . ولما بلغ الرسول المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهَرْوَل وهرول أصحابه معه ، حتى إذا استلم الركن اليمانىّ مشى حتى استلم الحجر الأسود مُهَرْولاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها . والألفان من المسلمين يهرولون كلما هرول ، ويمشون كلما مشى . وقريش تنظر من فوق أبى قُبَيْس فيأخذها لهذا المنظر البهر من كل مكان وتحسب أنها ، وكانت تحدّث عن محمد وأصحابه وأنهم فى عُسْر وشدّة وجهد ، قد رأت ما يمحو من فؤادها كل وهْم بوَهَن محمد وأصحابه . وفى حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رَوَاحَة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة حرب ، فصده عمر ، وقال له الرسول : « مَهْلًا يا بن رواحَة . وقل لا إله إلاّ الله وحده ، نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وخذل الأحزاب وحده » — أو كما قال — فنادى بها ابن رواحَة بأعلى صوته ، وردّدها المسلمون من بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادى ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تَسَنَّمُوا الجبال حوله .

الطواف بالكعبة

ولما أتمّ المسلمون الطّواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعاً ، كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهَدْى عند المروة وحلق رأسه ، وأتم بذلك فرائض العُمْرَة . ولما كان الغد دخل محمد إلى الكعبة وبقى بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الأصنام ما تزال تعمرها . مع ذلك علا بلال سقفها وأذَّنَ فى الناس لصلاة الظهر عندها . وصلّى النبى يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الاسلام عند البيت الذى كان يُصَدُّ من سبع سنين

ثلاثة أيام بمكة

مضت عن الصلاة عنده . وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة فى عهد الحديبية . وقد خلت أم القرى من أهلها ، فجاس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذى ولا يعترضهم أحد بسوء . والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويُزيرون أصحابهم من الأنصار إياها ، وكأنما هم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين ؛ وكلهم يسير سيرة الاسلام يُؤَدِّى إلى الله كل يوم صلواته فيقتل فى نفسه غرورها ؛ ويُعين قويُّهم ضعيفهم ، ويبرّ غنيّهم فقيرهم ؛ والنبى يتنقل بينهم أباً مُحِبًّا محبوباً ، يبسم لهذا ويمزح مع ذاك ، ثم لا يقول إلا حقًّا . وقريش وسائر أهل مكة يَطَّلِعون من منازلهم فوق السفوح على هذا المنظر الفذّ فى التاريخ ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم ، لا يشربون خمراً ولا يأتون معصية ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب ولا تفتنهم فى الحياة فتنة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أىّ أثر يترك هذا المنظر الذى سما بالانسان إلى ما فوق أسمى مراتب الانسان ؟ ! يسيرٌ عليك أن تقدّره حين تعلم أن محمداً عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين .

تزوج محمد ميمونة

كانت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى قد جعلت لها أختها ميمونة يدها ، وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها ، فجعلت أم الفضل يد أختها للعباس . ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين فى عمرة القضاء هوَتْ إلى الاسلام نفسُها ، فخاطب العباس ابن أخيه فى أمرها وعرض عليه أن يتزوّجها . وكانت ميمونة هذه خالة خالد بن الوليد . فلما أفضى العباس بالأمر إلى محمد قَبِل وأصدقها أربعمائة درهم . وكانت ثلاثة الأيام التى نص عهد الحديبية عليها قد انقضت . لكن محمداً أراد أن يتخذ من زواجه بميمونة وسيلة لزيادة فى التفاهم بينه وبين قريش . فلما جاءه سُهَيل بن عمرو وحُوَيطِبُ بن عبد العُزَّى من قِبَل قريشٍ يقولون لمحمد : « إنه قد

انقطنى أجلك فاخرج عنا » ، قال لهم : « ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً لحضرتموه . » قال محمد ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء فى نفس أهل مكة من أثر ، وكيف سحرتهم وسكنت من خصومتهم ، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدث إليهم وتحدثوا إليه فتحت مكة أمامه أبوابها طائعة . وهذا ما خشى سُهَيْلٌ وحُوَيْطِب. لذلك كان جوابهما : « لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا » . ولم يتردد محمد فى النزول على رأيهما تنفيذاً لعهده مع قومهما ، فأذّن فى المسلمين بالرحيل ، وخرج والمسلمون من ورائه . وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِف فبنى بها . وميمونة أم المؤمنين آخر أزواج النبى، عُمِّرت بعده خمسين سنة، ثم طلبت أن تدفن حيث بَنَى بها رسول الله. وحمل محمد معه أختى ميمونة سلمى أرملة عمه حمزة ، وعمارة البكر التى لم تتزوج .

خروج المسلمين إلى المدينة

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها ، ومحمد لا يشك فى عظم ما تركت عمرة القضاء من أثر فى نفوس قريش وفى نفوس أهل مكة جميعاً ، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة .

وصدّقت الأيام تقديره . فانه لم يلبث أن تحمل راجعاً إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد فارس قريش المُعْلَم وبطل أُحُد يقول فى جمع منها : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لُبٍّ أن يتبعه » . وقد فزع عِكرِمة ابن أبى جَهْل لما سمع ، فردّ قائلا : لقد صبؤت يا خالد . ودار بينهما الحديث الآتى — :

إسلام خالد ابن الوليد

خالد — لم أصبؤ ولكنى أسلمت .

عكرمة — والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت .

خالد — ولم ؟

عكرمة — لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرح وقتَل عمك وابن عمك ببدر. فوالله ما كنت لأسلم ولا تكلّم بكلامك ياخالد.
أمَا رأيت قريشاً يريدون قتاله !!

خالد — هذا أمر الجاهلية وحميّتها. لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق.

وبعث خالد إلى النبى أفراساً وبعث إليه باقراره بالاسلام وعرفانه. وبلغ إسلام خالد أبا سفيان، فبعث فى طلبه وسأله: أحقٌ ما بلغه عنه. ولما أجابه خالد أنه حقٌ غضب وقال: «واللّات والعُزّى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد». قال خالد: «فوالله إنه لحقٌ على رغم من رغم». فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه؛ فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال: «مهلاً يا أبا سفيان. فوالله لقد خِفت للذى خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ رآه وهذه قريش كلها تبايعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم». وخرج خالد من مكة إلى المدينة، فانضم إلى صفوف المسلمين.

إسلام عمرو ابن العاص وعثمان ابن طلحة

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة. وقد أسلم باسلام هؤلاء كثير من أهل مكة واتبعوا دين الحق. وبذلك قويت شوكة الاسلام، وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمراً لا محل لريبة فيه.

الفصل الثالث والعشرون

غـــــزوة مؤتة

اتجاه نظر محمد إلى الشام — توجيهه ثلاثة آلاف لغزوها — لواؤهم لزيد بن حارثة ، فإن أصيب فلجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحـــة على الناس — الروم فى مائة ألف أو مائتى ألف التقاء الجيشين بمؤتة — موت الثلاثة أصحاب اللواء على التعاقب الراية لخالد بن الوليد — مناورته وانسحابه

لم يكن محمد يستعجل فتح مكة وهو يعلم أن الزمن فى صفه ، كما أن عهد الحديبيـة لم يكن قد مضى عليـه غير عام واحد ، ولم يكن قد جدّ ما يوجب نقضه . ومحمد رجل وفاء لا ينقض كلمة قال ولا عهداً عقد . لذلك ذهب إلى المدينة فأقام بضعة أشهر لم تقع خلالها غير مناوشات صغيرة ، كارسال خمسين رجلا إلى بنى سُلَيْم ليدعوهم إلى الاسلام وغَدْر بنى سليم بهم وقتلهم إياهم بغياً بغير حق ، حتى لم يكد رئيسهم ينجو إلا بمحض المصادفة ؛ وكغزو جماعة من بنى اللَّيث والظفر بهم والغُنْم منهم ؛ وكمعاقبة بنى مُرَّة على ما غدروا من قبل ، وكارسـال خمسة عشر رجلا إلى ذات الطَّلْح على حـدود الشـام يدعون إلى الاسـلام دعوةً كان جزاؤهم عنها القتل لم ينج منه إلا رئيسهم . وقد كانت ناحية الشام وهـذه الجهات الشمالية مُتَّجَهَ نظر النبى منذ أمِن الجنوب بعهده مع قريش وباذعان عامل اليمن لدعوته . ذلك أنه كان يتوسّم طريق انتشـار دعوته إلى الاسـلام أوّل مغادرتها حدود شبه الجزيرة ، فيرى الشام والبلاد المجاورة هى المنفذ الأوّل لهذه الدعوة . لذلك لم تمض أشهر على مُقامه بالمدينة

مناوشات صغيرة

غزوة مؤتة

بعد عوده من عمرة القضاء، حتى وجه ثلاثة آلاف هم الذين قاتلوا فى مُؤْتَة مائة ألف فى رواية ومائتى ألف فى رواية أخرى.

ويختلف الرواة فى سبب غزوة مؤتة هذه، فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه فى ذات الطَّلْح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين. ويذهب آخرون إلى أن النبىّ أرسل رسولاً من رسله إلى عامل هرقل على بُصْرَى وأن أعرابيًا من غَسَّان قتل هذا الرسول باسم هِرَقل، فبعث محمد بالذين قاتلوا فى مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره.

وكما كان عهد الحديبية مقدّمة عمرة القضاء ففَتْحِ مكة، كذلك كانت غزوة مؤتة مقدّمة تَبُوك وما كان بعد وفاة النبى من فتح الشام. وسواء أكان السبب الذى أدى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبىّ إلى عامل بُصْرَى أو قتل رجاله الخمسة عشر فى ذات الطلح، فانه عليه السلام دعا إليه فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩ م) ثلاثة آلاف من خيرة رجاله واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «إنْ أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس». وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوّعاً ليدلّ بحسن بلائه فى الحرب على حسن إسلامه. وودع الناس أمراء الجيش والجيش، وسار معهم محمد حتى ظاهر المدينة، يوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار. ودعا عليه السلام ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين: صَحِبكم الله ودفع عنكم ورَدّكم إلينا سالمين. وكان أمراء الجيش يفكرون كلهم فى أخذ القوم من أهل الشام على غرّة منهم، على عادة النبىّ فى سابق غزواته، فيُسرع إليهم النصر ويعودوا بالغنيمة. وسار القوم حتى بلغوا مُعَان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم.

لكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم. فقام شَرَحْبيل عامل هِرَقل

تجهيز الروم لمقاتلتهم

على الشام لجمع جموع القبائل ممن حوله ، وأوفد من جعل هرقل يمدّه بجيوش من الاغريق ومن العرب . وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقلا نفسه تقدّم بجيوشه حتى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مائة ألف من الروم ، كما انضم إليه مائة ألف أخرى من لَخم وجُذام والقَيْن وبهراء وبَلِيّ . ويقال: إن تيُودُورَ أخا هرقل هو الذى كان على رأس هذه الجيوش لا هرقلا نفسه . على كل حال فقد بلغ المسلمين وهم بمُعَان أمر هذه الجموع ، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذى لاقبل لهم به . قال قائل منهم : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدوّنا . فاما أن يمدّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . وكاد هذا الرأى يسود لولا أن تقدم عبدالله بن رواحة ، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً، فقال : ياقوم ! والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ؛ مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ؛ فانطلقوا ، فانما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور ، وإما شهادة . وامتدت عَدْوَى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله ، فقال الناس : فوالله صدَق ابن رواحة ! ومضوا ، حتى إذا كانوا بتخوم البَلْقَاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مَشارف . فلما دنا العدوّ انحاز المسلمون إلى قرية مُؤْتة أن رأوها خيراً من مَشارف لتحصُّنهم بها . وفى مؤتة بدأت المعركة حامية الوطيس بين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل وبين ثلاثة آلاف من المسلمين .

رأى ابن رواحة فى مواجهة الروم

استشهاد زيد بن حارثة

يالجلال الايمان وروعة قوته ! حمل زَيْد بن حارثة راية النبىّ واندفع بها فى صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفرّ . لكن الموت فى هذا المقام هو الاستشهاد فى سبيل الله . وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكاناً . وحارب زيد حرب المستميت حتى مزّقته رماح العدوّ . فتناول الراية

من يده جعفر بن أبى طالب وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شابٌ تعدل وَسامته شجاعته. وقاتل جعفر بالراية، حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها واندفع بنفسه وسط القوم منطلقاً انطلاقة السهم يهوى سيفه برءوسهم حيثما وقع . وكان اللواء بيمين جعفر فقطعتْ، فأخذه بشماله فقُطعتْ، فاحتضنه بعضُدَيه حتى قُـتل. يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربَة قطعته نصفين. فلما قُـتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فطاعن القوم ساعةً ثم ولّى . لكنه لام نفسه، فنزل عن فرسه وقال لنفسه : أقسمت بالله لتَنزِلِنه ، إنى أراك تكرهين الجنّـه ، ثم عاد الى العَدُوّ فقاتلهم حتى قُـتل .

استشهاد جعفر ابن أبي طالب

استشهاد ابن رواحة

هؤلاء زيد وجعفر وابن رواحة استشهدوا ثلاثتهم فى سبيل الله فى موقعة واحدة . لكن النبىّ لما علم بخبرهم كان على زيد وجعفر أكبر أسًى وقال : إنهم لما رفعوا إليه فى الجنة رأى فى سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريرى صاحبيه ؛ فسأل لم هذا ؟ فقيل له : مَضَيَا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى . أترى إلى هذه العبرة والموعظة الحسنة ! فانما معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت فى سبيل الله ، بل يجب عليه كلما مضى فى أمر يؤمن بأنه لله أو للوطن أن يحمل حياته على كفه ، وأن يُلقى بها فى وجه من يقف فى سبيله ، فاما فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حق الله والوطن ، وإما استشهد فكان المثل الحىّ لمن بعده ، والذكر الباقى لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة مايضحّى بالحياة فى سبيله ، وأن الامساك على الحياة فى مذلة إهدار للحياة فما يستحق صاحبها بعد ذلك فى الحياة ذكراً ؛ وأن الرجل يُلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو عرّض حياته تعريضاً تذهب معه ضحية غرض وضيع ؛ وأنه كذلك يلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعى الحق جل شأنه ليقذف بها فى وجه الباطل ليسحقه، فيواريها هو

المثل الحي فى الاستشهاد

بالحجاب ، ويخاف عليها الموت خوفاً هو شر من الموت . وإذا كان التردد القليل من ابن رواحة، مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده ، قد جعله في غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاما وطارا للاستشهاد فرحا ، فما بالك بالذي ينكص على عقبيه طمعاً في جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة !. إنه إذاً لَلْحَشَرة الحقيرة وإن عَرُض عند السواد جاهه ، وإن بَذّ بمال قارون ماله . وهل لنفس إنسانية أن تغتبط حقًّا لشيء اغتباطها للتضحية في جانب ما تؤمن بأنه الحق يجعلها تزدري الحياة وأهل الحياة ، وتنتهي من ذلك إلى الاستشهاد في سبيل الحق ، أو إلى تمليك الحق الحياة !.

قُتِل ابن رواحة بعد تردد ثم إقدام ؛ فأخذ الراية ثابت بن أرقم أحد بني العَجلان، فقال : يامعشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فأخذ خالد الراية برغم ما رأى من تفرّق صفوف المسلمين وتضعضع قوّتهم المعنوية . وكان خالد قائداً ماهراً ومحركا للجيوش قلّ نظيره . لذلك أصدر أوامره ، فناور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم فوقف من محاربة العدوّ عند مناوشات امتدّت به حتى أرخى الليل سدوله ، وحتى وضع الجيشان السلاح إلى الصباح . أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خُطّته فوزّع عدداً غير قليل من رجاله في خط طويل من مؤخرة جيشه أحدثوا ، إذ أصبح الناس ، من الضجة ما أدخل إلى رُوع عدوّه أن مدداً جاءه من عند النبيّ . وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل في اليوم الأوّل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وإن لم يستطيعوا أن يصمدوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدرى أحد عِدّته !! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسُرّوا بعدم مهاجمته إياهم ، وكانوا أكثر سروراً بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة ، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقًّا كذلك أن عدوّهم لم ينتصر عليهم فيها .

مناورة خالد ابن الوليد

لذلك مالبث خالد والجيش معه أن دنوا من المدينة حتى تلقّاهم محمد والمسلمون معه . وطلب محمد فأُتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه . أمّا الناس فجعلوا يحثُون على الجيش التراب ويقولون : يا فُرّار فررتم فى سبيل الله ، فيقول رسول الله : ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكُرّار إن شاء الله . ومع هذه التأسية من محمد للعائدين من مؤتة فقد ظل المسلمون لايغفرون لهم انسحابهم وعَوْدهم ، حتى كان سَلَمة بن هِشام لايحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل مَنْ رآه : يا فُرّار فرَرتم فى سبيل الله . ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة ، ومن فعال خالد بنوع خاص ، لظلّت مؤتة معتبرة بعض مالطّخ به إخوانهم فى الدين جبينهم من عار الفِرار .

الفرار الكرار

وقد بلغ الألم من نفس محمد منذ علم بقتل زيد وجعفر ، وحزّ الأسى فى نفسه من أجلهما . لمّا أصيب جعفر ذهب محمد إلى منزله ودخل على زوجه أسماء بنت عُمَيْس، وكانت قد عجَنت عجينها وغَسلت بنيها ودهنتهم ونظّفتهم ، فقال لها : ائتينى ببنى جعفر . فلما أتته بهم تشمّمهم وذرفت عيناه الدمع . قالت أسماء فى لهف وقد أدركت ما أصابها : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ! ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم ! أصيبوا هذا اليوم . وازدادت عيناه بالدمع تهتاناً . فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها . أمّا محمد فخرج إلى أهله فقال : لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فربّتَ على كتفيها وبكى . وأظهر بعضهم دهشته لبكاء الرسول على من استشهد ؛ فقال ما معناه : إنما هى عبرات الصديق يفقد صديقه .

بكاء محمد المستشهدين

وفى رواية أن جُثة جعفر حملت إلى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيّام من وصول خالد والجيش إليها . ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكُفّوا عن البكاء . فقد أبدل الله جعْفَراً من يديه اللتين قُطعتا جناحين طار بهما إلى الجنة .

أراد محمد بعد أسابيع من عود خالد أن يستردّ هيبة المسلمين فى شمال شبه الجزيرة ، فبعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام ، وذلك أن أمّه كانت من قبائل تلك النواحى ، فكان يسيراً عليه أن يتألفهم . فلما كان على ماء بأرض جُذَام يقال له السَّلْسَل خاف فبعث إلى النبى عليه السلام يستمِدّه فأمَدّه بأبى عُبَيْدَة بن الجرّاح فى المهاجرين الأوّلين فيهم أبو بكر وعمر . وخاف محمد أن يختلف عمرو وهو حديث عهد بالاسلام مع أبى عُبَيْدَة من المهاجرين الأوّلين ، فقال لأبى عُبَيْدَة حين وجّهه : لا تختلفا . وقال عمرو لأبى عُبَيْدَة : إنما جئت مدداً لى فأنا على قيادة الجيش . وكان أبو عُبَيْدَة رجلا ليّنا سهلا هيّنا عليه أمر الدنيا ، فقال لعمرو : لقد قال لى رسول الله : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتنى أطعتك . وصلّى عمرو بالناس ، وتقدّم بالجيش فشتّت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربته ، وأعاد بذلك هيبة المسلمين فى تلك الناحية .

غزوة ذات السلاسل

فى هذه الأثناء كان محمد يفكر فى مكة ومآلها . لكنه ، كما قدمنا ، كان وفيّا بعهد الحُدَيْبِيَة . فأقام ينتظر انقضاء السنتين ، وجعل أثناء ذلك يوفد السرايا ليسكّن بها ثائرة القبائل التى تحدّثها نفوسها بالثورة . على أنه كان فى غير حاجة إلى كبير عناء من هذه الناحية ؛ فقد بدأت الوفود ترد إليه من مختلف النواحى تُعلن إليه طاعتها وإذعانها ، وإنه لكذلك إذ حدث ما كان مقدّمة لفتح مكة ، ولاستقرار الاسلام بها استقراراً أسبغ عليها إلى أبد الدهر أعظم القداسة .

الفصل الرابع والعشرون

فتح مكة

أثر موقعة مؤتة — نقض قريش عهد الحديبية — استعداء خزاعة النبي
على قريش — سفارة أبي سفيان إلى النبي وفشلها — تجهز المسلمين
عشرة آلاف يسيرون إلى مكة — رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير
إراقة للدماء — وفود العباس ثم وفود أبي سفيان إليه بظاهر مكة
دخول المسلمين فاتحين — المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد
عفو محمد عن خصومه جميعاً — تطهير الكعبة من الأصنام
إسلام أهل مكة

أثر مؤتة واختلافه

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة ولواؤهم لخالد بن الوليد. عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالإياب. وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة أثراً مختلفاً أشدّ الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة. أمّا الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتى ألف على قول آخر، على حين كانت عدّة المسلمين ثلاثة آلاف. وسواء أكان فرح الروم راجعاً إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة فى الدفاع والقوة فى الهجوم حتى لقد تحطمت فى يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة، أم كان راجعاً إلى مهارة خالد فى توزيع الجيش فى اليوم الثانى وإحداث

ماحدث من الجلبة حتى ظن الروم أن مدداً جاءه من المدينة ، فان القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت الى فعال المسلمين باعجاب أشد الاعجاب . وكان من ذلك أن أحد زعمائهم فَرْوَةَ بن عَمْرو الجُـذَامىّ ، وكان قائداً لفرقة من جيش الروم ، ما لبث أن أعلن إسلامه فقُبِض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة . وكان هرقل على استعداد للافراج عنه اذا هو عاد الى المسيحية ، بل كان على استعداد أن يرده الى مركز القيادة الذى كان فيه . لكن فروة أبى وأصرّ على إبائه وعلى إسلامه فقُتِل . وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الاسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمة للعراق وللشام حيث كان سلطان الرومان فى ذروته .

انتشار الاسلام فى شمال الجزيرة

وزاد فى انضمام الناس الى الدين الجديد اضطرابُ أحوال الدولة البِزَنطية اضطراباً جعل أحد عمّال هرقل ، وقد كُلِّف أن يدفع للجيش رواتبه ، يصيح فى وجه عرب الشام الذين اشتركوا فى الحرب : « انسحبوا . فالامبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده الا بمشقة . وليس لديه لذلك ما يوزّعه على كلابه . » . فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الامبراطور وعن جنده ، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم الى صدق الحقيقة السامية التى يبشّر الناسَ بها . لذلك اعتنق الأسلام فى هذه الفترة ألوف من سُلَيم وعلى رأسهم العباس بن مِرْداس ، ومن أشْجَع وغَطَفَان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكِب اليهود فى خَيْبَر . ومن عَبْس ومن ذُبْيان ومن فَزَارة . فكانت وقعة مؤتة بذلك سبباً فى استتباب الأمر للسلمين فى شمال المدينة الى حدود الشام . وفى ازدياد الأسلام عزّة وقوّة ومَنَعة .

لكن أثرها فى نفس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر . فهم مالبثوا أن رأوا خالداً والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل حتى صاحوا فى وجوههم : « يافُرّار فررتم فى سبيل الله . » وحتى كان من خجل بعض كبار رجال الجيش أن لزم بيته حتى لا يؤذيه

صبيان المسلمين وشبانهم بتهمة الفرار . أما أثر مؤتة فى نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزناً . فلتَعُد الأمور كما كانت قبل عُمرة القضاء، ولتعد الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية ، ولتَعُد قريش حرباً على المسلمين ومن فى عهدهم من غير أن تخشى من محمد قِصاصاً .

نقض قريش عهد الحديبية

وصلح الحديبية كان قد قضى أنه من أحبّ أن يدخل فى عقد محمد وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ؛ وكانت خُزاعة قد دخلت فى عهد محمد ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش . وكانت بين خزاعة وبنى بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وانحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين . فلما كانت مؤتة وخُيِّل إلى قريش أن المسلمين قُضى عليهم ، خُيِّل إلى بنى الدِّيل من بنى بكر بن عبد مَنَاة أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خُزاعة بثاراتهم القديمة . وحرّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عكرمة بن أبى جهل وبعض سادات قريش وأمدّوهم بالسلاح .

استنصار خزاعة بالنبى

وفيما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوَتِير اذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم ، ففرّت خُزاعة إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقاء وشكوا إليه نقض قريش ونقض بنى بكر عهدهم مع رسول الله . وسارع عمرو بن سالم الخزاعى فغدا متوجِّها إلى المدينة حتى وقف بين يدى محمد وهو جالس فى المسجد بين الناس ، وجعل يقص عليه ماحدث ويستنصره . قال رسول الله : « نُصِرت ياعمرو بن سالم » . ثم خرج بُدَيل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا النبى بما أصابهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم . عند ذلك رأى النبى أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة ، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لاجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء .

تخاوف حكماء قريش

أما حكماء قريش وذوو الرأى فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عكرمة ومن معه من الشبان من خطر . فهذا عهد الحديبية قد نُقِض ، وهذا سلطان محمد فى شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة . ولئن فكر بعد الذى حدث فى أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتتعرّضنّ المدينة المقدسة لأشد الخطر . فماذا تراهم يصنعون ؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليُثبت العقد وليزيد فى المدة . ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً . وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة . فلما بلغ من طريقه عُسْفَان لقيه بُدَيْل بن ورقاء وأصحابه ، فخاف أن يكون قد جاء محمداً وأخبره بما حدث ، فيزيد ذلك فى مهمته تعقيداً . وبرغم ما نفى بديل مقابلته محمداً فقد عرف من بعر راحلته أنه كان بالمدينة . لذلك آثر ألا يكون محمد أوّل من يلقى ، فجعل وجهته بيت ابنته أم حَبِيبَة زوج النبى .

أبو سفيان بالمدينة

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبى إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه فى أمر مكة . ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعاً . فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبى فطوته أم حبيبة ، فلما سألها أبوها : أطوته رغبة بابيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها ، كان جوابها : هو فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه . قال أبو سفيان : والله لقد أصابك يابنيّة بعدى شرّ ! وخرج مغضباً ، فكلم محمداً فى العهد وإطالة مدته ، فلم يردّ عليه شيئاً . فكلم أبا بكر ليكلم له النبى فأبى . فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له فى الرد وقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ودخل أبو سفيان على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة ، فعرض عليه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول فأنبأه علىّ فى رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمداً عن أمر إذا هو اعتزمه . واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن

فشل سفارة أبي سفيان

بين الناس ؛ فقالت : ما يجير أحد على رسول الله . واشتدت الأمور على أبي سفيان ، فاستنصح عليًّا .فقال له : « والله ما أعلم شيئاً يُغني عنك شيئاً . لكنك سيد بني كنانة فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحقْ بأرضك ؛ وما أظن ذلك مغنياً ولكني لا أجد لك غيره » . فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس . ثم ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكة وقلبه يفيض أسًى مِمّا لقي من هَوَان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضاً .

عاد أبو سفيان إلى مكة ، فقص على قومه ما لقي بالمدينة وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة عليّ ، وأن محمداً لم يُجِزْ جواره . قال قومه : ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك . وعادوا فيما بينهم يتشاورون .

تجهز المسلمين لفتح مكة

أما محمد فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه . ولئن كان واثقاً من قوّته ومن نصر الله إياه ، فقد كان يرجو أن يبغت القوم في غِرّة منهم ، فلا يجدوا له دفعاً فيسلموا من غير أن تراق الدماء . لذلك أمر الناس بالتجهز . فلما تجهّزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجِدّ ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ .

كتاب ابن أبي بلتعة إلى قريش

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بَلْتَعَة كتاباً أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلّغه قريشاً ليقفوا على ما أعدّ محمد لهم . وحاطب كان من كبار المسلمين . لكن في النفس الانسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الأحيان عليها وتهوى بها إلى مالا ترضاه لنفسها . وما لبث محمد أن أحيط بالأمر خُبْرا . فسارع فبعث عليّ ابن أبي طالب والزبير بن العوّام فأدركا سارة فاستنزلاها فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً . فأنذرها عليّ إن لم تخرج هذا الكتاب ليكشفنّها . فلما رأت المرأة الجِدّ منه قالت : أعرض . فأعرض ، فحلّت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب

منها فرداها إلى المدينة . ودعا محمد حاطباً يسأله ما حمله على ذلك . قال حاطب : يارسول الله ، أمّا والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله ماغيّرت ولا بدّلت ، ولكنى كنت امرأً ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . قال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله فلأضربْ عنقه فإن الرجل قد نافق . قال رسول الله : وما يُدريك ياعمر لعل الله قد اطلع على (وفى رواية إلى ولم ترد فى المعاجم) أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وكان حاطب من أصحاب بدر . وإذ ذاك نزل قوله تعالى: «يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ»

مسيرة جيش المسلمين

وتحرّك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكة ليفتحها وليضع يده على البيت الحرام الذى جعله الله مثابةً للناس وأمناً . تحرّك هذا الجيش فى عدد لاعهد للمدينة به . فقد بعثت القبائل من سُلَيم ومُزَيْنة وغَطَفان وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم فى يَلَب الحديد يسيلون فى فسيح الصحراء ، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شىء . تحرّكوا وأغذّ هؤلاء الألوف سيرهم وصاروا كلما تقدموا فيه انضم اليهم من سائر القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم ، وكلهم ممتلىء النفس بالايمان أن لاغالب لهم من دون الله . وسار محمد على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يُهريق نقطة دم واحدة . وبلغ الجيش مَرّ الظَّهران وقد كملت عِدّته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر ، فهى فى جدل مستمر ماذا تصنع لاتقاء عَدْوة محمد عليها . أمّا العباس بن عبد المطلب عم النبىّ فقد تركهم فى جَدَلهم وخرج فى أهله حتى لقى محمداً بالجُحْفَة . ولعل طائفة من بنى هاشم كانت بنبأ أو شبهه من خروج النبى ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى . فقد خرج سوى العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبى ، وعبد الله بن

خروج بنى هاشم إلى النبى وإسلامهم

أبى أمية بن المغيرة ابن عمته ، حتى اتصلا بجيش المسلمين وهو بنيق العُقاب فاستأذنا على النبى . فرفض أن يأذن لهما ، وقال لزوجه أم سلمة حين كلمته فى أمرهما : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فقد أصابنى منه سوء ؛ وأما ابن عمتى وصهرى فقد قال بمكة ماقال . وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال : والله ليؤذنَنّ لى أو لآخذنّ بيد بُنَىّ هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعا . فرقّ محمد ثم أذِن لهما فدخلا عليه فأسلما .

العباس بن عبد المطلب

ورأى العباس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوّته ماراعه وأزعجه . ولئن كان قد أسلم فان ذلك لم يُخلِ قلبه من خشية ما يُحلّ بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذى لا قِبَل لقوة فى بلاد العرب به . أوَ ليس قد ترك مكة لأمسه ، أو ليومين أو ثلاثة أيام مضت ، وله بها من الأهل والخلان والأصدقاء مالم يقطع الاسلام الذى اعتنق منذ ساعات من وشائجه ! . ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله : مايصنع إذ طلبت قريش أمانه ؟ ولعل ابن أخيه سُرّ بمفاتحة العباس إياه فى هذا ورجا أن يتخذ منه سفيراً يُلقى فى قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دماً ، وتظل مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون . وجلس العباس على بغلة النبى البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك ، لعله يجد حطّاباً أو صاحب لبن أو أى إنسان ذاهباً الى مكة ، يحمّله الى أهلها رسالة بقوة المسلمين وبأس جيوشهم ، حتى يخرجوا الى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

أبو سفيان يستطلع لقريش

وكانت قريش قد بدأت ، منذ نزل المسلمون مرّ الظّهران (على أربع فراسخ من مكة) تشعر بأن خطراً يقترب منها ؛ فارسلت أبا سفيان بن حرب وبُدَيل بن ورقاء وحكيم بن حكيم قريب خديجة يتنطّسون الأخبار ويستطلعون مبلغ الخطر الذى تحس قلوبها . وإن العباس ليسير على بغلة النبىّ البيضاء إذ سمع حديثاً بين أبى سفيان بن حرب وبُدَيل بن ورقاء كذلك يجرى :

أبو سفيان — مارأيت كالليلة نيراناً قطّ ولا عسكر .

بديـــل — هذه والله خزاعة حمّشتها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وعرف العبّاس صوت أبي سُفيان فناداه بكنيته قائلا : أبا حَنْظَلَة ، وأجاب أبو سُفيان بدوره : أبا الفضل . قال العبّاس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في الناس . وا صباحَ قريش إذا دخل مكة عنوةً !. قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ . فأركبه العباس في عَجُز البغلة وردّ صاحبيه إلى مكة وسار به ؛ والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرُّ بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتُلقي الرعب في قلب مكة وأهلها . فلما مرّت بنار عمر ابن الخطاب ورآها ، عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يُجيره ، فأسرع إلى خيمة النبيّ وطلب إليه أن يضرب عنقه . قال العباس : إني يا رسول الله قد أجرته . إزاء هذا الموقف في تلك الساعة من الليل وبعد مناقشة لا تخلو من حِدَّة بين العبّاس وعمر ، قال محمد : إذهب به يا عباس إلى رَحْلك ، فاذا أصبحت فأتني به . فلما كان الصباح وجيء بأبي سفيان في حضرة النبي وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار ، جرى الحوار الآتي :

التقاء بالعباس

أبو سفيان في حضرة الرسول

النبي — ويحك يا أبا سفيـان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله !.

أبو سُفيان — بأبي أنت وأمي ! ما أحلَمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلٰه غيره لقد أغنى شيئاً بعدُ .

النبي — ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله !.

أبو سفيان — بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أمّا والله هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً !.

فتدخل العباس موجّهاً القول الى أبي سفيان أن يُسلم ويشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقه . ولم يجد أبو سفيان أمام هذا

إلا أن يُسلم . فتوجه العباس بالقول الى النبىّ عليه السلام : يارسول الله ، إن أباسفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال رسول الله : «نعم ! مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

أمصادفة حدث ذلك كله ؟

هذه الوقائع واردٌ عليها اتفاق المؤرخين وكتّاب السيرة جميعاً . إلا أن بعضهم يتساءل : أهى قد حدثت كلها بمحض المصادفة ؛ فخروج العباس الى النبى كان قصده منه أن يذهب الى المدينة فاذا هو يلقَى جيوش المسلمين بالجُحْفَة ؛ وخروج بديل بن ورقاء مع أبى سُفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع مع أن بديلا ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقَصّ على النبى ما لقيت خُزَاعة وعرف من النبى أنه ناصرها ؛ وخروج أبى سفيان كان على جهل منه بأن محمداً قد سار ليغزو مكة ؟! أم أن شيئاً من التفاهم ، قليلا أو كثيراً ، كان قد حدث قبل ذلك ، وأن هذا التفاهم هو الذى أخرج العباس للقاء محمد ، وأن هذا التفاهم هو الذى جمع بين العباس وأبى سُفيان ، وأن أبا سفيان كان قد وثق ، منذ ذهب الى المدينة ليمدّ فى عهد الحديبية ورجع صفر اليدين ، موقناً بأن لا سبيل لقريش الى ردّ محمد ، وأيقن أنه إذا مهّد للفتح السبيل فستبقى له رياسته فى مكة ومقامه الكبير فيها ، وأن الذى ربما كان وقع عليه التفاهم من ذلك لم يتعدّ محمداً والأشخاص الذين يعنيهم الأمر ، بدليل ما همّ به عمر من قتل أبى سفيان ! ؟ من المغامرة أن نحكم . لكنا نستطيع أن نقرّر مطمئنة نفوسنا أنه سواء أكانت المصادفة هى التى ساقت ذلك كله أم أن شيئا من التفاهم قد وقع عليه ، فالحالان تدلان على دقة محمد ومهارته فى كسب أكبر موقعة فى تاريخ الاسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء .

عدة محمد لدخول مكة

ثم إن ذلك لم يخدع محمداً عن أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أُهبة وحذر . وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، فان الله لا يؤتى النصر إلا من أعدّ له كل عُدّته ، واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف فى سبيله . لذلك

أمر أن يُحبَس أبو سفيان بمضيق الوادى عند مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمر به جنود المسلمين فيراها ليحدِّث قومه بها عن بيّنة، ولكى لا يكون فى إسراعه اليهم خيفة مقاومة من أىّ نوع تكون. ومرّت القبائل بأبى سفيان، فما راعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لايرى منهم إلا الحدق من الحديد. فلما عرَف أبو سفيان أمرهم قال: ياعباس! ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. والله ياأبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما. ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يامعشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به. فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وسار محمد فى الجيش، حتى إذا انتهى إلى ذى طُوًى ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه ووقف على راحلته وانحنى لله شاكراً، أن فتح الله عليه مَهْبِط الوحى ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين. وفيما هو كذلك طلب أبو قُحَافة، ولم يكن قد أسلم كابنه، إلى حفيدة له أن تظهر به على أبى قُبَيْس، وقد كان كُفّ بصره. فلما ارتقت فوق الجبل سألها ما ترى؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكة، فأسرعى بى إلى بيتى. فنزلت وإياه؛ فلم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقته قبل بلوغه إياه.

توزيع الجيش

شكر محمد لله أن فتح عليه مكة، ولكنه ظل مع ذلك متخذاً حذره. فقد أمر أن يفرّق الجيش أربع فرق. وأمرها جميعاً ألا تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا أُكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت إليه اضطراراً. وجعل الزبير بن العوّام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عُبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى. أما

أبو عبيدة بن الجرّاح فجعله محمد على المهاجرين وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند . وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عُبادة يقول : اليوم يوم المَلْحَمة ، اليوم تستحلّ الحرمة . وفى ذلك من نقض أمر النبى ألا يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه . لذلك رأى النبى حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس ، وكان رجلا ضخماً ، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصابا .

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد . فقد كان يقيم فى هذا الحى من أسفل مكة أشد قريش عداوة لمحمد ، ومن اشتركوا مع بنى بكر فى نقض عهد الحُديبية بالغارة على خُزاعة . هؤلاء لم يُرْضِهم مانادى به أبو سفيان بل أعدّوا عُدّتهم للقتال وأعدّ آخرون منهم عُدّتهم للفرار ، وقام على رأسهم صَفْوان وسُهَيل وعكرمة بن أبى جهل . فلما دخلت فرقة خالد أمطروها نِبالهم . لكن خالداً لم يلبث أن فرّقهم ولم يُقتل من رجاله إلا اثنان ضلاّ طريقهما وانفصلا عنه . أمّا قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلا فى رواية ، وثمانية وعشرين فى رواية أخرى . ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة أن رأوا الدائرة تدور عليهم حتى ولّوا الأدبار تاركين وراءهم من حرّضوهم على المقاومة يَصْلَوْن بأس خالد وبطش أبطاله معه . وفيما محمد على رأس المهاجرين يرقى مرتَفَعاً ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها فى سكينة وسلم ، بَصُر بأمّ القُرَى وبما فيها جميعاً ، وبَصُر بتَلماع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجموهم . هنالك أسِف وصاح مغضَباً بذكر أمره ألا يكون قتال . فلما علم بما كان ، ذكر أن الخِيرَةَ فيما اختاره الله.

دخول مكة

ونزل النبى بأعلى مكة قُبالة جبل هند ، وهنالك ضُربت له قبّة على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة ، وسئل : هل يريد أن يستريح فى بيته ؟ فأجاب : كلا ! فما تركوا لى بمكة بيتاً . ودخل إلى القبّة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله

أن عاد به عزيزاً منتصراً الى البلد الذى آذاه وعذّبه وأخرجه من بين أهله ودياره . وأجال بصره فى الوادى وفى الجبال المحيطة به . فى هذه الجبال التى كان يأوي الى شعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتد به قطيعتها . فى هذه الجبال ومن بينها حراء حيث كان يتحنّث حتى نزل عليه الوحى أن : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » — أجال بصره فى هذه الجبال وفى الوادى مبعثرة منازل مكة فيه يتوسطها البيت الحرام ، فبلغ من خضوعه لله أن ترقرقت فى عينه دمعة إسلام وشكر وإذعان للحق لا حقّ إلا هو ، إليه يرجع الأمر كله . وشعر ساعتئذ أن مهمة القائد قد انتهت . فلم يُقِمْ بالقبة طويلا بل خرج وامتطى ناقته القصوى وسار بها حتى بلغ الكعبة ، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ، فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس فى المسجد ، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » . ثم سألهم : يامعشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟ . قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! . قال : فاذهبوا فأنتم الطُّلَقاء . وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً .

العفو العام

ما أجمل العفو عند المقدرة ! ما أعظم هذه النفس التى سمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الانسان . هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن عذّبوه وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه فى بَدْر وفى أُحُد ، ومن حصروه فى غزوة الخندق ومن ألبوا عليه العرب جميعاً ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرْباً إرْباً لما ونوا عن ذلك لحظة ! هؤلاء قريش فى قبضة محمد

وتحت قدميه ، أمره نافذٌ فى رقابهم وحياتهم جميعا معلّقة بين شفتيه ، وفى سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها فى رجع البصر ! لكن محمداً ! لكن النبى ! لكن رسول الله ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس . وليس هو بالجبار ولا هو بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوّه ، فقَدَر فعفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلا فى البر والوفاء بالعهد وفى سموّ النفس سموًّا لا يبلغه أحد .

الصور فى الكعبة

ودخل محمد الكعبة فرأى جدرانها صُوِّرت عليها الملائكة والنبيون ، ورأى إبراهيم مصوَّراً فى يده الأزلام يستقسم بها ، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض . أمّا صورة إبراهيم فنظر محمد اليها مَليًّا وقال : قاتلهم الله ! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام . ما شأن إبراهيم والأزلام ! ما كان إبرَاهيم يَهوديًّا ولا نَصْرانيًّا ولكن كان حَنِيفاً مسلماً وما كان من المشركين . أما الملائكة الذين صُوِّروا نساء ذوات جمال فقد أنكر محمد صورهم أن ليست الملائكة ذكوراً ولا إناثاً ؛ ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمست . وكانت حول الكعبة الأصنام التى كانت تعبدها قريش من دون الله قد شُدَّت إلى جُدرها بالرصاص ، كما كان هُبَل داخل الكعبة ؛ فجعل محمد يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب فى يده وهو يقول : « وقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » . وألقيت الأصنام لوجوهها وظهورها ، وطهُرَ البيت الحرام بذلك منها . وأتم محمد بذلك فى أول يوم لفتح مكة ما دعا اليه منذ عشرين سنة ، وما حاربته مكة أشد الحرب فيه . أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية فى البيت الحرام بمشهد من قريش ، ترى أصنامها التى كانت تعبد ويعبد آباؤها ، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرًّا .

تطهير الكعبة من الأصنام

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله ، ورأوا محمداً يقوم على الصفا ويدعو ، فخيِّل اليهم أنه تارك المدينة إلى وطنه الأوّل وقد فتحه الله عليه ،

مخاوف الأنصار وتبديدها

وقال بعضهم لبعض : أترُون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟! ولعلهم كانوا على حق فى مخاوفهم . فهذا رسول الله ، وبمكة البيت الحرام بيت الله ، وبمكة المسجد الحرام . لكن محمداً ما لبث أن أتم دعاءه حتى سألهم : ما قالوا ؟ . فلما عرف بعد ترددمنهم مخافتهم قال : معاذَ الله ! المَحيَا مَحيَاكم والممات مماتكم . فضرب بذلك للناس مثلا فى البر بعهده فى بيعة العقبة ، وفى الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه ، برًّا ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكة البلد الحرام .

ولما أن طُهِّرت الكعبة من أصنامها ، أمر النبي بلالاً فأذَّن فوقها وصلى الناس بامامة محمد . ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر ، مدى أربعة عشر قرناً مضت لا تنقطع ، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان ، كل يوم خمس مرات من فوق مسجد مكة . ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذ يؤدّى المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله ، متوجِّهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم ، مستقبلين هذا البيت الحرام الذى طهّره محمد يوم الفتح من أوثانه وأصنامه .

وأذعنت قريش لما حلّ بها واطمانت لعفو محمد عنها وأقامت تنظر اليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلها الدهش والاعجاب يمازجهما الخوف والحذر . لكن طائفة منها عِدّتها سبعة عشر رجلا ، كان محمد قد استثناها من رحمته وأمر ساعة دخول مكة أن يقتل رجالها ولو وُجدوا متعلّقين بأستار الكعبة ، كان قد فضّل بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار . ولم يكن قرار محمد قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم ؛ فهو لم يكن يعرف الحقد ؛ ولكن لجرائم عظمى ارتكبوها . فأحدهم عبد الله بن أبى السّرح كان قد أسلم وكان يكتب لمحمد الوحى ، فارتدّ مشركا إلى قريش زاعماً أنه كان يزيِّف الوحى حين يكتبه . وعبد الله بن خَطَل كان قد أسلم ثم قتل مولًى له وارتدّ مشركا

وأمر جاريتيه فَرْتَنَا وصاحبتها فكانتا تغنّيـان بهجاء محمد فأمر بقتلهما معه. وعكرمة بن أبى جهل وكان من أشد الناس لَدَداً فى خصومة محمد والمسلمين خصومة لم تهـدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها. أمر محمد بعد دخول مكة ألا يُسفَك بها دم أو يُـقتل فيها أحـد غير هذه الطائفة. لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرّ منهم من فرّ. فلمـا استقرّ الأمر وهـدأت الحال ورأى النـاس من فسحة صدر الرسـول ومن عفوه الشامل مارأوا، طمع بعض أصحابه فى أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُـقْتَلوا. فقام عثمان بن عفّان، وكان أخا ابن أبى السرح للرضاعة، حتى أتى به النبىّ فاستأمن له؛ فصمت محمد طويلا ثم قال: نعم، وأمّـنه. وأسلمت أم حكيم بنت الحارث ابن هشام زوج عِكرمة بن أبى جهل الذى فرّ الى اليمن واستأمنت له محمداً فأمّـنه، فخرجت فى طلبه وجاءت به. وعفا محمد كذلك عن صـَفوان بن أمية وكان قد صحب عكرمة فى فراره الى ناحية البحر يستقلّانه الى اليمن، فجىء بهما والسفينة التى تحملهما على أهبـة إقلاعها. وعفا محمد كذلك عن هنـد زوج أبى سفيان التى مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهاده فى أُحُـد، كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم. ولم يقتـل منهم الا أربعـة منهم الحُوَيْرث الذى أغرى على زينب بنت النبىّ حين رجوعها من مكة الى المدينـة، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتـل وفرّا راجعين الى مكة مرتدّين الى الشرك، وقينة ابن خطل التى كانت تؤذى النبى بغنائها.

العفو عمن أمر النبى بقتلهم

خلا اربعة قتلوا فى جرائمهم

وفى غداة يوم الفتح عثرت خُـزاعة على رجل من هُـذيل وهو مشرك فقتلوه. فغضب النبى وقام فى الناس خطيباً فقال: «يأيها الناس، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيهـا دماً أو يعضد فيها شجراً. لم تحلل لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى، ولم

تحريم مكة على الناس جميعاً

تحلل لى إلاّ هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت لحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خُزاعة . ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدِيَنّه . فمن قتل بعد مقالى هذا فأهله بخير المَنْظَرَيْن ، إن شاءوا فدم قاتله وإن شاءوا فعَقْله » . ثم وَدَى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة . وبهذا الخطاب وبتصرفه الذى زاد على السماحة والعفو أمس ، كسب محمد قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدرون . فأقبلوا على الاسلام ، ونادى مناد فيهم : « من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنما إلا حطمه » . ثم بعث جماعة من خُزاعة ليصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام ، مما دلّ أهل مكة على ما لها فى نفسه من القداسة وما زادهم له حبًّا . فلما أخبرهم أنهم خير أمّة يحب ، وأنه ما كان ليتركهم أويعدل بهم ناساً لولا أنهم أخرجوه ، بلغ تعلقهم به غاية حدوده . وجاء أبو بكر بأبيه الذى ارتقى قُبَيساً يوم الزحف يقوده حتى وقف بين يدى النبى . فلما رآه محمد قال : هلاّ تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيه فيه ! . قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى اليك من أن تمشى اليه أنت . فأجلس النبى الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له : أسلم . فحسن إسلامه . وكذلك أسَرَت أخلاق النبوّة السامية هذا الشعب الذى كان ثائراً على محمد أشد الثورة ، والذى أصبح اليوم يجلّه ويقدّسه . وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساء وبايعت .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظّم خلالها شؤون مكة ويفقّه أهلها فى الدين . وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الاسلام لا للقتال ، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء . وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نَخْلة ليهدم العُزّى وكانت لبنى شيبان . فلما هدَمها خرج إلى جُذَيْمة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ؛ فطلب اليهم خالد أن يضعوه فان الناس قد أسلموا .

خالد بن الوليد فى جذيمة

قال رجل من جُذَيمة لقومه : ويلكم يابنى جُذَيمة ! إنه خالد . والله مابعد وضع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الاسار إلا ضرب الأعناق . قال له قومه : أتريد أن تسفك دماءنا ! إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس . وما زالوا به حتى وضع سلاحه . عند ذلك أمر بهم خالد فغُلّلوا ثم عرَضهم على السيف فقتل من قتل منهم . فلما انتهى الخبر إلى النبى رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرَأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » . ثم بعث اليهم علىّ ابن أبى طالب وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلّية تحت قدميك . وخرج علىّ ومعه مال أعطاه النبىّ إيّاه . فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعما أصيب من الأموال ، حتى إذا لم يبق شىء من دم أو مال إلا وَداه ، أعطاهم بقية المال الذى بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم .

وفى الأسبوعين اللذين أقام محمد بمكة عفّى على كل آثار الوثنية فيها ، لم ينتقل منها إلى الاسلام إلا سِدانة الكعبة أقرّها فى عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم ، وسقاية الحاجّ من زمزم جعلها لعمه العباس . وكذلك آمنت أم القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه ، وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضاء .

الفصل الخامس والعشرون

حنـــــين والطائف

تألب هوازن وثقيف بإمرة مالك بن عوف – تحصّنهم بمضيق وادى حنين – خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم – دخول المسلمين من مضيق الوادى فى عمـاية الصبح – ضرب هوازن وثقيف إياهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين – ثبات محمد إلى الموت – صياح العباس بالمسلمين كى يعودوا – عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم الفىء – المسـيرة إلى الطائف – حصـارها وعدم إمكان اقتحامها تحريق نخيلها – استرحامها النبى – رجوعـه من الحصـار اسـلام هوازن – حـديث الشيماء – العود إلى الجعرانة وقسمة الفىء العمرة – العود إلى المدينة

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إياها فرحين بنصر الله إياهم ، مغتبطين أن لم يسفك فى هذا النصر العظيم الا الدم القليل ، مسارعين الى البيت الحرام كلما أذّن بلال بالصلاة ، متجمهرين حول رسول الله حيث أقام وأنّى ذهب ، يغشى المهاجرون منهم دورهم ويتّصلون بأهليهم الذين هدى الله بعد الفتح ؛ ونفوسهم جميعاً مطمئنة الى أن الأمر قد استقر للاسلام وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كُـلّل بالفوز والظفر . وإنهم لكذلك بعد خمسة عشر يوماً من مُـقامهم بأم القرى إذ ترامت اليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة . تلك أن هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة الى جنوبها الشرقى فى جبال هناك . فلما

علمت بما تم للمسلمين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها ، خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها ، ففكرت فيما تصنع لاتّقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ، ولصد محمد والكف من غُلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمها كلها فى وحدة تربطها . لذلك جمع مالك بن عَوْف النَّصرى ، هَوازن وثقيفاً ، كما اجتمعت نَصْرٌ وجُشَم ، ولم يتخلّف عن الاجتماع من هوازن إلا كَعْب وكِلاب . وكان فى جُشَمَ دُرَيْد بن الصِّمَّة ، وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا نفع منه فى الحرب ، ولكنما الانتفاع برأيه بعد الذى عرَكه على السنين فى مواقعها . وكذلك اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أموالها ونساؤها وأبناؤها ، وتمّ جمعها حين نزلت سهل أوْطاس . فلما سمع دُرَيْد رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبُكاء الصغير وثُغاء الشاء سأل مالك بن عَوْف : لِمَ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم ؟ فلما أجابه مالك بأنه إنما أراد أن يشجّع بها المحاربين ، قال دُرَيْد : وهل يردّ المنهزم شىء ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ؛ وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك . واختلف مالك وإياه . وتبع الناس مالكا ، وكان شابًّا فى الثلاثين من عمُره قوىّ الارادة ماضى العزيمة ، وتابعهم دُرَيْد ما يردّ لهم رغم سابقته فى الحرب رأياً . وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قمم حُنَيْن وعند مضيق الوادى . فاذا نزل المسلمون واديه فليشدّوا عليهم شَدَّةَ رجل واحد تضعضع صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضاً وتدور عليهم الهزيمة ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ، ويبقى لقبائل حنين فى بلاد العرب جميعاً فخار النصر على هذه القوّة التى تريد أن تُظِلّ بسلطانها بلاد العرب جميعاً . وصدّعت القبائل بأمر مالك وتحصّنت بمضيق الوادى .

مسيرة مالك ابن عوف لقتال المسلمين

تحصن القبائل بمضيق الوادى

أمّا المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مُقامهم بمكة وعلى رأسهم محمد

مسيرة المسلمين إلى حنين

فى عُدّة وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قط. ساروا فى اثنى عشر ألفاً من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها، وألفان ممن أسلم من قريش وبينهم أبو سفيان بن حرب، وكلهم تلمع دروعهم، وفى مقدمتهم الفرسان والابل تحمل المِيرة والذخيرة. سار المسلمون فى هذا الجيش الذى لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله، يتقدّم كل قبيلة علَمها، وتمتلىء النفوس كلها إعجاباً بهذه الكثرة وبأن لا غالب اليوم لها، حتى لقد تحدّث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون: لن نغلب اليوم لكثرتنا. وساروا حتى بلغوا حنَيْناً والمساء يُقبل، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر. هنالك تحرك الجيش، وركب محمد بغلته البيضاء فى مؤخرّته، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سُلَيم فى المقدّمة، وانحدروا من مضيق حنَين فى واد من أودية تِهامة. وإنهم لكذلك منحطّون إلى الوادى إذ شدت عليهم القبائل بامرة مالك بن عوف شَدّةَ رجل واحد وأصلَوْهم وابلاً من النبال وهم جميعاً ما يزالون فى عماية الفجر. إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفزع منهم كل مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر. وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة: اليوم أُدرك ثأرى من محمد، وكان أبوه قد قُتل فى غزوة أحد. وقال كَلَدَة بن حنبل: ألاَ بَطَل السحرُ اليوم!. فردّ عليه أخوه صفوان: أسكت فضّ الله فاك!. فوالله لأن يَرُبَّنى رجل من قريش أحبّ إلى من أن يَرُبَّنى رجل من هوازن. تقع هذه الأحاديث والجيش يضطرب حابله بنابله والنبىّ فى المؤخرة تمرّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى موليّة الأدبار مهزومة لا تلوى على شىء.

فرار المسلمين

ماذا تراه يصنع؟! أفتضيع تضحيات اثنتى عشرة سنة فى هذه اللحظة

ثبات محمد وقوة عزيمته

من عماية الصبح !! أفتتخلى عنه ربه وتخلى عنه نصر الله إياه ! ؟ كلا ! كلا ! لن يكون هذا ! دون هذا تبيد أمم وتفنى أقوام ! ودون هذا الموت يدخل محمد فى غماره لعل فى الموت لدين الله نصراً . وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وثبت محمد مكانه ، وأحاط به جماعة من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته ، وجعل ينادى فى الناس إذ يمرون منهزمين : أين أيها الناس أين ! لكن الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون إلى شيء ولا يدور بتصورهم إلا هوازن وثقيف منحدرتين من معتصمهما بالقِمم تطاردانهم حتى تجيئا عليهم؛ ولم يخطىء تصورهم . فقد انحدرت هوازن من مكامنها يتقدمها رجل على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرون من ورائه يطعنون . وثارت بمحمد حميّته ، فأراد أن يندفع ببغلته البيضاء فى صدر هذا السيل الدافق من رجال العدوّ ، وليكن بعد ذلك أمر الله . لكن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخِطام بغلته وحال دون تقدُّمها .

نداء العباس في الناس

وكان العباس بن عبد المطلب رجلا جسيما جَهْوَرِيَّ الصوت قويَّه ، فنادى بما أسمع الناس جميعاً من كل فجّ : يامعشر الأنصار الذين آوَوْا ونصروا . يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حيٌّ فَهَلُمُّوا . وكرر العباس النداء حتى تجاوبت فى كل جَنَبات الوادى أصداؤه . وهنا كانت المعجزة : سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمداً وذكروا عهودهم وشرفهم . وسمع المهاجرون اسم محمد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم. وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة محمد وثباته فى نفر قليل من المهاجرين والأنصار كثباته يوم أُحُد فى وجه هذا العدوّ الزاحف ، وصورت لهم نفوسهم ماقد ينشأ عن خِذلانهم إيّاه من تغلُّب المشركين على رسول الله ، وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يُدَوِّى

فى آذانهم وتهتز لأصدائه أوتار قلوبهم . هنالك تصايحوا من كل صوب : لَبّيْكَ لَبّيْكَ ! وارتدوا إلى المعركة مستبسلين .

رجوع المسلمين واستماتتهم

وبدأت محمد تعاوده الطمأنينة حين رآهم يعودون . فقد انحدرت هوازن من مكامنها وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين فى الوادى . وقد أضاء النهار وطغى النور على عماية الفجر ، واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبروا لهم ، وهم يزداد عددهم وتشتد بعودتهم عزائمهم من خارت من قبلُ عزائمهم . وجعل الأنصار يتصايحون : يا لَلأنصار ! ثم تَنادَوْا : يا لَلخزرج . ومحمد ينظر إلى تناحر القوم ؛ حتى إذا رأى الصِّدام اشتد ورأى رجاله تسمو قلوبهم ويُطيحون بخصومهم نادى : الآن حَمِيَ الوطيس . إن الله لا يُخلف رسولَه وعدَه . ثم طلب إلى العباس فناوله حفنة من الحصى ألقى بها فى وجوه العدوّ قائلا : شَاهتِ الوجوه ! واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت فى سبيل الله مؤمنين بأن النصر لا محالة آت ، وأن من استشهد منهم فله من هذا النصر أكبر من نصيب من بقى . وكان البلاء شديداً ، حتى إن هوازن وثقيف ومن معهم مالبثوا أن رأوا كل مقاومة غير مُجدية

انتصار المسلمين وما غنموا

وأنهم معرّضون للفناء عن آخرهم إذ فروا منهزمين لا يلوون على شىء ، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمةً للمسلمين ، الذين أحصَوْها يومئذ اثنين وعشرين ألفاً من الابل وأربعين ألفاً من الشاء وأربعة آلاف أوقية من الفضة . أمّا الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين الى وادى الجِعْرَانة حيث أُوَوْا الى أن يعود المسلمون من مطاردتهم عدوّهم ومن حصار ثقيف بالطائف .

تعقب المسلمين عدوهم

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوّهم . وزادهم إغراء بهذه المطاردة أن أمر الرسول أنّ من قتل مشركا فله سَلَبُه . وأدرك ابن الدُّغُنَّة جملا عليه شجار ظنّ به امرأة طمع فى سلبها ، فأناخ الجمل فاذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو

دُرَيد بن الصِّمَّة . وسأل دريد ربيعة : ما يريد به ؟ قال : أقتلك ، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغْنِ شيئاً . قال دريد : بئس ماسلّحتك أمك ! خذ سيفي هذا من مؤخّر الرَّحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإني كذلك كنت أضرب به الرجال ؛ ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دُرَيد بن الصمة ، فَرُبَّ والله يوم قد منعتُ فيه نساءك . ولما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره قالت له : « حرّق الله يدك ! إنما قال ذلك ليذكرنا نعمه عليك . فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات فى غداة : أنا وأمى وأم أبيك » .

وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاساً ، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شر هزيمة ، وسَبَوْا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى محمد . أمّا مالك بن عوف النَّصْرىّ فقد ثبت برهةً ثم فرّ وقومه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نخلة ثم ولّى وجهه نحو الطائف فاحتمى بها .

هزيمة المشركين تامة

وكذلك كان نصر المسلمين مؤزّرا . وكانت هزيمة المشركين تامة بعد ذلك الفزع الذى أصاب المسلمين فى عماية الصبح ، وحين شدّ المشركون عليهم شدّة رجل واحد ضعضعت صفوفهم وخلطت حابلهم بنابلهم . كان نصر المسلمين مؤزّراً بفضل ثبات محمد والفئة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعالى من سورة التوبة : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ،

ثمن النصر

على أن المسلمين لم يُحرزوا هذا النصر المؤزّر رخيصاً، بل دفعوا فيه ثمناً غالياً لعلهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأول وتدافعهم مهزومين، ليقول فيهم أبو سفيان : إنهم لا يردهم إلا البحر . دفعوا الثمن غالياً من مهج الرجال وأرواح الأبطال الذين استشهدوا فى الموقعة . ولئن لم تحُص كتب السيرة كل القتلى فقد ذكرت أنّ قبيلتين من المسلمين فَنِيتا أو كادتا ، وأن النبى صلّى لأرواحهم كى يدخلهم الله الجنة ؛ لكنه كان النصر على كل حال ، النصر التام تغلّب فيه المسلمون على خصومهم ، وغنموا منهم وأسروا ما لم يغنموا ولم يأسروا من قبل . والنصر هو كل شىء فى النضال أيًّا كان الثمن الذى يُدفع فيه ما دام نصراً شريفاً . لذلك اغتبط المسلمون بما جزاهم الله وظلوا يرتقبون قسمة الفىء والعود بالغنيمة .

لكن محمداً كان يريده نصراً أكثر روعةً وأعظم جلالا . وإذ كان مالك بن عوف هو الذى قاد هذه المجموعة ثم احتمى بعد هزيمتها مع ثقيف بالطائف ، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيّقوا عليها الحصار . وتلك كانت خُطّة محمد فى خَيْبَر بعد أُحُد ، وفى قُرَيظة بعد الخندق . ولعله اذكر فى موقفه هذا ، يوم ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الاسلام فسخروا منه وقذفه صبيانهم بالأحجار ، حتى اضطُرّ إلى الاحتماء من أذاهم بحائط فيه كَرْم . ولعله اذكر كيف ذهب يومئذ منفرداً ضعيفاً ، لا حول له ولا قوّة إلا حول الله وقوته ، وإلا هذا الايمان العظيم الذى ملأ صدره ويدكّ الجبال ، وها هو ذا الآن يذهب الى الطائف فى جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب فى ماضى تاريخها جمعاً مثله .

حصار الطائف

أمر محمد أصحابه اذاً أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا ثقيفاً وعلى رأسها مالك بن عوف بها . وكانت الطائف مدينة محصّنة لها أبواب تُغلق عليها كأكثر مدن العرب فى ذلك العصر . وكان أهلها ذوى دراية فى حرب

الحصار وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون . وقد سار المسلمون اليها ، فمرّوا فى مسيرتهم بلِيَّةَ حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدَموه ، كما خرّبوا أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف . وبلغ المسلمون الطائف ، فأمر النبيّ عسكره فنزل على مقربة منها وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون . لكن ثقيفاً مالبثت أن رأتهم من أعلى حصونها حتى نالتهم بالنَّبل وقتلت جماعة منهم . ولم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجئوا إلى وسائل غير التى ألِفوا حتى اليوم حين حاصروا قُرَيظة وخيبر . أتُراهم إن هم اكتفوا بالحصار يَصِلون إلى تجويع ثقيف تجويعاً يحملها على التسليم ؟ ! وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها ؟ ! هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت : فلينسحب العسكر إذاً بعيداً عن مرمى النبل لكى لا يصيبه فيُقتَل رجال من المسلمين ، ثم ليفكر محمد فيما عسى أن يصنع . وأمر عليه السلام فنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبل فى مكان أُقيم به مسجد الطائف بعد أن سلّمت الطائف وأسلمت . ولم يكن من ذلك بُد وقد قتلت نبال ثقيف ثمـانية عشر من المسلمين ، وجُرح كثيرون ، بينهم أحد أبناء أبى بكر . وفى جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضُربت خيمتان من جلد أحمر لزوجتى النبى أمّ سَلَمة وزينب ، وكانتا تسيران معه فى كل هذه الوقائع منذ ترك المدينة . وبين هاتين الخيمتين كان محمد يقيم الصلاة . ولعل مسجد الطائف إنما أُقيم فى هذا المكان .

مسجد الطائف

وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدوّهم . قال أحد الأعراب للنبى : إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جُحره ، لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث ، فان تركته لم يلحقك منه ضرّ . لكنما شق على محمد أن يعود أدراجه من غير أن يصيب من ثقيف شيئاً . وكان لبنى دَوْس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالمَنْجَنِيق وبمهاجمة الحصون فى حماية الدبّابات ،

وكان أحد رؤسائها الطُّفَيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر وكان معه عند حصار الطائف ، فأوفده النبيّ إلى قومه يستنصرهم ؛ فجاء بطائفة منهم ، ومعهم أدواتهم . بلغت الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها . ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا اليها بالدّبابات دخل تحتها نفر منهم ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه . لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار . فقد أحمت قطعاً من الحديد بالنار ، حتى اذا انصهر ألقته على الدّبابات فحرّقها ففرّ جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا ؛ فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة منهم . لم يُفلح هذا المجهود إذاً أيضاً ولم يستطع المسلمون التغلب على مناعة هذه الحصون .

رمى الطائف بالمنجنيق

ماذا عساهم إذاً يصنعون ؟ فكرّ محمد فى هذا وفكر طويلا . ولكن ! ألم ينتصر على بنى النَّضير ويُجليها عن ديارها باحراق نخيلها ؟! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بنى النضير ، فهى كروم لها من ذيوع الاسم فى بلاد العرب جميعاً ماتباهى به الطائفُ أخصب بلاد العرب ، وما جعل الطائف واحةً كأنها الجنة وسط هذه الصحارى . وأمر محمد فبدأ المسلمون ينفّذون ، يقطعون ويحرِّقون الكروم التى ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذيوع صوت . ورأى الثقفيّون هذا وأيقنوا أن محمداً جادٌّ فيه ، فبعثوا اليه أن يأخذه لنفسه إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة . فاستمهل محمد رجاله ، ثم نادى فى ثقيف : إنه مُعتق من جاء اليه من الطائف . ففرّ اليه قرابة عشرين من أهلها عرّف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفى أمداً طويلا . هنالك رأى أن الحصار سيطول أمدُه ، وأن جيوشه تودّ الرجوع لاقتسام الفىء الذى كسبوا . وأنه إن أصرّ على البقاء فقد ينفَد صبرهم . لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه . وكان ذوالقعدة قد استهلّ ، فرجع بجيشه معتمراً وذكر أنه متجهِّز الى الطائف اذا انتهت الأشهر الحرم .

قطع الكروم وتحريقها

وفد هوازن يستردون السبايا

وانصرف محمد والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتى نزلوا الجِعْرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم . هنالك نزلوا يقتسمون . وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزّع ما بقى على أصحابه . وإنهم بالجعرانة إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يرد عليهم محمد أموالهم ونساءهم وأبناءهم بعد أن طال عنهم غيابهم وبعد أن ذاقوا مرارة ما حلّ بهم . ولقى الوفد محمداً وخاطبه أحدهم قائلا : يارسول الله ، إنما فى الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كنّ يَكْفُلْنك . ولو أنا مَلَحْنا للحارث بن أبى شِمْر أو للنعمان بن المُنْذِر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا . وأنت خير المكفولين . ولم يخطىء هؤلاء فى تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم . فقد كانت بين السبايا امرأة تخطّت الكهولة عنُف عليها الجند المسلمون فقالت لهم : تَعَلّموا ، والله إنى لأخت صاحبكم من الرّضاعة ، فلم يصدّقوها وجاءوا بها محمداً فعَرفها الشّيمَاء بنت الحارث بن عبد العزّى ، وأدناها منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وخيّرها إن أحبّتْ أبقاها وإن أحبّت مَتّعها ورَجَعها إلى قومها ؛ فاختارت الرجوع الى قومها .

طبيعىٌ ، وتلك صلة محمد بهؤلاء الرجال من هوازن الذين أقبلوا عليه مسلمين ، أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم . فقد كان ذلك أبداً شأنه مع كل من أسدَى اليه يوماً من الدهر يداً . كان عرفان الجميل بعضَ شأنه ، والبرُّ بكليم القلب فى جِبلّته . فلما سمع مقالتهم سألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله ، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا . فقال عليه السلام : « أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وإذا ما أنا صلّيت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » . ونفذت هوازن قول النبى ، فأجابهم : أمّا

ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم. قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله. وكذلك قال الأنصار. أمّا الاقرَع بن حابس عن تميم وعُيَيْنة ابن حصن فرفضا ورفض العباس بن مِرْداس عن بنى سُلَيم؛ لكن بنى سُلَيم لم يُقِرّوا العباس على رفضه. هنالك قال النبى: أما من تمسك منكم بحقه من هذا السّبْى فله بكل إنسان ستّ فرائض من أوّل سبى أصيبه. وكذلك رُدّت نساء هوازن وأبناؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها.

زد سبايا هوازن

وسأل محمد وفد هوازن عن مالك بن عَوْف النصرىّ. فلما علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف طلب إليهم أن يبلّغوه: أنه إن أتاه مسلماً ردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الابل. ولم يبطىء مالك حين علم بوعد الرسول أن أسرج فرسه فى سِرٍّ من ثقيف وأن نجا بها حتى لحق بالرسول، فأعلن إسلامه فأخذ أهله وماله ومائة من الابل. وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من الفىء، فألحّوا فى أن يأخذ كل فيأه وتهامسوا بذلك. فلما بلغ الهمس النبىّ وقف إلى جانب بعير فأخذ وَبَرَةً من سَنَامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها وقال: «أيها الناس، والله مالى من فَيْئِكم ولا هذه الوَبَرَة إلا الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم». وطلب إلى كلٍّ أن يردّ ما غنم حتى تكون القسمة العدل، «فمن أخذ شيئاً فى غير عدل ولو كان إبرةً كان على أهله عاراً وناراً وشَناراً إلى يوم القيامة».

مخافة الناس نقص الفىء

قال محمد هذه العبارة مغضَباً بعد أن ردّوا اليه رداءه الذى أخذوا وبعد أن صاح بهم: ردّوا إلىّ ردائى أيها الناس، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تِهامة نَعَماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذّاباً. ثم إنه خمس الغنيمة وأعطى من خُمُسه إلى الذين كانوا إلى أيام أشدّ الناس عداوةً له نصيباً على نصيبهم، فأعطى مائة من الابل كلاً من أبى سفيان وابنه معاوية وعليم ابن الحارث بن كَلَدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحُوَيطب

عطاء المؤلفة قلوبهم

ابن عبد العزى وسائر الأشراف ورؤساء العشائر ممن تألّف بعد فتح مكة ؛ وأعطى خمسين من الابل من كانوا دون هؤلاء شأناً ومكانة . وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات . وبدا محمد يومئذ غاية فى السماحة والكرم مما جعل أعداء الأمس تنطلق ألسنتهم بكل الثناء ؛ ولم يدع لأحد من هؤلاء المؤلّفة قلوبهم حاجةً إلا قضاها . أعطى عباس بن مرداس عدداً من الابل لم يُرضِه وعاتبه على أن فضّل عليه عُيَيْنة والأقرع وغيرهما . فقال النبى : اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه . فأعطوه حتى رضى ، وكان ذلك قطع لسانه .

الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم

على أن هذا الذى تألّف به النبى قلوب من كانوا إلى أمس أعداءه قد جعل الأنصار يتحدّث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول ، ويقول بعض لبعض : « لقى والله رسول الله قومه » . ورأى سعد بن عُبَادة أن يبلّغ النبىّ مقالة الأنصار ويؤيدهم فيها ؛ فقال له النبى : اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . فجمعهم سعد وأتاهم النبى فدار الحوار الآتى : —

محمد — يامعشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتنى عنكم وجِدَةٌ وجَدْتموها فى أنفسكم ؟ ! ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله ، وعالةً فأغناكم الله . وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار — بلى ! الله ورسوله آمن وأفضل .

محمد — ألاَ تجيبوننى يامعشر الأنصار !

الأنصار — بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

محمد — أمَا والله لو شئتم لقلتم ولصَدَقتم ولصُدّقتم : أتيتنا مكذّباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألّفتُ بها قوماً ليُسْلموا ووَكلتكم إلى إسلامكم ! ألاَ ترضَوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار .

ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار .
اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال النبي هذه العبارات وكله التأثر ، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزّوا به وأعزّوه ، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا : رضينا برسول الله قِسْماً وحظًّا » .

وكذلك أظهر النبي رغبةً عن هذا المال الذى غنم فى حُنَين والذى بلغ مالم يبلغه فىء من قبلُ . أظهر رغبته عنه وجعله وسيلة تُتألّف بها قلوب الذين كانوا إلى أسابيع قليلة مشركين ليروا فى الدّين الجديدسعادة الدنيا والآخرة . وإذا كان محمد قد عنّاه أمر هذا المال فى قسمته حتى لقدكاد المسلمون يتّهمونه ، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلّفة قلوبهم ، فانه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة ما مكّنه من أن يعود بهذه الألوف من العرب وكلهم راضية نفسه مطمئن قلبه مستعدٌ لأن يهب حياته فى سبيل الله .

وخرج الرسول من الجِعْرانة معتمراً إلى مكة . فلما قضى عمرته استخلف عَتّاب بن أُسَيد على أم القرى وخلّف معه مُعَاذ بن جبل ليفقّه الناس فى دينهم ويعلمهم القرآن . وعاد الأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة ليقيم النبى بها ريثما يرزقه الله ابنه ابراهيم ، وليطمئن إلى شىء من سكينة الحياة زمناً ثم يتجهّز إلى غزوة تَبُوك بالشام .

الفصل السادس والعشرون

ابراهيم ونساء النبي

العود إلى المدينة — بانت سعاد — وفاة زينب — مولد ابراهيم — غيرة نساء النبي من مارية — مظاهرة حفصة وعائشة — حديث المغافير — مارية فى دار حفصة — هجر النبى نساءه شهراً حديث عمر مع النبى — سورة التحريم

أثر الفتح فى شبه الجزيرة

عاد محمد إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره فى حُنَيْن وحصاره الطائف، وقد ثبت فى نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قِبَلٌ به فى شبه الجزيرة كلها، وأن لم يبق للسان أن ينطلق بايذائه أو الطعن عليه. وعاد والأنصار والمهاجرون معه وكلهم مغتبط بفتح الله على نبيه بلد المسجد الحرام، وبما هدى أهل مكة إليه من الاسلام، وبما دان له العرب به على اختلاف قبائلهم من الطاعة والاذعان. عادوا جميعاً إلى المدينة ليطمئنوا إلى شيء من سكينة الحياة بعد أن ترك محمد وراءه عَتَّاب بن أَسِيد على أم القرى ومُعَاذ ابن جبل ليفقه الناس فى دينهم وليعلّمهم القرآن. وقد ترك هذا النصر، الذى لم يعرف له فى تاريخ العرب وفى رواياتهم نظير، أثراً بالغاً فى نفوس العرب جميعاً. ترك أثراً فى نفوس العظماء والسادة الذين كانوا لا يتوهمون مجيء يوم يدينون فيه لمحمد بطاعة أو يرتضون دينه لأنفسهم ديناً؛ وفى نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل ما يلقون من عطفهم وتأييدهم، أو مقابل ما يلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها؛ وفى نفوس تلك القبائل البادية التى لم تكن تعدِل بحريتها شيئاً ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء

غير لوائها الخاص أو تموت دون ذلك فى حرب وطعان تفنى خلالها فناء تامًا. وماذا يجدى على الشعراء شعرهم، وعلى السادة سيادتهم، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيتها، أمام هذه القوّة الخارقة للطبيعة، لا تقف قوّة أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها!.

حديث كعب ابن زهير

ولقد بلغ الأثر من نفوس العرب أن كتب بُجَير بن زُهَير إلى أخيه كَعْب بعد مُنصَرَف النبىّ عن الطائف يخبره أن محمداً قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأن من بقى من هؤلاء الشعراء قد هرّبوا فى كل وجه، وينصح اليه أن يطير إلى النبىّ بالمدينة، فانه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض. وإنما قص بجير حقًا؛ فلم يقتل بمكة بأمر محمد خلا أربعة، منهم شاعر آذى النبى هجاؤه، ومنهم اثنان آذيا زينب ابنته حين أرادت باذن زوجها أن تهاجر من مكة لتلحق أباها. وأيقن كعب صدق أخيه وأنه إلا جاء محمداً ظل حياته طريداً مشرّداً. لذلك أسرع إلى المدينة ونزل عند صديق له قديم. فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبىّ وأنشده قصيدته:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

فعفا النبى عنه وحسُن من بعد ذلك إسلامه.

وفود القبائل على النبى

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تُقبل على النبى تقدِّم الطاعة بين يديه. قدِم وفد من طيء وعلى رأسهم سيدهم زيد الخَيْل. فلما انتهوا اليه أحسن استقبالهم، وتحدّث اليه زيد، فقال النبى له: ماذُكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون مايقال فيه إلا زيد الخيل فانه لم يبلُغ كل مافيه. ودعاه زيدَ الخير بديلاً من زيد الخيل. وأسلمت طيّء وزيد على رأسها.

زيد الخيل

وكان عَدِىّ بن حاتم الطائىّ نصرانيًا، وكان من أشد العرب كراهية

لمحمد . فلما رأى أمره وأمر المسلمين فى شبه الجزيرة ، تحمّل فى إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام . وإنما فرّ عدىّ حين أوفد النبى علىّ ابن أبى طالب ليهدم صنم طيّء . وهدم علىّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتم أخت عدىّ التى حُبست فى حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها . ومرّ بها النبى فقامت اليه وقالت : يارسول الله ، هلك الوالد وغاب الرافد ، فامنُنْ علىّ منّ الله عليك . وأعرض عنها النبىّ حين علم أن رافدها عدىّ بن حاتم الفارّ من الله ورسوله . لكنها راجعته ، وذكر هو ماكان لأبيها فى الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب ، فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة وأعطاها نفقتها وحملها مع أوّل ركب قاصد إلى الشام . فلما لقيت هناك أخاها وذكرت له ما أكرمها به محمد ، عاد اليه فألقى بنفسه إلى صفوف المسلمين .

وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تَفِد إلى محمد بعد فتح مكة وبعد انتصار حنين وحصاره الطائف ، تدين له بالرسالة وبالاسلام ، وهو فى مُقامه ذاك بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شىء من سكينة الحياة .

موت زينب ابنة النبى

لكن سكينة حياته لم تكن يومئذ صفواً . فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضة مرضاً خشى منه عليها . وهى منذ آذاها الحُوَيرث وهبّار حين خروجها من مكة أذًى أفزعها فأجهضها ، قد ظلّت مهدّمة العافية . وانتهى المرض بوفاتها . وبموتها لم يبق لمحمد من عقبه إلا فاطمة ، بعد أن ماتت أم كلثوم كما ماتت رقية قبل زينب . وحزن محمد لفقدها وذكر لها رقة شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبى العاصى بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره ببدر ، وتفتديه برغم إسلامها وشركه ، وبرغم محاربته أباها حرباً لو انتصرت قريش فيها لما أبقت لمحمد على حياة . ذكر محمد رقة شمائلها وجميل وفائها وذكر مالاقت من ألم المرض طَوال أيامها منذ عادت من مكة إلى حين وفاتها . وكان محمد يشارك كل ذى ألم ألمه ، وكل ذى مُصاب مصابه . وكان

يذهب إلى أطراف المدينة وإلى ضواحيها يعود المريض ويواسى البائس ويأسو جراح الكليم. فاذا أصابه المقدار فى ابنته بعد ماأصابه من قبلُ فى أختيها وكما أصابه ماقبل رسالته فى إخوتها، فلا جرم أن يحزن ويشتد به جوى الحزن، وإن وجد من برّ الله ورفقه به مايعزّيه كيما يسلو.

مولد إبراهيم

ولم يطل انتظاره التأساء؛ فقد رزقه الله من مارية القبطية غلاماً دعاه إبراهيم تيمُّناً باسم إبراهيم جدّ الأنبياء، الحنيف المسلم. وكانت مارية إلى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس الى النبى فى مرتبة السرارى، فلم يكن لها من أجل ذلك منزلٌ إلى جوار المسجد كما كان لأزواج النبى أمّهات المؤمنين؛ بل أنزلها محمد بالعالية من ضواحى المدينة فى المحل الذى يقال له اليوم مَشْرَبة أم إبراهيم بمنزل تحيط به كروم، كان يختلف اليها فيه كما يزورالرجل مِلك يمينه. وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس اليه مع أختها سيرين وجعل سيرين لحسان ابن ثابت. ولم يكن محمد يرجو أن يُعقب بعد أن ظل أزواجه جميعاً من بعد وفاة خديجة، ومنهن الفتاة الفتية ومنهن النّصف التى أعقبت من قبلُ، لم تبشر إحداهن بخصب عشرة أعوام متتابعة. فلما حملت مارية ثم ولدت إبراهيم وقد تخطّى هو إلى الستين فاضت بالمسرّة نفسه وامتلأ هذا القلب الانسانى الكبير أُنساً وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد فى عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قربا.

غيرة أزواج النبى

كان طبيعيًّا أن يدسّ ذلك إلى نفوس سائر أزواجه غيرةً تزايدت أضعافاً بأنها أم إبراهيم وبأنهن جميعاً لاولد لهن. ولم تكن نظرة النبى إلى هذا الطفل إلا تزيد هذه الغيرة كل يوم فى نفوسهن اشتعالا. فهو قد أكرم سلمى زوج أبى رافع قابلة مارية أيما إكرام. وهوقد تصدّق يوم وُلد بوزن شعرة وَرِقاً على كل واحد من المساكين. وهوقد دفعه لتُرضعه أم سيف، وجعل فى حيازتها سبعاً من الماعز ترضعه لبنها. وهو قد كان يمر كل يوم بدار مارية

ليراه ، وليزداد أنساً بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ، ومسرّة بنموّه وجماله .
أي شيء أشد من هذا كله إثارة للغيرة فى نفوس أزواج لم يلدن ؟! وإلى أى حد تدفع الغيرة أولئك الأزواج !!

حمل النبي إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشة وهو فياض بالبشر ، ودعاها لترى مابين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه . فنظرت عائشة الى الطفل وقالت : إنها لا ترى بينهما شبهاً . ولما رأت النبي فرحاً بنموّ الطفل لاحظت فى غضب ، أن كل طفل ينال من اللبن ماناله إبراهيم يكون مثله أو خيراً منه نموًّا . وكذلك كان مولد إبراهيم سبباً أثار من زوجات النبي امتعاضاً لم يقف أثره عند هذه الاجابات الجافة بل تعدّاه الى أكثر منها ، وترك فى تاريخ محمد وفى تاريخ الاسلام من الأثر مانزل به الوحى وقدّسه كتاب الله الكريم .

النبي ونساؤه

وكان طبيعيًّا أن يحدُث هذا الأثر . فقد جعل محمد لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفاً قط عند العرب . قال عمر بن الخطاب فى حديث له : « والله إن كنا فى الجاهلية مانَعُدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقَسَمَ لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . فقلت لها : ومالك أنت ولما هاهنا وما تكلُّفك فى أمر أُريده ! فقالت لى : عَجَباً لك يا بن الخطاب ! ما تريد أن تُرَاجَع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . قال عمر : فآخذ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بنيّة ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أُحَذّرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنيّة لا يغرّنكِ هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إيّاها . ثم خرجتُ حتى أدخل على أم سَلَمة لقرابتى منها فكلمتها

فقالت لى أم سلمة : عجباً لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتنى أخذاً كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها » . ورُوى فى صحيح مُسلِم أن أبا بكر استأذن على النبى ودخل بعد أن أذن له ، ثم استأذن عمر ودخل أيضاً بعد الاذن ، فوجد النبى جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكناً . فقال عمر : « لأقولن شيئاً أضحك النبى صلى الله عليه . ثم قال يارسول الله : لو رأيت بنت خارجة تسألنى النفقة ، فقمت إليها فوجأت عنقها . فضحك رسول الله وقال : هُنَّ حولى يسألننى النفقة . فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده . فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً شيئاً ليس عنده » . رواه مسلم .

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبىّ لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاة؛ فتساءل المسلمون بعدها عما منعه . وفى حديث أبى بكر وعمر مع عائشة وحفصة نزل قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « يـاأيُّهَا النَّبىُّ قُـلْ لِأزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أجْرًا عَظِيمًا » .

نساء النبى يأتمرن به

ثم إن نساء النبى كنّ يأتمرن به . فقد كان إذا صلّى العصر دار على نسائه فيدنو منهن . فدخل على حَفْصة فى رواية وعلى زينب بنت جَحْش فى رواية ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فأحدث ذلك الغيرة فى نفوس سائر نسائه . قالت عائشة : « فتواطأت أنا وحفصة إن أيّتنا ما دخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم فلتقل إنى أجد ريح مَغَافير . أكلت مغافير ؟ (والمغافير شىء حلو له ريح قوية كريهة ، وكان النبى لا يحب الرائحة الكريهة) . فدخل

على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له. وروت سَوْدَة وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشة أن النبي لما دنا منها قالت له: أكلت مغافير؟ قال لا. قالت: فما هذه الريح؟ قال: سقتني حفصة شربة من عسل. قالت: جَرَسَتْ نحله العُرْفط (أى رعت النحل شجر العرفط الذى يثمر المغافير). ودخل على عائشة فقالت له ما قالت سَوْدة. ثم دخل على صفيّة فقالت له مثل قولها، فحرّمه على نفسه. فلما فعل قالت سودة: سبحان الله! والله لقد حرمناه. فنظرت إليها عائشة نظرة ذات مغزى وقالت لها: اسكتى.

طبيعيٌّ وقد جعل النبي لأزواجه هذه المكانة، بعد أن كن كغيرهن من نساء العرب لا رأى لهن، أن يتغالين فى الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبي حتى يظل يومه غضبان. وكم أعرض عنهن، وكم هجر بعضهن، حتى لا يدفعهن رفقه بهن إلى مزيد من غلوِّهن، وألا تخرج باحداهن الغيرة إلى غير لائق بالسّداد. فلما ولدت مارية إبراهيم خرجت الغيرة بأزواج النبي عما أدّبهن به، حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه، ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبي براءتها منه.

ثورة نساء النبي

وحدث أن كانت حفصة يوماً قد ذهبت إلى أبيها فتحدّثت عنده. وجاءت مارية إلى النبيّ وهو فى دار حفصة وأقامت بها زمناً معه. وعادت حفصة فوجدتها فى بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهى أشد ماتكون غيرة، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة. فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبي، قالت له: «لقد رأيت من كان عندك. والله لقد سبيتنى. وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك. وأدرك محمد أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدُّث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه،

فاراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرام إذا هي لم تذكر مما رأت شيئاً.
ووعدته حفصة أن تفعل. لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به،
فأسرّته إلى عائشة. وأومأت هذه إلى النبيّ بما رأى منه أن حفصة لم تَصُنْ سرّه.
ولعل الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبي. ولعلهن جميعاً وقد
رأين ما رفع النبي من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على
النبيّ على أثر قصة مارية هذه، وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها أكثر مما يقع
بين رجل وزوجه، أو رجل وما ملكت يمينه مما هو حِلٌّ له، ومما لا موضع
فيه لهذه الضجة التي أثارت ابنتا أبي بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لنفسيهما
من النبيّ عن ميله لمارية. ولقد رأينا أن شيئاً من الجفوة وقع بين النبي
وأزواجه في ظروف مختلفة بسبب النفقة أو بسبب عسل زينب أو لغير ذلك
من الأسباب التي تدل على أن أزواج النبي كن يَجِدن عليه أن يكون لعائشة
أحب، أو أن يكون لمارية أهوى.

بين بنت جحش وعائشة

وبلغ من أمرهن أن أوفدن اليه يوماً زينب بنة جحش وهو عند
عائشة تصارحه بأنه لا يعدِل بين نسائه وأنه لحبه لعائشة يظلمهن. ألم يجعل
لكل امرأة يوماً وليلة! ثم رأت سَوْدة انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها
فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول. ولم تقف زينب من سفارتها
عند الكلام في ميل النبيّ عن العدل بين نسائه، بل نالت من عائشة وهي
جالسة بما جعل عائشة تتحفّز للرد عليها لولا إشارات من النبي كانت تهدّىء
من حِدّتها. غير أن زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت في النيل من عائشة
حتى لم يبق للنبي بدٌّ من أن يدع لحُمَيْرائه أن تدافع عن نفسها. وتكلمت
عائشة بما أفحم زينب وسرّ النبي ودعاه للاعجاب بابنة أبي بكر.

منازعات أمهات المؤمنين

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في بعض الظروف وبسبب إيثاره
بعضهن بالمحبة على بعض حدًّا همّ النبيّ معه أن يطلق بعضهن لولا أنهن جعلنه في

حلٌّ أن يُؤْثِر من يشاء منهن على من يشاء . فلما ولدت مارية إبراهيم لجّت بهن الغَيْرة أعظم لجاج ، وكانت بعائشة ألجّ . ومدّ لهن في لجاج الغيرة بهن هذا الرّفق الذى كان محمد يعاملهن به ، وهذه المكانة التى رفعهن إليها . ومحمد ليس خليًّا ليشغَل وقته بهذا اللجاج وليدع نفسه لعبث نسائه . فلا بدّ من درس فيه حزم وفيه صَرامة يردّ الأمور بين أزواجه إلى نِصابها ، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه للدعوة إلى رسالته . وليكن هذا الدرس هَجْرَهن والتهديد بفراقهن ، فان ثُبْن إلى رشادهن فذاك ، وإلا متّعهن وسرّحهن سَرَاحاً جميلا .

هجر النبي نساءه

وانقطع النبي عن نسائه شهراً كاملا لا يكلم أحداً فى شأنهن ، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه حديثهن . وفى خلال ذلك الشهر اتّجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الاسلام ولمدّ سلطانه فيما وراء شبه الجزيرة . على أن أبا بكر وعمر وأصهار النبي جميعاً — وما كان أكثرهم ! — كانوا فى قلق أشد القلق على ماقُدِّر مصيراً لأمهات المؤمنين ، وما يتعرّضن له من غضب رسول الله ، وما يجر اليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته . بل لقد قيل : إن النبي طلّق حفصة بنت عمر بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه . وقد سَرَى الهمس بين المسلمين أن النبي مطلّق أزواجه . وأزواجه خلالَ ذلك مضطربات نادمات ، أنْ دفعتهن الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهن ، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما فى الحياة وما وراء الحياة . وجعل محمدٌ يقضى أكثر وقته فى خزانة له ذات مَشْرَبة ، يجلس غلامه رَبَاح على أُسْكُفّتها (أى عتبتها) ما أقام هو بالخزانة ، ويرقى هو اليها على جذع من نخل هو الخشونة كل الخشونة .

وإنه لفى خزانته يوم أوفى الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه على التمام ، وقد أقام المسلمون بالمسجد مُطْرقين ينكتُون الحصى ويقولون : طلّق

عمـــر
يسترضى النبى

رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، ويُبدون لذلك أسًى يبدو على وجوههم واضحاً عميقاً ، إذ قام عمر من بينهم فقصد الى مُقام النبيّ بخزانته ونادى غلامه رباحا كى يستأذن له على رسول الله . ونظر الى رَبَاح يروم الجواب ، فاذا رَبَاح لا يقول شيئاً علامة أن النبى لم يأذَن . فكرر عمر النداء ولم يجب رباح مرةً أخرى . فرفع عمر صوته قائلا : « يا رَبَاح استأذن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربنّ عنقها » . وأذن النبىّ فدخل عمر فجلس ثم أجال بصره فيما حوله وبكى . قال محمد : ما يُبكيك يابن الخطاب ؟ . وكان الذى أبكاه هذا الحصير الذى رأى النبىّ مضطجعاً عليه وقد أثر فى جنبه ، والخزانة لا شىء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من قَرَظ وأفِيق (أى جلد) معلق . فلما ذكر عمر ما يبكيه علّمه محمد من وجوب الاعراض عن الدنيا ماردّ إليه طمأنينته . ثم قال عمر : يارسول الله . ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدّث النبى حتى تحسّر الغضب عن وجهه وحتى ضحك . فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه . فلما ذكر النبى أنه لم يطلّقهن استأذنه فى أن يفضى بالأمر لأولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون . ونزل إلى المسجد فنادى بأعلى صوته : لم يطلّق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه .

وفى هذه القصة نزلت الآيات الكريمة من أول سورة التحريم : « يَأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُم تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُم وَاللهُ مَوْلاكُم وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِىُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ

قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا » . وبذلك انتهى الحادث وثاب إلى نساء النبي رشادهن ورجع هو إليهن تائبات عابدات مؤمنات ، وعادت إلى حياته البيتية السكينة التي يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أداؤه .

حكم النقد التاريخي النزيه

ما قصصت الآن عن هجر محمد نساءه ، وتخييره إياهن ومقدمات هذا الهجر ونتائجه والوقائع التي سبقته وأدت إليه ، هو في رأيي الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث ، رواية يتضافر على تأييدها ما جاء في كتب التفسير وفي كتب الحديث ، وما جاء متفرقاً عن أخبار محمد ونسائه في كتب السيرة المختلفة . بَيْدَ أنه لم تكن واحدة من هذه السير تقص الحوادث أو تضع المقدمات والنتائج بالصورة التي سردنا هنا . وأكثر السير تمر بهذا الحادث مرّا دون أن تقف عنده ؛ وكأنما تجده خشن الملمس فتخشى أن تَقْرَبه . وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير ولا يشير بكلمة إلى مسألة حفصة ومارية. فأما المستشرقون فيجعلون مسألة حفصة ومارية وإفضاء حفصة إلى عائشة بما عاهدت النبي أن تكتمه ، سبب كل الذي وقع ؛ ليحاولوا بذلك أن يضيفوا جديداً لما يلقون في رُوع قرائهم عن النبي العربي من أنه كان رجلا محبًّا للنساء حبًّا معيباً . وعندي أن المؤرخين المسلمين لا عذر لهم في إغفال هذه الوقائع ولها مغزاها الدقيق الذي سقنا شيئاً من أمره ، وأن المستشرقين يتخطون الدقة التاريخية متأثرين في ذلك بهوى المسيحي . فالنقد التاريخي النزيه يأبى كل الإباء على أي إنسان ، بله عظيم كمحمد ، أن يجعل من إفضاء حفصة لعائشة بأنها

وجدت زوجها فى بيتها مع مولاة له هى ملك يمينه وهى بذلك حلٌ له، سبباً لهجر محمد نساءه جميعاً شهراً كاملا، وتهديده إياهن جميعاً بان يطلّقهن. والنقد التاريخى النزيه يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد. فاذا كان الرجل عظيما كمحمد، رفيقاً كمحمد، واسع الصدر طويل الأناة متصفاً بما لمحمد من سائر الصفات التى يُقِرّ له بها مؤرخوه جميعاً على سواء، كان اعتبار أىٍّ من الحادثين لذاته سبباً لهذا الهجر والتهديد بالطلاق مما يَـزْوَرّ عنه النقد التاريخى وينأى عنه بجانبه أشد النأى. وإنما يطمئن هذا النقد ويستقيم منطق التاريخ إذا سِيقت الحوادث المساق الذى لا مفرّ معه من أن تؤدى إلى نتائجها المحتومة، فتصبح بذلك أموراً طبيعية يسيغها العقل ويرضاها العلم. وما فعلنا نحن هو فى نظرنا المساق الطبيعى للحوادث، وهو الذى يتفق مع حكمة محمد وعظمته وحزمه وبعد نظره.

دفع اعتراض المستشرقين

ويتحدّث بعض المستشرقين عما نزل من الآيات فى مستهلّ سورة التحريم مما نقلنا هنا، ويذكر أن كتب الشرق المقدّسة جميعاً لم تشر إلى مثل هذا الحادث المنزلى على هذه الصورة. وما أحسبنا بحاجة إلى أن نذكر ما ورد بالكتب المقدسة جميعاً والقرآن من بينها عن قوم لوط ونقيصتهم وما كان من مجادلتهم الملكين ضيفى لوط، ولا ما ورد فى هذه الكتب عن امرأته وأنها كانت من الغابرين. بل إن التوراة لتقصّ نبأ ابنتى لوط اذ سَقَتا أباهما حتى ثَمِل ليلتين متتاليتين ليقرّب كلٌّ واحدة منهما ليلةً كيما يُخصبها فتلد، مخافة فناء آل لوط بعد إذ أنزل الله بهم من الجزاء ما أنزل. لكن الكتب المقدسة جميعاً جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرةً للناس. وقد تناول القرآن من ذلك الكثير، قصّ الله فيه على رسوله أحسن القصص. والقرآن لم ينزل لمحمد وحده، وإنما نزل للناس كافة. ومحمد نبىٌّ ورسول خلتْ من قبله الرسل الذين قص القرآن أخبارهم. فاذا قص القرآن من أخبار

محمد وتناول من سيرته ليكون للمسلمين مثلا ، وليكون للمسلمين فيه أُسْوَة حسنة ، وأشار إلى حكمته فى تصرُّفاته ، فلا شىء من ذلك يخرج عما أوردت سائر الكتب المقدّسة وما أورد القرآن من سير الأنبياء . فاذا ذكرت أن هجر محمد نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التى رُوِيت فى شأنه ، ولم يكن لأنّ حفصة أفضت إلى عائشة بما فعل محمد مع مارية مما يحِقُّ لكل رجل مع أزواجه وما ملكت يمينه ، رأيت فى هذه الملاحظة التى يبديها بعض المستشرقين ما لا يثبت أمام النقد التاريخى، ولا يتفق مع منطق الحوادث وما جرت به الكتب المقدّسة فى شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم .

الفصل السابع والعشرون

تبوك وموت إبراهيم

الخراج وجبايته — أنباء تهيؤ الروم — نفير محمد فى المسلمين ليتهيئوا للقتال بالشام — الخوالف المنافقون — شدة محمد معهم — الجيش العرم فى لظى الطريق إلى الشام — انسحاب الروم خوفاً من محمد عهده ليوحنا ولأمراء الحدود — العود إلى المدينة — مرض إبراهيم وفاته وبكاء محمد إياه

لم يغيّر هذا الحادث المنزلى وهذا الاضراب والاضطراب بين النبىّ وأزواجه من سير الشؤون العامة شيئاً. وكانت الشؤون العامة بعد فتح مكة وإسلام أهلها قد بدأ يتضاعف خطرها، وقد بدأت العرب جميعاً تحس جلال هذا الخطر. فالبيت الحرام كان بيت العرب المقدس يحجّون اليه منذ أجيال طويلة. وهذا هو البيت الحرام وما يتصل به من سِدانة ورفادة وسِقاية وما يتصل بالحج اليه من مختلف الطقوس قد أصبح فى حكم محمد وفى حكم الدين الجديد. فلا جرَمَ إذاً أن تزداد شؤون المسلمين العامة لفتح مكة، وأن يزداد العرب إحساسا بسلطانهم فى كل ناحية من شبه الجزيرة. وازدياد الشؤون العامة يحتاج بطبعه إلى مزيد فى النفقات العامة. لذلك لم يكن بُدّ من أن يدفع المسلمون زكاة العشر وأن يدفع العرب الذين أصرّوا على جاهليّتهم ما يُفرض عليهم من خراج. قد يُحرجهم ذلك وقد يدعوهم إلى التذمّر وإلى أكثر من التذمر. لكن ما اتصل بالدين الجديد من نظام فى شبه الجزيرة جديد لم يجعل من جمع العُشر والخراج مَخرجاً. ولهذه الغاية أوفد محمد صيارفه بعد قليل من

اقتضاء الزكاة والخراج

عوده من مكة ليجمعوا اليه عُشر إيراد القبائل التى دانت للاسلام من غير أن يتعرّضوا لأصول أموالها . وذهب هؤلاء كلٌ وجهته . فتلقّتهم القبائل بالترحاب ودفعت لهم زكاة العُشر طيّبة بدفعها نفوسهم ، لم يَنِدّ عن ذلك غير فرع من بنى تميم وغير بنى المُصطلِق. فقد كان الصيرف يقتضى قبائل فى جوار بنى تميم زكاة العشر وهم يدفعونها من إبلهم وأموالهم ، فسارعت بنو العَنْبر (فَخِذٌ من بنى تميم) اليه قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها وسيوفها وطردته من أرضها . فلما بلغ الخبر محمداً بعث إليهم عُيَيْنَة بن حِصْن على رأس خمسين فارساً انقضّوا عليهم فى سرٍّ منهم ففرّوا . وأصاب المسلمون الأسرى والسبايا وهم يزيدون على خمسين رجلا وامرأة وطفلا، وعادوا موفورين إلى المدينة ؛ وحبس النبي هؤلاء الأسرى . وكان من بنى تميم جماعة أسلموا وقاتلوا إلى جانب النبي عند فتح مكة وفى حُنَيْن ، وكان منهم من لا يزال على جاهليته . فلما عرفوا ما أصاب أصحابهم من بنى العَنْبر أرسلوا إلى النبيّ وفداً من أشرافهم نزلوا إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبي من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد . وآذى نداؤهم النبيّ ، فما كان ليخرج اليهم لولا أن أُذّن لصلاة الظهر . فلما رأوه ذكروا ما صنع عيينة بأهلهم ، كما ذكروا ما كان لمن أسلم منهم من جهاد إلى جانبه ، وما لقومهم من مكانة بين العرب؛ ثم قالوا له : إنا جئناك نفاخرك فأذَنْ لشاعرنا وخطيبنا . فقام خطيبهم عُطَارد بن حاجب ، فلما فرغ دعا رسول الله ثابت بن قيس ليردّ عليه . ثم قام شاعرهم الزِّبْرِقان ابن بَدْر فقال ، وأجابه حسّان بن ثابت . فلما انتهت المفاخرة قال الأقرع ابن حابس: وأَبِى إن هذا الرجل لمؤتّى له ، لَخطيبُه أخطب من خطيبنا ، ولَشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . وأسلم القوم فاعتق النبى الأسرى وردّهم الى قومهم .

فأما بنو المصطلق فانهم لما رأوا الصيرف فرّ هارباً خافوا عاقبة أمرهم وأوفدوا

إلى النبي من ذكر له أن الخوف فى غير محل له هو الذى أدى إلى ما وقع من سوء التفاهم .

ولم تكن ناحية من نواحى شبه الجزيرة إلا بدأت تحس سلطان محمد . ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان إلا بعث النبي إليها قوة تحملها على الاذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها أو بالاسلام ودفع الزكاة .

تهيؤ الروم للغزو

وفيما عينه على بلاد العرب جميعاً حتى لا ينتقض فيها منتقض وحتى يستتبّ الأمن فى ربوعها من أقصاها إلى أقصاها، إذ اتّصل بمحمد نبأ من بلاد الروم أنها تهيّء جيوشاً لغزو حدود العرب الشمالية غزوًا ينسى الناس انسحاب العرب الماهر فى مؤتة ، وينسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف فى كل ناحية ليتاخم سلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة . واتصل به هذا النبأ مجسّماً أيما تجسيم . فلم يتردد برهةً فى تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه والقضاء عليها قضاء يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرّض لهم . وكان الصيف لما يَنْتَهِ . والقيظ فى أوائل الخريف يصل إلى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف فى هذه الصحارى إرهاقاً وقتلا . ثم إن الشقة من المدينة الى بلاد الشام طويلة شاقة تحتاج إلى الجلد وتحتاج إلى المؤونة وإلى الماء . إذاً لا مفرّ من أن يطالع محمد الناس بعزمه السير إلى الروم وقتالهم حتى يأخذوا لذلك عُدّتهم . ولا مفرّ من أن يخالف محمد بذلك تقاليده فى سابق غزواته حين كان يتوجّه فى كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التى إليها يقصد ، تضليلاً للعدو حتى لا يفشو خبر مسيرته . وأرسل محمد فى القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ كيما تُعِدّ أكبر جيش يمكن إعداده ، وأرسل الى سراة المسلمين ليشاركوا فى تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله ، وليحرّضوا الناس على الانضمام اليه ، حتى يكون من الأهبة بما يدخل الروع فى نفوس الروم الذين عُرفوا بوفرة عُدّتهم وكثرة عديدهم .

دعوة محمد لغزو الروم

بم عسى أن يستقبل المسلمون هذه الدعوة إلى هجر أبنائهم ونسائهم وأموالهم في شدة القيظ ليقطعوا فيافى وصحارى مجدبة قليلة الماء، ثم ليلقوا عدوًّا غلب الفُرْس ولم يقهره المسلمون؟! أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول وشديد تعلقهم بدين الله الى الاقبال على دعوته متدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء الصحراء، دافعين أمامهم أموالهم وإبلهم، مدّرعين بسلاحهم، مثيرين أمامهم من النّقع ما إن يكاد يبلغ العدوّ نبؤه حتى يولّى الأدبار لا يلوى على شيء؟ أم تُمْسِكهم مشقّة الطريق وشدة الحرّ ومخافة الجوع والعطش فيتقاعسون ويتراجعون؟ لقد كان فى المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك: كان فيهم أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونوراً، ونفوس غَمَرَها ضياء الايمان فلا تعرف غيره، وكان فيهم من دخل فى دين الله رَغَباً ورهباً: رغباً فى مغانم الحرب بعد أن أصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت أمام غزو المسلمين فتسلّم لهم ثم يؤدّوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون. ورهباً من هذه القوة التى تضطرب أمامها كل قوة ويخشى سلطانها كل ملك. فأما الأولون فأقبلوا لدعوة رسول الله خفافاً مسرعين، ومنهم الفقير الذى لا يجد الدابة يحمل نفسه عليها، ومنهم الغنىّ ماله بين يديه يقدّمه فى سبيل الله راضيةً نفسه طامعاً فى الاستشهاد والانحياز الى جوار الله. وأما الآخرون فتثاقلوا وبدءوا يلتمسون الأعذار وجعلوا يتهامسون فيما بينهم يهزءون بدعوة محمد إياهم لهذا الغزو النائى فى ذلك الجوّ المحرق. هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت فيهم سورة التوبة، فيها أعظم دعوة للجهاد وأشد تخويف من عذاب الله يصيب من تخلّف عن إجابة رسوله.

تلقى المسلمين دعوة الرسول

المنافقون

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا فى الحرّ؛ فنزل قوله تعالى: «وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ. فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». وقال محمد للجدّ بن قيس أحد بنى سَلِمة: يا جدّ، هل لك العامَ

فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقـال : « يارسول الله ، أوَ تأذَنُ لى ولا تَـفْتِنِّى ، فوالله لقـد عرف قومى أنه ما من رجل أشدّ عُجبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نسـاء بنى الأصفر ألا أصبر » . وبنو الأصفر هم الروم . فأعرض عنه رسول الله ، وفيه نزلت هذه الآية : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ ائْذَنْ لِى وَلا تَفْتِنِّى ألا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ » . وانتهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء محمد هذه الفرصة ليزيدوا المنـافقين نفاقاً ، وليحرِّضوا الناس على التخلّف عن القتال . هؤلاء لم يرَ محمد أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم ، ورأى أن يأخذهم أخْذَ عزيزٍ مُقْتَـدِر . بلغه أن ناساً منهم يجتمعون فى بيت سُوَيْـلِم اليهودىّ يثبّطون النـاس ويُلْقُون فى نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال ، فبعث إليهم طَلْحَة بن عُبَيْـدِ الله فى نفر من أصحـابه ، فحرّق عليهم بيت سُوَيْـلِم ففرّ أحـدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم البـاقون النار فأفلتوا ولـكنهم لم يعودوا لمثلها ، ثم كانوا مثلاً لغيرهم فلم يجرؤ أحد بعدهم على مثل فعلهم .

تحصين جيش العسرة

وقد كان لهـذه الشدّة فى أخذ المنافقين ومن معهم أثرها . فقـد أقبل الأغنيـاء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش : أنفق عثمان بن عفّان وحده ألف دينار ، وأنفق كثيرون غيره كلٌّ فى حدود طاقته ، وتقدم كل قادر على نفقة نفسه بعُدّته ونفقته . وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم النبى معه ، فحمل منهم من استطاع ، واعتذر للباقين وقال : لا أجد ما أحملكم عليـه ، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَـزَناً ألاّ يجـدوا ما ينفقون . ولبكائهم هذا أطلق عليهم اسم البكّائين . واجتمع لمحمد فى هذا الجيش ، الذى سُمّى جيش العسرة لشدّة ما لاقى منـذ يوم تكوينه ، ثلاثون ألفاً من المسلمين .

اجتمع الجيش وقام أبو بكر فيه يؤمّ الناس للصلاة فى انتظار عود محمد

من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته. وقد استخلف عليها محمد بن مَسْلَمَة، وخلّف علىّ بن أبى طالب على أهله وأمره بالاقامة فيهم، وأصدر ما رأى أن يصدر من الأوامر، ثم عاد إلى الجيش يتولى قيادته. وكان عبد الله بن أُبَى قد خرج فى جيش من قومه يسير به إلى جانب جيش محمد. لكن النبىّ رأى أن يظل عبد الله وجيشه بالمدينة، لأنه كان ما يزال ضعيف الثقة به وبصحة إيمانه. وأمر فتحرّك الجيش وثار النّقع وصهلت الخيل وارتقت نساء المدينة سقفها يشهدن هذا الجحفل الجرّار يتوجّه مخترقاً الصحراء صوبَ الشام، مستهيناً فى سبيل الله بالحرّ والظمأ والمسغبة، تاركا وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظل والنّعْمة واللذة على إيمانهم وعلى رضا الله عنهم. ولقد حرّك منظر الجيش يتقدّمه عشرة آلاف فارس ومنظر النّسوَة مأخوذات بجلاله وقوّته بعضَ نفوس لم تحرّكها دعوة الرسول فتقاعست ولم تتبعه. رجع أبو خَيْثَمَة بعد أن رأى هذا المنظر فوجد امرأتين له قد رشّت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيّأت له فيه طعاماً، فلما رأى الرجل ماصنعتا قال: رسول الله فى الضحّ والريح والحرّ وابو خَيْثَمَة فى ظل بارد وطعام مهيّأ وامرأة حسناء فى ماله مُقيم؛ هيّئا لى زاداً حتى ألحق به! فهيّأتا له زاده ولحق بالجيش. ولعلّ جماعة من الخوالف قد فعلوا فعل أبى خَيْثَمَة بعد أن رأوا ما فى التقاعس والخوف من شنَار ومذلة.

مسيرة جيش العسرة

وسار الجيش حتى بلغ الحِجْرَ وبها أطلال لمنازل ثمود منقورة فى الصخر. هنالك أمر رسول الله بالنزول فاستقى الناس من بئرها. فلما راحوا قال لهم: لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضئوا منه للصلاة. وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للابل ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ منكم أحد إلا ومعه صاحب له. ذلك أن المكان لم يكن أحد يمر به وكانت تعصف أحياناً عواصف الرمل تطمر الناس والابل. ولقد خرج رجلان على خلاف

النزول بالحجر

أمر الرسول احتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال . فلما أصبح الناس ألفَوا هذه الرمال قد طمّت البئر فلم يبق بها ماء ففزعوا خيفة الظمأ وقدروا لما بقي من طول الطريق . وإنهم لكذلك إذ مرّت بهم سحابة أمطرتهم فارتووا وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع وطار أكثرهم سروراً وأقبل بعضهم على النبيّ يقولون : إنها معجزة . فلم يرض قولهم ، وكان جوابه لهم : إنما هي سحابةٌ مارّة .

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تَبُوك . وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوّته فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجّهت إلى حدودها ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها . فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونمى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبّعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يتحدّى من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك اليها أحد . وكان يُوحَنّا بن رُؤْبة صاحب أيْلَة أحد الأمراء المقيمين على الحدود . ولقد وجه اليه النبي رسالة أن يذعن أو يغزوه ؛ فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدّم الهدايا وتقدم بالطاعة وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جَرْباء وأذْرَح وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله لهم كتب أمن ، هذا نص أحدها وهو ما كتب ليوحنا : « بسم الله الرحمٰن الرحيم . هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنّة بن رؤبة وأهل أيْلَة سُفُنهم وسيّارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حَدَثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيّب لمحمد أخذه من الناس ، وانه لا يحلّ أن يُمْنَعوا ماء يَرِدونه ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر » . وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية ، بعد أن اتفق على أن تَدْفع

انسحاب الروم

معاهدة أهل الحدود

أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينـار فى كل عام .

غزو ابن الوليد دومة

لم يبق محمد بحاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه النـاحية لولا خيفة انتقاض أُكَيْدر بن عبـد الملك الكِنْدى النصرانى أمير دُومَة ومعاونته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته. لذلك بعث اليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وانقلب هو بجيشـه راجعاً إلى المدينـة . وأسرع خالد بالانقضاض على دومة فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعـه أخ له يسمى حسّان يطاردان بقر الوحش . ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حسانا وأخذ أُكيدر أسيراً وهدده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابهـا . وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرّ وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أُكيدر حتى لحق بالنبى فى عاصمته . هنالك عرض محمد الاسلام على أُكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً .

عود المسلمين إلى المدينة

لم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين . فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبـلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شـبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا فى قطعها ما تحمـلوا من الأذى وهاهم أُولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابةَ عشرين يوماً. فهل لهذا قطعوا الصحراء فى شدة القيظ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها ! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينقل من ملأ الايمان قلوبهم نبأهم اليه ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً الى المدينة ومحمد يحفظ النظـام فى صفوفه؛ حتى اذا انتهى

. إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها. لحقه بها ومعه أكيدر ومعه ما حمل من دومة من إبل وشاء وبر ودروع، وعلى أكيدر حلة من ديباج موشّى بالذهب بُهت أهل المدينة لمرآها.

هنالك اضطرب الذين تخلّفوا عن اتباعه اضطراباً ردّ المستهزئين الى صوابهم. جاء المتخلّفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب. وأعرض محمد عما صنعوا تاركا لله حسابهم. لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم واعترفوا بذنبهم. هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومُرارة ابن الربيع وهلال بن أُميّة. وهؤلاء الثلاثة أمر محمد فأعرض المسلمون عنهم خمسين يوماً مايكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة. ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا عنهم ونزل فيهم قوله تعالى فى سورة التوبة: «لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلى النَّبيِّ وَالمُهَاجِرينَ والأَنصَارِ الذينَ اتَّبَعُوهُ فى سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثمّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إِلَيْهِ ثمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

المتخلفون

من يومئذ بدأ محمد يشتد فى معاملة المنافقين شدةً لم يألفوا من قبل. وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه. وهم إذا ازدادوا من بعدُ أضعاف زيادتهم اليوم — وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه بعد أن وعده ربه لينصرنّ دينه وليُعلينّ كلمته — كان المنافقون خطراً عظيماً. ولقد كان له من قبل حين كان الاسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين. أمّا وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعاً وهاهو ذا يشارف الانتقال منها، فكل تهاون مع المنافقين شرٌ تخشى مغبته وخطرٌ ما أسرعَ

الشدة على المنافقين

ما يستشرى اذا لم تجتث جرثومته . بنى جماعة مسجداً بذى أوان (بينه وبين المدينة ساعة من نهار) ، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرّفوا كلام الله عن مواضعه وأن يفرّقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً . وطلبت هذه الجماعة الى النبىّ أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك ؛ فاستمهلهم حتى يعود . فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقة ما قصد اليه من إقامته أمر باحراقه ، فضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا ، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم .

احراق مسجد الضرار

على أن عبد الله لم يعمَّر بعد تبوك غير شهرين مرض إثرهما وتوفى . ولما كان ما بينه وبين النبى منذ نزل المدينة قد جعل محمداً لا يناله إلا بالحسنى ، فانه ما لبث أن دُعِى للصلاة عليه حتى صلّى وقام على قبره إلى أن دفن وفرغ منه . وبوفاته انهار ركن المنافقين وآثر من بقى منهم أن يُخلص لله توبته .

تبوك خاتمة الغزوات

بغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدّمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبى عليه السلام . وكذلك أقام محمد بالمدينة مغتبطاً بما أفاء الله عليه . وفى هذه الأثناء كان ابنه ابراهيم قرّة عينه له ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً . فكان إذا فرغ من استقبال الوفود ومن القيام بأمر المسلمين ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعاً لهم ، اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذى ظل يترعرع وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضوحا يزيد أباه له حبًّا وبه تعلقًا . وخلال هذه الأشهر جميعاً كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التى أهداها النبى إليها . ولم يكن تعلق محمد بابراهيم لغاية فى نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه . فقد كان عليه السلام فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه ؛ بل كان يقول : « نحن معاشر

غبطة النبى بابراهيم

الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة ». إنما هي العاطفة الانسانية في أسمى معانيها ؛ العاطفة الإنسانية التي بلغت من السمو في نفس محمد ما لم تبلغه في نفس أحد غيره ، العاطفة الانسانية التي جعلت العربيّ يرى فيمن يخلفه من الذكران صورة من صور الخلود — هذه العاطفة هي التي جعلت محمداً يخلع على إبراهيم كل هذا الحب ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده . ولقد زاد هذه العاطفة رقة وقوّة في نفسه أنه فقد أولاده القاسم والطاهر والطيّب في طفولتهم وهم مايزالون في حجر أمهم خديجة ، وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجا وأمهات ، فلم تبق له منهن غير فاطمة . هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فرقدوا بعينه تحت الثرى ، تركوا في نفسه قرحة أليم اندملت بمولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاء وأملا . وكان جلاًّ له أن يمتلىء بهذا الأمل غبطة واستبشاراً .

مرض إبراهيم

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التي ذكرنا . فقد مرض إبراهيم بعدها مرضاً خيف منه على حياته ، فنقل إلى نخل بجوار مَشرَبة أم إبراهيم ، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرّضانه . ولم يطل بالطفل المرض . فلما كان في الاحتضار وأُخبر النبي بأمره ، أخذ بيد عبد الرحمن ابن عوف يعتمد عليه لشدة ألمه ، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها ، فوجد إبراهيمَ في حجر أُمه يجود بنفسه ، فأخذه فوضعه في حجره وقلبه يَجِفُ ويده تضطرب ، وقد ملك الحزن عليه فؤاده وبدت صورة الألم على قَسَمات وجهه . وضعه في حجره وقال : « إنا ياإبراهيم لانغنى عنك من الله شيئاً » . ثم وجم وذرفت عيناه ، والغلام يجود بنفسه وأمه وأختها تصيحان فلا ينهاهما رسول الله . فلما استوى إبراهيم جثماناً لاحراك به ولا حياة فيه وانطفأ بموته ذلك الأمل الذى تفتّحت له نفس النبيّ زمناً ، زادت عينا محمد تهتاناً وهو يقول : « ياإبراهيم لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق

موت إبراهيم وحزن النبي

وأن آخرنا سيلحق بأوّلنا ، لحزنّا عليك بأشد من هذا » . وبعد أن وجم هنيهة قال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا مايرضى الربّ ، وإنا ياإبراهيم عليك لمحزونون » .

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن ، وحاول حكماؤهم أن يردّوه عن الامعان فيه ، فذكّروه بما نهى عنه ؛ فقال : « ماعن الحزن نَهيتُ وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء . وإنما ترون بي أثر مافى القلب من محبة ورحمة . ومن لم يُبْدِ الرحمةَ لم يبد غيره عليه الرحمة » . أو كما قال . ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف ، وطلب اليهما أن تهوّنا عليهما قائلا : إنّ له لمرضعاً فى الجنة . ثم إن أم بردة غسلته — أوغسله الفضل بن عباس، فى رواية أخرى — وحُمِل من بيتها على سرير صغير وشيّعه النبيّ وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البَقيع حيث دفن بعد أن صلّى النبي عليه . فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوّى عليه بيده ورشّ الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: إنها لاتضر ولا تنفع ولكنها تُقِرّ عينَ الحيّ . وإن العبد إذا عمل عملاً أحبّ الله أن يتقنه .

ووافق موت ابراهيم كسوف الشمس ؛ فرأى المسلمون فى ذلك معجزة وقالوا : إنها انكسفت لموته . وسمعهم النبى . أترى فَرْط حبه لابراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزّى بسماع مثل هذه الكلمة أو يسكت على الأقل عنها أو يعذر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة ؟ كلا ! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون فى الناس جهالتهم ، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم ، فهو لا يليق بالنزيه الحكيم ، فمابالك بالرسول العظيم ! . لذلك نظر محمد إلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت ابراهيم فخطبهم فقال : « إن الشّمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحَد ولا لحيَاته . فاذا رأيتمْ ذلك فافزَعوا الى ذِكْر الله بالصلاة » . أيَة عظمة أكبر

من ألاّ ينسى الرسول رسالته في أشد المواقف التي تملأ نفسه بالفجيعة والهول!. لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الاجلال والاعظام، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عِرفانهم بصدق رجل لا يرضى في أدق المواقف الا الصدق والحق.

تُرى ماذا كان شعور أزواج النبيّ بفجيعته في إبراهيم وحزنه الشديد عليه؟

أمّا هو فتعزّى بفضل الله وبمتابعته أداء رسالته وبازدياد الاسلام انتشاراً في هذه الوفود التي كانت تماتفتأ تتوارد اليه من كل صوب؛ حتى لقد دعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود، وهي السنة التي حج أبو بكر فيها كذلك بالناس.

الفصل الثامن والعشرون

عام الوفود وحج أبى بكر بالناس

دخول العرب أفواجاً فى دين الله — إسلام عروة بن مسعود الثقفى وقتل أهل الطائف له — أخذ القبائل المجاورة الطريق على ثقيف وفدها إلى النبي وشروطه — إسلام الوفد وإسلام الطائف وهدم صنمها اللات — حج أبى بكر بالناس — لحاق علىّ بن أبى طالب به سورة براءة — أساس الدولة الاسلامية المعنوى الجهاد فى الاسلام وتسويغه

بغزوة تبوك تمّت كلمة ربك فى شبه جزيرة العرب كلها، وأمن محمد من كل عادية عليها. والحق أنه لم يلبث أن عاد بعد هذه الغزوة الى المدينة حتى بدأ من كان مايزال على شركه من أهل شبه الجزيرة يفكر. ولئن كان المسلمون الذين صحبوا محمداً فى مسيره الى الشام، وكابدوا من صنوف المشاقّ واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالا، قد عادوا وفى نفوسهم شيء من السخط أن لم يقاتلوا ولم يغنَموا بسبب انسحاب الروم الى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها، فان هذا الانسحاب قد ترك فى نفس قبائل العرب المحتفظة بكيانها وبدينها أثراً عميقاً، وترك أثراً أعمق فى نفس قبائل الجنوب باليمن وحَضْرَمَوْت وعمّان. أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردّوا منهم الصليب وجاءوا به الى بيت المقدس فى حفل عظيم، وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاورة لها أزماناً طويلة! فاذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جميعاً،

أثر تبوك

فما أجدر هذه البلاد بأن تنضم كلها فى تلك الوحدة التى تستظل بعلم محمد ، علم الاسلام ، لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعاً . وماذا يضر أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون محمداً يُثَبِّت من جاءه معلناً الاسلام والطاعة فى إمارته وعلى قبيلته . فلتكن السنة العاشرة للهجرة إذاً سنة الوفود ، وليدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وليكن لغزوة تبوك ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر مما كان لفتح مكة والانتصار فى حُنين وحصار الطّائف .

ميل العرب الى الاسلام

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطّائف ، التى قاومت النبى أثناء حصارها ماقاومت حتى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها ، هى أوّل من أسرع الى إعلان الطاعة بعد تبوك ، وإن ترددت طويلا فى إعلان هذه الطاعة . فقد كان عُرْوَة بن مَسْعُود أحد سادة ثقيف المقيمين بالطائف غائباً باليمن أثناء غزو النبىّ بلاده بعد موقعة حنين . فلما عاد الى موطنه ورأى النبى انتصر فى تبوك وعاد الى المدينة ، أسرع إليه يُعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه لاعتناق دين الله . ولم يكن عُرْوة ليجهل محمداً وعظم أمره ، وقد كان أحد الذين تفاوضوا وإيّاه عن قريش فى صلح الحديبية . وعرف النبىّ بعد إسلام عُرْوة اعتزامه الذهاب الى قومه يدعوهم الى الدين الذى دخل فيه . وقد كان النبى يعرف من تعصُّب ثقيف لصنمها اللّات ومن نخوتها وشدّتها ماجعله يحذِّر عُروة ويقول له : إنهم قاتلوك . لكن عروة اعتزّ بمكانه من قومه ، فقال : يارسول الله ، أنا أحبُّ اليهم من أبصارهم . وذهب عروة فدعا قومه الى الاسلام ، فتشاوروا فيما بينهم ولم يُبدوا له رأياً . فلما كان الصباح قام هو على عِلّيّة له ينادى الى الصلاة . هنالك صدّقت فِراسة الرسول ، فلم يُطِق قومه صبراً ، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم قاتل . واضطرب من حول عُروة أهله ؛ فقال وهو يسلم الروح : « كرامة أكرمنى الله بها ،

إسلام عروة ابن مسعود

مقتل عروة

وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ». ثم طلب أن يدفن مع هؤلاء الشهداء فدفنه أهله معهم.

ولم يذهب دم عُرْوَة هَدَراً ؛ فقد كانت القبائل التى تحيط بالطّائف قد أسلمت كلها، وقد رأت فى هذا الذى صنعت ثقيف بسيّد من ساداتها إثماً ونكراً . ورأت ثقيف من أثر ذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم سِرب ، ولا يخرج منهم رجل إلا اقتُطع ، وأيقنوا أنهم إن لم يجدوا سبيلا إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فمصيرهم لاريب إلى الفناء . وأتمر القوم فيما بينهم وتحدثوا إلى كبير منهم (عبد ياليل) كى يذهب إلى النبىّ يعرض عليه صلح ثقيف معه. وخشى عبد ياليل أن يُصيبه من قومه ما أصاب عُرْوَة بن مَسْعُود ، فلم يقبل أن يخرج إلى محمد حتى أوفدوا معه خمسة آخرين ، اطمأن إلى أنه إذا خرج معهم ثم عادوا شغل كل رجل منهم رهطه . ولقى المُغيرة بن شُعْبَة القوم حين دنوا من المدينة ، فأسرع يريد أن يخبر النبى خبرهم . ولقيه أبو بكر يشتدُّ فى السير ؛ فلما عرف منه ما جاء فيه طلب إليه أن يدع له هذه البشرى يزفها إلى رسول الله . ودخل أبو بكر فأخبر النبى بقدوم وفد ثقيف عليه.

وفد ثقيف إلى النبى

وكان هذا الوفد ما يزال يعتزُّ بقومه ، وما زال يذكر حصار النبى للطّائف وانصرافه عنها . فبالرغم مما علّمهم المغيرة كيف يحيّون النبى بتحيّة الاسلام لم يرضَوْا حين قابلوه إلا أن يحيّوه بتحية الجاهليّة . ثم إنهم ضربت لهم قُبَّة خاصة فى ناحية من المسجد أقاموا بها يُصِرّون على الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينة إليهم. وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله فى مفاوضاتهم وإيّاه ؛ فكانوا لا يَطْعَمون طعاماً يأتيهم من عند النبى حتى يأكل منه خالد . وقام هذا بالسّفارة ، فأبلغ محمداً أنهم ، مع استعدادهم للاسلام ، يطلبون إليه أن يدع لهم صنمهم اللّات ثلاث سنين

طلب الوفد بقاء صنمهم ورفض النبى ذلك

لا يهدمها وأن يُعفيهم من الصلاة . وأبى محمد عليهم ما طلبوا من ذلك أشد إباء . ومع أنهم نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين ثم أن يدعها سنة ثم أن يدعها شهراً واحداً بعد انصرافهم إلى قومهم ، فقد كان إباؤه فى ذلك حاسماً لا تردُّدَ فيه ولا هوادة . وكيف تريد بنيٍّ يدعو إلى دين الله الواحد القهّار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية أن يتهاون فى أمر صنم منها وإن كان لقومه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف . فالانسان إمّا أن يؤمن وإمّا ألا يؤمن ، وليس بين الطرفين إلا الارتياب والشك . والشك والايمان لا يجتمعان فى قلب كما لا يجتمع الايمان والكفر . وبقاء اللات طاغية ثقيف علماً على أنهم ما يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جلّ شأنه إشراك بالله ، والله لا يغفر أن يُشْرَك به .

طلبهم الاعفاء من الصلاة ورفضه

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاة ؛ فرفض محمد قائلا : إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه . ونزل الثقفيون عن بقاء اللّات وقبلوا الاسلام وإقامة الصلاة . لكنهم طلبوا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم . إنهم حديثو عهد بايمان وقومهم ما يزالون فى انتظارهم ليروا ما صنعوا ، فليجنّبهم محمد تحطيم ما كانوا يعبدون وما كان يعبد آباؤهم . ولم ير محمد أن يشتد فى هذه أيضاً . فسيّان أن يكسر الثقفيون الصنم وأن يكسره غيرهم ؛ فهو سيهدم وستقوم فى ثقيف عبادة الله وحده . قال عليه السلام : أمّا كسر أوثانكم بأيديكم فسنُعفيكم منه . وكتب لهم رسول الله ثم أمّرَ عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سنًّا . أمّرَه عليهم رغم حداثة سنّه ؛ لأنه كان أحرصهم على الفقه فى الاسلام وتعلُّم القرآن ، بشهادة أبى بكر والسابقين إلى الاسلام . وأقام القوم مع محمد ما بقى من رمضان وصاموا وإيّاه وهو يبعث لهم بفطورهم وسحورهم . فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى محمدٌ عثمانَ بن أبى العاص قائلا : تجاوَزْ فى الصلاة واقدُر الناس بأضعفهم ، فان فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة .

عاد القوم إلى بلادهم، فوجّه النبي معهم أبا سُفيان بن حرب والمغيرة ابن شُعْبة، وكانت لهما بثقيف مودّة وحرمة، ليقوما بهدم اللات. وقدِم أبو سفيان والمغيرة لهدم الصنم. فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حُسَّراً يبكين، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد الذى كان من اتفاق وفد ثقيف والنبي على هدمه. وأخذ المغيرة مال اللّات وحليها فقضى منه، بأمر الرسول وبالاتفاق مع أبي سفيان، ديناً كان على عُرْوة والأسود. وبهدم اللات وباسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت، وكانت سطوة محمد قد امتدت من بلاد الروم فى الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت فى الجنوب. وكانت هذه البلاد الباقية فى جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلها لتنضم إلى الدين الجديد ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كلّ قوتها. وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفة قاصدة كلها إلى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالاسلام.

هدم اللات

الوفود تترى إلى المدينة

بينما كانت الوفود تترى إلى المدينة كانت الأشهر الحرم يتلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج. ولم يكن النبي عليه السلام قد أدّى الفريضة الى يومئذ على تمامها كما يؤدّيها المسلمون اليوم. أفتراه يخرج فى عامه هذا شكراً لله على مانصره على الروم، وما أدخل الطائف فى حظيرة الاسلام، وما جعل الوفود تجيء اليه من كل فج عميق؟ إن شبه الجزيرة ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله. ما يزال بها الكفار وما يزال بها اليهود والنصارى. والكفار على عهدهم فى الجاهلية ما يزالون يحجّون الى الكعبة فى الأشهر الحرُم. والكفار نَجَس. فليبق اذاً بالمدينة حتى يُتِمّ الله كلمته وحتى يأذَن الله له بالحج الى بيته. وليخرج أبو بكر فى الناس حاجًّا.

حج أبي بكر بالناس

وخرج أبو بكر فى ثلاثمائة مسلم قاصداً الى مكة. لكن العام قد يتلو العام والمشركون ما يزالون يحجون بيت الله الحرام. أليس بينه وبين الناس عهدٌ عامٌّ ألاّ يُصَدّ عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام؟!

أليست بين محمد وبين قبائل من العرب عهود الى آجال مسماة ، فما دامت هذه العهود فسيظل بيت الله يحج إليه من يشرك بالله ومن يعبد غير الله ، وسيظل المسلمون يرون طقوس الجاهلية تؤدّى بأعينهم حول الكعبة وهم بحكم هذه العهود الخاصة وهذا العهد العام لاقِبَل لهم بصد أحد عن حجه وعبادته . ولئن كانت الأوثان التى يعبد العرب قد حُطِّم الكثير منها وحطم منها كل ما كان فى الكعبة أو حولها ، فان هذا الاجتماع فى بيت الله المقدّس اجتماعاً يضم الثائرين على الشرك وعلى الوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية ، تناقض غير مفهوم . ولئن استطاع أحد أن يفهم حج اليهود والنصارى جميعاً الى بيت المقدس ، على أنه أرض الميعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى ، فلن يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين حول بيت تُحَطّم فيه الأصنام وتُعْبَد فيه الأصنام التى حُطِّمت . لذلك كان طبيعيًّا أن يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذى طُهِّر من الشرك ومُسِحت عنه كل معالم الوثنية .

منع المشركين من الحج

وفى هذا نزلت الآيات من سورة براءة . لكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فجٍّ يقضى مناسك حجه . فليكن هذا الاجتماع أوَانَ تبليغهم أمر الله بنقض كل عهد بين الشرك والايمان الا من عَهْدٍ عُقِد لأجَلٍ فانه يبقى إلى أجله .

ولهذه الغاية أوفد النبيّ عليّ بن أبى طالب كى يلحق بأبى بكر ، وكى يخطب الناس حين الحج يوم عرَفة بما أمر الله ورسوله . وحضر عليّ فى أثر أبى بكر والمسلمين الذين برزوا الى الحج معه كى يؤدّى رسالته . فلما رآه أبو بكر قال له : أمير أم مأمور ؟ قال عليّ : بل مأمور . وأخبره بما جاء فيه ، وأن النبى إنما بعثه لينادى فى الناس لأنه من أهل بيته . فلما اجتمع الناس بِمِنًى يؤدّون مناسك الحج وقف عليّ بن أبى طالب وإلى جانبه أبو هريرة ، فنادى عليٌّ فى الناس يتلو قوله تعالى :

« بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا
فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ
مُخْزِى الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ
اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ
تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .
وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ
أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ
عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا
ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ
لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ
وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ

وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قلوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ

يَشاء وَاللهُ غفورٌ رَحيم . يأيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّما المُشْرِكونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا المَسجدَ الحرامَ بعْدَعامِهِمْ هٰذَا وإن خِفْتمْ عَيْلَةً فَسَوفَ يُغْنِيكم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إن شاء إنَّ اللهَ عليمٌ حكيم . قاتلوا الَّذِين لا يُؤمنون باللهِ ولا باليَوْمِ الآخرِ ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولهُ ولا يَدِينونَ دِين الحقِّ من الَّذين أُوتُوا الكتابَ حتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهم صاغِرُونَ . وقالت اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وقالتِ النّصارى المسيحُ ابْنُ اللهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُم بأفْواهِهِمْ يُضاهِئُون قَوْلَ الَّذِين كَفَروا مِنْ قَبْل قاتَلَهم اللهُ أنَّى يُؤفَكُونَ . اتَّخَذوا أَحْبارَهم ورُهْبانَهمْ أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ والمسيحَ بنَ مريَمَ وما أُمِرُوا إلا ليَعْبدُوا إلٰهاً واحدًا لا إلٰه إلا هو سُبْحانَه عمّا يُشْرِكون . يريدون أنْ يُطفِئوا نورَ اللهِ بأفْواهِهِمْ ويَأْبَى اللهُ إلا أنْ يُتمَّ نورَهُ ولَوْ كرِهَ الكافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كلِّهِ ولَوْ كرِهَ المشرِكون . يأيُّها الَّذينَ آمَنوا إنَّ كثِيراً مِنَ الأحْبارِ والرُّهْبانِ لَيأْكُلونَ أمْوالَ النَّاسِ بالباطِلِ ويَصُدُّون عَنْ سبيلِ اللهِ ، والَّذِينَ يكْنِزُونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ ألِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْها في نَارِ جَهَنَّم فَتُكْوَى بِها جِباهُهُمْ وجُنوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هذَا ما كَنَزْتمْ لأنفُسِكم فذُوقوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ . إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا في كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوات والأرْضَ مِنْهَا أرْبَعَة حُرُمٌ ، ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفُسَكم وقاتِلوا المشرِكين كافَّةً كما يُقَاتِلُونَكم كافَّةً واعلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقين . »

وقف عليٌّ في الناس وهم يؤدّون مناسك الحج بمنًى فتلا عليهم هذه الآيات من سورة التوبة نقلناها هنا كاملة لغرض سنبيّنه . فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة ثم صاح بالناس : أيها النـاس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العـام

منع المشركين من الحج

مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته . صاح عليٌّ فى الناس بهذه الأوامر الأربعة ، ثم أجّل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم . ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالبيت عُريان . ومن يومئذ وُضع الأساس الذى تقوم عليه الدولة الاسلامية .

الأساس المعنوى للدولة الناشئة

هذا الأساس هو الذى جعلنا نسجل هنا صدر سورة التوبة كله ، ودعا الحرصُ على أن يدرك العرب جميعاً هذا الأساسَ عليّ بن أبى طالب الى ألاّ يكتفى بقراءة هذه الآيات من براءة يوم الحج ، على ما اتفقت عليه الرواية ، بل جعله يقرؤها على الناس من بعد ذلك فى منازلهم ، على ما جاءت به روايات كثيرة . وإنك إذ تتلو صدر براءة هذا وتُعيد تلاوته بامعان وروية لتشعر حقًا بأنها الأساس المعنوىّ فى أقوى صوره لكل دولة ناشئة تقوم . ونزول « براءة » كلها بعد آخر غزوة من غزوات النبىّ ، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون انضمامهم للدين الجديد ، وبعد أن أصبح الحجاز كله ومعه تهامة ونجد مُنضوياً تحت راية الاسلام ، وبعد أن أعلن كثير من قبائل الجنوب فى شبه الجزيرة الاذعان لمحمد والانضواء لدينه ، يجلو الحكمة التاريخية فى نزول الآيات التى تنتظم أساس الدولة المعنوى فى هذا الظرف . فالدولة لتكون قوية يجب أن تكون لها عقيدة معنوية عامة يؤمن بها أهلوها ويدافعون جميعاً عنها بكل ما أوتوا من عتاد وقوة . وأية عقيدة أعظم من الايمان بالله وحده لا شريك له . وأية عقيدة أكبر سلطاناً على النفس من أن يحس الانسان نفسه تتصل بالوجود فى أسمى مظاهره ، لا سلطان عليه لغير الله ولا رقيب غير الله على ضميره . فاذا وجد الذين يقومون فى وجه هذه العقيدة العامة التى يجب أن تكون أساس الدولة ، فأولئك هم الفاسقون ، وأولئك هم نواة الثورة الأهلية والفتنة الماحقة . وأولئك يجب لذلك ألاّ يكون لهم عهد ، ويجب أن تقاتلهم

الدولة . فان كانوا ثائرين على العقيدة العامة ثورة جامحة وجب قتالهم حتى يُذعنوا . وإن كانت ثورتهم على العقيدة العامة غير جامحة ، كما هو الشأن فى أهل الكتاب ، فيجب أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

النظر إلى المسألة من الجهة التاريخية والجهة الاجتماعية يهدينا إلى هذا التقدير لمغزى الآيات التى تلا القارىء ها هنا من سورة التوبة . وهو يهدى إلى هذا التقدير كل منصف نزيه القصد . لكن الذين أسرفوا فى أحكامهم على الاسلام وعلى رسوله يَدْرُون هذا النظر جانباً ويَعْرِضون لهذه الآيات القوية غاية القوة من سورة التوبة على أنها دعوة إلى التعصّب لا تتفق مع ما ترضاه الحضارة الفاضلة من تسامح ، دعوة إلى قتال المشركين وقتلهم حيث ثقفهم المؤمنون فى غير رفق ولا هوادة ، دعوة إلى إقامة الحكم على أساس البطش والجبروت . هذا كلام تقرؤه فى كثير من كتب المستشرقين . وهو كلام تهوى إليه الأذهان التى لم تنضج عندها ملكة النقد الاجتماعى والتاريخى حتى من أبناء المسلمين . وهو كلام لا يتفق مع الحقيقة التاريخية ولا يتفق مع الحقيقة الاجتماعية فى شىء . وهو لذلك يؤدّى بأصحابه عند تفسيرهم ما أوردنا من سورة التوبة وما جاء من مُشابِهه فى مواضع كثيرة من القرآن تفسيراً يأباه منطق الحوادث فى سيرة الرسول تمام الاباء ، وتأباه حياة النبى العظيم فى تسلسلها من يوم بعث ربه إياه وقيامه بالدعوة إلى دين الحق ، الى يوم اصطفاه الله اليه .

المسرفون في أحكامهم على الاسلام والرسول

ويجمُل بنا لبيان ذلك أن نسال عن الأساس المعنوى للحضارة الحاكمة اليوم ، ثم نقيس به هذا الأساس المعنوى الذى دعا محمد إليه . فالأساس المعنوى للحضارة الحاكمة اليوم هو حرية الرأى حريّة لا حدّ لها ، ولا حدّ للتعبير عنها إلا بالقانون . وحرية الرأى هذه هى لذلك إذاً عقيدة يدافع الناس عنها ويضحّون فى سبيلها ويجاهدون لتحقيقها ويحاربون من أجلها ، ويعتبرون

حرية الرأى والحضارة الجنوبية

ذلك كله آية من آيات المجد التى يُفاخرون بها الأجيال ويتباهون بها على ماسبقهم من العصور . ومن أجل ذلك يقول المستشرقون الذين أشرنا اليهم: إن دعوة الاسلام لمقاتلة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر دعوةٌ إلى التعصُّب تتنافى مع هذه الحرية . وهذه مغالطة مفضوحة إذا عرفتَ أن قيمة الرأى الدعوة له والعمل به . والاسلام لم يدعُ لمناوأة المشركين من أهل الجزيرة إذا هم أذعنوا ولم يَدْعوا إلى شركهم ولم يعملُوا به ويقيموا طقوسه . والحضارة الحاكمة اليوم تحارب الآراء التى تُناقض مواضع العقيدة منها بأشدّ مما كان يحارب المسلمون المشركين ، وتفرض على من يعتبر كتابيًا بالنسبة لهذه الحضارة الحاكمة ماهو شرّ من الجزية ألف مرة .

ولسنا نضرب المثل لذلك بما كان حين محاربة تجارة الرقيق وإن آمن الذين كانوا يقومون بهذه التجارة بأنها لا حُرْمةَ فيها . لا نضرب هذا المثل حتى لا يقال إننا لا نستنكر هذه التجارة ، وإن كان الاسلام لم يدعُ إلى أكثر من محاربة مايستنكر . لكن أوربا اليوم ، أوربا صاحبة الحضارة الحاكمة تؤيِّدها أمريكا وتعزِّزها قوّات الجنوب فى آسيا والشرق الأقصى منها ، قد حاربت البلشفية وهى مستعدّة لمحاربتها أشدّ الحرب . ونحن فى مصر مستعدّون للاشتراك مع الحضارة الحاكمة لمحاربة البلشفية . والبلشفية ليست مع ذلك إلا رأياً فى الاقتصاد يحارب الرأى الذى تدين به الحضارة الحاكمة اليوم . أفتكون دعوة الاسلام لمحاربة المشركين الذين ينقُضون عهد الله من بعد ميثاقه دعوةً وحشية إلى التعصب وضد الحرية ، وتكون الدعوة إلى محاربة البلشفية الهادمة للنظام الاجتماعى فى الحضارة الحاكمة ، دعوةً إلى الحرية فى العقيدة والرأى وإلى احترامها !.

محاربة البلشفية وهى رأى اقتصادى

ثم إن قوماً رأوا فى غير بلد من بلاد أوربا أن التهذيب النفسى يجب أن يتصل به التهذيب الجسمى ، وأن ما تواضع الناس عليه من ستر الجسم كله

محاربة محلات العــرى

أو بعض أعضائه أشد إثارةً للمعانى الجنسية فى النفس وأشد لذلك إفساداً للخُلق من أن يسير الناس وكلهم عريان. وبدأ أصحاب هذا الرأى ينفذونه وأقاموا محلات العرى فى غير مدينة من المدن، وأقاموا أماكن يغشاها من شاء للتدرُّب على هذا التهذيب الجسمى. لكن هذا الرأى لم يلبث أن بدأ ينتشر حتى رأى القائمون بالأمر فى كثير من البلاد أن فى انتشار مظاهره إفساداً للتهذيب الخُلقى يضرّ بالجماعة، فحرموا «محلات العرى»، وحاربوا القائمين بالرأى، ونهوا بالقانون عن إنشاء أماكن هذا التهذيب الجسمى. وما نشك فى أن هذا الرأى لو أنه انتشر فى أمة بأسرها لكان سبباً لاعلان الحرب عليها من أمم أخرى على أنها مَفسَدةٌ للحياة المعنوية فى الانسان، كما أثيرت حروب بسبب الرقيق، وكما تثار حروب أو مايشبهها بسبب تجارة الرقيق الأبيض وبسبب الاتجار بالمخدِّرات. لماذا ذلك كله؟ لأن حرية الرأى على إطلاقها يمكن أن تحتمل مابقيت حبيسة فى حدود القول الذى لا يتصل منه بالجماعة ضرّ أو أذى. فاذا أوشك هذا الرأى أن يثير فى الجماعة الانسانية الفساد فقد وجبت محاربة هذه الثائرات ووجبت محاربة مظاهر الرأى جميعاً، بل وجبت محاربة الرأى نفسه، وإن اختلفت مظاهر هذه الحرب بمقدار مايترتب على هذه المظاهر من فساد فى الجماعة يُخشَى مِنهُ على قوامها الخُلق أو الاجتماعى أو الاقتصادى.

التشريع قمع لحرية الرأى له مايسوغه

هذه هى الحقيقة الاجتماعية المعترف بها والمقررة لدى الحضارة الحاكمة اليوم. ولو أردنا أن نستقصى مظاهر ذلك وآثاره فى مختلف الشعوب لطال بنا البحث، وليس هاهنا موضعه. على أنك تستطيع أن تقول إن كل تشريع يراد به قمع أية حركة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إنما هو حرب للرأى الذى تصدر عنه هذه الحركة. وهذه الحرب تجد مايسوِّغها فى مبلغ مايصيب الجماعة الانسانية من ضرر إذا نُفِّذت الآراء التى تُشَبّ الحرب عليها. فاذا

أردنا أن نقدر دعوة الاسلام إلى مقاتلة الشرك وأهله وحربهم حتى يذعنوا ، وهل هـذه الحرب مسوّغة أو غير مسوّغة ، فيجب أن ننظر فيما تمثله فكرة الشرك هذه وما تدعو إليه . فان اتفقت الكلمة على فادح ضررها بالجماعة الانسانية فى مختلف عصورها كان إعلان الاسلام الحرب عليها له ما يسوّغه ، بل له ما يوجبه .

والشرك الذى كان موجوداً حين قيام محمد عليه السلام بالدعوة الى دين الله الحق لم يكن يمثّل عبادة الأصنام وكفى. ولو أنه كان كذلك لوجبت محاربته ؛ فمن الازدراء للعقل الانسانى وللكرامة الانسانية أن يعبد الانسان حجراً . لكن هذا الشرك كان يمثّل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات ، بل كان يمثل نظاماً اجتماعيًا هو شرّ من الرق وشرّ من البلشفية وشرّ من كل ما يتصور العقل فى هذا القرن العشرين . كان يمثّل وأد البنات وتعدد الزوجات الى غير حد ، حتى ليحل للرجل أن يتزوّج ثلاثين وأربعين ومائة وثلاثمائة امرأة وأكثر من ذلك ، وكان يمثّل الربا فى أفحش ما يستطيع الانسان أن يتصوّر الربا ، وكان يمثل الاباحية الخلقية فى أسفل صورها ، وكانت جماعة الوثنيين العرب شرّ جماعة أُخرجت للناس . نود أن يجيب كل منصف على هذا السؤال : لو أن جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاماً فيه من الطقوس والعادات وأد البنات، وتعدّد الزوجات ، وإباحة الرقّ لسبب أو لغير سبب ، واستغلال الأموال استغلالا فاحشاً ، ثم قامت ثورة على ذلك كله تحاول تحطيمه والقضاء عليه ، أَفَتُتَّهم هذه الثورة بالتعصب وبالعمل ضد حرية الرأى ! وإذا افترضنا أن أمة اطمأنت إلى هـذا النظام الاجتماعى المنحط وأوشكت أن تنتقل منها العدوى الى غيرها من الدول ، فأعلنت عليها هذه الدول حرباً ، أفتكون هذه الحرب مسوّغة أم غير مسوّغة ؟! وهل تكون مسوّغة أكثر من الحرب الكبرى الأخيرة التى أطاحت بملايين أهل هذا

صورة من حياة المشركين

العالم لغير سبب إلا للشره الجشع من جانب دول الاستعمار!. وإذا كان ذلك شأنها فما عسى أن تكون قيمة نقد المستشرقين للآيات التى تلا القارىء من سورة براءة، ولدعوة الاسلام إلى حرب الشرك وأهله ممن يدعون الى إقامة نظام فيه ما ذكرنا، وشرٌ مما ذكرنا!.

الثورة على الشر مسوغة

وإذا كانت هذه هى الحقيقة التاريخية فى شأن هذا النظام الذى كان قائماً فى بلاد العرب يظلّه علم الشرك والوثنية، فهناك أيضاً حقيقة تاريخية أخرى مستمدة من حياة الرسول. فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشرة سنة متتابعة يدعو الناس فيها إلى دين الله بالحجة ويجادلهم بالتى هى أحسن. وهو فيما قام به من غزوات لم يكن معتدياً قط، وإنما كان مدافعاً عن المسلمين دائماً؛ مدافعاً عن حريتهم فى الدعوة إلى دينهم الذى يؤمنون به ويضحون بحياتهم فى سبيله. وهذه الدعوة القوية غاية القوة إلى قتال المشركين على أنهم نَجَسٌ، وأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق، وأنهم لا يَرْعَوْن فى مؤمن إلّا ولا ذمّة، إنما نزلت بعد آخر غزوة غزا النبي: غزوة تبوك. فاذا حلّ الاسلام ببلاد تفشّى فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الهدّام الذى كان قائماً فى شبه الجزيرة حين بعث النبى، فدعا المسلمون أهلها إلى ترك هذا النظام وإلى الأخذ بما أحلّ الله وتحريم ما حرّم فلم يذعنوا، فليس من منصف إلا يقول بالثورة عليهم وبقتالهم حتى تتم كلمة الحق، وحتى يكون الدين كله لله.

ولقد أثمر هذا الذى تلا علىٌّ من براءة وما نادى فى الناس بألاّ يدخل الجنة كافر، وبألا يحج بعد العام مشرك، وبألا يطوف بالبيت عُريان، خيرَ الثمرات، حتى أزال كل تردُّدٍ من نفوس القبائل التى كانت ما تزال متباطئة فى تلبية دعوة الاسلام.

عامر بن الطفيل

وبذلك دخلت فى الاسلام بلاد اليمن ومَهْرَة والبحرين واليمامة، ولم يبق من يناوىء محمداً إلا عدداً قليلا أخذتهم العزة بالاثم وغرّهم بالله الغرور.

مَن هؤلاء عامر بن الطُّفَيل الذى ذهب مع وفد بنى عامر ليستظلّوا براية الاسلام. فلما كانوا عند النبى امتنع عامر ولم يُسلم، وأراد أن يكون للنبى نداً. وأراد النبى أن يُقنعه كيما يسلم، فأصرّ على إبائه فخرج وهو يقول: أما والله لأملأنّها عليك خيلا ورجالا. قال محمد: اللهم اكفِنى عامرَ بن الطُّفَيل!. وانصرف عامر يريد قومه. وإنه لفى بعض الطريق إذ أصابه الطاعون فى عنقه وقضى عليه وهو فى بيت امرأة من بنى سَلُول. قضى عليه وهو يردِّد: يا بنى عامر! أغُدَّةٌ كغدة البعير وموتة فى بيت سَلُولية!. أمّا أرْبَد بن قَيْس فقد أبى أن يسلم وعاد إلى بنى عامر، ولم يطل به المقام بل أحرقته صاعقة حين خرج على جمل له يبيعه. ولم يمنع إباء عامر وأربد قومهم من أن يُسلموا. ومن هؤلاء بل هو شرٌّ منهم مكاناً مُسَيلمة بن حبيب؛ فقد جاء فى وفد بنى حَنيفة من أهل اليمامة، وخلّفه القوم على رحالهم وذهبوا إلى رسول الله فأسلموا وأعطاهم النبى، فذكروا له مسيلمة، فأمر له بمثل ما أمر للقوم، وقال: أمّا إنه ليس بشرِّكم مكاناً، وذلك لحفظه رحال أصحابه. فلما سمع مسيلمة قولهم ادّعى النبوّة وزعم أن الله أشركه مع محمد فى الرسالة، وجعل يسجع لقومه ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحُبْلَى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفَاق وحَشَا. وأحلّ مسيلمة الخمر والزنا ووضع عن قومه الصلاة، وانطلق يدعو الناس إلى تصديقه. فأمّا مَنْ عدا هؤلاء من العرب فأقبلوا يدخلون فى دين الله أفواجاً من أطراف شبه الجزيرة وعلى رأسهم رجال من أعزّ الرجال من أمثال عدِىّ بن حاتم وعمرو بن مَعْدِى كَرِب. وبعث ملوك حِمْيَر رسولا بكتاب منهم إلى النبىّ يعلنون فيه إسلامهم. فأقرّ لهم إسلامهم وكتب إليهم بما لهم وما عليهم فى شرع الله. فلما انتشر الاسلام فى جنوب شبه الجزيرة، بعث محمد من السابقين إلى الاسلام من يفقِّهُهم فى دينهم ويثبّتهم فيه.

أربد بن قيس

أمر مسيلمة

لم نُطِل الوقوف عند وفود العرب إلى النبى كما فعل بعض الأقدمين من

تسمية وفود العرب إلى النبي

كتّاب السيرة ، لتشابه أمرهم فى الانضواء تحت راية الاسلام . ولقد أفرد ابن سعد فى طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول خمسين صفحة كبيرة نكتفى بأن نذكر منها أسماء القبائل والبطون التى أوفدتها . فقد جاءت وفود من : مُزَيْنَة ، وأسَد ، وتميم ، وعَبْس ، وفزَارة ، ومُرّة ، وثعلبة ، ومُحارب ، وسعد بن بكر ، وكِلاب ، ورُؤاس بن كلاب ، وعُقيل بن كعب ، وجَعْدة ، وقُشير بن كعب ، وبنى البَكَّاء ، وكِنانة ، وأشْجَع ، وباهلة ، وسُلَيم ، وهلال ابن عامر ، وعامر بن صَعْصَعَة ، وثقيف . وجاءت وفود ربيعة من : عبد القَيْس ، وبكر بن وائل ، وتَغْلِب ، وحنيفة ، وشَيْبان . وجاء من اليمن وفد من طيّء ، وتُجيب ، وخَوْلان ، وجُعْفِىّ ، وصُدَاء ، ومُراد ، وزُبيد ، وكندة ، والصَّدِف ، وخُشَين وسعد هُذَيم ، وبَلِىّ ، وبَهْراء ، وعُذْرة ، وسلامان ، وجُهينة ، وكلب ، وجَرْم ، والأزْد ، وغَسَّان ، والحارث بن كعب ، وهَمْدان ، وسعد العَشيرة ، وعَنْس ، والداريّين ، والرهاويين حىّ من مَذْحِج ، وغامد ، والنخَع ، وبَجيلة ، وخَثْعم ، والأشعَرين ، وحَضْرموت ، وأزْد عُمان ، وغافق ، وبارق ، ودَوْس ، وثمالة ، والحُدّان ، وأسلَم ، وجُذَام ، ومَهْرة ، وحِمْيَر ، ونَجْران ، وجَيْشان . وكذلك لم يبق فى شبه الجزيرة بطن أو قبيلة حتى أسلم إلا من قدّمنا .

كان ذلك شأن المشركين من أهل شبه الجزيرة . سارعوا إلى اعتناق الاسلام وتركوا عبادة الأوثان ، وتطهرت بلاد العرب جميعاً من الأصنام وعبادتها . وتم ذلك كله بعد تبوك طواعيةً واختياراً ، من غير أن تزهق نفس أو يهرق دم . فماذا صنع اليهود والنصارى مع محمد ، وماذا صنع محمد معهم ؟ .

الفصل التاسع والعشرون

حجة الوداع

محمد وأهل الكتاب — موقفه من النصارى — مجادلته إياهم — وحدة موقف محمد منهم — بعث على بن أبى طالب إلى اليمن — دعوة محمد الناس للحج ومجيئهم إلى المدينة من كل صوب — مسيرتهم فى نحو مائة ألف إلى مكة — مناسك الحج — خطبة محمد

بعد حج أبي بكر بالناس

منذ تلا علىّ بن أبى طالب صدر سورة براءة على الحاجّ من مسلمين ومشركين حين حج أبو بكر بالناس ، ومنذ أذّن فيهم بأمر محمد حين اجتمعوا بمنًى ألا يدخل الجنة كافر ، وألا يحج بعد العام مشرك ، وألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ فهو له إلى مدته ، أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعاً أن لم يبق لهم إلى المُقام على عبادة الأوثان سبيل ، وأنهم إن يفعلوا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله . وقد كان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيرة العرب حيث اليمن وحضرموت ؛ لأن أهل الحجاز وما والاها شمالاً كانوا قد أسلموا واستظلوا براية الدّين الجديد. وكان الأمر فى الجنوب مقتسما بين الشرك والمسيحية . فأما المشركون فأقبلوا ، كما رأيت من قبلُ ، يدخلون فى دين الله أفواجا ويبعثون وفودهم الى المدينة فيلقَوْن من النبى كل حفاوة بهم تزيدهم على الاسلام إقبالا ، وتَرُدُّ أكثرهم إلى إمارته فتجعله أشد على دينه الجديد حرصاً . وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت فيهم مما تلا علىٌّ من سورة التوبة هذه الآيات : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ

تفريق الاسلام بين الوثنية والمسيحية

وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . » إلى قوله تعالى « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

يقف كثيرون من المؤرخين أمام هذه الآيات من سورة التوبة ختام مانزل من القرآن ، يسائلون أنفسهم : هل أمر محمد عليه السلام فى شأن أهل الكتاب بغير ما أمر به من قبل أثناء سنى رسالته ؟ . ويذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب والمشركين فيما يشبه المساواة ؛ وأن محمداً ، وقد ظفر بالوثنية فى شبه الجزيرة بعد أن استعان عليها باليهودية وبالمسيحية ، معلناً خلال أعوام رسالته الأولى أنه إنما جاء مبشراً بدين عيسى وموسى وإبراهيم والرسل الذين خلوا من قبلُ ، قد جعل وجهته إلى اليهود الذين بدءوه العداوة ، فظل بهم حتى أجلاهم عن شبه الجزيرة . وأثناء ذلك كان يتودّد الى النصارى وتنزل عليه الآيات تُشيد بحسن إيمانهم وجميل مودّتهم ، وينزل عليه قوله تعالى من سورة المائدة « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ » . وهاهو ذا الآن يجعل وجهته إلى النصرانية يريد بها ما أراد باليهودية من قبلُ ، فيجعل شأن النصارى كشأن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ؛ وهو يصل إلى ذلك بعد أن أجار النصارى مَن اتبعه من المسلمين حين ذهبوا إلى الحبشة يستظلون بعدل نجاشيها ، وبعد

أن كتب محمد لأهل نجران وغيرهم من النصارى يُقرهم على دينهم وعلى القيام بطقوس عبادتهم . ويذهب أولئك المستشرقون إلى أن هذا التناقض فى خطة محمد هو الذى أدى الى استحكام العداوة بين المسلمين والنصارى من بعدُ، وأنه هو الذي جعل التقريب بين أتباع عيسى وأتباع محمد غير ميسور إن لم يكن فى حكم المستحيل .

والأخذ بظاهر هذه الحجة قد يُغرى الذين يستمعون إليها بالميل إلى أنها تصف جانباً من الحق ، إن لم تُغرِهم بتصديقها. فأمّا تتبّع التاريخ والتدقيق فى ظروف نزول الآيات وأسباب نزولها ، فلا يدع محلا للريب البتة فى وحدة موقف الاسلام ، وموقف محمد ، من الأديان الكتابية منذ بدء رسالته إلى ختامها . فالمسيح ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم . والمسيح ابن مريم عبدالله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا وجعله مباركاً أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حيًّا . ذلك مانزل به القرآن منذ بدء الرسالة إلى ختامها . والله أحدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد؛ ذلك روح الاسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى، وذلك روح الاسلام مادام العالم. ولقد ذهب وفد من نصارى نجران الى النبىّ يجادلونه فى الله ، وفى بنوة عيسى لله من قبل أن تنزل سورة التوبة بزمن طويل، ويسألون محمداً : إن عيسى أمه مريم فمن أبوه ؟. وفى ذلك نزل قوله تعالى من سورة آل عمران : « إنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا

يتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». وفي هذه السورة، سورة آل عمران، يتوجه الحديث حديثاً معجزاً إلى أهل الكتاب يعاتبهم لِمَ يصدّون عن سبيل الله من آمن، ولِمَ يكفرون بآيات الله وهي هي التي جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها إبراهيم، قبل أن تحرّف عن مواضعها وقبل أن يوجهها التأويل بما تهوى أغراض هذه الحياة الدنيا ومتاعها الغرور. وفي كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذي وُجّه به في سورة آل عمران. ففي سورة المائدة يقول تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ». وفي سورة المائدة كذلك يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» إلى آخر هذه الآيات التي نقلنا في تقديم هذا الكتاب. وسورة المائدة هي التي من بين آياتها الآية التي يحتج بها المؤرخون من النصارى، ويتخذونها دليلاً على تطوّر موقف محمد منهم مع ظروفه السياسية؛ إذ يقول تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ».

والآيات التي نزلت في سورة براءة وتحدثت عن أهل الكتاب لم تتحدث عنهم في إيمانهم بالمسيح ابن مريم، وإنما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي أكلهم أموال الناس بالباطل وفي كنزهم الذهب والفضة. والاسلام يرى ذلك

خروجا من أهل الكتاب على دين عيسى ، يجعلهم يُحِلّون ما حرّم الله ويصنعون صَنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله ، على الرغم من ذلك كله ، شفيعاً لهم لا تجوز معه مساواتهم بالوثنيين ، ويكفى معه إن هم أصرّوا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى أن يحلوا ما حرّم الله ، أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

كانت هذه الدعوة التى أذّن علىٌّ بها يوم حج أبو بكر بالناس آية إسلام الناس من أهل الجنوب فى شبه الجزيرة ودخولهم فى دين الله أفواجا .

تتابع الوفود

فقد توالت الوفود تَتْرَى على المدينة كما قدمنا من قبل ، ومن بينها وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب . وكان النبى يُكرم كل وافد عليه ويرد الأمراء مكرمين الى إماراتهم . من ذلك ما سبق لنا ذكره فى الفصل الماضى . ومنه أن الأشعث بن قيس قدم فى وفد كندة فى ثمانين راكبا، دخلوا المسجد على النبى وقد رَجّلوا لِمَمَهم وتكحّلوا ولبسوا جبب الحِبَر بَطّنوها بالحرير . فلما رآهم النبى قال : ألم تُسْلموا ؟ قالوا بلى . قال : فما هذا الحرير فى أعناقكم ! فشقّوه . وقال له الأشعث : يارسول الله ، نحن بنو آكل المُرَار وأنت ابن آكل المرار . فتبسّم النبىّ ونسب ذلك إلى العباس بن عبد المطلب وربيعة ابن الحارث . وقدِم وائل بن حُجْر الكندىّ مع الأشعث وكان أمير بلاد الشاطئ من حضرموت فأسلم ، فأقرّه النبى فى إمارته على أن يجمع العشر من أهل بلاده ليرده إلى جباة الرسول . وكلّف النبى معاوية بن أبى سفيان أن يصحب وائلا إلى بلاده . وأبى وائل أن يردفه أو أن يعطيه نعليه يتقى بهما حَمارّة القيظ مكتفياً بأن يدعه يسير فى ظل بعيره . وقبل معاوية ذلك على مخالفته لما جاء به الاسلام من التسوية بين المسلمين ومن جعل المؤمنين إخوة ، حرصاً على إسلام وائل وقومه .

ولما انتشر الاسلام فى ربوع اليمن ، أوفد النبى معُاذاً إلى أهله يعلّمهم

ويفقّههم وأوصاه قائلا : « يَسِّرْ ولا تُعَسِّر ، وبَشِّرْ ولا تُنفِّرْ ، وإنك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : مامفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . وذهب معاذ ومعه طائفة من المسلمين الأوّلين ومن الجُباة يعلّمون الناس ويقضون بينهم بقضاء الله ورسوله . وبانتشار الاسلام فى ربوع شبه الجزيرة ، من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، انتقلت هذه الأمة العربية التى كانت إلى ما قبل عشرين سنة قبائل متنافرة تشنّ كل واحدة منها الغارة على الأخرى كلما وجدت فى ذلك مغنما ، فأصبحت أمة واحدة يظلّها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتدين كلها بدين واحد هو الاسلام ، وتتجه قلوبها جميعاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وبذلك طهرت من رجس الوثنية واستراحت إلى حكم الواحد القهار . وبذلك هدأت الخصومات بين أهلها ؛ فلم يبق لغزو أو خصومة موضع ، ولم يبق لأحد أن يستلّ سيفه من قِرَابه إلا أن يدافع عن وطنه أو يدفع المعتدى على دين الله .

وحدة العرب فى ظل الاسلام

على أن جماعة من نصارى نجران احتفظوا بدينهم مخالفين فى ذلك الأكثرين من قومهم بنى الحارث الذين أسلموا من قبلُ . إلى هؤلاء وجّه النبى خالد بن الوليد يدعوهم إلى الاسلام كى يسلَموا من مهاجمته . ولم يلبث خالد أن نادى فيهم حتى أسلموا وحتى بعث خالد وفداً منهم إلى المدينة لقيه النبى فيها بالترحيب والمودّة . ثم إن جماعة من أهل اليمن عزّ عليهم أن يخضعوا للواء الاسلام ، أن كان الاسلام قد ظهر بالحجاز ، وأن كانت اليمن هى التى اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزُها الحجاز من قبلُ أبداً . الى هؤلاء أرسل النبى علىّ بن أبى طالب يدعوهم إلى الاسلام ، لكنهم استكبروا أوّل أمرهم وقابلوا دعوة علىّ بمهاجمته ؛ فلم يلبث علىّ أن شتّتهم على الرغم من صغر سنه وأنه لم يكن معه إلا ثلاثمائة فارس . وارتد المنهزمون ينظّمون من جديد صفوفهم ،

إسلام أهل الكتاب

آخر الوفود إلى المدينة

بيد أن عليًا أحاط بهم وأوقع فى صفوفهم الرعب، فلم يجدوا من التسليم بدًا. وسلّموا وأسلموا وحسن إسلامهم، وأنصتوا إلى تعليم مُعَاذ وأصحابه. وكان وفدهم آخر وفد استقبله النبيّ بالمدينة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

تجهز النبى للحج

بينما كان على يتأهّب للعود إلى مكة كان النبى يتجهّز للحج ويأمر الناس بالتجهز له. ذلك أن أشهر السنة استدارت وأقبل ذو القعدة وأوشك أن يولى. ولم يكن النبى قد حج الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدّى الحج الأصغر قبل ذلك مرّتين. وللحج مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوة المسلمين فيها. وما كاد الناس يعرفون ما صحّ عليه عزم النبى ودعوته إيّاهم للحج معه حتى انتشرت الدعوة فى كل ناحية من شبه الجزيرة، وحتى أقبل الناس على المدينة ألوفا ألوفا من كل فجّ وحدَب: من المدائن والبوادى، من الجبال والصحارى، من كل بقعة من هذه البلاد العربية المترامية الأطراف، والتى استنارت كلها بنور الله ونور نبيه الكريم. وحول المدينة ضُرِبت الخيام لمائة ألف أو يزيدون جاءوا تلبية لدعوة نبيهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. جاءوا إخوةً متعارفين تجمع بينهم المودة الصادقة والأخوة الاسلامية، وكانوا إلى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين. وجعلت هذه الألوف المؤلفة تجوس خلال المدينة وكلٌّ باسم الثغر، وضّاح الطلعة، مشرق الجبين، يصف اجتماعهم انتصار الحق وانتشار نور الله انتشاراً ربط بينهم وجعلهم جميعاً كالبنيان المرصوص.

مسيرة المسلمين إلى الحج

وفى الخامسة والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة سار النبى وأخذ نساءه جميعاً معه، كلٌّ فى محفّتها. سار وتبعه هذا الجمع الزاخر، يذكر طائفة من المؤلفين أنه كان تسعين ألفاً، ويذكر آخرون أنه كان أربعة عشر ومائة ألف. ساروا يحدوهم الايمان وتملأ قلوبهم الغبطة الصادقة لسيرهم إلى بيت الله الحرام يؤدّون عنده فريضة الحج الأكبر. فلما بلغوا

ذا الحُلَيفة نزلوا وأقاموا ليلتهم بها. فلما أصبحوا أحرم النبي وأحرم المسلمون معه، فلبس كل منهم إزاره ورداءه وصاروا ينتظمهم جميعاً زيٌّ واحد هو أبسط ما يكون زيًّا، وقد حققوا بذلك المساواة بأسمى معانيها وأبلغها. وتوجّه محمد بكل قلبه الى ربه ونادى ملبياً والمسلمون من ورائه: « لَبَّيْكَ اللهم لبيك. لبيك لا شريكَ لك لبيك. الحمدُ والنعمةُ والشكر لك لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك». وتجاوبت الوديان والصحارى بهذا النداء، تلبّي كلها وتنادي بارئها مؤمنة عابدة. وانطلق الركب بألوفه وعشرات ألوفه يقطع الطريق بين مدينة الرسول ومدينة المسجد الحرام، وهو ينزل عند كل مسجد يؤدّي فيه فرضه، وهو يرفع الصوت بالتلبية طاعةً لله وشكراً لنعمته، وهو ينتظر يوم الحج الأكبر بصبر نافد وقلوب مشوقة وأفئدة كلها إلى بيت الله هوًى ومحبة. وصحارى شبه الجزيرة وجبالها ووديانها وزروعها النضرة فى دَهَش مما تسمع وتتجاوب به أصداؤها مما لم تعرف قط قبل أن يباركها هذا النبي الأميّ عبد الله ورسوله.

الاحرام والتلبية

فلما بلغ القوم سَرِف، وهي محلة فى الطريق بين مكة والمدينة، قال محمد لأصحابه: من لم يكن منكم معه هَدْيٌ فأحَبَّ أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدى فلا.

الاحلال بالعمرة

وبلغ الحجيج مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة، فأسرع النبي والمسلمون من بعده الى الكعبة، فاستلم الحجر الاسود فقبّله، وطاف بالبيت سبعاً هرول فى الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل فى عمرة القضاء. وبعد أن صلّى عند مقام إبراهيم عاد فقبّل الحجر الأسود كرةً أخرى، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا، ثم سعى بين الصفَا والمروة. ثم نادى محمد فى الناس أن لا يبقَ على إحرامه من لا هَدْى معه ينحره. وتردد بعضهم، فغضب النبي لهذا التردد أشد الغضب وقال: ما آمركم به فافعلوه. ودخل قُبّته مغضباً. فسألته عائشة: من أغضبك؟ فقال: ومالى لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا يُتَّبَع!. ودخل

أحد أصحابه ومايزال غضبان، فقال: من أغضبك يارسول الله أدخله الله النار.
فكان جواب الرسول: أوما شعرت أني أمرت الناس بأمرٍ فاذا هم يترددون؟
ولو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقت الهَدْي معي حتى أشتريَه،
ثم أحلّ كما حلّوا. كذلك روى مسلم. فلما بلغ المسلمين غضبُ رسول الله
حلّ الالوف من الناس إحرامهم على أسف منهم، وحلّ نساء النبي وحلّت
ابنته فاطمة مع الناس، ولم يبق على إحرامه إلا من ساق الهَدْي معه.

عود على من اليمن

وبينما المسلمون في حجيجهم أقبل عليٌّ عائداً من غزوته باليمن وقد أحرم
للحج لما علم أن رسول الله حجّ بالناس. ودخل على فاطمة فوجدها قد حلّت
إحرامها؛ فسألها فذكرت له أن النبي أمرهم أن يحلوا بعمرة. فقام فذهب الى النبي
فقص عليه أخبار سفرته باليمن. فلما أتم حديثه، قال له النبي: انطلق فطف
بالبيت وحل كما حلّ أصحابك. قال عليٌّ: يارسول الله، إنني أهللتُ كما أهللت.
قال النبي: ارجع فاحلل كما حل أصحابك. قال عليّ: يارسول الله، إني قلت
حين أحرمت: اللهم إني أُهلُّ بما أهل به نبيّك وعبدك ورسولك محمد. فسأله
النبي: أمعه هدي؟ فلما نفى عليٌّ أشركه محمد في هديه وثبت علي على إحرامه
وأدى مناسك الحج الأكبر.

أداء مناسك الحج

وفي الثامن من ذي الحجة يوم التروية ذهب محمد إلى مِنًى، فأقام بخيامه
فيها وصلّى فروض يومه بها وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج، فصلّى الفجر
وركب ناقته القَصْوَاء[1] حين بزغت الشمس ويمّم بها جبل عرفات والناس
من ورائه. فلما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته، ومنهم
الملبِّي ومنهم المكبّر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء.
وضُربت للنبي قبّة بنَمِرَة (قرية بشرق عرفات) وكان ذلك بعض ما أمر به.
فلما زالت الشمس أمر بناقته القَصْوَاء فرُحِلَتْ ثم سار حتى أتى بطن الوادي

(١) تقدمت «القصواء» غير مرة هكذا «والقصوى» بالقصر، وهو تحريف ورد في كثير من الكتب

من أرض عُرَنَة ، وهناك نادى فى الناس وما يزال على ناقته بصوت جَهْوَرِى كان يردده مع ذلك من بعده ربيعة بن أمية بن خلف . وهو يقف بين عبارة وأخرى قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

خطبة الرسول الجامعة

« أيها الناس ، اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلْقَوْا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

« وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلّغت .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها .

« وإن كل ربا موضوع (أى مهدر) ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون .

« قضى الله أنه لا رِبَا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

« وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . . . .

« أما بعد أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقِرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

« أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنـا عشر شهراً منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

« أما بعد ، أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقا . لكم

عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة . فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح . فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلّغتُ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً أمراً بيناً : كتابَ الله وسنة رسوله .

« أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه . تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنّ أنفسكم .

« اللهم هل بلّغت ؟

كان النبي يقول هذا وربيعة يردده من بعده مَقْطَعاً مقطعاً ويسأل الناس أثناء ذلك ليحتفظ بيقظة أذهانهم . فكان النبي يكلّفه أن يسألهم مثلا : إن رسول الله يقول : هل تدرون أىّ يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول النبي : قل لهم : إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . فلما بلغ خاتمة كلامه وقال : اللهم هل بلّغت ، أجاب الناس من كل صوب نعم . فقال : اللهم اشهد » .

اليوم أكملت لكم دينكم

ولما أتم النبي خطابه نزل عن ناقته القصواء وأقام حتى صلى الظهر والعصر ثم ركبها حتى بلغ الصخرات ؛ هناك تلا عليه السلام على الناس قول الله تعالى : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلَامَ دِينًا » . فلما سمعها أبو بكر بكى أن أحسّ أن النبي وقد تمّت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه .

وترك النبيّ عرفات وقضى ليله بالمزدلفة ، ثم قام فى الصباح فنزل بالمَشْعَر

الحرام ، ثم ذهب إلى مِنًى وألقى فى طريقه اليها الجمرات ؛ حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثاً وستين ناقة ، واحدة عن كل سنة من سنى حياته ، ونحر علىٌّ ما بقى من الهَدْى المائة التى ساق النبى منذ خروجه من المدينة . ثم حلق النبى رأسه وأتم حجّه . أتم هذا الحج ، يسميه البعض حجة الوداع ، وآخرون حجة البلاغ ، وغيرهم حجة الاسلام . وهى فى الحق ذلك كله . فقدكانت حجة الوداع ، رأى فيها محمد مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة . وكانت حجة الاسلام ، أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته . وكانت حجة البلاغ ، أتم النبى فيها بلاغه للناس ما أمره الله بيلاغه . وما محمد إلا نذير .

الفصل الثلاثون

مرض النبي ووفاته

تفكيره فى غزو الروم — جيش أسامة — بدء مرض النبى — ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل حنين — شكواه من وجع رأسه الحمى — أمره أبا بكر أن يصلى بالناس — صحو الموت اختيار الرفيق الأعلى

أثر حجة الوداع

تمتْ حجة الوداع وآن لعشرات الألوف ممن صحبوا النبيّ فيها أن يعودوا إلى ديارهم، فانْجَدَ منهم أهل نجد، وأتهم أهل تهامة، وانحدر إلى الجنوب أهل اليمن وحضرموت وما حاذاها. وسار النبى وأصحابه ميممين المدينة، حتى إذا بلغوها أقاموا بها فى أمن من ناحية شبه الجزيرة كلها، وفى تفكير متصل من جانب محمد فى أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق. إنه أمن من ناحية شبه جزيرة العرب جميعاً بعد ندخل الناس فى دين الله أفواجا، وبعد أن جعلت الوفود تترَى إلى يثرب تُعلن الطاعة وتتفيأ ظلالها تحت لواء الاسلام، وبعد أن انحاز العرب جميعاً اليه فى حجة الوداع. وكيف لا يُخلِص ملوك العرب فى ولائهم للنبى ولدينه ولم يُبْقِ لهم أحد ما أبقاه لهم النبى الأمىّ من سلطان واستقلال ذاتى. أولم يُبْقِ بَذْهان عامل فارس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بَذهان إسلامه وحرص على وحدة العرب وألقى نيرَ المجوس؟ ولم يكن مايقوم به بعضهم فى أنحاء من شبه الجزيرة من حركات تشبه الانتقاض ليستغرق من النبى شيئاً من التفكير أو ليثير فى نفسه شيئاً من المخاوف بعد

أن انبسط سلطان الدين الجديد فى كل الأنحاء، وعنت كل الوجوه للحى القيوم، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار.

مدعو النبوة: طليحة والأسود ومسيلمة

لذلك لم يثر قيام الذين قاموا إذ ذاك يدعون النبوة عناية محمد ولا اهتمامه. صحيح أن بعض القبائل القاصية عن مكة كانت تسرع بعد الذى عرفت عن محمد ونجاح دعوته الى الاستماع لمدعى النبوة من أهل قبيلتهم، وتود لو يكون لها من الحظ ما أوتيت قريش؟ وأن هذه القبائل كانت لبعدها عن مقر الدين الجديد لا تعرف كل أمره. لكن الدعوة الحق الى الله كانت قد تأصلت فى بلاد العرب، فلم تك اليسير حربها؟ وما لاقى محمد فى سبيل هذه الدعوة كان قد انتشر فى الآفاق خبره، ولم يكن مستطاعاً لغير ابن عبد الله احتماله. وكل ادعاء أساسه البهتان لا مفر أن ينكشف سريعاً بهتانه. فكل ادعاء للنبوة لم يكن مقدراً له أى نجاح ذى بال. قام طليحة زعيم بنى أسد وأحد أشاوس العرب فى الحرب ومن ذوى السلطان بنجد، وزعم أنه نبى ورسول، وأيد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظما يقتلهم. لكنه بقى خائفاً من الانتقاض على محمد طوال حياة محمد ولم يعلن الثورة إلا بعد أن قبض الله اليه رسوله. وهزم ابن الوليد طليحة فى ثورته هذه فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه. ولم يكن مسيلمة ولا كان الأسود العنسى خيراً مكاناً من طليحة طيلة حياة النبى. بعث مسيلمة إلى النبى عليه السلام يقول: إنه نبى مثله: «وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون». فلما تلى الخطاب نظر النبى لرسولى مسيلمة وأبدى لها أنه كان يأمر بقتلهما لولا أن الرسل فى أمن، ثم أجاب مسيلمة بأنه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب، «وإن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين. والسلام على من اتبع الهدى». وأما الأسود العنسى، صاحب اليمن بعد موت بذهان، فقد جعل يدعى السحر ويدعو

الناس إليه خفية، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرد عمال محمد على اليمن، وتقدم إلى نَجْران وقتل فيها ابن بَذْهان ووارث عرشه، وبنى بزوجه، ونشر فى تلك الأصقاع سلطانه. ولم يُثر استفحال أمره عناية محمد ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن بعث إلى عماله باليمن كى يحيطوا بالأسود أو يقتلوه. ونجح المسلمون فى تأليب اليمن من جديد على الأسود، وقتلته زوجه انتقاماً منه لقتله زوجها الأول ابن بدهان.

التفكير فى غزو الروم

كان تفكير محمد وكانت عنايته متجهين إذاً إلى الشمال بعد عوده من حجة الوداع، وكان من ناحية الجنوب آمناً مطمئناً. والحق أنه منذ غزوة مؤتة، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالاياب مكتفين بما أبدى خالد ابن الوليد من مهارة فى الانسحاب، كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جلوا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلها. ولهذا جهز الجيش العرم الذى جهز حين بلغه تفكير الروم فى مهاجمة حدود شبه الجزيرة، وسار هو على رأسه حتى بلغ تبوك، فألفى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيبته. لكنه مع هذا ظل يقدر لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحُماة المسيحية وأصحاب الغلب فى ذلك العصر من أهل الأمبراطوريه الرومانية، فيعلنوا الحرب على من أجلوا النصرانية عن نَجْران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب. لذلك لم يَطُل بالمسلمين المُقام بالمدينة بعد عودهم من حجة الوداع بمكة حتى أمر النبيّ بتجهيز جيش عرم إلى الشام، جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر، وأمّر على الجيش أُسامة بن زَيْد بن حارثة.

وكان زَيْد يومئذ حَدَثاً لا يكاد يعدو العشرين من سنّه، فكان لامارته على المتقدمين الأولين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس لولا إيمانها الصادق برسول الله. والنبيّ إنما أراد بتعيين زَيْد أن

يقيمه مقام أبيه الذى استشهد فى موقعة مؤتة ، وأن يجعل له من فخار النّصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد ، وما يبعث إلى جانب ذلك فى نفس الشباب الهمّة والحمية ، ويعوّدهم على الاضطلاع بأعباء أجسم التبعات . وأمر محمد أسامة أن يُوطِىء الخيل تخوم البَلْقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قتل أبوه ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يحرقهم بالنار ، وأن يتمّ ذلك دِراكا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فاذا أتمّ الله له النّصر لم يُطِل بقاءه بينهم وعاد غانماً مظفراً .

توصية النبى أسامة

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجُرْف على مقربة من المدينة يتجهّزون للسفر إلى فلسطين . وإنهم لفى جهازهم إذ حال مرض رسول الله ، ثم اشتداد المرض به ، دون مسيرهم . وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض رسول الله دون مسيرة جيش أمرَ هو بجَهازه وسفره ! . لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أياماً طويلة ليست بالأمر الهينّ . ولم يكن يسهل على المسلمين ، والنبىّ أحب إليهم من أنفسهم ، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ماوراء هذا المرض . ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبلُ أنه شكا مرضاً ذا بال . فهولم يُصَبْ من المرض بأ كثرمن فقد الشهية فى السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذباً : إن اليهود سحروه ، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة فى السنة السابعة من الهجرة . ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتبعها عن المرض . فهذا الزهد فى الطعام ونيل القليل منه ، وهذه البساطة فى الملبس والعيش ، وهذه النظافة التامّة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبها محمد ويحرص عليها ، حتى ليقول : إنه لولا خيفته أن يشقّ على قومه لفرض عليهم السوّاك فى اليوم خمس مرات ، وهذا النشاط الدائم : نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى ، وهذا القصد فى كل شىء ، وفى الملذات قبل كل شىء ، وهذا السموّ عن عبث

مرض رسول الله

لماذا حال المرض دون مسيرة الجيش

الأهواء، وهذه الرفعة النفسية لا تدانيها رفعة ، وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون فى خير صور الحياة وأدق أسرار الكون — هذا كله يجنّب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظه ، فاذا كان سليمَ التكوين قويَّ الخَلْق، كما كان محمد، جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلا . فاذا مرض كان طبيعيًا أن يخاف محبّوه وأصحابه ، وكان طبيعيًا أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتَابعة . فهو منذ بدأ يجهر بدعوته فى مكة منادياً الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم ، قد لقى من العنت ما تنوء به النفوس مما شتّت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة ، وما اضطره للاحتماء بشِعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته . وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقَبَة قد هاجر فى أدقّ الظروف وأشدها تعرُّضاً للخطر ، وهاجر وهو لا يعرف ما قُدِّر له بالمدينة . ولقد كان بها فى الفترة الأولى من مُقامه موضع دسّ اليهود وعبثهم . فلما نصره الله وأذِن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة فى دين الله أفواجاً ، ازداد عمله وتضاعف مجهوده ، وظل الأمر يقتضيه من بذل المجهود ما ينوء بالعصبة أولى القوة . وإن له عليه الصلاة والسلام فى بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان . وأىّ موقف أشد هولاً من موقفه يوم أُحُد حين ولّى المسلمون وسار هو يصعد فى الجبل ورجال قريش يشتدون فى تتبُّعه ويرمونه حتى كسرت رَبَاعيته ! وأىّ موقف أشد هولاً من موقفه يوم حنين حين ارتد المسلمون فى عماية الصبح مولّين الأدبار، حتى قال أبو سفيان: إن البحر وحده هو الذى يردّهم ، ومحمد واقف لا يرتد ولا يتراجع وينادى فى المسلمين: إلىّ أين إلى أين ! إلىّ إلىّ . . . حتى عادوا وحتى انتصروا ! . والرسالة! والوحى ! وهذا المجهود الروحى المضنى فى اتصاله بسر الكون وبالملأ الأعلى ، هذا المجهود الذى رُوِى بسببه عن النبى أنه قال : شيبتنى هود وأخواتها . رأى

أصحاب محمد هذا كله ورأوه يحمل العبء صُلْباً قويًّا لا يعرف المرض اليه طريقاً . فاذا هو مريض بعد ذلك كله ، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم بالجُرْف إلى الشام حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله .

وحادث وقع جعلهم أشدّ خوفاً . فقد أرق محمد ليلةً أوّل مابدأ يشكو وطال أرقه ، وحدّثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام ، أيّام الصيف الرقيقة النسيم ، فيما حول المدينة . وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه أبا مويهبة . أفتدرى أين ذهب؟ ذهب الى بَقِيع الغَرْقَد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة . فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها : « السلام عليكم يأهل المقابر . ليهنِء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن كقطِع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلها ، الآخرة شرٌّ من الأولى . » . حدّث أبو مُوَيْهبة أن النبى قال له أوّل مابلغا بقيع الغرقد : إنى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى . فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب ، أقبل على أبى مويهبة فقال له : ياأبا مويهبة ، إنى قد أُوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة . قال أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال محمد : لا والله ياأبا مويهبة ! لقد اخترت لقاء ربى والجنة ،

خطاب النبى أهل المقابر

تحدّث أبو مويهبة بما رأى وما سمع . لأن النبى بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التى زار فيها البقيع ، فاشتد خوف الناس ولم يتحرك جيش أُسامة . صحيح أن هذا الحديث الذى يُرْوَى عن أبى مويهبة يلقاه بعض المؤرخين بشىء من الشك ، ويذكرون أن مرضَ محمد لم يكن وحده هو الذى حال دون تحرّك الجيش إلى فلسطين ، وأن تذمُّر الكثيرين من تعيين حَدَث كأسامة على رأس جيش يضم جِلة المهاجرين الأوّلين والأنصار كان أكبر من مرض

محمد فى عدم تحرك الجيش أثراً . وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون فى تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارىء فى هذا الفصل . ولئن كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأى رأيهم فى تفاصيل هذا الذى روى أبو مُوَيهبة، فاننا لا نرى مسوّغا لانكار الحادث من أساسه، وإنكار ذهاب النبى إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقة إدراكه اقتراب ساعته، ساعة الدنو من جوار الله . فالعلم لا ينكر فى عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض مظاهر الحياة النفسية (Psychique) ، ودقة الادراك لدنو الأجل يؤتاها الكثيرون ؛ حتى ليستطيع أى إنسان أن يقص مما عرف من وقائع ذلك شيئاً غير قليل . ثم إن هذه الصلة بين الأحياء والموتى وهذه الوحدة بين الماضى والمستقبل وحدة لا يحدّها زمان ولا مكان ، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا نقصُر عن استجلاء صورتها . فاذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم ، فلا محل لانكار هذا الحادث الذى روى أبو مويهبة من أساسه ، ولا محل لهذا الانكار بعد الذى عُرف فى أدوار حياة محمد كلها من قوّة اتصاله النفسى والروحى بعوالم الكون اتصالا يجعله يدرك فى هذا الشأن أضعاف ما يدرك الموهوبون فى هذه الناحية .

صداع عائشة

وأصبح محمد فى الغداة ومرّ بعائشة فوجدها تشكو صُداعاً فى رأسها وتقول وارأساه ! فقال لها وقد بدأ يحس ألم المرض : بل أنا والله ياعائشة وارأساه . لكن شكوه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذى يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عوّد أهله وأزواجه من تلطف ومفاكهة . كررت عائشة الشكوى من صُداعها حين سمعته يشكو؛ فقال لها : وماضرّك لو مُتّ قبلى فقمتُ عليكِ وكفّنتك وصلّيتُ عليكِ ودفنتك !. وأثارت هذه الدُّعابة غيرة الأنوثة فى نفس عائشة كما أثارت عندها حب الحياة والحرص عليها ، فأجابت : « ليكن ذلك حظّ غيرى . والله لكأنى بك لو قد فعلتَ ذلك لقد رجعتَ إلى بيتى

فأعرستَ فيه ببعض نسائك » . وتبسّم النبي وإن لم يمكّنه الألم من متابعة الدعابة. فلما سكن عنه الألم بعض الشيء قام يطوف بأزواجه كما عوّدهن . لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدته؛ حتى إذا كان فى بيت ميمونة لم يُطق مغالبته ورأى نفسه فى حاجة إلى التمريض . هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنهن ، بعد أن رأين حاله ، أن يمرّض فى بيت عائشة . وأذِن له أزواجه فى الانتقال؛ فخرج عاصباً رأسه يعتمد فى مسيرته على علىّ بن أبى طالب وعلى عمه العبّاس وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة .

اشتداد الحمى

وزادت به الحمّى فى الأيام الأولى من مرضه ، حتى لكان يشعر كأن به منها لهباً . لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل الحمّى من أن يمشى إلى المسجد ليصلّى بالناس . وظل كذلك عدّة أيام، لا يزيد على الصلاة ولا يقوَى على محادثة أصحابه أو خطابهم . على أن ذلك لم يمنعه من أن يصل إلى أذنه الهمس بما يقول الناس أنه أمّر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار لغزو الشام.! لذلك وعلى الرغم من أنه كان يزداد وجعه كل يوم شدّةً شعر بضرورة التحدّث إلى الناس حتى يعهد إليهم، فقال لأزواجه وأهله : هَرِيقوا علىّ سبع قِرَب من آبار شتّى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم . وجىء بالماء من آبار مختلفة وأقعده أزواجه فى مخضب لحفصة — والمخضب : الطست — وصَبَبْنَ عليه ماء القِرَب السبع حتى طفق يقول : حَسْبُكُم حسبكم . ولبس ثيابه وعَصَب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمِد الله ثم صلّى على أصحاب أُحُد

خروجه إلى المسجد

واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال : « أيها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ،وإنه لخليق للامارة وإن كان أبوه لخليقاً لها» . وسكت محمد برهةً خيّم الصمت على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث فقال : « إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله » وسكت محمد من جديد والناس

كأنما على رءوسهم الطير . لكن أبا بكر أدرك أن النبيّ إنما يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسه ، فلم يستطع لرقة وجدانه وعظيم صداقته للنبي أن يمسك عن البكاء ، ثم قال : بل نحن نَفْديك بأنفسنا وأبنائنا ! . وخشى محمد أن تمتد عدوَى التأثُّر من أبى بكر إلى الناس ، فاشار اليه قائلا : على رِسْلك يا أبا بكر . ثم أمر أن تُقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا بابَ أبى بكر . فلما أقفلت قال : إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده . ونزل محمد عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة ، لكنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال :

إيصاؤه المهاجرين بالأنصار

« يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فان الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » .

ودخل محمد بيت عائشة . لكن المجهود الذى أنفق يومئذ وهو فى مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شدّة . وأىّ مجهود بالنسبة لمريض تساوره الحمّى يخرج بعد أن تُصَبّ عليه سبع قرب من الماء ، ويخرج تُثقله أكبر الشواغل : جيش أسامة ، ومصير الأنصار من بعده ، ومصير هذه الأمة العربية التى ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها . لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلّى بالناس كما عوّدهم ، فاذا هو لا يقدِر . إذ ذاك

أمره أبا بكر أن يصلى بالناس

قال : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . وكانت عائشة ما تزال تحرص على أن يؤدّى النبى الصلاة لما فى ذلك من مظهر الصحة ، فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن . قال محمد : مُروه فليصلِّ بالناس . فكررت عائشة قولها ؛ فصاح محمد بها والمرض يهزّه : إنكن صواحبُ يوسف ، مروه فليصلِّ بالناس . وصلّى أبو بكر بالناس كأمر النبى . وإنه لغائب يوماً

إذ دعا بلال الى الصلاة ونادى عمر أن يصلّى بالناس مكان أبى بكر، وكان عمر جهير الصوت، فلما كبّر فى المسجد سمعه محمد من بيت عائشة فقال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون. ومن هنا ظن بعضهم أن النبيّ استخلف أبا بكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أوّل مظهر للقيام مقام رسول الله.

وبلغت به شدّة المرض حدًّا آلمه. ذلك أن الحمّى زادت به، حتى لقد كانت عليه قطيفة فاذا وضع أزواجه وعوّاده أيديهم من فوقها شعروا بحر هذه الحمّى المضنية. وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم، وكان يحبها ذلك الحب الذى يمتلىء به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كل عقبه. لذلك كانت اذا دخلت على النبيّ قام إليها وقبّلها وأجلسها فى مجلسه. فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبّلته، فقال: مرحباً بابنتى، ثم أجلسها الى جانبه وأسرّ لها حديثاً فبكت، ثم أسرّ لها حديثاً آخر فضحكت. فسألتها عائشة فى ذلك؛ فقالت: ما كنت لأفشى سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما مات ذكرت أنه أسرّ لها أنه سيُقبَض فى مرضه هذا فبكت، ثم أسرّ أنها أوّل أهله يلحقه فضحكت.

ابنته فاطمة وحديثه لها

وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون الى جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه. وكانت الحمّى تصل به حتى يُغشَى عليه أحياناً ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب؛ حتى قالت فاطمة يوماً وقد حزّ الألم فى نفسها لشدة ألم أبيها: واكَرْبَ أبتاه! فقال: لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم. يريد أنه سينتقل من هذا العالم عالم الأسى والألم.

وحاول أصحابه يوماً تهوين الألم على نفسه، فذكروا له نصائحه ألاّ يشكو المريض. فأجابهم: إن ما به أكثر مما يكون فى مثل هذه الحال برجلين منهم. وفيما هو فى هذه الشدّة وفى البيت رجال قال: هلمّوا أكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً. قال بعض الحاضرين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبُنا كتاب الله. ويذكرون أن عمر هو

هلموا اكتب

الذى قال هذه المقالة . واختلف الحضور ، منهم من يقول : قرّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده ، ومنهم من يأبى ذلك مكتفياً بكتاب الله . فلما رأى محمد خصومتهم قالوا ، قوموا . وما فتىء ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا الى كتابة ما أراد النبيّ إملاءه . أمّا عمر فظل ورأيه ، أن قال الله فى كتابه الكريم : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبى ، حتى هبط أسامة وهبط الناس معه من الجُرْف إلى المدينة . ودخل أسامة على النبى فى بيت عائشة ، فاذا هو قد أصمت فلا يتكلم . فلما بَصُرَ بأسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له .

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسعِفوه بعلاج ، فأعدت أسماء قريبة ميمونة شراباً كانت عرفت أثناء مُقامها بالحبشة كيف تُعِدُّه ، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمّى فصبّوه فى فيه . فلما أفاق قال : من صنع هذا ؟ ولِمَ فعلتموه ؟! . قال عمّه العبّاس : خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب . قال : ذلك داء ما كان الله عزّ وجلّ ليقذفنى به ! . ثم أمر بمن فى الدّار خلا عمّه العبّاس أن يتناولوا هذا الدواء لم تُستثنَ منهم ميمونة رغم صيامها .

غضبه لمعالجة أهله إياه

وكان عند محمد أوّل ما اشتدّ المرض به سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده ، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام فى خدمته واطّراد المرض فى شدّته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها ؟ فأجابت عائشة إنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ووضعها فى كفه ثم قال : « ماظنّ محمد بربه لو لقِيَ الله وعنده هذه » . ثم تصدّق بها جميعاً على فقراء المسلمين .

وقضى محمد ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى ، حتى لكأنّ الدواء الذى سقاه أهله قد فعل فعله وقضى على المرض عنده . وبلغ من ذلك أن

خروجه فى الصباح الى المسجد

استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على علىّ بن أبى طالب والفضل بن العبّاس ، وكان أبو بكر ساعتئذ يصلّى بالناس . فلما رأى المسلمون النبىّ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يُفْتَنُون فرحاً به وتفرجوا، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم . وسرّ محمد بما رأى من ذلك أكبر السرور واغتبط له أعظم الغبطة . وأحسّ أبو بكر بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ، فنكص عن مصلّاه يريد أن يتخلّى لمحمد عن مكانه . فدفعه محمد فى ظهره وقال: صلّ بالناس ، وجلس هو إلى جنب أبى بكر فصلّى قاعداً عن يمينه . فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كانوا خارج المسجد فقال : « أيها الناس : سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقِطَع الليل المظلم . وإنى والله ما تَمَسَّكون علىّ بشىء ، إنى والله لم أُحِلّ إلا ما أحلّ القرآن ولم أُحَرِّمْ إلا ما حرّم القرآن . ولعن الله قوماً اتخذوا قبورهم مساجد » .

غبطة المسلمين لظاهر إبلاله

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من ظاهر التقدم فى صحة النبى حتى أقبل عليه أسامة بن زَيْد يستأذنه فى مسيرة الجيش إلى الشام ، وحتى مَثَل بين يديه أبو بكر قائلا : يانبىّ الله، إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب. واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟ فأذِن النبى له فى ذلك . وانطلق أبو بكر إلى السُّنح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجه . وانصرف عمر وعلىّ لشؤونهما . وتفرّق المسلمون وكلهم سعيد مستبشر ، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لمّا يتصل بهم من أخبار النبى ومرضه واشتداد الحمّى به وإغمائه . وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه ، وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غاية الضعف . وعائشة تنظر إلى هذا الرجل الذى يمتلىء قلبها تقديساً لجلال عظمته ، وقد ملكها الاشفاق عليه لضعفه ومرضه ، فهى تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوّة والحياة .

لكن خروج النبي إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق الموت .

الصحو الذى يسبق الموت

فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفاً ، وكان يرى الموت يدنو ، ولم يبق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا سويعات . ترى ماذا عساه كان يشهد فى هذه السويعات الباقية له على فراق الحياة ؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هادياً ونبيًّا وما لاقى فيها وما أتم الله عليه من نعمته وما شرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق ؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربه متوجهاً اليه بكل روحه على نحو ما كان يفعل كلّ حياته ؟ أم أنه كان يعانى هذه الساعات الأخيرة من آلام النزع مالم يُبق لديه قوة الاستذكار ؟ تختلف الروايات فى ذلك اختلافا كبيراً . وأكثرها على أنه دعا فى هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢) باناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه ، وأن رجلا من آل أبى بكر دخل إلى عائشة وفى يده سواك ، فنظر اليه محمد نظراً دل على أنه يريده فأخذته عائشة من قريبها ومضغته له حتى لانَ وأعطته إياه فاستنّ به . وأنه وقد شقّ عليه النزع توجه إلى الله يدعوه : اللهم أعِنّى على سَكَرات الموت . قالت عائشة وكان رأس النبى فى هذه الساعة فى حجرها : « وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقُل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه فاذا بصره قد شخَص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة . قلت خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحق . وقُبض رسول الله بين سَحْرِى ونَحْرِى ودولتى لم أظلم فيه أحداً . فمن سفهى وحداثة سنى أنه صلى الله عليه وسلم قُبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى » . أمات محمد حقًّا ؟ ذلك ما اختلفت العرب يومئذ فيه اختلافا كاد يثير بينهم الفتنة وما تؤدى الفتنة اليه من حرب أهلية لولا أن أراد الله بهم وبدينه الحق الحنيف خيراً .

بل الرفيق الاعلى من الجنة

الفصل الحادي والثلاثون

دفن الرسول

اختلاف المسلمين هل مات محمد — عمر يخطب الناس بأنه لم يمت. أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات ويتلو عليهم القرآن — اقتناع المسلمين بقول أبي بكر — خوف الخلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين — بيعة السقيفة ثم البيعة العامة لأبي بكر — تجهيز النبي وغسله — مرور الناس به رجالاً فنساء فصبياناً — دفنه حيث قبض إنفاذ جيش أسامة إلى الشام وانتصاره — آخر ماقال الرسول صلى الله عليه وسلم

هول المسلمين لخبر الوفاة

اختار النبي عليه السلام الرفيق الأعلى في بيت عائشة ورأسه في حجرها فوضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم وتضرب وجهها مع النساء اللاتي أسرعن اليها لأول ما بلغهن الخبر. وفوجيء المسلمون بالمسجد بهذه الضجة، لأنهم رأوا النبي في الصباح وكل شيء يدلّ على أنه عُوفي، مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه بنت خارجة بالسُّنح. لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبي وهو لا يصدّق أنه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به،

عمر يكذب الوفاة

فحسبه في غيبوبة لابد أن يفيق منها. وعبثاً حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة؛ فقد ظل مؤمناً بان محمداً لم يمت. فلما ألح المغيرة قال له: كذبت. وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: «إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوُفّي، وأنه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما

ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات . ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى. فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات . » واستمع المسلمون بالمسجد الى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم فى حال أشبه شيء بالذهول . لئن كان محمد قد مات حقًّا فواحرّ قلباه ! ويا لِلهَمّ الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذى بعثه بالهدى ودين الحق ، هَمٌّ يُذهل القلب ويذهب باللُّب. وإن كان محمد قد ذهب الى ربه ، كما يقول عمر، فذلك أدعى للذهول ؛ وانتظارُ أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشد إمعاناً فى العجب . لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الايمان بأن رسول الله لم يمت . وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون الى صوته الجَهْوَرِى والى دعائه واستغفاره ! . وكيف يموت وهو خليل الله الذى اصطفى لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها وبقى أن يدين له كسرى وأن يدين هِرَقْل بالاسلام ! . وكيف يموت وهو هذه القوّة التى هزّت العالم مدى عشرين سنة متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ . لكن النساء هناك مازلن يلتدمن ويضربن وجوههن علامة أنه مات . ولكن عمر هاهنا فى المسجد مايزال ينادى بانه لم يمت وبانه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون ؛ هؤلاء المنافقون الذى سيضرب محمد أيديهم وأعناقهم بعد رجعته . أىّ الأمرين يصدّق المسلمون ؟ لقد أخذهم الفزع أوّل الأمر ، ثم مازالت بهم أقوال عمر تبعث الى نفوسهم الأمل برجعة النبىّ حتى كادوا يصدّقون أمانيهم ويصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها .

مجيء أبى بكر من السنح

وإنهم لكذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السُّنح وقد بلغه الخبر الفادح . وبَصُر بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف طويلاً ولم يلتفت إلى شيء ، بل قصد

إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل فقيل له : لا حاجة لأحد اليوم باذن . فدخل فألفى النبيّ مُسَجًّى فى ناحية من البيت عليه بُرْد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبّله وقال : ماأطْيَبَك حيًّا وما أطيبَك ميتاً ! . ثم إنه أخذ رأس النبيّ بين يديه وحدّق بمعارف وجهه التى بقيت لم يُنكرها عدوان الموت عليها وقال : بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ! . ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردّ البُرْدَ على وجهه وخرج وعمر مايزال يكلم الناس ويُقنعهم بأن محمداً لم يمت . وفسح الناس لأبى بكر طريقاً ! فلما دنا من عمر ناداه : على رِسْلك ياعمر ؛ أنصت ! . لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم . فاقبل أبو بكر على النـاس وأشار اليهم بأنه يكلمهم . ومَنْ كأبى بكر فى هذا الموقف ! . أليس هو الصدّيق صفيّ النبيّ ومَن لو اتّخذ النبيّ خليلاً لاتخذه خليلا ! . لذلك أسرع النـاس إلى تلبية دعوته وانصرفوا اليه عن عمر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُم . وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْه فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » . وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف النـاس إلى أبى بكر ؛ فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خَرَّ إلى الأرض ماتحمله رجلاه مُوقناً أن رسول الله قد مات . وأمّا الناس فقد أخذوا من قبلُ بأقوال عمر ، حتى لقد ألفَوْا أنفسهم إذ سمعوا هـذه الآية يتلوها أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت . وكذلك زايل القلوب كل شك فى أن محمداً قد اختار جوار الرفيق الأعلى وأن الله قد ضمّه اليه .

من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات

أفكان عمر غالياً حين اقتنع بأن محمداً لم يمت وحين دعا النـاس إلى مثل اقتناعه ؟ كلا ! وإن العلماء ليحدّثوننا اليوم بأن الشمس ستظل تتناثر على

أفمات محمد حقاً

حِقَب الدّهور حتى يجيء يوم تفنَى فيه . أفيصدّق أحد هذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك فى إمكانه ؟ هذه الشمس التى ترسل من ضيائها ومن حرارتها ما يحيا العالم به كيف تفنَى وكيف تنطفىء ثم يبقى العالم بعدها يوماً !.
ومحمد لم يكن أفلّ من الشمس ضياء ، ولا حرارة ، ولا قوة . وكما أن الشمس مُحْسِنة فقد كان محمد محسناً . وكما أن الشمس تتصل بالكائنات كلها ، فقد كان روح محمد يتصل بالكائنات جميعاً ، وما زال ذكره صلى الله عليه وسلم يعطّر الكون كله . فلا عجب اذا اقتنع عمر بأن محمداً لا يمكن أن يموت . وهو حقًّا لم يمت ولن يموت .

رجوع الجيش الى المدينة

وكان أسامة بن زيد قد رأى النبىّ صباح ذلك اليوم حين خرج الى المسجد وظن كما ظن المسلمون جميعاً أنه تعافى ، فذهب ومن كان قد عاد الى المدينة من الجيش المسافر الى الشام ، ولحق بالمعسكر بالجُرْف وأمر الجيش بالتجهّز للمسير . وإنه لكذلك إذ لحق به الناعى نذيراً بوفاة النبىّ ، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كله الى المدينة ؛ ثم ذهب هو فركز علمه عند باب عائشة وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد .

فى سقيفة بنى ساعدة

والحقّ أن المسلمين كانوا من أمرهم فى حيرة . فهم لم يلبثوا بعد أن سمعوا أبا بكر ، وبعد أن أيقنوا أن محمداً قد مات ، حتى انحاز حىٌّ من الأنصار الى سَعْد بن عُبَادة فى سَقِيفة بنى ساعدة ، واعتزل علىّ بن أبى طالب والزبير ابن العوّام وطلحة بن عُبَيد الله فى بيت فاطمة ، وانحاز المهاجرون ومعهم أُسَيد ابن حُضَيْر فى بنى عبد الأشهل الى أبى بكر . وإن أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتى آت ينبئهما بنبأ الأنصار الذين انحازوا الى سعد بن عبُادة ، ثم يردف النبأ بقوله : فان كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيته لم يُفرَغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله . قال عمر موجِّهاً حديثه الى أبى بكر : انطلق بنا الى إخواننا هؤلاء من

الأنصار حتى ننظر ما هم عليه . وإنهم لفى طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان، فذكرا للمهاجرين ما تمالأ عليه القوم وسألاهم: أين يريدون؟ فلما علما أنهم يريدون الأنصار قالا: لاعليكم ألا تقربوهم؛ يامعشر المهاجرين اقضوا أمركم. قال عمر: والله لنأتينّهم. وانطلقوا حتى نزلوا بهم فى سقيفة بنى ساعدة، فاذا بين ظَهْرَانَيْهم رجل مُزَمَّل، قال عمر بن الخطاب: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، به وجع. فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعدُ فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام، وأنتم يامعشر المهاجرين رهطٌ منا وقد دفّت دافّة من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

مقالة أبى بكر للانصار

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبىّ. لذلك لم يلبث عمر أن سمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه؛ فأمسك به أبو بكر مخافة شدّته وقال: على رسلك ياعمر! . ثم قال موجّهاً كلامه للأنصار: «أيها الناس. نحن المهاجرون أوّل الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوها، وأكثرهم ولادةً فى العرب، وأمسّهم رحماً برسول الله. أسلمنا قبلكم، وقُدّمنا فى القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: «وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ». فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدوّ. أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً. فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىّ من قريش، فمنّا الأمراء ومنكم الوزراء». هناك استشاط أحد الأنصار غضباً وقام فقال: أنا جُذَيلها المحكّك وعُذَيقها المُرَجَّب، منّا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش. قال أبو بكر: بل منّا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبى عُبَيْدة بن الجراح وهو

جالس بينهما. هنالك كثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف؛ فنادى عمر بصوته الجهوري: ابسُطْ يدك يا أبا بكر. فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول: «ألم يأمر النبي بأن تصلّى أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحبّ رسول الله منّا جميعاً». ومسّت هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبرة حقّا عمّا ظهر من إرادة النبي حتى هذا اليوم الأخير الذي رآه الناس فيه، فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار.

بيعة أبي بكر بالسقيفة

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر وتقدم ابن الخطاب فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله، ولكني قد كنت أرى أنّ رسول الله سيدبّر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا. وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدَى رسولَه. فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له. وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وثاني اثنين إذ هما في الغار؛ فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

بيعة العامة بعد بيعة السقيفة

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة فألقى في الناس هذا الخطاب الذي يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب. قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعدُ أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فان أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء.

خطاب أول الخلفاء الراشدين

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فان عَصَيْتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

وبينما المسلمون يختلفون ثم يتفقون على بيعة أبى بكر بيعة السقيفة ثم بيعة العامة ، كان جثمان النبىّ حيث كان على سرير موته يُحيط به الأقربون من أهله . فلما تمّت البيعة لأبى بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كى يدفنوه .

أين يدفن جثمان الرسول

وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن : قال جماعة من المهاجرين : يُدفَنُ فى مكة مسقط رأسه وبين أهله . وقال غيرهم : بل يدفن فى بيت المقدس حيث دُفن الانبياء قبله . وما أدرى كيف قال أصحاب هذا الرأى وبيت المقدس كان ما يزال بأيدى الروم ، وكان بين الروم والمسلمين من العداوة منذ مُؤتة ما جهّز رسول الله جيش أسامة للثأر له . ولم يرض المسلمون هذا الرأى ولا هم رضوا أن يدفن النبى بمكة ، ورأوا أن يدفن بالمدينة التى آوته ونصرته والتى استظلت قبل غيرها بلواء الاسلام . وتحدّثوا أين يدفن ؟ قال فريق منهم : يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلّى بهم ؛ ورأى هؤلاء أن يدفن حيث المنبر أو الى جانبه . لكن هذا الرأى لم يلبث أن رُفِض لما رُوى عن عائشة أن النبى كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه فكان يضعه مرةً على وجهه ويكشفه مرّةً عنه وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ! ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما قُبِض نبىٌّ إلا دفِن حيث يُقبَض . وبذلك تقرّر أن يحفر له مكان الفراش الذى قُبِض فوقه .

غسل النبى

وتولّى أهله الأقربون وفى مقدمتهم علىّ بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وولداه الفَضْل وقُثَم وأُسامة بن زيد غسل النبى . وكان أسامة ابن زيد وشُقْران مولى النبى هما اللذان يصبَّان الماء عليه وعلىّ يغسله وعليه قميصه ؛ فقد أبَوْا أن يرفعوا عنه القميص . وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيبا

حتى كان عليّ يقول : بأبى أنت وأمى ! ماأطيبك حيًّا وميتاً !. ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبى طَوال حياته من التطيُّب حتى كان يرى الطيب بعض ماحُبِّب اليه من هذه الحياة الدنيا . فلما فرغوا من غسله وعليه قميصه كُفن فى ثلاثة أثواب ثوبين صُحَاريين وبُرْد حَبَرَة أُدرج فيه إدراجا . ولما تم الجهاز على هذا النحو تُرِكَ الجثمان حيث كان وفُتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون يُلقون على نبيهم نظرة الوَداع ويصلّون على النبى ثم يخرجون وقد هوى الحزنُ بنفوسهم إلى قرار سحيق.

وداع الجثمان الطاهر :

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصلّيان مع المسلمين لا يؤمّهم فى صلاتهم هذه أحد. فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته . نشهد أن نبيّ الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ، وأنه وفى بوعده ، وأمر ألاّ نعبد إلا الله وحده لاشريك له . وكان المسلمون يجيبون عند كل جملة من كلام أبى بكر فى هيبة وخشوع : آمين آمين . فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أُدخل النساء ثم أدخل الصبيان من بعدهم . وهؤلاء وأولئك جميعاً كلٌّ واجفٌ قلبُه محزون فؤاده يفرِى الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين، وتساوره على دين الله أشد الخشية من بعده .

من ساعات التاريخ الرهيبة

وإنى لأستعيد الساعة بعد أكثر من ألف وثلثمائة سنة من ذلك اليوم صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلىء نفسى هيبة وخشوعا ورهبة . هذا الجثمان المسجّى فى ناحية من الحجرة التى ستصبح غداً قبراً والتى كانت إلى أمس بسا كنها حياة ورحمة ونوراً ، هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذى دعا الناس إلى الهدى والحق وكان لهم المثل الأعلى فى البرّ والرحمة والاقدام والهدى وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل معتد أثيم ، وهذه الجموع تمر

به كاسفة البال كسيرة الطرْف ، وكلّ رجل وكل امرأة وكل صبيّ يذكر فى هذا الرجل الذى اختار جوارَ ربه أباه وأخاه وصاحبه ووفيّه ونبيَّ الله ورسولَه. أية قَداسة كانت تمتلىء بها تلك القلوب العامرة بالايمان الممتلئة إشفاقا لما يخبأ الغد بعد موت الرسول . أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب فأرانى شاخصاً له مأخوذاً به تمتلىء القلب من جلال هيبته أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلا .

تبلبل عقائد المستضعفين

وكان من حق المسلمين ان تساورهم الخشية . فمنذ ذاع خبر موت النبى فى المدينة وترامى إلى قبائل العرب المحيطة بها اشرأبّت اليهودية والنصرانية ونجمَ النفَاق وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب وهمّ أهل مكة بالرجوع عن الاسلام ، بل أرادوا ذلك ، حتى خافهم عتّاب بن أسَيْد عامل النبىّ على أم القُرَى فتوارى منهم . ولولا أن قام سُهَيل بن عمرو بينهم فقال بعد أن ذكر وفاة النبى : إن ذلك لم يزد الاسلام إلا قوّة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، ثم قال : يأهل مكة كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أوّل من ارتدّ ، والله ليتمنّ الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجعوا عن رِدّتهم .

وقد كان للعرب فى حفر قبورهم طريقتان : إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مُسَطّح القاع ؛ والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوّساً . وكان أبو عبيدة ابن الجرّاح يَضْرَح كحفر أهل مكة ، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذى يحفر لأهل المدينة . وحار أهل النبىّ أى الطريقتين يسلكون فى حفر قبره . فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة . فأما المبعوث الى أبى عبيدة فلم يعدبه وجاء المبعوث الى أبى طلحة به فلَحَد لرسول الله على طريقة أهل المدينة . فلما كان المساء وبعد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر

دفن النبى

وودّعوه الوداع الأخير اعتزم أهل النبى دفنه ، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبى يلبسه ، ثم أنزله الذين تولّوا غسله

إلى المقرّ الأخير لرُفاته وبَنَوْا فوقه باللّبِن وأهالوا التراب فوق القبر . قالت عائشة : ماعلمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل ، وقالت فاطمة مثل هذا القول . وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، أى بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى .

عائشة وحجرة القبر

وظلت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها فى الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم . ولما مات أبو بكر دُفِن الى جوار النبى ، كما دُفن عمر الى جواره من بعد . ويُرْوَى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها الى يومئذ غير أبيها وزوجها . فلما دُفِن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها .

إنفاذ جيش أسامة

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن يُنفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به . وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدَوْا أيام مرض النبى . وانضم عمر الى المعترضين ورأى ألا يشتت المسلمون وأن يحتفظ بهم فى المدينة مخافة أمر قد يدعو اليهم . لكن أبا بكر لم يتردد برهةً فى تنفيذ أمر الرسول ، ورفض أن يستمع الى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسنّ من أُسامة وأكثر منه فى الحرب دُرْبة . وتجهز الجيش عند الجُرْف وأسامة على رأسه ، وخرج أبو بكر يودّعه . هنالك طلب الى أُسامة أن يعفى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبى بكر . ولم تمضِ عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البَلْقَاء وحتى انتقم أُسامة للمسلمين ولأبيه الذى قُتل بمؤتة أشدّ انتقام . وقد كانت صيحة الحرب فى تلك الأيام المظفرة : « يامنصور أمِتْ » . وكذلك نفذ أبو بكر ونفذ أُسامة أمر النبى وعاد بالجيش الى المدينة ممتطياً الجواد الذى قُتِل أبوه بمؤتة عليه ، يتقدمه اللواء الذى عقده له رسول الله بيده .

الأنبياء لا يورثون

ولما قبض النبي طلبت فاطمة ابنته إلى أبي بكر أن يردّ عليها ما ترك من أرض بفَدَك وخَيْبَر . لكن أبا بكر أجابها بقول أبيها : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث ما تركناه صدقة » . ثم قال لها : فأمّا إن كان أبوك قد وهبك هذا المال فانى أقبل كلمتك فى ذلك وأُنفذ ما أمر به . وأجابت فاطمة بأن أباها لم يفض إليها بشيء من ذلك ، وإنما أخبرتها أم أيمن بأن ذلك كان قصده . عند ذلك أصرّ أبو بكر على استبقاء فَدَك وخيبر وردّهما إلى بيت مال المسلمين .

الميراث الروحي العظيم

وكذلك خرج محمد من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئاً من عرَضها الزائل لأحد بعده ، خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدِّين القيِّم ، ومهّد فيها لهذه الحضارة الاسلامية الكبرى التى تفيّأ العالم ظلالها من قبلُ وسيتفيّأ ظلالها من بعدُ ، وأقرّ فيها التوحيد ، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقضى فيها على الوثنية فى كلّ صورها ومظاهرها القضاء المبرم ، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البرّ والتّقوى لا على الاثم والعدوان ، وترك من بعده كتاب الله هدًى للناس ورحمة ، وكان فيها المثل الأسمى والأسوة الحسنة . وكان من آخر ما ضربه للناس من الأمثلة أن قال للناس يوم كلمهم أثناء مرضه : « أيها الناس من كنت جلدتُ له ظهراً فهذا ظهرى فليَسْتَقِد منى ، ومن كنت شتمت له عِرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى » . وادّعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها ، ثم ترك العالم بعد ذلك مخلّفاً هذا الميراث الروحى العظيم الذى ما يزال ينتشر فى العالم حتى يتمّ الله كلمته وينصر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم .

خاتمة الكتاب

أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما قصدت إليه من تأليف هذا الكتاب ، وأن يكون قد تم كما أردت بحثاً علمياً توخيت فيه الحقيقة العلمية وحدها ، وأن أكون قد مهدت به السبيل إلى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضة وعمقاً تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية مايهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . فهذا الكتاب ليس إلا بداية البحث من ناحية علمية إسلامية فى هذا الموضوع الجليل . وما أشك فى أن التعمق فيه يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تعليلها تعليلا علمياً ثم إذا مباحث علم النفس تفسرها وتجلوها واضحة للمتعقلين . فحياة محمد حياة إنسانية بحتة بلغت أسمى مايستطيع الانسان أن يبلغ . ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليه ، حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ، ويصارح أصحابه بذلك . لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ذهب بعضهم اليه يقول إنها معجزة ، فكان جوابه : « إنما هى سحابة مارة » . ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره قال الناس : إن هذا الكسوف معجزة ، فكان جوابه : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت إنسان ولا لحياته » . ذلك بأنه يريد ألا يعبد أحد إلا الله ، وأن يقف المسلمون من أمر الرسول عند محبته وإجلاله والصلاة والسلام عليه . وذلك مادعا أبا بكر حين خطب الناس إثر وفاة النبى ، والناس مختلفون أمات أم لم يمت ، إلى أن يقول : « من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » .

وهذا الذى جرى عليه النبى وقال به أبو بكر يوم وفاته هو ماحال بين

كثيرمن علماء المسلمين وكتّابهم والوقوف عند ما أضيف إلى سيرة النبي من خوارق وضعها بعض الغلاة مضاهاة لما ورد فى القرآن عن عيسى وموسى، أو دسّها من دسوا الاسرائيليات على الاسلام ونبيه ليزيفوا بها العقائد وليبعثوا بها الشك إلى نفوس من يؤمنون بأن سنة الله لن تجد لها تبديلا .
وما كان محمد بحاجة إلى الخوارق لاثبات رسالته وقدكانت حياته قبل الرسالة مضرب المثل فى الصدق والكرامة والأمانة ، وكانت حياته بعد الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به ، تضحية استهدفت فيها حياته للموت مرات ، بعد أن أغراه قومه بالمال وبالملك وبكل المغريات .
وما كان محمد بحاجة إلى الخوارق لاثبات رسالته ، ولاكان بحاجة إلى أكثر مما قال لعمه أبى طالب حين مشت اليه قريش لينهى ابن أخيه عنها، فلما حدث الشيخ محمداً فى ذلك كانت الكلمة التى وجهت التاريخ وجهته قوله : « ياعم ! والله لووضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . ثم احتماله بعد ذلك ما احتمل حتى أظهر الله هذا الأمر .

وقد بلغت هذه الحياة الانسانية من السمو ومن القوة مالم تبلغه حياة غيرها . وبلغت هذا السمو فى نواحى الحياة جميعاً . وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون كله من أزله إلى أبده ، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة . ولولا هذا الاتصال ، ولولا صدق محمد فى رسالة ربه ، لرأينا الحياة على كر الدهور تنق مما قال شيئاً . لكن ألفاً وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى . وبحسبنا على ذلك مثلا واحداً نضربه ؛ ذلك ما أوحى الله إلى محمد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . انقضت أربعة عشر قرنا لم يقل أحد خلالها إنه نبى أو إنه رسول رب العالمين فصدّقه الناس . قام فى العالم أثناء هذه القرون رجال تسنموا ذروة العظمة فى

غير ناحية من نواحى الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوة أو الرسالة . ومن قبل محمد كانت النبوات تترى والرسل يتتابعون ، ينذر كل قومه أنهم ضلوا ويردهم إلى الدين الحق ولا يقول أحدهم إنه أرسل للناس كافة أو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . أما محمد فيقولها فتصدق القرون كلامه . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين .

ولقد جاء محمد للناس بدين الحق ، ووضع لهم أساس حضارة هى وحدها الكفيلة بسعادتهم . ليس هذا الأساس اقتصادياً كأساس الحضارة الغربية الحاكمة اليوم . إنما هو أساس روحى يدعو الانسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شىء . فاذا بلغ من هذا الادراك حد الايمان دعاه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، وتغذية قلبه وعقله بالمبادىء السامية ، مبادىء الاباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والعطف . وعلى أساس هذه المبادىء ينظم الانسان الحياة الاقتصادية . هذا التدرج هو أساس الحضارة الاسلامية كما جاء بها محمد . فهى حضارة روحية أولا . والنظام الروحى فيها هو أساس النظام التهذيبى أو النظام الخلقى إن شئت . والمبادىء الخلقية هى أساس النظام الاقتصادى ، أو النظام المادى ، فلا يجوز أن يضحى بشىء من هذه المبادىء فى التنظيم الاقتصادى . وأنت ترى أن هذا التدرج يجعل أساس الحضارة الاسلامية يختلف عن أساس هذه الحضارة التى تحكم العالم اليوم وتتحكم فيه أعظم الاختلاف ؛ بل هو على النقيض منه تماما .

فالنظام الاقتصادى أو المادى هو الأساس الأول للحضارة الغربية . ومن ثم نشأت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعل كل شىء فى الحياة خاضعاً لحياة العالم الاقتصادية ، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الانسانية بوحى ما كان من مدّ أو جزر اقتصادى فى أممها المختلفة . وقواعد الخلق أقيمت وتقام فى كثير من مذاهب الفلسفة الغربية على القواعد النفعية المادية البحتة . أما

المسألة الروحية فهى فى نظر أهل هـذه الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة فلا محل لأن يعنى الناس كجماعة أنفسهم بها . وفى اعتقادى أن هـذا التصوير للحياة هو الذى جر على الانسانية ما تعـانى فى العصور الأخيرة من محن ، وهو الذى يجعل كل تفكير فى منع الحرب وفى توطيد أركان السلام فى العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة . فما دامت صلتى بك أساسها الرغيف الذى آكل أنا أو تأكل أنت ، وقائمة بذلك على أساس القوة الحيوانية فى كل منا ، فسيظل كل منا يرقب الفرصة التى يحسن فيها الاحتيال للحصول على رغيف صاحبه ، وسيظل كل منـا ينظر للآخر على أنه خصمه لا على أنه أخـوه ، وسيظل الأساس الخلق الكمين فى النفس ، يختفى حتى تدفع الحاجة لظهوره ، أساساً حيوانياً بحتاً ، تحركه المنفعة وحدها وتنزلق عليه المعانى الانسانية السامية والمبادىء الخلقية الكريمة ، مبادىء الايثار والمحبة والأخوة ، فلا يكاد يمسكها ولا تـكاد تعلق به .

وفى يقينى أن التصوير الاسلامى للحضارة هو التصوير الجدير بالانسانية الكفيل بسعادتها . ولو أنه استقر فى النفوس وحكم الحيـاة حكم الحضـارة الغربية اليوم إياها لتبدلت الانسانية غير الانسانية ، ولانهارت مبادىء يؤمن الناس اليوم بهـا ، ولقامت مبادىء تـكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها . فالايمان أولا ، والايمان قبل كل شىء ، هو ما يجب أن يلتمسه الانسان ويستريح اليه ، والايمـان شىء ، والاسلام شىء آخر . قال تعالى فى آخر سورة الحجرات : « قالت الأعراب آمنـا ، قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الايمان فى قلوبكم » . وقال تعالى: « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين » . والايمان شعور روحى يحس به الانسان يملأ نفسه كلما اتصل بالـكون وفنى فى لا نهـاية المـكان والزمن وامتثل الـكائنات كلها فى نفسه ، وهو مع ذلك

كله ذرة من هذه العوالم تجرى كلها على سنن تمسكها وتسبح كلها بحمد الله: بارئها وخالقها. أهو جل شأنه ماثل فيها متصل بها، أم هو مستقل بنفسه منفصل عنها؟ هذه مضاربات جدلية عقيمة تضل ولا تهدى وتضر ولا تنفع. وهى بعد لا تزيدنا علماً. «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً». وإذا كنا حتى اليوم لا ندرك ما الكهرباء وإن رأينا بأعيننا آثارها، ولا نعرف ما الأثير وإن عرفنا كيف ينقل على موجاته الصوت والصورة، وكانت تكفينا هذه الآثار لنؤمن بالكهرباء وبالأثير، فما أشدنا غروراً ونحن نشهد كل يوم من بديع صنع الله إذا نحن لم نؤمن به حتى نعرف كنهه. تنزه جل شأنه عما يصفون. إن غاية ما نعرف أن الزمان والمكان وكل ما نصوره لأنفسنا فى الوجود أمور نسبية بالنسبة لنا، إن هى إلا أسماء سميناها لنفيد من الحياة خير ما فى الحياة. أما فى الحق فانها وحدة برأها الله وذرأنا فيها لنسير فى الأرض ولنُطَوِّرها وتطوِّرنا باذن الله أطواراً ثم نُرَدُّ إلى عالم الغيب والشهادة يحكم الله فينا بحكمه إنه حكيم حميد.

يوم يؤمن الانسان بهذا، وهذا هو الحق، ويجعله أساس حياته، فقد وجب عليه أن يلتمس سنة الله فى الكون ليجعلها سنته ونظامه. ولا سبيل إلى معرفة هذه السنة إلا بادامة الاتصال بالكون والنظر فيه والتماس العون من الله للاهتداء إلى أسراره. إليه تعالى يتجه الانسان بقلبه وروحه، إياه يعبد وإياه يستعين. وهذه هى الصلاة، وهذ هو الاتصال بالله شكراً لله على نعمته والتماساً للعون منه أن يهدينا إلى مالم نهتد إليه. فاذا أثقل جسمنا روحنا وطغت ماديتنا على إنسانيتنا، فقد وجب أن نكف جهد الطاقة عما يجعل الجسم يثقل الروح ويجعل المادة تطغى على الانسانية. وذلك هو الصوم. فاذا بلغ الانسان من طريق هذه الرياضة الهداية إلى ما يهتدى اليه من سنن الكون وأسراره ازداد لاخوانه بنى الانسان حبًّا، وتحابَّ بنو الانسان جميعاً فى الله

وتعاونوا على البر والتقوى ، ورحم قويهم ضعيفهم ، ونزل غنيهم لفقيرهم عن حظ من ماله . وتلك هى الزكاة ، والمزيد عليها هى الصدقة ، وهى تزيد الناس محبة بعضهم لبعض وتدعوهم ليجتمعوا من أطراف الأرض ليزداد بعضهم لبعض فى الله محبة . وخير مكان يجتمعون حوله إنما هو بيت الله بمكة . وهذا هو الحج . وهذه قواعد الاسلام وفرائضه على ما نزل به الوحى وما بيّنه محمد عبد الله ورسوله .

النفس الراضية المطمئنة إلى هذا الايمان لا تستريح دون الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه لتزداد اتصالا بالله . وسبيلها فى هذه المعرفة البحث والنظر فى خلق الله مما فى الكون نظراً علمياً دعا القرآن إليه وجدّ المسلمون الأولون فيه ، وهو الآن الطريقة العلمية الحديثة فى الغرب . وكلما ازداد المؤمن معرفة لهذه الأسرار أقام على أساس إيمانه ومعرفته مبادىء الخُلُق التى يحمل نفسه عليها فى الحياة . وقد جاء فى القرآن الكريم من هذه المبادىء أمثلها وأسماها كما كان مثل محمد فى حياته على ما رأيت غاية ما تطمح إليه النفس وترجو بلوغه . فاذا حلت هذه المبادىء السامية من النفس محل الايمان نظمت على أساسها سلوكها فى الحياة وتجارتها وأقامت على أساسها قواعد المعاملات الاقتصادية بين الناس .

لست أطمع فى هذه الخاتمة أن أصور الحضارة الاسلامية ونظامها . فهذا التصوير يحتاج إلى بحث مستفيض يستغرق كتاباً فى حجم هذا الكتاب أو أكبر منه . وحسبى بياناً لذلك أن أشير إلى أن الربا ، وهو أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة ، قد حرّمه الاسلام تحريماً قاطعاً ، وأن هذا التحريم للربا قاعدة أساسية للحضارة التى تكفل للعالم سعادته ؛ وأن أذكر أن الاشتراكية الاسلامية اشتراكية لم تُبحث بعد ، وهى فى اقتناعى اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ومن نضال الطوائف ، وإنما

تقوم على أساس خلق سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى . وإنما قصدت من هذه اللمحة السريعة وهذه الاشارة الموجزة غاية الايجاز إلى بيان ما فى بحث حياة محمد وتعاليمه من نواحيها المختلفة من خير للانسانية كلها لا للمسلمين وحدهم ؛ وأن هذا الرجل الذى بعثه الله لهداية الناس كافة ما تزال حياته وما تزال تعاليمه ولما يكشف البحث فيها عن غاية ما أراد الوحى منها . فاذا أنا دعوت ، كما دعوت فى تقديم هذا الكتاب ، إلى التخصص فى هذه الدراسة على الطريقة العلمية الصحيحة ، الطريقة التى تريد الحق لوجه الحق وحده ولا ترضى استنباط الحيل ولا خداع الحق ، فانما أدعو إلى عمل واجب لخير الانسانية كلها إذا أريد توجيهها وجهة الكمال .

ولعل الله يتيح لى حظ المشاطرة بنصيب فى هذه البحوث ، أو يتيح لى القيام بدراسة بدائية فى بعضها ، كما قمت بهذه الدراسة البدائية فى حياة محمد ، وأن يجعل لى من الغبطة والسعادة بدراساتى المقبلة ما أفاء علىّ من سعادة وغبطة بالبحوث التى أدت إلى وضع هذا الكتاب . إنه سميع مجيب ؟

شكر واعتذار

لما صح عزمى على طبع هذا الكتاب بعد أن راجعت مواده وصححتها وأضفت إليها وحذفت منها ، فكرت فى أن أجعل منه حظاً للفقراء والمحتاجين شكراً لله على توفيقه إياى فى وضعه وطبعه . وأردت أن أشرك فى زكاة الشكر هذه رجلا أقدر مجهوده وأعرف بره بالفقراء وذوى الحاجات ، ذلك الرجل هو زعيم مصر الاقتصادى العظيم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر وشركاته الأربعة عشر ، فذهبت إليه وذكرت له ما صح عزمى عليه من طبع عشرة آلاف نسخة تكون الطبعة الأولى على أن أجعل ألفاً منها للجمعية الخيرية الاسلامية ، وطلعت باشا من كبار أعضائها ، وطلبت إليه أن أطبع الكتاب بمطبعة مصر . فلم يتردد الرجل فى أن يبذل لى من مختلف صور العون غاية ما رجوت . فشكراً له على صنيع كان له فضل معاونتى أكبر المعاونة فى الاسراع إلى إصدار الكتاب ، وشكراً له على ما شاركنى فى هذه المعاونة القيمة للجمعية الخيرية الاسلامية . جزاه الله عن صالح مجهوده وعظيم عمله فى سبيل وطنه وفى سبيل الله خير الجزاء .

وكنت أحسب أنى أستطيع طبع الكتاب فى ستة أسابيع . لكن أناقة محمود بك خاطر مدير مطبعة مصر وحرصه على أن يظهر الكتاب فى خير ثوب له ، جعلانى أطمئن إلى أناة ربما أقلقت بعض الذين عاونوا على طبع الكتاب بالاشتراك فيه قبل ظهوره ، وبذلك أتاحت إخراج الكتاب فى هذا الثوب الذى أعجبنى ويعجب القراء . فلمطبعة مصر ولمحمود بك خاطر أجزل الشكر على ما صنعوا .

ولقد ذكرت فى تقديم الكتاب ما عاونى به الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بدار الكتب أثناء تأليف الكتاب حين كان يستعير لى الكتب من

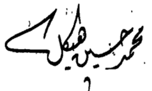
دار الكتب من غير حاجة منى إلى الذهاب إليها. وليس يسيراً على أن أفيه في هذه الكلمة حقه من الشكر على معاونته إياى فى تصحيح الكتاب أثناء طبعه، وفى ضبط الأعلام والآيات القرآنية، حتى ما أحسب القارىء يقع على خطأ مطبعي يقف عنده. ولئن بقيت بعض هفوات لا تخفى فليس يستحق التنبيه عليه منها إلا خطأ نأسف لعدم التنبه إليه، وذلك فى آخر كلمة فى السطر العاشر من الصفحة ٥٣. فقد وردت كلمة (البلد) وصحتها (بلداً) فى آية: «وإذ قال ابرهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً الخ».

ويرجع الفضل فى تنسيق الصحف الأولى من الكتاب إلى فن الأساتذة الخطاطين محمد حسنى وسيد ابراهيم ومصطفى بك غزلان. فلحضراتهم جزيل شكرى.

وقد اشترك فى وضع فهارس الأعلام كل من حضرات الأساتذة الشيخ احمد عبد العليم البردونى، وعلى احمد الشهداوى افندى، وإبراهيم الابيارى افندى، وعبد الحفيظ شلبى افندى المصححين بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية.

ولو أننى أردت أن أشكر كل من عاوننى فى طبع هذا الكتاب لما أمنت أن يجنى النسيان على بعضهم. لكنى مع ذلك لا أستطيع أن أغفل الأستاذ على فوده الذى كان عونى وعون الأستاذ عبد الرحيم محمود. وأعتذر لسائر من عاوننى عن عدم ذكر أسمائهم وأشكرهم.

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا إلى الخير وإلى حسن أداء واجبنا فى الحياة.



فهـــرس

فصول الكتاب

فهرس الأعـــلام

(ب)

(خ)

(ش)

فهرس الأمم والقبائل والطوائف

(ت)

(ث)

فهرس الأماكن

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

فهرس الغزوات والوقائع والأيام

م ٠ مصر ٥٣٨٥/٣٥/١٠٫٠٠٠

